ريما بالي
ميلاجرو
Milagro
بين طاحونة الحرب.. ومعجزة الحياة
رواية
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ميلاجرو

ميلاجرو

Milagro

بين طاحونة الحرب.. ومعجزة الحياة

ريما بالي

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

2016 م – 1437 هـ

ردمك 978-614-02-2860-3

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي نعمت بدوي

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إهداء

إلى أبي..

القارئ الجميل، الذي أورثني حلمه بعالم حر.. جميل

إلى أمي..

المرأة الفريدة، التي تشع دائماً وأبداً.. كالجوهرة بين الزجاج...

تنويه لا بد منه

هذا النص، ليس سيرة ذاتية لحياة البطلة، ولا كتاب مذكّراتها. إنما هو رواية من الخيال.

- التشابه أو التطابق بين شخصيّات هذه الرواية وشخصيّات من الواقع (الذي لم يكن دائماً غير مقصود!)، هو مجرد استعارة استبحتها لنفسي لغايات روائية.

الأحداث غير العامة المذكورة في النص، مقتبسة من الواقع في قسم منها، ومتخيّلة في أقسام أخرى.

صورة غير شخصية

ميلاجرو.. اسمها ميلاجرو.

ـ له، وأنا أتأمل معجزتي الصغيرة الوردية اللون وهي تحرك أصابعها الحريرية الفاتنة، وتفتح عينيها الرماديتين الساحرتين على عالم من هلوسة وضباب، فينقشع الضباب.

ـ والدها؟ سألني من خلال ذهوله.

ـ لقد أحببته أكثر من أي رجل آخر في هذا العالم. أجبت بهدوء.

ـ أكثر مني؟

ـ أنت؟

ـ فاجأني سؤاله!

ـ أنت لست رجلاً من هذا العالم؛ أنت شبح. شبح ينتمي إلى عالم آخر.

* * *

جواز سفري، البطاقة الشخصية، رخصة القيادة، سيرتي الذاتية، شهادة الخبرة، وثائق رسمية

خاصة بمهنتي وأخرى بالفندق الذي كنت أعمل فيه، بطاقات مهنية (Business cards) لشخصيات متنوعة، قُصاصات أوراق وبطاقات مهمة وغير مهمة كانت منسية في الحقيبة. جَمَعها كلها ووَضَعها في مغلف كبير، تأبطه أثناء وقوفه وأشار إليّ أن أنهض.

اتبعيني من فضلك.

كان مساعده يعيد إغلاق حقيبة ملابسي بعد أن فتشها تفتيشاً دقيقاً. أنزلها عن الطاولة، رفع المقبض وجرها ماشياً خلف الضابط الأول وتبعتهما بقلب يرتجف. الأول يتأبط مغلفاً يضم كل أوراقي الثبوتية والآخر يجر حقيبة تضم ما تيسر لي جلبه من ملابسي وأغراضي الشخصية. يتأبّطان ويجرّان الإنسانة التي كنتها خلال خمسة وأربعين عاماً، وأنا خلفهما خيال إنسانة، خاوية اليدين، خاوية الوجدان، أمشي خلفهما لا أدري إلى أين، وأشعر بالعري والغربة.

غادرنا المخفر حيث (سلّمت نفسي)، ركبت معهما سيارة شرطة، وتوجها بي إلى مركز تسيير أمور اللاجئين في بلدة قريبة. وصلنا بعد نصف ساعة، طلبا مني النزول، دخلنا المبنى بهدوء وتوجهنا إلى مكتب تلقفني فيه عدد من الموظفين، أولهم أخذ بصماتي، والثاني أسندني إلى حائط أبيض وصورني، والثالث سألني أسئلة عدة واستعان بملف الوثائق الذي قدمه له الضابط الأول، ليطبع بعد دقائق ملفاً جديداً يحمل اسمي وأقبح صورة التقطت لي في حياتي.

أُضيف الملف ذو الصورة القبيحة إلى باقي الوثائق في ذلك المغلف، الذي أعاد الضابط الأول تأبّطه بعد أن أشار إلينا أن ننطلق من جديد.

سارت بنا السيارة، وتوقفت بعد مسافة قصيرة أمام مبنى حكومي ضخم حيث ترجلنا. أنزل الشرطي المساعد حقيبتي وكومبيوتري المحمول، وقادني خلف الضابط إلى الداخل.

في مكتب مشمس هناك، بدأ الضابط نفسه التحقيق معي. على يمينه جلست امرأة شابة مكتنزة وجميلة الوجه، مع حجاب رقيق ألقته بلطف على شعرها، كانت عيناها مكحولتين بكحل شرقي، مع أهداب طويلة وكثيفة. عرفتني إلى نفسها بأنها «أسيل»، المترجمة الخاصة بي خلال هذه المقابلة، عراقيّة الأصل، مقيمة في النمسا منذ سبع سنين. كانت في غفلة من الضابط تحاول أن تتواصل معي بعينيها وحاجبيها وأصابعها، لتفهمني ما يجب أن أقول أو لا أقول، كانت مصدومة لأنني سلّمت الضابط جواز سفري، وتجدّدت صدمتها حين اطّلعت على وثائقي التي تحوي بطاقات الطائرة الإلكترونية، بطاقات مترو في مدريد، وبطاقات VIP لحضور مباراة كرة قدم بين ريال مدريد

وليفانتي في السنتياغو برنابيو.

كيف ومتى دخلت الأراضي النمساوية؟ باشر الضابط استجوابي.

21 آذار.. من مطار فيينا. أجبت.

معك سمة دخول نظامية.. شينغن.. لمدة عامين.. صادرة من السفارة الإسبانية في بيروت.. كيف حصلت عليها؟

بطريقة نظامية أيضاً.

لمدة عامين؟ أي سوري يحصل على فيزا لمدة عامين اليوم؟

أنا لم أحصل عليها اليوم، حصلت عليها منذ عامين، ولم يكن هدفي أن أستعملها للهروب من سوريا أو للهجرة، طلبتها بقصد السياحة، كنت أعمل في سوريا مديرة لفندق في مدينتي حلب. وكان الموظفون في السفارة الإسبانية في بيروت من أهم زبائن الفندق، وتطورت علاقتي بهم إلى مودة وصداقة. حين طلبت الفيزا لم يترددوا في منحي إياها لمدة عامين بضمانتهم الشخصية استناداً إلى معرفتهم بي ووفقاً لسمعتي الحسنة.

لماذا تركت سوريا؟ وتوقفت عن ممارسة مهنتك؟

بسبب الحرب طبعاً. توقفت عن ممارسة مهنتي في نفس اليوم الذي اندلعت فيه الحرب في أزقة حلب القديمة... وهي اليوم مدمرة كلياً كحال معظم المنطقة الأثرية القديمة في حلب حيث كان يقع الفندق، الذي هو عبارة عن دار حلبية أثرية أُعيد ترميمها مع المحافظة على

طابعها الشرقي القديم.

بوجه خال من أي تعبير، وعينين مسمرتين على شاشة الكومبيوتر، كان يطبع ما يسمع مني عبر المترجمة بسرعة فائقة، وينتقل من سؤال إلى آخر:

ما دمتِ حاصلة على فيزا من السفارة الإسبانية، لماذا لم تتقدمي بطلب لجوء إلى إسبانيا؟ ألست مطّلعة على اتفاقية «دبلن»؟ هذه الاتفاقية هي نظام قانوني وضعه الاتحاد الأوروبي لتنسيق التعامل الموحد في قضايا اللجوء ببلدانه.

لقد فعلت، عندما وصلت إلى النمسا استشرت محامياً حول نيتي التقدم بطلب لجوء، أفادني أنه حسب اتفاقية «دبلن» تلك يجب أن أتقدم في إسبانيا وليس في النمسا، حيث أن الأمل ضعيف بأن توافق النمسا على منحي حق اللجوء كون الشروط الواردة في «دبلن» لا تنطبق عليّ، وعليه توجهت إلى مدريد لأتقدم بالطلب هناك اختصاراً للوقت.

كيف ذهبت إلى مدريد؟

بالطائرة، كانت الفيزا ما تزال سارية المفعول.

ولماذا رجعت؟

لأنني عندما ذهبت إلى المكتب المختص في مدريد لأتقدم بأوراقي، أفادوني بأنه عليّ أولاً أن أتصل لأحدّد موعداً لمقابلة مبدئية. عندما اتصلت حدّدوا لي موعداً بعد خمسة أشهر، لم أصدق في البداية واعتقدت أن في الأمر سوء فهم، لكنني بعد الإلحاح والاستفهام عرفت

أن تاريخ الموعد صحيح بسبب الأعداد الهائلة من الطلبات التي تنتظر دراستها والبت بأمرها، وعندما قلت لهم أنني لا أملك مأوى في مدريد ولا ميزانية كافية لأبقى طيلة هذه المدة في انتظار المقابلة، وأن مدة الفيزا ستنتهي بعد أيام وسيصبح وجودي غير شرعي على الأراضي الإسبانية. لم أحصل على ردٍّ شافٍ، قال لي الشاب المختص بالخدمة الاجتماعية للاجئين أنه يتفهم وضعي، ويدرك صعوبته، ولكن! عليّ أن أنتظر.

وإذاً؟

إذاً!! كان من المستحيل أن أبقى هناك وأنام في الحدائق العامة، فضّلت العودة إلى النمسا لأحاول أن أتقدم بطلب اللجوء فيها، ما دام الوقت ضائعاً في كل الأحوال.

ولماذا النمسا؟

لأن لي أصدقاء فيها مقربين وقدامى، صديقة طفولتي في حلب، تعيش هنا منذ حوالى عشرين عاماً مع زوجها وأولادها، وهي تحمل الآن الجنسية النمساوية. عرضت استضافتي وتقديم المساعدة. قبلتُ عرضها بسرور لأنه لا بديل عندي. تعرّفت من خلالها على عدد من الأصدقاء هنا وأحببت المدينة، وأتمنى أن أؤسس لحياة جديدة فيها.

المترجمة العراقية، أضافت على لساني باجتهاد شخصي منها شيئاً عن احترام النمسا لكرامة وحقوق الإنسان كسبب إضافي لرغبتي بالاستقرار فيها، وشيئاً آخر عن الظروف الاقتصادية الصعبة والبطالة في إسبانيا.

وماذا تفعل في حقيبتك بطاقات مباراة كرة القدم بين ريال مدريد وليفانتي؟ هي غالية الثمن أليس كذلك؟

حاول أن يكون حيادياً أيضاً عندما طرح هذ السؤال، لكنني لم أغفل عن سخرية لئيمة وشيء من الاستهجان بدا واضحاً في سؤاله كما لو أن أشياء كهذه لا يليق أن تكون موجودة في حقيبة طالب اللجوء! وسألت نفسي ما الذي يجب أن يكون موجوداً فيها إذاً، كسرات من الخبز اليابس أم مناديل قذرة لتجفيف الدموع؟!

لم أدفع ثمنها، صديق لي في إسبانيا دعاني للحضور. هو معتاد على دعوة زبائن الشركة التي يعمل فيها (كجزء من عمله) لحضور المباريات ببطاقات مخفضة الثمن حسب اتفاقية بين الشركة ونادي ريال مدريد. وقد صادف أن دعا أحد الزبائن أثناء وجودي في مدريد وسألني إذا كنت أحب مرافقتهما، فوافقت بكل سرور، وكنت سعيدة جداً بالذهاب إلى السنتياغو برنابيو، فاحتفظت بالتذاكر للذكرى.

قلت إن لا أصدقاء لك في إسبانيا!

عفواً، لم أقل هذا، عندي في إسبانيا أصدقاء وقد دعموني كثيراً، لكنها صداقة حديثة العهد لم تصل إلى درجة من الحميمية تسمح بأن أقيم عندهم لمدة خمسة أشهر.

مضت حوالى ثلاث ساعات وأسئلة مختلفة ومتنوعة تنهال عليّ. ما اسم صديقتي في النمسا؟ وأين تقيم؟ كم دفعت ثمناً لتنقلاتي بين سوريا ولبنان والنمسا وإسبانيا؟ ما هي البلاد الأوروبية التي زرتها خلال تلك الفترة مستخدمة هذه الفيزا؟ وما سبب الزيارة؟ هل عندي أقارب في أوروبا؟ وأين؟ هل عندي عائلة في سوريا وممن تتكون؟ هل سبق لي الزواج؟ هل أنجبت أطفالاً؟...

الشرطي المساعد، الذي فتش حقيبتي سابقاً، والذي كان يفتش في جهازي المحمول (Laptop)، تدخل بتردد في الحوار وسألني مشيراً إلى الشاشة أمامه:

هل هذا هو الفندق؟

قمت إليه، ونظرت إلى القاعة الشرقية المسترخية بجلال على سطح الشاشة، بسجادها ذي النقوش البديعة، ووسائدها المخملية الخمرية المقصبة الحواشي، وستائرها الحريرية وفوانيسها النحاسية ذات الخرز الملون.

نعم، هذه إحدى قاعات الاستقبال. قلت، وانتقلت به إلى الصورة التالية، حيث الألوان الخمرية والعاجية والنحاسية استحالت سوداء ورمادية.

هذه هي القاعة نفسها اليوم.

نظر إليها مجدداً، حمل الجهاز إلى الضابط وأطلعه على الصور، هزّ الاثنان رأسيهما بتجرّد، بينما كانت تصدح في رأسي ألحان شرقية يرتّلها ناي حزين، وتعبق عيدان البخور وروائح المسك والعنبر، ويتكاثف دخان أسود فوق جمر مستعر، ويفوح الموت والبارود.

وصلنا حوالى الثانية بعد منتصف الليل، كانت الأمطار تهطل بغزارة في ظلام الحديقة الكبيرة التي كانت تحيط ببضعة مبانٍ بدت لي كئيبة وباهتة. دخلنا مركز الاستقبال، أنا وشابان آخران من سوريا أيضاً، محمد من مدينة حمص ومن أصل فلسطيني، وعصمت، كردي من القامشلي. من جديد، أسندوني إلى حائط أبيض وعرفت أنها صورة جديدة، فكّرت بشناعة الأولى التي تشبه أي لاجئ في العالم ولا تشبهني، وقررت أن أحصل على واحدة أفضل. أرخيت أسارير وجهي المتعب، استحضرت طاقة إيجابية عندما فكّرت كم سخيفة هي مسرحية الحياة هذه، وابتسمت. حصلت على صورة أقل قبحاً من سابقتها، طُبعت على بطاقة جديدة، قَدّرتُ أنها استمارة بيانات خاصة بمركز الإيواء (الكامب) الذي وصلناه للتو.

نحن الثلاثة، حملنا بطاقاتنا وحقائبي (باعتبار أن الشابين الآخرين كانا يحملان فقط حقيبة ظهر خفيفة، فقد حمل أحدهما حقيبتي الضخمة وحمل الثاني جهاز الكومبيوتر بينما اكتفيت أنا بحقيبة يدي التي كنت قد حشوتها حتى التخمة) وتوجهنا إلى المبنى الرئيسي للمركز، حيث استقبلنا شاب أشقر هزيل، بابتسامة بدت لي غريبة ونادرة في هذا اليوم الكئيب والطويل.

مرحباً، أنا كريستوفر.. هل يتحدث أحدكم الإنجليزية؟

بادر بتحيتنا بمرح، مدّ يده واستلم استماراتنا، توقف عند صورتي المبتسمة، وقد فاجأته ابتسامتي تماماً كما فوجئت لتوّي بابتسامته، نظر إليّ بدهشة وقال:

مرحى، بطاقة مع ابتسامة؟! أمر نادر في هذا المكان.

ضحكتُ، وأنا أفكّر كم هو غريب وغير متوقّع مني أن أضحك أو حتى أن أبتسم في هذا الزمان. وكم هو غريب بالأصل ولم يكن متوقعاً، وجودي في هذا المكان، الذي بدا في هذه الساعة من الليل خاوياً، قذراً ومقفراً.

كريستوفر اللطيف، سأل الشابين أن يتبعاه، وطلب مني الانتظار، عادوا بعد قليل يحملون شراشف وبطانيات ومناشف، وكيساً لكل فرد فيه شامبو وصابونة وفرشاة ومعجون أسنان، ولفافة «ورق تواليت».

حمل زميلاي ما يخصهما وتوجّها إلى غرفتهما حيث أشار لهما كريستوفر، الذي وقف ينظر إلى حقيبتي الكبيرة بِحَيرة قبل أن يقول:

هل أحضرت كل سوريا معك؟

كنت سأقول له بعفوية:

لا لا، هذا فقط قسم صغير جداً من ملابسي، تركت كثيراً منها في سوريا.

لكنني اكتفيت بابتسامة صامتة، وفكرت: لقد تركت أهم ما أملك في سوريا، تركت جزءاً من حياتي في سوريا، وتركت سوريا، هل من حقيبة في العالم تتسع لحياة، أو لوطن؟

سأوصلك إلى غرفتك بنفسي، هي ليست بعيدة جداً، ستشاركك بها امرأتان من الصومال، ولكن إن شئت، أنقلك في الغد إلى غرفة أخرى.

غادرنا المبنى الرئيسي. سحب حقيبتي الكبيرة وحملت شراشفي ومناشفي وأكياسي وهرولت خلفه تحت المطر في الحديقة المظلمة التي كانت لدهشتي مزروعة بخيام بيضاء على اليمين واليسار.

هل هذه الخيام مأهولة؟ سألته.

نعم. أعداد اللاجئين صارت كبيرة جداً. الغرف في المباني لم تعد تتّسع.

وهل هي كتيمة ضد المطر؟

طبعاً. يفترض أنها كذلك.

يفترض؟! تساءلت في داخلي، وتخيّلت شكل الخيمة من الداخل.

وصلنا إلى مبنى في آخر الحديقة، دلف إليه فدلفت خلفه، حمل حقيبتي وصعد إلى الطابق الثاني، وصعدت خلفه، سار في ممر مظلم، وتوقف أمام الغرفة ذات الرقم 19، قرع بلطف لا يوقظ عصفوراً، ولم ينتظر، فتح الباب وأدخل حقيبتي إلى الغرفة المظلمة.

حظاً سعيداً.

قالها بابتسامة مرتبكة، وهرول منصرفاً، كأنه يشفق عليّ من الليلة الكئيبة التي قدّر لي أن أعيشها في هذا المكان.

دخلت بقلب واجف إلى جوف الغرفة المظلم، وفي انعكاس ضوء الممر الشحيح، لمعت عينان لفتاة كانت ترفع رأسها مستطلعة ما يجري حولها. لم أدرِ ما أقول، هل أحييها، أم أعتذر لأني أيقظتها؟! لم تنتظرني لأقرّر، إذ عادت إلى النوم بعد أن رمقتني بنظرة ناعسة.

أغلقت الباب خلفي، فغرقت الغرفة في الظلام، وغرق ذهني في الظلام، ورحت في غيبوبة سوداء، عاجزة عن الحركة أو التفكير أو التنفس.

عندما طلع الفجر، كنت منكمشة على ذاتي، مغمضة العينين وصاحية، فوق الشرشف الذي أعطاني إياه كريستوفر، والذي فردته في الظلام كيفما اتفق على سرير يعلو آخر فارغاً في زاوية الغرفة. حقيبة ملابسي بجانب السرير على مرمى يدي، وحقيبة يدي أبقيتها في حضني، وفي كفي نام جهازي الموبايل جائعاً لشحن بطاريته الفارغة، وبين ساقي حضنت اللابتوب.

أعادني رنين المنبّه الذي صدح في فضاء الغرفة من غيبوبتي السوداء واختناقي، فتحت عينيّ اللتين لم تناما، وتنفست. رأيت الفتاة الصومالية التي كانت نائمة في السرير السفلي بجانبي تنهض،

تعيد ترتيب غطاء رأسها الأرجواني، وتفرد على الأرض سجادة صغيرة، وتباشر صلاة الفجر متمتمة بكلمات وعبارات يفترض أنها عربية، لكنها كانت غير مفهومة بالنسبة إليّ. عندما انتهت، تخلّت عن مكانها للمرأة الأخرى التي نهضت بعدها. كانت تكبرها في السن ولكنها تشبهها في السحنة والملبس. قامت الأخرى وأدّت صلاتها بنفس الهمسات والتمتمات المبهمة، وعندما انتهت، نظرت صوبي، فالتقت نظراتنا، ومن دون أن تبتسم أو تلقي التحية، أشارت إلى فمها وأشارت لي أن أنهض لالتحق بالفطور. هززت رأسي بصمت، وانتظرت خروجهما من الغرفة، لأغمض عينيَّ من جديد وأتنفس. متعبة أنا وناعسة، رحت في غفوة حلوة، لم تدم إلا ربع ساعة.

من دون استئذان، فتح باب الغرفة ودخلت امرأة ممسكة بلائحة كبيرة وهي تصرخ: إكس راي، إكس راي.

قفزت من الفراش مذعورة، فأشارت لي أن أنزل خلفها. وقبل أن تخرج تذكّرتْ شيئاً واستدارت وسألتني وهي تشير إلى بطنها: برغننت؟ (حامل).

نو.. أجبتها، قبل أن تغادر إلى الغرف الأخرى وتتابع صراخها: إكس راي، إكس راي.

لبست على عجل، واحترت أين أترك اللابتوب في هذه الغرفة المفتوحة الباب على مبنى يضمّ جحافل من البشر، المتعددي الجنسيات والمختلفي النماذج والأمزجة، تجمعهم فقط صفة واحدة: التشرد.

دفنته أخيراً في قعر حقيبة ملابسي الكبيرة، وخرجت لألتحق بمجموعة من الناس كانوا قد وصلوا إلى الكامب مثلي بالأمس فقط، تجمّعوا في الفناء الخارجي أمام المبنى، بانتظار قدوم باص ضخم ذي طابقين، صعد الجميع إليه فور وصوله، كل بمجرد ذكر اسمه من قبل المشرفة التي اقتحمت غرفتي من نصف ساعة وأيقظتني من نوم دام ربع ساعة فقط.

توجه بنا الباص إلى مركز للتصوير الشعاعي. أثناء الرحلة، ميّزت مجموعة من الشبّان السوريين كانوا يتحدثون بمرح وحماس. أحدهم كان حلبياً بلا شك، أما بالنسبة إلى الآخرين فقد تسليت بتخمين إلى أي مدينة ينتمي كل واحد منهم. في الخارج كانت الأمطار الغزيرة تسوط الباص بقسوة، وفي الداخل كنت متكومة في مقعدي ومستسلمة للّهجة الحلبية التي كان ذاك الشاب يتحدث بها، ألتمس فيها شيئاً من الأمان والدفء، لأنني كنت أشعر بالوجل، وأشعر بالبرد.

بعد الظهر كان علينا أن نتوجه لعيادة المركز لإجراء الفحص الطبي. في قاعة الانتظار جلس إلى جانبيَّ زميلاي السوريان رفيقا الطريق، محمد وعصمت، وقربهما، جلس بقية الشبان السوريين الآخرين. محمد، الحمصي - الفلسطيني، كان يحكي لي ولهم:

منذ حوالى الثمانية أشهر، جئنا على متن مركب في البحر، كنا ثلاثة عشر شاباً، أنا وأخوتي وأولاد عمي. كانت الرحلة مهولة، شاركنا فيها كثير من العائلات والأطفال البكائين. الطقس كان سيئاً والعواصف كانت لا تبشر بالخير، غرق القارب الذي سافر قبلنا في اليوم نفسه، لكننا وصلنا أخيراً بصعوبة إلى اليونان، ومن هناك ركبنا مركباً آخر إلى إيطاليا. من إيطاليا، تابعنا براً باتجاه النمسا وألمانيا. مشينا لأيام طويلة، ونمنا في الغابات، وتعرضنا أكثر من مرة لإطلاق رصاص من قبل رجال شرطة الحدود. عندما كنّا نهرب ركضاً من الرصاص، كنّا ننتشر في كل الاتجاهات، ما جعلنا نضيّع بعضنا بعضاً وننقسم إلى ثلاث مجموعات، واحدة منهم تضمّ أخي وابن عمي، لم يظهر لهما أثر حتى الآن. المجموعة الثانية فيها اثنان من إخوتي وأربعة من أبناء عمي، توجهوا فيما بعد نحو ألمانيا، أما أنا والأربعة الباقون فقد وصلنا النمسا أخيراً. توجهنا إلى أقرب مركز للشرطة، وطلبنا حق اللجوء، أرسلونا إلى مركز للاجئين (كامب) قرب فيينا، يشبه هذا، كبير ومزدحم وسيئ الخدمات. بعد أيام، استلم كل من كان معي بطاقة بيضاء تعني أن طلبه قد قُبِل، وأنهم بصدد التحقيق والتحضير والتأهيل لنيل حق اللجوء والإقامة المؤقتة، أما أنا فقد اكتفوا بمنحي بطاقة خضراء تعني أن طلبي ما زال قيد الدراسة. وفي المقابلة، أخبروني أنني وحسب اتفاقية دبلن يحق لي اللجوء فقط إلى إيطاليا باعتبارها أول

دولة أوروبية وصلت إليها بعد هروبي من بلدي (اليونان معفاة من هذا الشرط نظراً لمتاعبها الاقتصادية واستحالة تقديم أي خدمات للاجئين إليها). وحين أجبتهم أن إخواني وأبناء عمي لهم ظروفي نفسها، إذ جئنا سوية عبر الطريق نفسه وهم قد نالوا الموافقة، لم يهتموا بإعطائي جواباً مقنعاً، فقط قالوا «هكذا تنص دبلن»، وحوّل ملفي إلى إيطاليا، وكان يتوجّب عليَّ أن أسافر إلى هناك في غضون أسابيع، لكنني هربت، واختبأت لستة شهور عند خالي المقيم في بلدة صغيرة هنا في النمسا منذ سنتين، إلى أن نصحتني منذ أيام محامية تعمل مع «الكاريتاس» وهي جمعية خيريّة كَنسيّة، أن أسلّم نفسي ثانية وأعيد تقديم الطلب نظراً لانقضاء المدة القانونية للملف الأول.

بجانب عصمت الكردي الذي كان على يميني، جلس شاب أصهب بشوش الوجه، استغرب قصة محمد وواساه قائلاً:

حظّك زفت يا خيا.

أنت فلسطيني أيضاً؟ سأله عصمت.

مو فلسطيني بس، ومن مخيم اليرموك في دمشق كمان.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

هلكونا يا زلمة، سنتين حصار بدون أكل وشرب وكهربا، كنا نخاطر بحياتنا لنأمن للولاد كمشة طحين، وآخرتا، دخلوا داعش، هيك فجأة وبكل سهولة، وشو كان الرد؟ براميل من الطيران الحربي! براميل متفجرة نزلت فوق راسنا وراس ولادنا، نسفتنا ونسفت المخيم

والدواعش ما صرلهم إشي.

الأحمد عصمت.

صاحت الممرضة، فقام جاري الكردي ودخل غرفة المعاينة. بعد هنيهة خرجت الممرضة ثانية ووجّهت الحديث إليّ: أتعرفين الإنجليزية والعربية؟

نعم.

هل تمانعين في المساعدة بالترجمة أثناء الفحص الطبي.

بكل سرور.

تفضّلي إذن.

تبعتها إلى غرفة المعاينة، حيّاني الطبيب الذي كان يجلس خلف المكتب بابتسامة كبيرة، وبدأ بطرح الأسئلة على عصمت من خلالي، وبالمقابل كنت أترجم الإجابة.

خرج عصمت، ودخل بعده مصطفى، الشاب الفلسطيني الأصهب الذي كان في مخيم اليرموك بدمشق.

بعد الأسئلة المعتادة قال لي مصطفى.

قولي له إنني أعاني من مشكلة في أذني اليمنى، نسبة السمع فيها فقط 20 بالمئة.

تكرم.

ترجمت ما قاله للطبيب الذي سجّل عنده، وسأل عن السبب، أجاب مصطفى متلعثماً:

لا ولا إشي، بس من سنة تقريباً صدمتني سيارة وسببت لي الضرر بالأذن.

ترجمت ما قال، وأكمل الطبيب الأسئلة:

هل سبق وأجريت عمليات جراحية في حياتك وما هي؟

آ... واحدة.. من زمن بعيد، الزايدة.

الزائدة الدودية في نهاية المصران الأعور، فكرت كيف سأترجم هذه الكلمة، أنا لا أعرف اسمها بالإنجليزية، استأذنت الطبيب واستللت من أمامه ورقة وقلماً، ورسمت له بسرعة الجهاز الهضمي وصولاً إلى الزائدة الدودية وأشرت إليها.

هذه القطعة، أجريت لمصطفى عملية جراحية لاستئصالها، أنا آسفة لا أعرف اسمها بالإنجليزية!

نظر إلى جهاز الهضم الذي رسمته، وتطلّع إليّ وضحك:

هذا رسم جيد، كيف تعرفين أن ترسميه؟

ضحكت بدوري.

حسناً، هذه من المعلومات الأساسية التي درسناها في البيولوجيا في المدرسة الابتدائية، أي طفل يستطيع أن يرسمها.

نعم لكن ليس بهذه الدقة. Appendix، اسمها بالإنجليزية.

شكراً للمعلومة.

فليتفضّل مصطفى للمعاينة السريرية.

قام مصطفى بعد أن دعوته إلى سرير المعاينة خلف الحاجز الأبيض، أنا وقفت حسب ما أشار الطبيب قريبة منهما ولكن خلف الحاجز.

بدأ الطبيب بعملية فحص البطن والصدر وانتقل إلى الظهر، ساد الصمت لبرهة ثم سأل:

هل قلت إنك لم تخضع لعمليات أخرى غير الزائدة الدودية؟

تردد مصطفى وقال:

نعم.

ما هذه الآثار على ظهرك؟

أصابني الفضول فمددت رأسي، رأيت مصطفى يصوّب عينيه باتجاهي ويهمس بالعربية:

آثار الضرب والتعذيب من المعتقل، لا تترجمي له ذلك.. أرجوك، قولي: حادث عادي.

أصبت فوق دهشتي بالذهول، واحترت، لكنني فكرت أنه عليَّ أن أترجم الجواب الذي من المفترض أن يجيب المريض به، وفعلت.

نظر إليّ الطبيب غير مصدّق، وبدا لي أنه عرف ما الموضوع، وفضّل غضّ الطرف.

همست لمصطفى بسرعة وهو يترجّل من السرير:

لماذا كذبت؟

لا أريد مشاكل وأسئلة، أنا طلبت لجوءاً إنسانياً وليس سياسياً، ذلك أضمن وآمَن.

عندما خرج مصطفى وقبل دخول المريض التالي قال لي الطبيب:

كانت آثار ضرب على ظهره أليس كذلك؟

أجبت بانحناءة غامضة من رأسي، كأنني لا أعرف، هزّ رأسه وقال:

ربما هو نفس الحادث الذي صدمته فيه السيارة وأفقدته السمع في أذنه اليمنى.

أجبته بأسف:

هو خائف، ويريد الوصول بأسرته إلى برِّ الأمان، التفاصيل كثيرة ومعقّدة ولكن في النهاية الإنسان يريد أن يعيش.

نظر إليّ بعمق وسألني:

أنت من سوريا أيضاً؟

نعم، من مدينة حلب.

آه حلب، أسمع عنها كثيراً في الأخبار، كيف تعلّمتِ الإنجليزية؟ في المدرسة مثل جهاز الهضم؟

الإنجليزية تعلّمتها بدروس خصوصية ودورات تعليمية، أما في المدرسة فقد تعلّمت الفرنسية.

وتجيدين الفرنسية أيضاً؟

نعم، القليل منها، الإلمام باللغات كان ضرورياً في مهنتي.

وماذا كنت تعملين هناك؟

كنت أعمل في مجال الفنادق.

موظفة استقبال؟

لا، مديرة فندق.

آه!

بدا مذهولاً، لدرجة أنه تجاهل المريض التالي الذي دخل وجلس إلى المكتب، وتابع أسئلته لي:

الفندق كان في حلب؟ ماذا حلَّ به؟

للأسف كان بناءً تاريخياً في المنطقة الأثرية بحلب والتي تسمى بالمدينة القديمة، لقد بدأت الحرب في المدينة من تلك المنطقة تحديداً، وقد احترق الفندق بكل أجزائه. أما الدار الرئيسية التي كانت تضم المطاعم وصالات الاستقبال والإدارة، فقد انهارت وتدمرت كلياً.

يا للكارثة، أنا آسف جداً.

نعم هي كارثة إنسانية وحضارية. الدار التي دُمِّرت تلك كان عمرها حوالى ثلاثمائة عام، شهدت حروباً وتعاقُب بشرٍ وحضارات، صمدت كل تلك السنين لتسقط اليوم. كنا فخورين بتحويلها إلى فندق يسحر السيَّاح، وكانت صدمتنا كبيرة عندما احترقت أولاً، ومن ثم عندما تهاوت أحجارها العتيقة الواحدة تلو الأخرى، وانهارت نهائياً.

آه.. هذا مؤلم. وأنتِ؟ هل لديك أسرة هناك؟

طبعاً، أسرتي ما زالت هناك. لكنني فضّلت المغادرة إذ لم يعد هناك حياة في حلب، وأنا لا أريد أن أموت. أريد أن أبدأ حياة جديدة في أي مكان من العالم. حاولت مسبقاً ووجدت الموضوع مستحيلاً إلا في حالة واحدة، التقدّم بطلب لجوء.

ما أقسى هذا الوضع، أنا آسف جداً من أجلك.

شكراً دكتور، أنت لطيف جداً، سأكون بخير، أنا أعرف هذا.

كان متأثراً إلى درجة أنني خلت أنه على وشك البكاء. تأثرت بتعاطفه، لكن بطريقة ما، أشعرني ذهوله بالدونيّة. استغرابه أنني أتكلم الإنجليزية، استغرابه أنني أرسم الجهاز الهضمي واستغرابه أنني مديرة فندق، أشعرني بأنني الطفلة المعجزة، التي تجيد الغناء والعد للعشرة دوناً عن أقرانها المتخلفين! ابتسمت له بمرح مشجّعة ومعزيّة، كأن المصيبة تخصّه ولا تخصّني.

أتمنى لكِ الحظ والتوفيق، أنت لا تنتمين إلى هذا المكان. قال.

فاجأتني ملاحظته بدورها، ولكني أدركت أنها جاءت عفوية، فأجبته:

المشكلة أنني أنتمي إلى المكان الذي لم يعد ينتمي للحياة. حتى التمتع بالانتماء صار ترفاً ورفاهية في وضعي هذا، ليس مهماً أن أكون حيث أنتمي، المهم اليوم فقط أن أكون.

الانهيار

قَرعَ الباب، دفعه ودخل مسبوقاً بالصينية النحاسية التي تحمل فنجان قهوتي الصباحي.

صباح الخير آنسة.

صباح الخير حمّود.

وضع الفنجان أمامي وسكب القهوة فيه، ووضع كوب الماء بجانبه. حانت منه التفاتة إلى التلفاز، الذي كان ينقل المظاهرات التي خرجت في أنحاء عدة من سوريا - الريف السوري على الأغلب - لمحته يتنحنح كأنه يريد أن يقول شيئاً.

ما الأخبار عندكن في «الأتارب» يا حمّود؟

استقبل الإيعاز بالمباشرة بحماس، تنفّس عميقاً وقال:

والله يا آنسة الأخبار سيئة، من يومين دخل الجيش عنّا عالضيعة، وما خلّى شي، على أساس عم ينظفو.

كيف يعني ما خلّى شي؟

يعني دخلوا بالدبابات واشتغل القصف.. حتى عواميد وأبراج الكهربا ضربوها.

بس أنت متل ما قلتلي ضيعتكن نصفها موالين ونصفها معارضين؟

ايه هلق صاروا كلن معارضين.. وأنا أولن!

لا.. معقول؟

والله العظيم.. أول شخص تقوّص بدخول الجيش كان قريبي اللي كان مخابرات واللي كان بالمظاهرات يطلع عالأسطحة يقنص العالم.

أنت عم تبالغ شوي؟!

لا وحياة ولادي.. صرت عم أطلع من البيت على دمي. الدبابة واقفة براس الحارة، تفتيش عالطلعة والدخلة واستجواب، ما عم نتجرأ نمد راسنا من الشباك، قال تنظيف قال، والله لو مسكوا بس الي كانوا يطلعوا مظاهرات وجماعات التنسيقيات تبع الثورة كان حلو على قلبي.. بس مو هيك.. الضيعة كلا تضررت.. والمحلات انتهبت.. كأنها مال حرام، كأنو كلنا بدون استثناء خونة ومندّسين.

طوّل بالك.. انشالله ما بتطول القصة.

ما تطول؟ والله يا آنسة رح تطوّل، وعم تكبر.. بهاليومين كل الناس من جيراني وأهلي قامت تشتري أسلحة.. لك عم يبيعوا أغراض بيتن

ويشتروا أسلحة.

ومنين عم يأمنوا الأسلحة؟

ولاد الحلال كتار.. وحتى أحياناً الجيش عم يبيع.

وأنتو أهالي ضيعتكن مساكين ودراويش!

لا يا آنسة أبداً.. شباب الضيعة نصّن طلاّب جامعات ومثقفين.. بيفهموا بالإنترنت والسياسة متلن متل أحسن شبّ من شباب المدينة.

والله برافو.. وهدول اللي طلعوا المظاهرات؟!

هنّن وغيرن.. بس نحنا عائلتنا أعوذ بالله، أصلاً ابن عمي كان طبيب شرعي موظّف بالدولة وموالي للعظم، حكيتلك عنه، هاد اللي قتلوه الأسبوع الماضي.

نعم، تذكرت، يا لطيف! معقول هالإجرام؟ ما عرفتوا مين قتلو؟

مين قتلو يعني؟ معروف مين.. في كتير ناس راحت ولادا بين هون وهون، بين قتيل ومعتقل، دم بدم.. والله يجيرنا من الجاية.

الله يجيرنا من الجاية! الكل يستشعر بالويلات المقبلة، الكل يشتمّ رائحة الموت القادم. ورغم أن أخصب خيال، لم يرقَ إلى جزء من المأساة التي طالت البشر والحجر في سوريا عامة وفي حلب خاصة. إلا أن الكل كان ينتظر الكارثة بطريقته. طرق مختلفة: ساذجة، عدوانية، عاطفية، عقلانية، همجية، لا مبالية، طوباوية أو تفاؤلية. طرق متعددة، منها ما كان أحياناً أسوأ وأفظع من الموت القادم نفسه.

الله يجيرنا من الجاية!؟ لينجّنا الله من الآتي. والآتي الذي لم ينجِّ الله ولا عبده البلد منه، كان

جماعات الإسلاميين المتطرفين التي بدأت تجتاح القرى وتقدّم الأسلحة والأموال للأهالي. وحسب ما حكى لي جواسيسي (زملاء حمّود، عمّال الفندق المقيمون في قرى قريبة منتشرة في ريف حلب وإدلب) فإن أفراد هذه الجماعات كانوا من السوريين وغير السوريين. يجتمعون بالناس في المساجد، ويؤجّجون عواطف الشعب المكلوم الذي داسه البسطار العسكري خبط عشواء. يدعمونه مادياً ويكسبون قلبه ولبّه بسكينة الصلاة والاستسلام لتعاليم الإسلام التي تبيح دم الكفّار والظالمين.

هذه الجماعات، لم يعرف أحد من الذي كان يدعمها، لكنها مع مرور الوقت، بدأت تجنّد شباب القرى وتشكّل ميليشيات وكتائب خاصة بها. بدأت أولاً بدعم الجيش السوري الحر (المنشق عن الجيش السوري النظامي) بغرض الانتقام لدماء الإخوة السوريين المسلمين، وشيئاً فشيئاً بدأت تهمّش ضباطه المنبوذين والمعدمين أو تشتريهم وتزيحهم، وتسلّم القيادة لأفراد منها، حتى تحوّل الجيش الحر، أو القسم الأكبر منه، الذي يفترض أنه الجناح العسكري لثورة السوريين، تحوّل بعد مرور ثلاث سنوات، من جيش عساكر وثوّار يقودهم ضبّاط وطنيون، إلى كتائب مجاهدين ملتحين يقودهم أمراء وشيوخ ليسوا سوريين. واستبدل بالعلم السوري القديم الذي اعتمده الثوّار رمزاً للثورة والتغيير، علم «القاعدة» الأسود الذي رفعه المجاهدون أثناء غزواتهم التي اجتاحت المدن وداست من بقي من المدنيين، دون أن تلحق ضرراً مهماً بمركز حكومي واحد. غزواتهم تلك التي لم يعد أحد يعرف، ضد مَنْ، ولمصلحة مَنْ!

دخلت سلمى مكتبي بعد نقرة خفيفة على الباب، وضعت أمامي على المكتب رسالة طبعتها لتوّها قائلة:

هذا الإيميل وصلني للتو من شركة الفجر بدمشق، إلغاء لحجز المجموعات السياحية لسلسلة SY–JO/05.

ألقيت نظرة على الإيميل وأكملت عنها:

وبهذا الإلغاء نكون قد خسرنا آخر حجز للموسم السياحي هذا الربيع والصيف، وهو ما كان متوقعاً بكل الأحوال.

بقيت عندنا بعض الحجوزات الفردية.

أظهرتُ على شاشة الكومبيوتر أمامي الصفحة الخاصة بحجوزات الفندق للأشهر الأربعة القادمة: نيسان، أيار، حزيران وتموز، تأملت الأسماء الباقية ملياً:

سيتم إلغاؤها قريباً، صدقيني... يا للموسم الكارثي.

وهناك أخبار أخرى سيئة أيضاً.

وهي؟

توقعت مسبقاً ما ستقول، لكنني فضّلت التريّث والاستماع:

أصحاب المكاتب والوكالات السياحية لا يتوقفون عن الاتصال، يقولون إنهم بدؤوا باستلام طلبات إلغاء حجوزات الموسم السياحي المقبل، أي في الخريف. يقولون إنهم يحاولون إقناع عملائهم ووكالاتهم في أوروبا بالانتظار قليلاً، على أمل أن تهدأ الأوضاع وتستقر، ولكن الردّ يأتي سلبياً، وعلينا أن نتوقع استلام إلغاء الحجوزات رسمياً خلال الأسابيع القادمة.

تماماً كان هذا ما أفكّر فيه، تابعت سلمى:

اقترحت على المكاتب السياحية إقناع عملائهم بتغيير برنامج الرحلة، عبر الاستغناء عن المناطق الساخنة والاكتفاء بزيارة حلب واللاذقية.

غير مجد، ولن يكون اقتراحاً مقبولاً. أجبتها بأسف.

نستطيع إغراءهم بأسعار مخفّضة.

ليس الموضوع هكذا، هل تعتقدين أن السائح الأوروبي سيتحمّس ليقطع كل هذه المسافة فقط ليمضي بضعة أيام في زيارة قلعة حلب والأسواق

ولتدخين الشيشة في اللاذقية؟ كان يحلم بجولة مكثفة في سوريا لعشرة أيام، تدمر وقلعة الحصن وأفاميا، دمشق وحماه وحمص وبصرى... كيف سنقنعه باختصارها إلى أربعة أيام؟! هذا طبعاً إذا افترضنا أن طريق السفر بين المدينتين الآمنتين (حلب واللاذقية) سيبقى آمناً وخالياً من المفاجآت. أنا لست من أنصار إقناع الوكالات أن سوريا آمنة تماماً وعليهم أن لا يقلقوا من إرسال السيّاح. هذا الكلام يحمّل قائله مسؤولية كبيرة. أنا شخصياً لا أتجرأ على حملها، أنا لا أستطيع أن أتنبأ بما ستؤول إليه الأمور بعد شهر من الآن، أنا حتى لا أعرف ماذا يجري اليوم في القرى التي تبعد فقط بضعة كيلومترات من هنا.

ارتبكت سلمى، وقالت بحماس:

آسفة آنستي، لكنني أرى أنك متشائمة جداً. بالأمس سمعنا تحليلاً سياسياً في برنامج تلفزيوني، كان مقنعاً ومتفائلاً، بأن الموضوع لا يعدو كونه زوبعة في فنجان، وكل تلك الضجة التي تحيط به لا تزيد عن كونها مجرد حرب إعلامية.

ابتسمتُ لها، بأسف وبحرقة، وسألتها:

عبر أي قناة تابعت هذا البرنامج؟

الدنيا.

تجمّدت الابتسامة بأسى على شفتيّ، لم تسعفني الكلمات، فقط هززت رأسي بمعنى: إنشالله!

قبل أن تخرج سلمى، تذكّرت موضوعاً مهماً كنت قد انتهيت من إعداده للتو قبل دخولها، فاستبقيتها قائلة:

سلمى، أريد منك أن تطلبي من رؤساء الأقسام الاجتماع في مكتبي غداً في التاسعة صباحاً، سنناقش موضوع تخفيض رواتب الموظفين.

حسناً، سأفعل.

لا أدري إن كنت قد نجحت في أن أكون حياديّة ومهنيّة، بأن أخفي أسفي وألمي وخوفي العميق وأنا أطلب منها ذلك. سيّما وأنا أفكّر، أنه في حال ألغيت حجوزات موسم الخريف، سنضطر حتى إلى تقليص عدد الموظفين إلى النصف، نضحّي بالنصف، لننقذ النصف الآخر، ولننقذ الفندق ككيان، ريثما تمرّ هذه الأزمة، هذا إن كانت فعلاً، مجرد أزمة، مجرد زوبعة في فنجان حسب رأي محللي تلفزيون الدنيا، الذي يجب أن يسمّى تصحيحاً تلفزيون الدنيا الحلوة «دولتشي فيتا»!

يوماً بعد آخر، تابعت سلمى دخولها إلى مكتبي حاملة البريد الإلكتروني الذي يثبّت رسمياً إلغاء حجوزات الموسم القادم، والموسم الذي يليه.. وتابعت سلمى تبشيري بتفاؤل وتناقض مذهل.. بانتصارات قريبة وانفراجات جبّارة، نقلاً عن «دولتشي فيتا/ الدنيا الحلوة».

ودعوت مجدّداً رؤساء الأقسام للاجتماع في مكتبي، لإبلاغهم (بحياديّة مهنيّة) مؤلمة! قرار تخفيض عدد موظفيهم إلى النصف. ثمّ في الاجتماع الذي يليه، لإبلاغهم بالاكتفاء بنصف النصف، وهكذا على مدى عام ونصف.. إلى أن بقينا في النهاية ستة أشخاص مع الأثاث والجدران.

فقد ألغينا قسم عناية الغرف إذ لم يبقَ هناك زبائن في الغرف، وألغينا المطبخ إذ لم يعد من زبائن في المطعم. استبقينا فقط اثنين من عمال النظافة، المدير المالي وهو الكاشيير والمحاسب الذي يحصي الخسائر في الوقت ذاته، وعامل بوفيه واحد، لقهوتنا الصباحية والمسائية، وأنا وسلمى، التي مضت عنّا بدورها بعد أسابيع لتتفرغ لمتابعة «الدنيا الحلوة»، تاركة إياي في الدنيا البشعة، وحدي مع قهوتي، وسط الأثاث والجدران، حتى اليوم الذي مضيت به بدوري تاركة فنجان قهوتي دافئاً على المكتب، قبل ساعات قليلة من احتراق المكان والأثاث، وقبل أيام من سقوط الجدران.

يقولون إن الحرب تؤجّج المشاعر! تأكدت من صحة تلك المقولة بنفسي، إذ قُدِّر لي على غير ما كان متوقعاً في أي خيال من خيالاتي الخصبة، أن أعيش زمن حرب. أن أشهد وطني يتمزّق بأمّ عيني، يحترق، ينهار، تتدمّر مدنه واحدة تلو الأخرى، وشارعاً بعد آخر، يوماً بعد يوم.

لم أكن أشعر يوماً بذلك العشق الرومانسي لعروبتي عامة أو لوطني سوريا خاصة. كنت فقط أكتفي بمحبتي وانتمائي لدفء مدينتي حلب، كأنها مدينة مستقلة تنتمي إلى ذاتها، لا تمثّل أحداً ولا أحد يمثلها.

نشأت وعشت كل سنوات حياتي وأنا على يقين بأنني أحيا في دولة لا تمثلني. لا أنتمي إليها ولا تشبهني، تهمّشني وتلغيني، تكذب عليّ وعلى أمثالي، ولا تطالبنا بشيء اللهّم إلا التصفيق، والتصفيق والتصفيق. وكنت في طفولتي، أخرج مجبرة في المسيرات، وأصفّق صاغرة كما الجميع، كأنه طقس من طقوس المواطنة أو الانتماء. وكبرت، وكبر شعوري بالاستياء من كل تلك الطقوس التي لم أعد أشعر أنها تتلاءم مع عقليتي التي نبذت الانصياع لأي عرف أو تقليد أو دين، وبنت لنفسها بمجرد أن بدأت تنبض بالشك يقيناً خاصاً يشبه أحلامها العريضة ويقترب من اللاحدود، ليلامس الأفق النرجسي الذي تدور مداراته حول كيانٍ حرٍّ طموح، فخور بذاته وعاشق للحرية.

في زمن الحرب، وفي بداية الثورة، تفجّرت في داخلي مشاعر وشجون لم أتوقع يوماً أنها موجودة في ركن من ذاتي، شعرت بأن سوريا ككل هي أنا، وشعرت بالذنب لأنني تخلّيت عنها كل ذلك الزمان وتركتها بلا مبالاة لشلّة من اللصوص تستعبدها وتمتصّ رحيقها وعبق تاريخها العريق وأفق مستقبلها.

سوريتي التي كانوا قد بدؤوا يمزقونها، اشتهيت بعمق أن أراها دولة تشبهني. أردت أن أنتمي إليها، أن أشعر أنها وطني. أردت أن أقشط القار الذي غطوا به وجهها الجميل الذي أحمل ملامحه نفسها، ليصدّق العالم ولأصدِّق أنا قبله أنها هي أمّي، وأن الدم الذي يجري في عروقي، هو دمها.

في تلك الفترة الأولى من عمر الثورة، وحين كانت لا تزال عذراء سلميّة قبل اغتصابها من قبل المسلحين والإرهابين الراديكاليين والمرتزقة. حاورت (الأمر الذي امتنعت عنه كلياً فيما بعد) مجموعة من الأصدقاء الذين كانوا يستهجنون حماستي للثورة والتغيير.

قالوا إن هذا الشعب الهمجي المتخلّف لا تليق به الحرية. إن كان هذا الكلام صحيحاً، فما ذنبي أنا؟ هذه أيضاً أرضي وهذا وطني. هل يجب أن أغادر وطني لأستحق الحرية، أم أنه يتوجب عليّ أن أكون همجية متخلّفة لأستحق الوطن.

قلت لهم: إذا كان هذا الكلام صحيحاً، فإن هذا الشعب الهمجي والمتخلّف، يستحق أولاً التحضُّر والتطوُّر. لا يحتاج هذا الشعب أو أي شعب أن يوهب الحرية، بل يحتاج فقط إلى أن يمنح الخبز والتعليم والكرامة، وهو بعد ذلك سيحرّر نفسَه بنفسِه.

معروف أن الفقر والجهل هما الوالدان الشرعيان للتخلّف، ولكن بإضافة الذلّ، نحصل على نسل همجي بامتياز: شعب ممسوخ ومسحوبة منه إنسانيته، بحيث تكون الحرية هي آخر اهتماماته، وآخر استحقاقاته.

من يقول إن الشعب السوري لم يعرف الجوع والفقر، لا يعرف السوريين. يعرف منهم فقط طبقة من المحظوظين، وأولئك المتأنقين في المقاهي والمطاعم، مدخني السيجار ونافخي النرجيلة. يعرف منهم الموظفين المرتشين، والتجار الفاسدين، وصغار النصابين واللصوص والكسبة. هؤلاء طبعاً لم يكونوا جائعين، كانوا على العكس، متخمين بنصيبهم ونصيب سواهم، سواهم الذي يشكل الأغلبية العظمى في البلد.

قالوا إن الفقر والفساد موجودان في كل مكان. حسناً، فلتهبّ علينا إذاً رياح التغيير كما تهبّ في كل مكان، فلتتغيّر خريطة الفساد والفاسدين، لتتغيّر وجوه اللصوص والسارقين، فقد مللنا من كوننا منهوبين ومستلبين، من قبل الأشخاص أنفسهم منذ دهر من الزمان.

في السنوات السابقة، كان الحلم بالتغيير والحرية في بلدي، دليل جنون، ومدعاة للسخرية. واليوم، صار الحلم بهما دليل خيانة ومدعاة للرجم بالحجارة، لانتهاك الشريعة التي كان يجب أن تبقى سائدة على جماعات الهمج والمتخلّفين، وعلينا بالمعيّة.

وإن أخطأ أحدهم يوماً وقال كلمة تمجّد الحرية، أسرع بتدارك نفسه بعد قليل بالتبرؤ من تلك الكلمة قبل أن يُرجم. كل ما قيل في وطني عن الحرية والتغيير، هو كلام غير شرعي، ملقى على قارعة الطريق غير معروف الوالدين.

«بدكن حرية؟»، هي العبارة الأشهر خلال السنوات الأولى من المأساة السورية. وقد كانت الفاتحة التي يُستهل بها التحقيق مع المعتقلين الذين يضبطون متلبسين بمظاهرة، أو كلمة، أو أي موقف يشذ عن شريعة المزرعة السعيدة.

كلمة حرية في وطني، صارت اليوم مرادفاً لكلمة الخيانة، القتل والتدمير. وذلك منذ أن اغتيلت الثورة بعد أن اغتصبت، وسرقت العصابات الدموية (التي لا تعرف ما هي الحرية) رايتها ومزّقتها ورفعت مكانها العلم الأسود.

مشاعري تتأجّج، وتفاجئني دموعي وأنا أعيد قراءة قصيدة نزار قباني الرائعة التي كانت قد

نشرتها أختي على صفحتها في الفيس بوك، قبل أن تلغي الصفحة، وتتعهّد بأن تقفل فمها وأصابعها وحتى فكرها.

نزار قباني (1923-1998)، شاعر سوريا الفذّ، الذي استشهد مندوب الحكومة السورية في مجلس الأمم المتحدة، بأبيات من إحدى قصائده في عشق دمشق، في أحد اجتماعات المجلس الذي كان يناقش الأزمة السورية في بداياتها. ألقى تلك الأبيات المشبعة بالرومانسية والخيال، في الوقت الذي كان السوريون فيه يُقتلون ويُعتقلون ويُعذبون، ليس فقط لكتابة قصيدة، وإنما أحياناً لمجرد قراءة قصيدة. وليس فقط للخروج في مظاهرة، بل أحياناً لمجرد التقاط صورة من نافذة المنزل.. لمظاهرة!

ألقى ممثل النظام السوري في مجلس الأمم المتحدة أبياتاً من قصيدة نزار قباني، الذي كان للمفارقة المضحكة قد كتبها في منفاه الطوعي عن بلده الأم هرباً من النظام نفسه، ومن سلطته على الأقلام والأفكار والأنفاس. هو الحر الذي لم يستطع أن يعود مصطحباً حريته معه إلى الأرض التي أنجبته والتي كان يعشقها، والتي تحولت من «بلاد الياسمين» إلى «بلاد الخوف والكبت». لم يستطع أن يعود إلا جثة هامدة تحرّرت من روحها الثائرة، إلى بلد كانت السلطات فيها تجافي ثورته، وتستنكر كلماته التي كان يصدح بها حرّاً، منتقداً ومتّهماً بوضوح، كل حكام العرب، دون أن يستثني منهم حاكم دولته التي كان قد عمل في السلك الدبلوماسي فيها لفترة طويلة من حياته.

مندوب الحكومة السورية اختار أن يقتبس من نزار أمام مجلس الأمن بيتاً من قصيدة «من مفكرة عاشق دمشقي» يقول:

دمشق يا كنز أحلامي ومروحتي

أشكو العروبة أم أشكو لك العرب

وليس طبعاً أبياتاً من قصيدة «الديك» الشهيرة التي كان قد ألقاها عام 1982 وقال فيها:

«في حارتنا ثمّة ديك.. عدواني

سرق السلطة بالدبّابة

ألقى القبض على الحرية والأحرار..

ألغى وطناً.. ألغى شعباً...

ألغى لغة.. ألغى أحداث التاريخ..

وألغى أسماء الأزهار».

أو حتى أبياتاً من تلك القصيدة الرائعة التي كانت أختي رنين قد نشرتها على صفحتها في الفيس بوك:

والشعر ماذا سيبقى من أصالته

إذا تولاّه نصّاب ومدّاح

وكيف نكتب والأقفال في فمنا

وكلُّ ثانية يأتينا سفّاح

السفّاح.. عرف أنه المقصود، لم يعجبه أن يتولّى نشر القصائد من هو ليس نصّاباً ومدّاحاً، كما لم يعجبه مطالبة جوليا بطرس بالهواء للتنفس، في الأغنية التي شاركت أصدقائي بها بدوري أيضاً في صفحتي الفيسبوكية:

أنا بتنفس حرية

ما تقطع عني الهوا

ولا تزيدا كتير عليّ

أحسن ما نوقع سوا

لم يتأخر السفّاح بالتصرف. أستُدعي صهري بعد يومين فقط، إلى مكتب مختار الحي، الذي تربطنا به صلة قربى بعيدة، والذي بادره بجفاء:

أستاذ غالي، أنا مقدّر لوضعك كمحامٍ معروف ومحترم، ومقدر لصلة القربى التي تربطني بزوجتك وأهلها، لذلك تدخلت، ولملمت الموضوع كي لا يتطور إلى الاعتقال والاستجواب، ضغطت على الجماعة ليبقى الموضوع في حدود التنبيه.

صهري الذي شحب وجهه، لم يكن يعرف عمّا يتحدث المختار، لكنه أدرك حسب خبرته كمواطن في هذا البلد، أن الموضوع يخصّ أمن الدولة، وقد كان يعرف أن التورط في موضوع كهذا،

قد يكلّف المواطن حياته.

خيراً يا مختار، هل لك أن توضّح أكثر؟ أنا لم أفهم المقصود بعد؟

بصفاقة أجابه:

لم تفهم بعد؟! سأفهمك.. هذا الصباح استلمت رسالة عاجلة من فرع مخابرات أمن الدولة، يطلبون التحقيق مع أشخاص عدة من الحي في دائرة اختصاصي بتهمة «وهن نفسية الأمة»، من بينهم حرمك المصون وابنة حميك وأختك.

أصيب صهري بالذهول:

ولكن لماذا؟

مكتوب بجانب أسمائهم: فيس بوك.

قال صهري:

ولكن أختي بالذات، ليست من رواد الفيسبوك.

أختك يا سيدي كانت تتكلّم هي وزوجتك عن سيادة الرئيس بأسلوب غير لائق في مناسبة اجتماعية.

هل هذا مكتوب هنا أيضاً؟!

كل شيء مكتوب. ماذا تظنّون أنفسكم فاعلين؟ ألا تخجلون؟ هذا النظام الذي يحمينا نحن المسيحيين ويحترمنا، هل نطعنه في الظهر؟

طارت الكلمات من ذهن المحامي المحنّك، هزّ رأسه بأسف كتلميذ مذنب، وقال بعد برهة:

يؤسفني ما أسمع، وما المطلوب الآن؟

الآن ستذهب معي لمقابلة سيادة العميد رئيس الفرع، سأحاول لملمة الموضوع وسأكفلكَ شخصياً، وستوقّع على تعهّد، بأنّك أنت وزوجتك وابنة حميك وأختك، لن تتفوّهوا أو تكتبوا أيّ شيء يمكن أن يوهن نفسية الأمة بعد الآن.. وخصوصاً في هذه الظروف العصيبة.

تعهّدَ، ووقّع، وهو يسأل نفسه عن طبيعة نفسيّة هذه الأمة التي يمكن أن تصاب بالوهن، من كلمات نزار قباني، أو من أغاني جوليا بطرس.

إيه... دنيا

غادرت الفراش بصعوبة، مثل كل صباح منذ أن توقفت عن العمل. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف. التففت فوق بيجامتي بردائي المنزلي السميك أحمر اللون، لففت لفحتي الصوفيّة المخطّطة حول رقبتي، لبست جورباً ثقيلاً ثم دسست قدميَّ في جزمة طويلة من جلد صناعي مخملي محشو بالفراء، كنت أستعملها للخروج سابقاً، أما الآن، فقد نظّفتها جيداً وخصّصتها للمنزل، إذ لم تكن قدماي تعرفان الدفء بوسيلة أخرى.

خرجت من غرفتي. المنزل هادئ وبارد. أبي ما زال نائماً، ومن الواضح أن أمّي ليست هنا، أحسست بالقلق والغضب؛ أين نزلت في هذا الطقس القاسي، بالرغم من معاناتها من آلام مبرحّة في ظهرها وساقها جراء انقراصات وفتق في فقرات العمود الفقري، كيف نزلت وكيف ستعاود صعود الدرج إلى بيتنا في الطابق الرابع (مات المصعد سريرياً منذ أن هجرته الكهرباء)، صعود الدرج يؤذيها، خصوصاً إذا كانت قد اشترت شيئاً وتحمله معها.

يا الله، سوف تقودني إلى الجنون.

صرخت بغضب، وأنا أشعل النار في البوتوغاز لأعدّ قهوتي. شعرت بالذنب وفكّرت أن أستغني عن القهوة. عبوة الغاز تكاد تفرغ، يجب أن أقتصد في استعمالها وأدّخر ما بقي فيها لما هو أكثر ضرورة وفائدة من قهوتي الصباحية.

أفكّر فقط ولا أتصرف، في الصباح يكون ذهني بليداً، وحركتي بطيئة، خصوصاً في بيت بارد لا وسيلة للتدفئة فيه، في مدينة لم تهجرها الكهرباء فقط، بل أيضاً كل أنواع الوقود.

بووووووووووووم... ارتجّت الجدران.. طقطقت الأبواب والشبابيك...تجمّد الزمن لبرهة صغيرة.. ساد الهدوء.. ثم استأنفت الحياة دورانها.. وأصواتها.. وطقوسها الطبيعية كأن شيئاً لم يكن.

كأنّ قذيفة لم تطلق من مكان ما، وبناء لم يتهدّم في شارع ما، وشخصاً لم يفقد حياته أو جزءاً من جسده أو كل ما جناه في حياة ما، في مدينة ما.

استيقظ أبي على صوت القذيفة، دخل المطبخ خلفي ونظر إلى النار تحت إبريقي كأنه ينظر إلى معجزة، لم يتكلم، لكنني فهمت!

صباح الخير.

صباح الخير.

بتعرف وين ماما؟

ذهبت عند المختار ومن ثم إلى لجنة الحي لتستخرج البطاقة الخاصة بقارورة الغاز.

صعد الدم إلى رأسي، وصرخت:

هي التي تبرعت لأداء هذه المهمة؟ هل تقوى على الوقوف وسط الحشود منتظرة دورها؟ هذا جنون!

تململ أبي وقال:

قلت لها أن تنتظر، كنت سأذهب أنا فور استيقاظي، لكنك تعرفين نيرانها. قالت إنّه يجب الذهاب في ساعة مبكّرة، وأنا اليوم ذهبت في السادسة من أجل الخبز، وعندما عدت به في السابعة والنصف لم أجدها.. فعدت إلى النوم.

تركت قهوتي، ودخلت إلى غرفتي على عجل ولبست، «يجب أن ألحق بها» فكّرت. واستيقظ ذهني بلا قهوة، ليشتم بسوقية ما وصلنا إليه من حياة قذرة، «يلعن أبو هالحالة»، يستيقظ هو في الزمهرير في السادسة لينزل ويقف في طابور طويل من البشر منظّم من قبل اللجان الشعبية والشبيحة

ليبتاع شيئاً من الخبز. وتنزل هي في السابعة لتقف مع حشود أخرى عشوائية لا تعترف بطابور، لتستخرج بطاقة تخوّلها الحصول على قارورة غاز بسعر أخفض من تلك التي تُطرح في السوق السوداء، إذا أسعفها الحظ وعُلّق اسمها بعد عدة أسابيع ضمن لائحة الشرف، ما يعني أن دورها قد حان لاستلام كنزها الموعود.

هو، في الثامنة والسبعين، وهي، في السادسة والستين.

هو، كان الصبي البكر في عائلة مكوّنة من خمسة أبناء، أنجبته جدتي في حي الحميدية في حلب عندما كانت في الخامسة عشرة، وبعده بسنتين أنجبت أخته شفيقة ومن ثم أخاه جان بعد سنتين أخريين وهكذا..

كان والده يوسف رجلاً مرحاً، نرجسياً ويحب الحياة، يقرض الشعر ويحب التمثيل والمسرح. وكان قد أسّس فرقة مسرحية محليّة صغيرة وبدائية، وقدّم معها أعمالاً فكاهية باللغتين العربية والفرنسية اشتهرت على نطاق لا بأس فيه في مدينة حلب.

في تلك الحقبة من الزمان، كانت سوريا تعيش آخر أيام الشكل الرسمي للانتداب الفرنسي الذي كانت قد خضعت له منذ العام 1920. فقد منحت فرنسا الاستقلال الكامل للبلد بحلول العام 1941، واختير مواطن سوري لرئاسة الجمهورية. لكن المندوب السامي الفرنسي بقي هناك قائماً على رأس أعماله، وتحوّل اسمه حسب المعاهدة الجديدة إلى ممثل فرنسا العام. كما تابعت الأجهزة التابعة للمفوضيّة الفرنسية أعمالها في الإشراف على الشرطة، القوات الخاصة، المواصلات والحدود. واستمرّ عمل البعثات والرهبنات الفرنسية التي بقيت ولسنوات طويلة من بعد، تدير أكبر المدارس وأهمها في دمشق وحلب.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية اندلعت في سوريا انتفاضة الاستقلال، والتي أفضت لعيد الجلاء يوم 17 أبريل 1946، وهو اليوم الذي غادر فيه آخر عنصر من عناصر المفوضية الفرنسية البلاد، ليتبعه إعلان الحكومة السورية في 25 أبريل 1946، وإعلان الاستقلال الشامل. وقد عملت الحكومة في السنوات التي تلت الجلاء، على فكّ الارتباط مع فرنسا شيئاً فشيئاً، حتى انسحبت من الكتلة الفرانكفونية في العام 1948.

التأثير الفرنسي الذي بثّته البعثات والمدارس والرهبنات لم ينحسر رغم فكّ الارتباط السياسي والعسكري. وبقيت آثاره العميقة جليّة لفترة طويلة من الزمن، خصوصاً على العائلات المسيحية في

حلب، التي حمّلت أولادها أسماء فرنسيّة، ودرّبتهم ليحلموا بفرنسا كوطن مشتهى وجنّة بعيدة المنال.

الجيل الذي تربّى في المدارس الفرنسية، كان يتحدّث لغتها بطلاقة، وقد كان منه جدّي الذي داوم في تلك المدارس لمدة سنتين قبل أن يسافر مع والديه إلى الأرجنتين، كانت كافية له ليتعلّم كثيراً من الكلمات والجمل التي احتفظ ذهنه بها إلى آخر أيام حياته.

ورث جدّي حرفة أهله في الصباغة، وكان يمارس عمله في دكّان العائلة في حي الحميديّة المكوّنة من طابقين. وقد باشر لاحقاً إلى جانب الصباغة مهنة الدهان والديكور والرسم والزخرفة على الجدران، التي برع فيها لموهبته المتميزة بالرسم. ساعدته مهنته تلك بالتعرّف إلى وجهاء حلب الذين كانوا يقصدونه لزخرفة صالوناتهم. وبدخول ورشاته إلى بيوت عدّة، استطاع جمع قصص جديدة وشيّقة استعملها بعد التصرف فيها بمهارة في تسلية المجالس التي كان يحلّ بها. وقد تعرّف لاحقاً في ورشة منها نُصبت في مستشفى مشهور في حلب على مالكه الطبيب الأرمني، الذي أحبّ جدّي وصادقه، وأدمن صحبته وخفّة ظلّه وقصصه الطريفة الحقيقية منها والخيالية.. قصصه التي لا تنتهي كقصص شهرزاد.

ذكاؤه الحاد كان جليّاً منذ طفولته، وقصصه التي ما فتئ يقصّها في كل مجلس صارت أشهر من نار على علم، ولعلّ أشهرها: حين تاه في طريق عودته وحيداً من الأرجنتين عندما كان طفلاً.

في عام 1921 وكان قد بلغ الثامنة، سافر مع والديه وشقيقه الأصغر لزيارة عمه المهاجر والمقيم في الأرجنتين، وبعد فترة من الإقامة هناك، أقنع الأخ شقيقه بأن يمكث معه ويتابع حياته في هذه البلاد التي كانت غنيّة بالخيرات وسخيّة في مكافأة العمل النشيط. ولتنفيذ القرار، كان على ميخائيل وزوجته شفيقة أن يعودا إلى حلب لتصفية أمورهما هناك، قبل أن يركبا البحر ثانية إلى الأرض الأجنبية التي قرّرا أن يبدأا فيها حياة جديدة. وتخفيفاً للأعباء، قرر الزوجان ترك طفلهما الأكبر في رعاية عمِّه، ريثما ينهيان أعمالهما في حلب ويعودان، خصوصاً أنه كان قد التحق بالمدرسة هناك، وتفوّق فيها على أقرانه الأرجنتينيين.

لكن الأمور لم تسرْ حسب المخطّط، إذ غيّرت شفيقة رأيها ورفضت معاودة السفر، وتذرّعت بحملها الجديد الذي اكتشفته في الباخرة أثناء عودتهما إلى الوطن. وبعد أن وضعت طفلها الذكر الثالث، كانت همّة زوجها قد فترت بخصوص الرحيل، خصوصاً أن أعماله كانت جيدة ومزدهرة في تلك المصبغة الشهيرة في حي الحميدية الذي كانت تقطنه العائلات المسيحية الحلبية العريقة.

عندما عدل الزوجان نهائياً عن فكرة الهجرة، لم يرسلا في طلب ابنهما البكر، طمعاً بأن يبقى

ويكبر تحت رعاية عمِّه هناك، متخفّفين من أعبائه ومصاريفه. لكن العم كان له رأي آخر، إذ لم يحتمل شقاوة الصبي وفرط حركته لمدة طويلة، فقرّر أن يرسله إلى أهله مع أول عائلة حلبية ذاهبة إلى هناك من أفراد الجالية الكبيرة الموجودة في الأرجنتين، واستغرق موضوع العثور على تلك العائلة فترة ليست بالقصيرة، سافر الطفل يوسف بعدها راكباً البحر برعاية أسرة حلبية تربطها صلة قربى بعيدة بأهل أمه شفيقة.

توقفت السفينة في البرازيل للتزوّد بالوقود، ودُعيَ من أراد من الركاب للنزول لساعات قليلة لزيارة المدينة أو التبضع قبل معاودة الإبحار لاستئناف الرحلة.

لم ينتبه الطفل للبيان الذي أذيع على المسافرين، ولم يهتم أحدٌ من أفراد العائلة المرافقة بالشرح له، نزلوا وتركوه وحيداً هرباً من شقاوته التي أنهكتهم خلال الزمن القصير الذي قضوه معه في الرحلة.

وعندما رأى الطفل الركّاب ينزلون بعد توقّف السفينة، أعتقد أنّهم وصلوا إلى بيروت. بحث عن مرافقيه فلم يجد أحداً منهم، لم يهتمّ كثيراً، ونزل مع نزل من الركاب، ووقف على رصيف المرفأ ينتظر أباه الذي قالوا له إنه سيكون بانتظاره في ميناء بيروت. وعندما حلّ الظلام وجاع وتعب دون أن يظهر أحد، سار خلف عمّال المرفأ المغادرين إلى منازلهم بعد يوم مضنٍ. وبعد ساعات من المسير، سحرته رائحة لذيذة ودافئة منبعثة من أحد المطاعم، خاف من الدخول، وعزّ عليه استجداء الطعام، فجلس على العتبة مكتفياً باستنشاق الرائحة الدسمة، وغفا.

عندما استيقظ وجد نفسه في فراش نظيف، في غرفة أنيقة تزيّن نوافذها ستائر من الدانتيل الناصع البياض.

نزل من السرير خائفاً وخرج من الغرفة بحذر، ليجد نفسه وجهاً لوجه مع امرأة تشبه جدّته جمّول، ركضت إليه واحتضنته وهي تصيح: لقد استفاق يا ألونزو.

ألونزو زوجها، صاحب المطعم الذي سرق جدّي رائحة طبيخه، وغفا على عتبته. ألونزو وإيزابيلا زوجان خمسينيان بلا أولاد، استبشرا خيراً بهذا الطفل الحلو المحيّا الذي وجداه غافياً عند عتبة مطعمهما.

لكنهما، قبل أن يصدّقا أن الله رزقهما ابناً من غامض علمه، حاولا أن يكونا نزيهين، ونشرا إعلاناً في الجريدة الرسمية بعد يومين من وصول الطفل، وبعد يوم من رحيل الباخرة التي لم يشعر

ركابها الحلبيون إلا بعد فوات الأوان، بأن الأمانة التي يجب أن يسلّموها لأصحابها في بيروت، لم تبحر معهم وبقيت خلفهم غافية في سرير نظيف، في بيت صغير وأنيق من بيوت ريو دي جانيرو.

عاش جدّي أشهراً عدّة في كنف هذين الزوجين الطيبين، ملك قلبيهما بفطنته، وسحر لبّهما بخفّة ظلّه، تعلّم البرتغاليـة بسهولة، وتعلّم كيف يساعدهما في المطعم وكيف يسلّيهما في البيت.

عندما فتّشت إيزابيلا بقجة ثيابه، وجدت لوحة مذهبة الأطراف، ملفوفة بشكل أسطواني ومربوطة بشريط ذهبي أنيق. بفخر شديد فكّ لها الأنشوطة الذهبية وفرد اللوحة أمامها، كانت عبارة عن سطور بالإسبانية، مكتوبة أيضاً بحبر مذّهب وبخطّ مزخرف. استطاعت إيزابيلا أن تقرأ اسمه الذي توسّط اللوحة بحروف أكبر حجماً من بقية الكلمات.. بإعجاب ودهشة سألته: ما هذه؟ ومن أعطاك إياها؟

شرح لها بالإسبانية عن الزيارة التي قام بها رئيس الجمهورية «إيبوليتو إيريغوين» إلى مدرستهم، حين اختير هو من دون كل الطلبة المواطنين ليلقي خطاباً ترحيبياً به بالإسبانية طبعاً، والبطاقة المذهّبة وصلت للتلميذ الفصيح بعد يومين، تشكّراً من الرئيس وتعبيراً عن إعجابه الكبير بالطفل الموهوب.

قام بإلقاء الخطاب أمامها بفصاحة استنزلت الدموع من عينيها. ذلك الخطاب الذي أعاد إلقاءه على كل من عاصرهم في حياته الطويلة التي زادت عن المائة عام، وقد ظلّ يحفظه ويجيد إلقاءه بمهارة عجيبة رغم إصابته بالاكتئاب في أيامه الأخيرة وامتناعه عن الكلام.

حاول أن يحكي لهما كيف ضاع، لكنهما لم يفهما، أو تعمّدا أن لا يفهما، وفرحا بهدية السماء التي قبلاها مرتاحي الضمير لأن أحداً لم يطالب بالطفل بعد نشر الإعلان.

عاش الثلاثة أياماً دافئة كأسرة سعيدة، ولكن، ليس لزمن طويل، فما أن وصلت الباخرة إلى مرفأ بيروت بدون الطفل، حتى أقام والده الدنيا ولم يقعدها، وباستجواب المسافرين، عُرف أن الطفل شوهد للمرّة الأخيرة وهو يغادر السفينة عندما توقفت في ريو دي جانيرو. تصرّف ميخائيل بأقصى سرعة ممكنة في ذلك الوقت، وساعده أقرباء له من الجالية الحلبية في البرازيل بنشر إعلان مع صورة الولد المفقود في الجريدة، الخبر الذي نزل كالصاعقة على ألونزو الطيّب وإيزابيلا ذات صباح على مائدة الفطور.

لكن.. ما رأيك؟ الصورة لا تشبهه كثيراً.

قالت إيزابيلا.

بل تشبهه يا إيزابيلا، إنه هو، والتاريخ المذكور لتوقّف السفينة هو تاريخ اليوم نفسه الذي وجدناه به على عتبة المطعم.

ولكن..

يجب أن يعود الولد إلى أهله.

إنه سعيد معنا.. إذا سألناه ربما يفضّل البقاء.

يجب أن يعود الولد إلى وطنه.

كرّر ألونزو وهو يقوم عن المائدة متجاهلاً فطوره، وخيبة أمله المؤلمة، ودموع إيزابيلا.

وعاد الصغير إلى أهله ووطنه، وقد سكن وجدانَه الغضّ جرحٌ لم يندمل عبر السنين، سببه لفظ والديه ومن ثم عمه له وتركهم إياه ليتيه في بلاد بعيدة وخلف بحور واسعة، ومن ثم استعادته من حضن العائلة التي أغدقت عليه دلالاً وحناناً لم يألفهما من أمّه الصارمة، ولا من والده اللامبالي أو عمه المتذمّر. عاد إلى وطنه الأم وعاش سنوات عمره الطويل كلها، مسكوناً بحنين كبير إلى تلك الواحة التي عاش فيها كأمير صغير لفترة من الزمان واعتبرها وطنه الآخر الذي ينتمي إليه بالروح.

في الثانية والعشرين من عمره، تزوّج الشاب المتألق الغَرور من جدتي أغنة التي كانت طفلة متواضعة الجمال في الرابعة عشرة، مطيعة خجولة وصموتة، ولكن مدرّبة بشكل جيد على خدمة رجل البيت وتدليله، حيث قامت بالمهمّة على أكمل وجه حتى آخر نفس في صدرها، لفظته تاركة الزوج المدلّل يعيش بعدها كالطفل اليتيم خمسة عشر عاماً، وليموت في زمن الحرب معدماً مكتئباً في مأوى للعجزة عن عمر يناهز مائة وسنتين.

وبالعودة إلى جدّتي، لم يكن زوجها فقط من كان عليها أن تخدم، بل أيضاً أمه وأباه اللذين كانا يعيشان معهما في الدار العربية ذاتها في حي الحميدية.

أنجبت أغنة بدون تأخير ابنها البكر (أبي) وكان ذكراً لحسن حظها، أخذ اسم جدّه ميخائيل/ ميشيل، وأخذ من أمّه خجلها وصمتها، ومن والده حلاوة المحيّا، ومن قسوة طفولته، أخذ طبعاً غريباً

متناقضاً يجمع بين نزعة خجولة للتمرد، مع طيبة وطاعة وبشاشة وجه، رافقته كل حياته وتركت أثراً طيباً في نفس كل من عرفه.

لم يكن ميشيل أبداً طفلاً مدللاً، كان فقط.. الولد البكر. بعده بعامين ولدت أخته شفيقة، عمتي ماتيلد. أسموها شفيقة خلفاً لجدتها، وكرهوا الاسم، فأسموها لاحقاً ماتيلد، وهو الاسم الذي عرفت به طيلة حياتها.

منذ نعومة أظفارها، تعلّمت ماتيلد أن تعمل بصمت كأمّها، كان عليها أن تستيقظ يومياً قبل الفجر، لتغسل الملابس وتنظّف الشرفات قبل أن تذهب إلى المدرسة مع أخيها الأكبر. في أيام العطلة الصيفية، كانت تتمتع بنزهتها الوحيدة، وهي الذهاب إلى الكنيسة المجاورة لحضور القدّاس، ولدى عودتها، كان عليها أن توجد قرب أمّها لتلبّي طلباتها المتلاحقة بغرض تأمين أفضل خدمة للجدّين الكبيرين وللزوج المدلّل، رجل العائلة، الذي كان حريصاً على أناقة هندامه ووسامته، ومشغولاً دائماً بمسرحياته ونشاطاته الاجتماعية والفنيّة.

الابن الثالث ولد بعد ماتيلد بسنتين أيضاً، أسموه جان، وأغدقوا عليه الدلال لأنه جاء ذكراً بعد كبوة إنجاب أنثى. ومن ثم كرّت السبحة فأنجبت جدّتي أربعة أطفال آخرين، مات منهم اثنان، وبقيت ماري وروبير.

الولد البكر، لم يكن يتمتّع بأي امتيازات، فقط كان عليه أن يؤدي الكثير من الواجبات بطاعة وصمت، وكان عليه أن يتحمّل ليس فقط أوامر والده، ولكن أيضاً صرامة جدّته شفيقة، ونظامها القاسي في إدارة المنزل.

القسوة والصرامة في معاملة أفراد الأسرة ولا سيّما الأطفال منهم، كانت عادة درجت عليها الجدّة شفيقة التي استلمت دفّة القيادة، دون أن يُعرف إن كان المقصود منها تربية الأولاد على الصراط المستقيم أم أنها ردّ فعل لتربية قاسية كانت قد تلقّتها بدورها في طفولتها، في الوقت الذي كان فيه الجدّ الطيّب ميخائيل سلبيّاً ومسلّماً أموره لزوجته القوية التي كانت دائماً العقل المدبّر لكلّ أمور حياته وحياة أولاده.

وقد حكت لي عمّتي ماتيلد في السنوات الأخيرة كثيراً من القصص الطريفة والقاسية في آن، عن معاناتها وأخيها الأكبر في ذلك الوقت من قسوة جدتهما. ولعل أكثر القصص التي أثّرت بي بعمق واستدرّت دموعي قبل ابتسامتي، قصّة أبي وعجّة البقدونس.

كان أبي وما زال يعشق عجّة البقدونس، لكن الجدّة شفيقة لم تكن تجود على الطفل الواحد بأكثر من قرص واحد في الوجبة، وما يتبقّى من الأقراص، كانت ترصّه في صحن وتغطّيه بمنديل نظيف وتضعه في «النمليّة»، وهي عبارة عن خزانة خشبيّة لحفظ المأكولات (قبل وصول اختراع الثلاجة) يتألّف بابها من إطار خشبي شدّت عليه شبكة معدنيّة رقيقة، تسمح بدخول الهواء كي لا تفسد المأكولات وتمنع دخول الحشرات.

في ذلك اليوم المشهود، بدأ «ميشو» يشعر بالبهجة والإثارة منذ أن بدأت أمّه تقلي أقراص عجّة البقدونس في زيت الزيتون الحامي في الصاج الكبير، ولكنه أصيب بخيبة كبرى عندما حان موعد الطعام، إذ كانت حصته التي حصل عليها لأجل الصدفة قرصاً صغيراً جداً بالنسبة إلى بقية الأقراص التي نالها إخوته وذلك حين وزّعت الجدة شفيقة الأقراص على الأولاد عشوائياً. الصبي البكر المطيع أحسّ بالظلم، وحاول الاعتراض للمرة الأولى في حياته، بأن طلب من جدّته تبديل قرصه بواحد أكبر، فما كان من الأخيرة إلا أن أخذت القرص الصغير منه وأمرته بمغادرة غرفة الطعام.

يجب أن تتعلّم أن تتقبّل شاكراً نعمة الله كما هي دون تذمّر.

الطفل الذي حرم من أكلته المفضّلة لأنّه طالب بالعدل، ثارت في داخله نزعة التمرد الخجولة. غافل الجدّة الحريصة وسرق قرصاً كبيراً من النمليّة، بدا شهياً بلونه البنيّ المذهّب ورائحته الذكيّة. لفّه بسرعة في قطعة من الخبز وأخذه إلى غرفته ككنز ثمين. كان أخوه الأصغر هناك، خاف أن يفضحه، فخبأ كنزه في فراشه تحت مخدته، ممنياً نفسه بالتلذّذ به فور مغادرة جان، لكن جان لم يغادر.

في الصباح التالي، حين أيقظته أمّه للذهاب إلى المدرسة، أطاعها وقام مسرعاً كعادته كل صباح. تحت مخدته وعلى الشرشف الأبيض النظيف لمحت جدتي بقعة كبيرة صفراء يشوبها اخضرار خفيف، رفعت المخدّة، فوجدت الكنز المدفون الذي لم يمسّ بعد، لطمت خدّيها بصمت، سائلة العذراء مريم أن ينجو ميشو بجريمته من براثن شفيقة، لكن المسكين، لم ينجُ.

حين بلغ الرابعة عشرة، اتُخذ القرار بضرورة رحيله. إذ جرت العادة في ذلك الزمان، أن تقدّم كل عائلة مسيحية واحداً من أبنائها الكثر للكنيسة، ليتتلمذ على يد الرهبان والقساوسة في الدير ويصبح راهباً أو كاهناً في المستقبل. وقد التزمت العائلات بحماسة بهذا العرف، ليس فقط حبّاً منها بالدين، وإنما أيضاً تخفّفاً من أعباء الولد ومصاريفه. وفي عائلة يوسف، كان الابن البكر ميشيل هو المرشّح للذهاب. وبدون أي نقاش أو شرح أو أخذ وردّ، قامت جدتي بتجهيز ابنها للرحيل، بأن فصّلت له

خمسة أطقم قطنية ناصعة البياض من الملابس الداخلية، بيجاما بقصّة رجالية وقماش مخطّط، خمسة أزواج من الجوارب السوداء وحذاء جديد، بنطال واحد وقميص واحد للخروج. إذ كان من المعروف أن الطلاب في الدير يلبسون لباساً موحّداً يفصّل على قياسهم بمجرّد وصولهم.

في اليوم المحدّد، اصطفّ الجميع لوداعه، جدّاه، أمّه وإخوته. عانقهم وقبّلهم الواحد تلو الآخر، وحبس دموعه وهو يحتضن أمّه وأخته ماتيلد، ومن ثمّ، نزل خلف أبيه الذي كان قد حمل الحقيبة وسبقه. وكخروف يُساق إلى الذبح، مشى مع والده صامتاً في هدوءِ الصباح الباكر وبرودته. وصلا ساحة فرحات، دخلا إلى غرفة خلفيّة في كاتدرائية «السيّدة» للروم الكاثوليك، حيث صافح جدّي الكاهن الموجود هناك والذي كان أبي سيرافقه إلى «دير الشير» التابع للرهبنة الباسيلية في لبنان. تبادل جدّي بضع كلمات مع أبينا عطيّة، وتبارك منه ثم سلّمه التقدمة، ابنه البكر، الذي نسي أن يعانقه مودّعاً قبل أن يدير له ظهره ويمضي، مكتفياً بالتعليمات والوصايا التي أملاها عليه في البيت، قبل أن يحمل له حقيبته ويسبقه في نزول الدرج.

عشر سنوات من عمره، قضاها أبي في دير الشير في لبنان، وكانت على قسوتها وغربتها، مفيدة له جداً، إذ تعرّف هناك فضلاً عن تعلّم الفرنسية كلغة أساسية، والإنجليزية كلغة رديفة، وأصول الإتيكيت والبروتوكول ومبادئ علم اللاهوت، وطريقة طهو الدوندورمة (البوظة) التي كانت موضع فخره ودهشتنا، تعرّف ميشيل أيضاً إلى الكتاب، صديقه الوحيد الذي لازمه بوفاء طيلة حياته. اكتشف روعة أن يعيش برهة من الزمن منفصلاً عن العالم الحقيقي، في عالم آخر يتخيّله بنفسه ويكون له وحده، دون أن يشاركه فيه جان العفريت، أو الجدة شفيقة، أو أبونا عطيّة.

فتح والدي الكتاب للمرة الأولى في ذلك الدير، ولم يغلقه بعد. ومن خلال الكتب، بنى لنفسه شخصيته الخاصّة. ورغم أنّه ازداد انطوائية، إلا أنه أيضاً عشق الاستقلالية، وفهم الحياة بطريقة مختلفة عن التي رسمتها له جدّته شفيقة. بدأ ميشو الصغير يتفتّح كبرعم أخضر، ونمت داخله نزعة التمّرد على ضوء الأفكار الجديدة التي كانت تدهشه بها الكتب. تعلّم أن يفكّر، وأن يختار، وأن يقرّر. وأول قرار تجرّأ على اتخاذه، كان ترك الدير والتخلّي عن حياة الرهبنة.

المنزل الذي عاد إليه رجلاً، لم يكن يشبه ذلك الذي تركه طفلاً. توفيّ الجدّان، وانتقلت الأسرة للسكن في بيت أكبر بعد تحسّن الحالة الماديّة وازدهار أعمال جدّي في ورش الدهان والديكور بعد استئجار دكّان لهذا الغرض في محلة العزيزية. كما استلم عمي جان إدارة العمل في دكّان الصباغة الموروث في الحميدية بعد عودته من فنزويلا، التي كان قد سافر إليها ومكث فيها سنوات عدّة. ودعم أهله مادياً بما عاد به من مدّخرات من عمله في الكشّة هناك (حسب ما قال)، وكلمة العمل في

«الكشّة» تعني بائعاً متجولاً يطوف على البيوت بحقيبة تحوي مختلف أنواع البضائع.

كان أمام ميشيل العائد من الدير خياران، إما أن يلتحق بورشة الدهان ويتعلّم الصنعة من أبيه، وإما أن يعمل في المصبغة كأجير لأخيه الأصغر. لكنه فكّر بثالث أكثر استقلالية ونظافة، وتقدم مسلّحاً بشهادة التعليم الابتدائي (السيرتيفيكا) التي حصّلها قبل التحاقه بالدير لوظيفة مكتبيّة في مؤسسة حكوميّة، وقُبل فيها، وصار بكل فخر موظفاً حكومياً في الديوان العام للمؤسسة العامة للتأمينات الاجتماعية، يداوم في مكتبه يومياً أنيق الهندام، لا تتلطّخ يداه أثناء العمل بألوان طلاء الجدران ذات الرائحة الكريهة، ولا بألوان أصبغة الملابس الدامغة، بل فقط في أسوأ الأحوال، ببضع نقاط من الحبر الأزرق.

لم تكن الحياة صعبة بالنسبة إلى شاب أعزب ذي راتب حكومي في أواخر الخمسينيات وحتى منتصف الستينيات من القرن الماضي، رغم أن سوريا كانت تعيش فترة سياسية مضطربة، تمثّلت باتحادها مع مصر في العام 1958 وتشكيل الجمهورية العربية المتّحدة التي كان يرأسها المصري جمال عبد الناصر والتي لم تستمر لأكثر من ثلاثة أعوام، ألغيت بعدها بانقلاب عسكري في دمشق، حيث أَعلنت سوريا عن قيام الجمهورية العربية السورية من جديد. وعادت البلد لتكوين نفسها عبر وضع دستور جديد وتشكيل حكومة بعد الانفصال عن حكم عبد الناصر الذي تضاربت آراء السوريين فيه، من ممجّد له كقائد أسطوري لا يتكرّر، ومن لاعن إياه كديكتاتور نرجسي عاث فساداً في البلد حين أمّم المعامل والأراضي والبنوك الخاصة ودمّر كثيراً من المشاريع الجديدة التي كان بعض السوريين من الطبقة الوسطى قد باشروها، كما كتم جهاز مخابراته على أنفاس الشعب وقام بدور استبدادي قوي بداعي المحافظة على أمن الجمهورية المتحدة.

ورغم تعاقب حكومات عدّة والإطاحة بها بانقلابات، وتجاذب للسلطة من قبل السياسيين والعسكريين في البلد وسط ذهول الشعب ودهشته، إلا أن الحياة استمرّت في الشارع السوري بوتيرة هادئة نسبياً، ولم تكن المعيشة صعبة إذ استطاع الشاب الذي كان يهوى التحليق خارج السرب، اعتماداً على راتبه الحكومي، أن ينعم بإجازات مميزة لم تعد متاحة إلا لميسوري الحال في الأزمنة اللاحقة، حيث سافر مرة إلى أوروبا، ومراراً إلى مصر وتركيا.

بالنسبة إلى أختيه ماتيلد وماري، كان ميشو يعتبر الشاب المتحرّر في العائلة، عكس أخيه جان ذي العقلية الشرقية البحتة. كان يصطحبهما إلى المسابح ودور السينما والمقاهي، ويشتري لهما الملابس العصرية الأوروبية، وأحدث المجلات والكتب المتوفرة في المدينة. ماري كانت متحمّسة لعطاءاته أكثر من ماتيلد التي كانت تقضي صباحاتها كما تعوّدت منذ طفولتها في التنظيف والغسيل،

وبعضاً من أماسيها في تسوّق الأقمشة وأحدث مستحضرات التجميل والتردّد على الخيّاط الذي اعتاد أن يفصّل ملابسها.

في الثامنة والعشرين من عمره، وبعد خطوبة فسخت قبل أسابيع من الزواج لأسباب تكتّم عليها والدي حتى النهاية، أعجبته ابنة الجيران اليافعة التي لم تكمل عامها السابع عشر بعد. طويلة ورشيقة، وذات عينين جميلتين وابتسامة خجول، واسمها مارجريت. تلك كانت «هي»، أمي.

لأنه كان تاجراً في خان الحاج موسى، في محلة السويقة التي هي زقاق متفرّع من أزقّة أسواق حلب القديمة، كان والدها أنطون نموذجاً صافياً للرجل الحلبيّ التقليدي، السوقي والعملي، الصارم والشهم، الحنون والانفعالي جداً. وكان غضبه مزلزلاً ومخيفاً، وسروره كان مدهشاً ومعدياً. وكأي حلبي أصيل، كان مغرماً بالطرب الأصيل والمطبخ الحلبي، وصديقاً وفيّاً لسيجارة «الشرق» وطاولة الزهر (النرد) والمازة وكأس العرق.

كذلك كان حلو المعشر ويحبّ الناس، وخصوصاً في بيته وعلى سفرته. يجيد إلقاء النكات البريء منها والبذيء، ويمتلك خزّاناً قيّماً من القصص التقليدية التي تحكي عن الأمثال الحلبية القديمة أو عن الشخصيات والأحداث التاريخية الكبرى التي مرّت على البلد. وحين كان يغضب، كنا نسمع شتائم كان محرّماً علينا مجرد سماعها، وحين يكون مسروراً، كنّا نراه يرقص ويغني ويقهقه بضحكة تجلجل في أركان المنزل.

الصورة التي لا تفارقني، صورته وهو يلعب بحماس طاولة الزهر أثناء حفل شواء في بستان أحد الأقرباء، أو حتى في البيت عندنا أو عنده. والذي لازم وجداني ليس صورته وهو يلقي النرد ويشتمه فحسب، بل أيضاً رائحة شواء من المنقل مع شذا نعناع من التبولة ووخز بصل من البيواز، وخمير يانسون من كاس العرق، وصوت طرقة الزهر وهو يقرع خشب الطاولة.. وكان المشهد مغلّفاً ومضمّخاً برخامة صوت صباح فخري وهو يصدح بعظمة وسلطنة: «ياا ذا القاواااام..ياا سمهاري ييبي».

النشوة التي تموج في داخلي عندما استرجع تلك اللحظات، لا تزال حيّة ويانعة تضجّ بالعبق والألوان، رغم السنين التي كانت تمحي في كل يوم شيئاً من تفاصيل المشهد، وتعجز أن تنال في أي يوم، من تأثير ذكرى الضوع والنغم وكل الأحاسيس الأخرى التي بقيت طافية في بحر من خدر دافئ جميل في ذاكرتي، حيث لم يترك لي جدي كثيراً من الذكريات لأنه رحل بنوبة قلبية عن واحد وستين

عاماً، حين كنت أنا في عامي الثالث عشر.

مارجريت الجدّة ترمّلت وابنها أنطون لم يكمل عامه الأوّل، وتزوّجت من جديد بعد أن أكمل الصبي عامه الثاني، حيث تربّى في كنف زوج أمه الطيّب، مع إخوته الكثر الذين كانوا يماثلونه بالدم ويخالفونه بالاسم.

مارجريت الحفيدة، كانت المولود الثاني لأنطون، الذي تزوّج من لوريت في عامه الثالث والعشرين. بكرهما كان «فتح الله» الذي أنجباه قبل سنة واحدة من إنجاب مارجريت، ثم أرسلاه إلى الدير جرياً على الأصول وهو في العاشرة من العمر، حينها استلمت مارجريت عنه راية الابن البكر في العائلة وهي في عامها التاسع.

حين وُلدت أختها هدى بعد سنتين من ولادتها، اكفهرّت الأجواء في العائلة، وندبت الجدة مارجريت حظّ بكرها الذي سقطت زوجته في درك إنجاب الإناث، ولكن لوريت قامت من كبوتها سريعاً وأنجبت ثلاثة ذكور من بعد هدى، ذراً للرماد في عيون حماتها.

لم تكن لوريت امرأة صلبة كحماتها، بل كانت أنثى هشّة تعاني من أوجاع في رأسها بين الحين والآخر وتعاني من جبروت زوجها دائماً، وولائم ضيوفه المداومين والطارئين، وتقلبات مزاجه حسب مسار تجارته هناك في خان الحاج موسى.

لكن مارجو (مارجريت) كانت هناك من أجل الأطفال.

بعد أن رُحّل فتح الله الرجل الصغير إلى الدير، كان عليها أن تنسى أنها طفلة وقد نسيت ذلك بالفعل. لم يعد هناك من يلاعبها ويشاكسها ويحتال عليها، بل صارت هي ملزمة بأن تلاعب إخوتها الصغار، وتهتم بنظافتهم ووجباتهم بمساعدة أختها هدى، ريثما تتعافى أمها من نوبات الشقيقة، أو عندما تكون مشغولة بلفّ ورق العنب (اليبرق) وعجن الكبة وبرمها وتنظيف السندمانات وحشوها، وكبس المخلّلات، وطبخ المربيّات، وتشليل مؤونة الجبنة، الذي يليه صنع صواني كعك مرقة الجبنة... وإلى ما لا عدّ ولا حصر له من الوجبات المطبخية والمؤن، اليومية منها والموسمية.

ورغم واجباتها المنزلية الكثيرة، كانت مارجريت في مدرستها محطّ أنظار الراهبات، لتفوقها وخجلها وموهبتها الملفتة في الرسم، وقد تركت بصمة دامغة في قلوب المعلمات والأساتذة وأذهانهم، رغم مغادرتها المبكرة للعائلة المدرسية والمقاعد الخشبية لتتزوج من ابن الجيران الذي بدا لها رزين الطباع، لطيف الابتسامة، أنيق الهندام، أوروبي الثقافة والهوى.

تلك التي كان عليها يوماً أن تنسى أنها طفلة لتتحوّل إلى أخت كبرى، صار عليها أيضاً أن تنسى أنها مراهقة، لتتحوّل إلى سيدة أنيقة في الخارج ومدبّرة منزل في الداخل، طبّاخة وربّة بيت وأمّ.

أجواء المنزل الذي جاءت منه، العابقة بدخان سجائر «الشرق»، والمزدحمة بالضيوف والولائم الصاخبة بقدود صباح فخري والنكات الملغومة والحكايا الشعبية، لم تتلاءم بسهولة مع أجواء المنزل الذي كان عليها بعد الزواج أن تعيش جزءاً من يومها فيه. ذلك المنزل الذي كان لا يزال مسكوناً ببروتوكول الجدّة شفيقة الصارم، ويزوره قلّة من الناس في مناسبات محدّدة، ويصدح في فضائه صوت «عبد الوهاب»، ولا يدنّس هواءه دخان سجائر، ولا يرتاح على رفوفه غبار، لأن ماتيلد كانت له هناك بالمرصاد.

السيدة الصغيرة عانت من اختلاف الأجواء، وتشتّتت بين العالمين. ولم يستطع زوجها دائماً إيجاد الحلول لها في كتبه، لم يستطع أن يجاري طبائع حميه، تماماً كما كان يشعر بالغربة والاختلاف عن والده وأخيه. فجنح نحو الابتعاد والتغريد خارج كل الأسراب، الأمر الذي لم تفهمه زوجته، التي كانت قد صدّقت لبرهة أنها بزواجها قد قفزت نحو عوالم جديدة ملوّنة وحلوة، لم تجد منها على أرض الواقع إلا ألغازاً مبهمة صعبة الحل، وأنظمة مقيتة صعبة التطبيق، وواجبات جديدة اندفعت نحوها بجدارة البنت الكبرى ونشاط التلميذة الموهوبة وذكاء الأنثى المحاربة، لتثبت أنها هنا، وأن الطفلة التي سُلبت طفولتها، والصبية التي سُلبت مراهقتها، هي امرأة قوية، لا تقبل أن تُسلب منها أنوثتها أيضاً تحت أي ظرف من الظروف.

ولدت أختي رنين، بعد سنة وشهر من تاريخ الزواج، وبعد ثلاث سنوات ونيّف تبعتها أنا.

فتحتُ عينيّ في حضن بيت دافئ ودود، تصدح في أرجائه أغنيات أمّ صبيّة حسناء، وتقود خطواتي فيه أخت لعبت الدور الأول في كل مراحل حياتي، أختي رنين.

كنت في سنواتي الأولى، مستسلمة بنعومة كأي طفلة لرعاية أمي وملاحظات أبي، لكنني كنت مفتونة بكل ما كان يصدر عن أختي رنين.

نشأت وأنا شاخصة الأبصار على حركاتها وسكناتها، مشنّفة الآذان إلى حكاياتها وتعليماتها، مؤمنة بنظرياتها، وشاهدة على اكتشافاتها واختراعاتها. ولم أعلم إلا في سنٍ متأخرة أنَّ محبتها لي كانت مشوبة بغيرة مرّة، فُرضَت عليها بمجرد أن خسرت حال ولادتي مكانتها كطفل العائلة الأول المدلل.

علاقتنا كأختين التي كانت مضرب مثل لدى العائلة والمعارف والجيران، كانت في باطنها غريبة بعض الشيء. إذ كانت محبتي الجارفة لها، لا تفسح المجال لعواطفها السلبية كي تتنفس. كانت تشفق على براءتي، وعلى جمال صورتها في قلبي، وتكتم غيظها الطفولي تحت قناع الأخت الكبرى المُحبّة والعطوفة، وتشعر بالذنب حيال غيرتها الفطرية من أكثر مخلوق أحبها وآمن بها.

كنت لها الدواء والداء. ثقتي ومحبتي وإعجابي بها، وتقديري لها الذي وصل إلى درجة اعتبارها مثلي الأعلى، كانت أشياء تعزّز شخصيتها وتقوي شعور الأنا عندها. ولكن، لا تلبث أشياء أخرى أن تحطّم هذا الشعور سريعاً، كالإفراط من بعض الأقرباء في تدليلهم لي كالإبنة الصغرى في العائلة وإعجابهم وامتداحهم لفصاحتي وضحكتي الخجول وشعري الذهبي، على مرأى ومسمع منها، دون أن ينالها من عواطفهم نصيب، كأنّها فجأة لم تعد طفلة، ولم تعد فاتنة ولا خفيفة الظل، إنما صارت الابنة الأكبر فقط لا غير.

أمي وأبي أيضاً لم يلقيا بالاً لآلام رنين. كانا يعتقدان أن ما يحصل أمر طبيعي، وعلى رنين أن تتقبّل بصمت وضعها الجديد كأخت كبرى في العائلة، وعليها أن تقوم بواجباتها في رعاية أختها الصغرى ومساعدة أمها في شؤون المنزل.

أمي التي عانت من سلبٍ لطفولتها وتقمّصٍ لشخصية العنصر المسؤول والفعّال في الأسرة، أسقطت من حيث لا تدري معاناتها على ابنتها، وانتظرت منها أن تؤدي دوراً مهمّاً في المنزل يشابه ما كانت تؤديه هي في طفولتها، اعتقاداً منها أن هذه هي سنّة الحياة التي لم تخترعها هي بل انساقت معها بدون مقاومة، الأمر الذي توقعته من ابنتيها. ولكن المكتبة التي كانت تحتلّ أكبر حائط في غرفة الجلوس، كانت لتوقعاتها بالمرصاد.

دأب والدي على جمع الكتب والروايات العالمية وقراءتها، وحبّاً منه فيها وفخراً بها، كان يحرص على تزيين غرفة جلوسه بمكتبة أنيقة تضمّ بين رفوفها روائع الأدب العالمي، وأشهر الموسوعات العلمية والثقافية التي أنتجتها الثقافة العالمية. وضماناً لاستمراريته، كان فطرياً يحاول غرس هوايته تلك في قلب ابنتيه اللتين قرر أن يكتفي بهما في عائلة نموذجية، متخلياً عن فكرة إنجاب ذكر يحمل اسمه واسم العائلة، مستمتعاً بضرب عرض الحائط بنصائح وشكاوى أمه وحماته، ومتحدياً الأفكار السائدة في المجتمع آنذاك، ومراهناً على ابنتيه اللتين أرادهما ذكيتين واعيتين لتجسّدا الحلم الذي لم يتمكن من تحقيقه، وصار بوجودهما ممكناً. الحلم الذي يتلخّص بالتمرد على قواعد جدته شفيقة القمعية، التي منعته من المطالبة بالكثير كي لا يُحرم من القليل، ولو كان ذلك الكثير هو حقه الطبيعي والمشروع.

من ضمن الطقوس التي ابتدعها ميشيل لتسيير أمور أسرته النموذجية، أن ابتكر لطفلتيه طقساً أسبوعياً محبباً، كنّا على أساسه في كل يوم أحد بعد حضور القداس الصباحي نذهب أنا ورنين يداً بيد إلى دكان الحلويات الأشهر في محيطنا «فيتا»، حيث تختار كل منّا قطعة كاتو من التشكيلة الشهية المعروضة بأناقة في الواجهة النظيفة. ومن ثم، كنّا نتوجه إلى المكتبة في الجوار ونشتري العدد الجديد من مجلة «تان تان»، وعدداً من سلسلة قصص بوليسية للأطفال كانت رائجة في حينها وكانت تسمى بالألغاز. تدفع رنين ثمن المجلة واللغز، بينما أنا أتصفّح بلهفة الصفحات الملوّنة لتان تان وأستنشق رائحة الورق المطبوع حديثاً بنشوة كبرى.

لم نكن نكتفي بقراءة المجلة واللغز. كانت رنين تنقضّ عليهما وتلتهم السطور والأحداث منذ اليوم الأول، أما أنا فقد كنت أستمتع بهما حتى الثلاثاء أو الأربعاء، وبقية الأسبوع، كنا نسكت نهمنا للقراءة بما تصل أيدينا إليه من روايات في مكتبة أبي. وكان قد رصّ بذكاء، الكتب التي ممكن أن تمتعنا مثل: نساء صغيرات، جين اير، مرتفعات ويذرينج... في الرفّ الأول القريب من متناولنا، والذي بمجرد انتهائنا من قراءة كتبه، بدأنا بالتسلق للوصول إلى ما هو أعلى، وأصعب، وأدسم، من النبي/جبران خليل جبران إلى البؤساء/فيكتور هوغو، وصولاً إلى دروب الحرية/جان بول سارتر.

وشيئاً فشيئاً، نجح الفكر الذي تجرعناه بنكهات متعددة من مختلف الكتب والثقافات، في جذبنا إلى التحليق في أجواء جديدة، أيضاً خارج السرب، بعيداً عن سموات الحياة الساكنة التي كان على أمي أن تعيشها رغماً عنها كسنّة للكون مثل أمّها وحماتها وجدّتها.

وقد أصرّت هي أيضاً، مدفوعة بفطنتها وطموحها وحب الاستطلاع الذي يسكنها، على مجاراتنا بالقراءة. كان أبي يأتيها من حين لآخر بروايات لإحسان عبد القدوس، الذي كانت عوالمه تروي أنوثتها الغضّة، وتعوِّض عن مراهقة ضائعة سُلبت منها ولم يعد لها الحق في استرجاعها.

بشعرها الطويل الجميل وملابسها الأنيقة، كانت مارجو أمّاً رائعة الجمال تحسدنا عليها زميلاتنا التلميذات حين كانت تأتي إلى المدرسة في الاجتماع السنوي للأهالي أو لأي أمر آخر. كانت تشعّ بين بقية الأمهات كالجوهرة بين الزجاج، وأنا كنت أراقبها بشغف من بعيد، وأشير لرفيقاتي لها بفخر وأقول هذه أمي.

كان جمالها الفطري يريحني ويشعرني بالاطمئنان لمستقبلي، كنت أؤمن أنني سأكون مثل أمي، مادامت أمي امرأة جميلة، إذا سأكون أنا أيضاً يوماً ما مثلها امرأة جميلة.

لكن السيدة الجميلة، والذكية، لم تكن تملك اليقين الكافي لترضى بنمط الحياة التي فرضها

زوجها على الأسرة النموذجية. لم تصمد قناعتها بهذا النموذج طويلاً أمام هجمات أمها وحماتها وجاراتها، ونصائحهن بضرورة إنجاب ذكر، صبي يحمل اسم العائلة، ويرفع من مستوى السيرة الذاتية لها كزوجة وأنثى بإضافة الإنجاز الأهم في حياتها، والذي يكلل كل إنجازاتها: إنجاب ذكر.

وقد تمّ، أنجزت المهمة أخيراً بعد سبع سنوات من ولادتي، وأنجبت مارجو وبكل فخر الذكر المنتظر الذي حمل اسم جده، وحملت هي اسمه وتحولت بين ليلة وضحاها إلى أم يوسف.

وفي ظل ذلك الازدحام البهيج، وانشغال الجميع بالوافد الجديد، ومغادرة أختي رنين التدريجية لعالمي الطفولي وانتقالها إلى لهفة المراهقة والأنوثة، عَرفتُ أولى أوقاتي منفردة بذاتي، محيطة نفسي بعالم فريد اخترعته لنفسي بعد انهيار العالم الفريد الذي كنت أستمتع بالعيش فيه مع عائلتي قبل ولادة أخي.

(كبينا بابوجتك عالسطوح) هكذا يُقال بلهجتنا الحلبية، وهي مداعبةً (سمجة برأيي!) للطفل الذي يُنْكَب بولادة أخٍ أصغر، ومعناه: ألقينا بحذائك إلى السطح، أي أنه لم يعد لك أو لأشيائك مكان هنا بل فقط للقادم الجديد.

وبالفعل، تم سحب البساط من تحت قدميّ الجميلتين، وخلع منهما حذاء سندريلا البلوري، الذي ألقي به بعيداً وتُركت حافية على بلاط بارد.

لكنني، كي لا أسقط في فخ الغيرة، أقنعت نفسي حتى كمال اليقين، بحكمة طفولية مذهلة، أنهم يحبّونه لأنه ذكر، ولأنه صغير. ولمّا كنت أنثى وكبيرة، فأنا خارج المنافسة كلياً. هم لا يحبونه أكثر مني أنا، بل يحبونه أكثر من كل شيء لأنه ذكر، وقد أحببته أنا أيضاً، كأخي الصغير الذكر، وكأخته الأنثى الكبرى، علماً أنه كان طفلاً مذهلاً بالفعل، جديراً بالحب وأيضاً بكثير من الغيرة!

برودة البلاط التي تسربت إلى قدمي الحافيتين (بعد أن كبوا بابوجتي عالسطوح)، تغلغلت عميقاً في داخلي إلى أودية غير منظورة، حيث عشّش شعور مستتر بالدونية، تقبلته كقضاء وقدر، ليس لأنني ما أنا عليه، بل فقط لأنني أنثى. مخلوق جميل رائع ولكن، بتصنيف أدنى درجة من المخلوق الممتاز الآخر، الذكر.

وبعد انضمام العضو الجديد الصغير إلى عائلتنا، لم تعد هذه العائلة تشبه ذاتها، لم تعد هي ذاتها عائلتنا الصغيرة الفريدة. تقوّضت أركانها التي كانت قائمة على الاختلاف، وتحولت إلى عائلة عادية، مزدحمة فجأة بأبناء من مختلف الأعمار، كأن القادم الجديد لم يكن فرداً واحداً بل أسرة بأكملها.

وبانهيار اللبنة الأولى من جدار مقاومة التقاليد، تضعضع الجدار وانهار كلياً حين حملت أمي جنيناً آخر بعد سنوات عدّة، وأصرّت رغم معارضة زوجها على الاحتفاظ به علّه يكون أخاً صالحاً لوحيدها، لكن ذاك الأخير بقي وحيدها حين أنجبت طفلة رائعة الجمال سُمّيت نور.

التحول الصاخب والمرح والتضخم الذي ألمّ بالعائلة الصغيرة، ما لبث أن انسحب على مجالات عدة خلال سنوات قليلة. السلبي منها: أن الراتب الحكومي الذي كان يؤمّن الرفاهية للشاب الأعزب، ومن ثم شيئاً من البحبوحة له ولزوجته، والكفاف المرضي لعائلة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، لم يعد يجرؤ اليوم إلا على ملامسة حد الكفاف. ليس فقط بسبب زيادة عدد المستهلكين، بل أيضاً بسبب التحولات المهمة والسيئة التي ألمّت بسوريا في أوائل الثمانينيات، من حركة تمرد دامية قادها الإخوان المسلمون، قُمعتْ بحزم ووحشية وانتهت بدمار مدينة حماة، إلى تدهور الوضع الاقتصادي والمعيشي بشكل عام حين فُرض الحصار السياسي والعقوبات الاقتصادية على البلد من كثير من الدول وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأميركية رداً على سياسة الرئيس الذي كان قد وضع يده وثقته في يد الاتحاد السوفييتي آنذاك.

ومع أنه تدرّج في السلم الوظيفي استثنائياً لكفاءته في العمل رغم عدم حيازته شهادات عالية، إلا أن والدي الذي فرحنا بترقيته إلى منصب رئيس الديوان العام، تحوّل إلى شخص متوتر وعصبي، وراءه حجم الأعباء الملقاة على عاتقه لإعالة العائلة التي أصبحت تتكون من طفلين وصبيتين وزوجة قوية. الزوجة التي رغم أنها كانت مكافحة ومدبّرة، ذكيّة وقادرة على إيجاد الحلول لكل أنواع المشاكل، إلا أنها كانت أيضاً غير صموتة ولا قنوعة، بل طموحة جداً ومغامِرة.

وكحلٍّ للأزمة المادية الخانقة، صار أبي يداوم كل يوم بعد الظهر في المصبغة مع أخيه جان، الذي صار يمنح أخاه الأكبر مبلغاً تافهاً كـ (جمعية) كل يوم سبت، لتدعم الراتب التافه الذي كان يتقاضاه من المؤسسة. رئيس الديوان العام المحترم والمحبوب صباحاً، تحوّل إلى أجير في المصبغة التي يديرها أخوه بعد الظهر. صار يعود إلى البيت كل مساء بأصابع لطختها الأصباغ، ووجدان حطّمه أنه رضخ صاغراً للأمر الذي نفر منه منذ عشرين عاماً. وأنه دخل أخيراً بقدميه القفص الذي عافته نفسه سابقاً، بعد أن علّق على بابه من الخارج أفكاره وقناعاته ورغباته، واحتفظ فقط بالكتاب في جيبه، يفتحه ويقرأ فيه خفية حين يكون العمل خفيفاً.

رئيس الديوان العام للمؤسسة العامة للتأمينات اجتماعية كان يصطدم يومياً مع رئيسة كل الدواوين في منزله. كانت تخطّط وكان يقلق، كانت تندفع وكان يتريث، كانت تحلم وكان يأرق. وقد عملت جاهدة، لتحافظ على مظهرنا كما تعودنا بأبهى حلة، أولاً عن طريق تدبيرها الفطن تارة،

والعاطفي طوراً، إذ أذكر أنها غير مرة، قامت ببيع قطعة من مصاغها الذهبي لتشتري لنا فساتين جديدة، وثانياً عن طريق المنح والهدايا والمساعدات التي كانت تتلقاها من والدتها سراً ومن والدها الميسور نسبياً علناً، قبل أن يغادر الحياة فجأة تاركاً لها ميراثاً صغيراً أودعته في البنك تحسّباً لأيام أصعب.

جدّي لأبي، كان يكتفي بتقديم القصائد الطريفة وتأليف الأغاني واختراع الألقاب لكل حفيد من أحفاده. كما اعتاد أن يحضر لنا كيساً من مختلف أنواع الحلويات والشوكولا كل يوم أحد. بيد أن جدتي أغنة، دأبت على منحنا مصروفاً أسبوعياً (لي ولرنين) قدره خمس ليرات سورية على مدى سنوات عدّة، منذ أن كان هذا المبلغ يكفي لشراء حاجياتنا الكمالية لأسبوع، وحتى صار لا يكفي لشراء كيس من البوشار.

كما كانت تحفظ تواريخ أعياد ميلاد كل أحفادها، وتهديهم 50 ليرة سورية. أيضاً، منذ أن كانت هذه الخمسون تكفي لشراء قطعة ثياب محترمة، وحتى أصبحت لا تكفي لركوب سرفيس الجامعة لمدة أسبوع.

طبعاً المنح المادية كانت مخصّصة للأحفاد الكبار في الأسرة، أما الطفلان يوسف ونور، اللذان فتحا أعينهما على عالم صارت فيه الموزة حلماً، واقتناء سيارة هلوسة سوريالية، كانت تكتفي جدتي بمنح كل منهما حبة موز كلما قاما بزيارتها، وكانت هذه الهدية تجعلهما يطيران فرحاً وحماسة، حتى أنني سمعتهما مرة يخطّطان لما سيفعلانه بالموزتين للاستمتاع بهما لأقصى درجة. كان يوسف يهمس في أذن نور:

«نقسم موزتي إلى قطعتين واحدة لي وواحدة لك ونأكلهما، أما موزتك فنجعل ماما تصنع منها كوكتيلاً مع حليب، ما رأيك؟» وأذكر أن نور كانت تتردّد في الموافقة، خوفاً من السقوط ضحية استغلال ما، ثم ما تلبث أن توافق على مضض، وتندم بعد ذلك.

كنت في ذلك الوقت أخطو خطواتي الأولى في عالم الأنوثة، لاحقة بأختي رنين التي سبقتني إليه منذ سنوات عدة، مودّعة طفولة هنيئة دافئة، لم يعكّر صفوها ضيق ذات اليد الذي داهمنا فجأة منذ سنوات قليلة. كانت أمي تبتاع ملابسنا الأوروبية الصنع من أغلى المتاجر في حلب، كما كنّا نرتاد أحسن مدرسة خاصة في حينها. أفخم الألعاب كانت تهدى إلينا في مواسم الأعياد، ونزهاتنا البهيجة أيام الآحاد في سيارة جدي أنطون السيتروين كانت نقطة علاّم وحدثاً منتظراً خلال الأسبوع.

كانت رنين تجلس في حضن جدتي لوريت مع كيس الموالح وبعض الفاكهة في المقعد الأمامي

بجانب جدي الذي كان يقود، بينما كان المقعد الخلفي يكتظ بأمي وأنا في حضنها ملاصقتين لخالتي هدى، وخاليّ الصبيين الشقيين حسان وبسام الذي كان أصغرهما في عامه السادس عندما تزوجت أخته الكبرى. وفي كثير من المرات، كنا نصطحب معنا ابنة عمي جان التي كانت تصغرني بسنة واحدة إذا تأمّن لها حضن فارغ ما تجلس فيه.

السيتروين البيضاء لم تكن أول سيارة يمتلكها جدي، لكنها كانت الأخيرة، فعندما تغيّرت الأحوال الاقتصادية في البلد، وتعثّرت التجارة الحرّة، لم يعد من السهل حتى للشخص الميسور أن يشتري سيارة.

في العام 1970 انطلقت الحركة التصحيحية (الإصلاحية) في سوريا بقيادة الضابط الشاب الذي كان وزيراً للدفاع آنذاك، ومن ثم استلم سدّة الحكم في العام التالي، مانحاً حزبه (حزب البعث) السلطة المطلقة في كل مجالات الدولة، السياسية منها والعسكرية وصولاً إلى الاجتماعية والاقتصادية. وقد كان من أهمّ منجزات تلك الحركة أن تمّ منع التجارة الحرّة وتقييد عمل المؤسسات الخاصة والسيطرة على جميع مصادر الإنتاج، فانتقلت تلقائياً جميعها لتصبح تحت تصرّف الدولة. وأحد أهمّ القرارات التي صدرت أيضاً حينها، الضريبة العالية التي فرضت على السيارات والتي وصلت إلى 300 في المائة من القيمة الأصلية. والأدهى من ذلك أنه إذا رغب المواطن باقتناء سيارة، كان عليه أن يتقدم بطلب رسمي إلى مركز حكومي مختص، ليحصل على واحدة بعد عدّة أشهر أو عدّة سنوات، عندما تقرّر الدولة أن تقوم بصفقة شراء سيارات. بالنتيجة اعتبرت السيارات من وسائل الرفاهية التي صارت حكراً على طبقة معينة من الأشخاص استخدمت نفوذها في بناء إمبراطورية تجمع المال والسلطة على حساب الناس والبلد.

وقد عاصرنا فرحة جدّي وأخوالي حين قام جدّي أنطون بتسجيل اسم أحد أبنائه للحصول على واحدة من دفعة سيارات يابانية كانت الدولة قد أعلنت عن عزمها استيرادها، من طراز مازدا، نيسان وميتسوبيشي. أتذكّر حين أتوا بالقوائم ودرسوا مواصفات كل سيارة مقارنة بسعرها، وكيف وقع الاختيار أخيراً على الـ نيسان.

وبطبيعة الحال، فإنّ الموظف الحكومي ذا الراتب المحدود، وبغضّ النظر عن منصبه، كان مستثنى تلقائياً من تلك الطقوس، إلا إذا احترف الرشوة والتلاعب والاختلاس، وهي مهارات لم يكن ميشيل ربيب دير الشير يمتلكها.

مات جدّي أنطون بعد سنة من تقديمه ذلك الطلب، وقبل أشهر من وصول العروس البيضاء،

التي استلمها خالي بفرحة مشوّهة، عكّرتها غصّة مرّة، وذكرى الوالد الذي انتظر اليوم الموعود ومات دونه.

عمي روبير، آخر عنقود جَدَّيَّ لأبي، يوسف وأغنة، استلم في الدفعة نفسها سيارة ميتسوبيشي لانسر كان جدّي يوسف قد أعطاه ثمنها. ولد روبير حين كان أبي في الدير، وقد ربّته أخته ماتيلد التي بقيت دون زواج لأن العرسان القلائل الذين تقدّموا لخطبتها كانوا دون مستوى طموح جَدَّيّ اللذين تسلَّل الغرور لرأسيهما بعد أن ذاقا حلاوة البحبوحة بعد مرارة القلّة. وبالمقاس نفسه، كان مستوى جمالها أقل من طموح العرسان المرموقين المقتدرين الجديرين باحترام جديّ وتقديرهما. بالنتيجة، بقيت ماتيلد في بيت أهلها، تزوجت الدلو والممسحة، وعاشرت الصلاة، وبقيت رفاهيتها الوحيدة تتمثّل في التردّد على المتاجر وزيارة الخيّاط، وحضور القدّاس بعد ظهر كل يوم. وما لبثت أن غرقت في كآبة سوداء بعد الوفاة المفجعة لأختها ماري إثر سرطان فتك بدماغها، ومثلها جدتي، التي ما أن صحت من صدمة فقدانها ابنتها الشابة، حتى تحوّلت إلى التفكير بالأخرى، وأحسّت بالذنب بأن حمّلت نفسها مسؤولية بقائها دون زواج، وشعرت بالخطر يهدّد مستقبلها وشيخوختها، فأصرّت قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة أن يُسجَّل منزل العائلة باسم ماتيلد ضمانة لمستقبلها، وهرباً من تحكّم إخوتها بها. وقد نُفّذت رغبتها وهي على سرير المرض وقبل أن تموت بأيام. ولكي تبقى ماتيلد بجانب أمّها المحتضرة وتسهيلاً للأمور، قامت بتحرير وكالة عامة رسمية منها لأخيها روبير ليتوكّل عنها في المعاملات الرسمية الكثيرة التي يقتضيها نقل الملكية من الأب إلى ابنته، فأغمضت جدتي عينيها مرتاحة البال.

كانت عمتي تنجز أعمالها المنزلية المضنية بإتقان تام، وفور انتهائها تسرع بالاستحمام والتأنق لتهرع إلى الكنيسة وتحضر قداس الخامسة عصر كل يوم ما عدا السبت، إذ يكون برنامجها مزدحماً، ولم تكن تنهي أعمالها إلا في المساء.

عمّتي ماتيلد التي سقطت أسيرة التجّهم والكآبة، تغيّرت حياتها حين استيقظت ذات يوم، وفوجئت بصورة العذراء الصوفانية التي كانت موضوعة على تسريحتها، موشاة بنقاط ذهبية لامعة تغطي الواجهة الزجاجية للصورة. لم تستوعب الأمر بداية، مسحت إحدى النقاط بإصبعها، لتخبرها لزوجة السائل ورائحته بأنّه زيت.

صعد الدم إلى رأسها وتسارعت دقّات قلبها حتى شعرت أنه سيخرج من صدرها، طفرت الدموع من عينيها وخرّت ساجدة وهي ترنم: في ظل حمايتك، نلتجئ يا مريم.

حين أفاقت من الصدمة، نقلت الصورة إلى مكان مرموق في المنزل وأحاطتها بهيكل صغير

صارت تشتري حين عودتها من القداس الزهور الطبيعية وتنسّقها على جانبيه في إنائين أنيقين، كما أخذت تستقبل الناس من أقرباء ومعارف وأصدقاء، مؤمنين وفضوليين جاؤوا بعد إشاعة الخبر للتبارك من الزيت الطاهر، وتلاوة الأدعية والصلوات التي كانت تقودها عمتي بخشوع وفخر ونشوة خالصة، ممتنّة للعذراء أن أصطفتها من البشر وأحلّت نعمتها في غرفتها. كان ذلك هو إنجازها الكبير ونصرها المظفّر في حياة لم يكن لها قبلاً لون ولا هدف.

بعد سنوات قليلة، اعترف عمّي روبير وهو يضحك ملء شدقيه، أن جديَّ هو من كان يقوم برشّ الزيت على الصورة، ليُسعد ابنته الكئيبة ويجعل لحياتها معنى، وأنا شككت وقتها وما زلت، بأن روبير هو من كان يقوم بذلك، بغرض اللهو والسخرية من ناحية، وكي يلهي عمّتي عن الاهتمام به ويقصيها قليلاً عن التدخل في شؤونه من ناحية أخرى.

كان روبير الصغير مدلّل الأسرة وفخرها. أُلحق بالمدرسة الأميركية التي أنشأها المبشّرون الإنجيليون في حلب، وسميت بالعامية «مدرسة الأميركان»، ومن ثم انتسب لكلية الهندسة الميكانيكية. ماتيلد هي مَنْ كانت تختار له ملابسه من أرقى وأغلى المتاجر، بينما كانت جدّتي تعدّ له أطباقاً خاصّة لا تقدَّم لسواه. كما خُصّصت له في المبنى نفسه غرفة فوق السطح، اشتراها جدّي وبنى فيها مطبخاً وحمّاماً صغيرين، ووضعها تحت تصرّف ابنه الأصغر ليدرس فيها ويسمع موسيقاه المجنونة ويستقبل أصدقاءه.

حين اشتعلت الحرب في سوريا، وطالت ويلاتها مدينة حلب، كان جدّي قد بلغ عامه المائة، متمتّعاً بصحة جيدة وذاكرة مبهرة وهمّة عالية، لا نتيجة لبنيته القويّة فقط وإنما أيضاً للعناية الرفيعة المستوى التي أحاطته بها زوجته ومن بعدها ابنتها على مدى السنوات الطوال. ماتيلد كانت رفيقته الأخيرة وقد شاخت أكثر منه. وفي السنوات الأخيرة صار هو من يراعيها ويعتني بها في مرضها ويساعدها في المطبخ والمنزل، بعد أن سقطت ضحية الروماتيزم الذي افترس مفاصلها وابتلاها بآلام مبرّحة، لم تقوَ كلّ صلواتها على التخفيف من وطأتها.

نفدت مدّخرات العائلة تماماً على مرّ السنين، بعد أن توقف الإيراد بتوقف جدّي عن العمل، وترْك مكانه لعمّي روبير الذي غيّر صنعة العائلة التي درّت عليهم ذهباً، لأنها لم تعجب زوجته. فباع دكان الدهان بعد أن استحوذ عليها وافتتح (ميني ماركت) لم يعرف كيف يديرها فعلق في كمّاشة الديون، وقطع التمويل عن أبيه وأخته واكتفى بمساعدتهما بشكل رمزي سداً لرمقهما متحجّجاً بمسؤولياته الكثيرة ومتطلّبات أسرته.

حين تزامنت الحرب مع الشتاء، بدا الأمر وكأنه مؤامرة خبيثة لتعذيب العجوزَين والقضاء على مقاومتهما. البرد القارس بدون وسيلة تدفئة، والظلام الدامس بدون كهرباء، وانقطاع الخبز عن المدينة، وأوجاع عمّتي، وضيق ذات اليد بعد اليسر، أمور استطاعت أن تصيب بالكآبة الرجل الأسطورة الذي لم تنلْ منه تكاليف الحياة على مدى مائة من السنوات. اكتئاب جدّي، لم يعد يقصّ قصصه الجميلة العجيبة على أحد، صار يكتفي بالجلوس على أريكته القديمة ملتحفاً بردائه المنزلي السميك، ومرخياً قبّعة صوفيّة عتيقة حتى أذنيه، متمتماً بين الفينة والأخرى بكلمة: «إيه.. دنيا!» أثناء سماعه عبد الوهاب يغني: «مهما غيّرتي حالي.. قلبي يحبك يا دنيا».

وحين أتمّ الروماتيزم مهمته المدمّرة، وفتك بمفاصل عمتي حتى اقتعدت الفراش، لم يكن هناك من ينبري للمساعدة والخدمة إلا هي، مارجو، أمي، التي اندفعت إلى خدمة العجوزين دون حساب ودون تفكير، بهمّة كبيرة ومحبة. وحدها دون سائر الكنّات، التي تحجّجت كل واحدة منهما بمرض أو علّة وأغلقت بابها على نفسها، تاركة مارجو وحدها هناك، تداوم على الخدمة بصمت وضمير.

كنت أسمعها من فراشي الدافئ، تنهض مبكّرة في البرد القارس وتهرع مسرعة إلى بيت جدي، فيصيبني الذهول، وأسأل نفسي ما الذي يجبر هذه المرأة الجبّارة على خدمة حمٍ لم يمدّ لها يد العون يوماً خلال السنوات الصعبة من حياتها، وابنة حمٍ لم تكن ودودة معها خلال الأعوام الأولى من زواجها بأخيها، بل عاملتها بفوقية، حين دخلت العائلة كطفلة غريبة بأمسّ الحاجة إلى يدٍ تسندها وتربّت على خدِّها.

كنت أهرع بدوري لمساعدتها، إشفاقاً عليها من المهمّة المرهقة في عمرها هذا، فأفاجأ أنها تسبقني عمداً لأداء المهمّة بدلاً مني لأنّها تشفق عليّ أيضاً، لأنني حسب قولها هشّة ومدلّلة، وغير معتادة على العمل خارج حدود مكتبي الأنيق وكرسيِّ الجلدي المريح الذي لاكته الحرب وبصقت دواليبه.

الحرب في النهاية، لاكتنا جميعاً، ولم تترك أحداً هشاً. أجبرت الهشّ ليصبح قاسياً، كما هشّمت ظهور الأقوياء.

حين أصيبت أمّي بانزلاق فقرات عمودها الفقري، وجب علينا إيجاد حلّ جذري لمشكلة جدّي وعمّتي. مبدئياً تشاركنا مع عمي جان في تسديد راتب ممرضة جئنا بها للعناية بالعجوزين، تداوم أربع ساعات في اليوم فقط، لتبقى المشكلة قائمة خلال الساعات العشرين الباقية من اليوم.

صار جدّي يستيقظ في الليل، ويقوم من فراشه ليأكل أو يشرب، فيضلّ طريق العودة إلى

غرفته في ظلّ انقطاع الكهرباء، فيصرخ من مكانه مذعوراً إلى أن يوقظ عمّتي، التي تضيء شمعة، وتصيح من غرفتها بدورها، ليهتدي بصوتها ويلحق بصيص النور الشحيح، فيصطدم بالجدران وقطع الأثاث إلى أن يصل بصعوبة إلى غرفته.

قرّرنا في هذه الظروف القاهرة أن ننفّذ وصية جدتي قبل مماتها، ونبيع منزلهما الكبير العائدة ملكيته رسمياً إلى عمتي، لنشتري بقيمته لهما منزلاً أصغر، ونوظّف بالفائض من ثمنه ممرِّضة مختصَّة تبقى معهما على مدار الساعات الأربع والعشرين. ولكنّنا ما إن بدأنا مرحلة تنفيذ هذا القرار، حتى صدمتنا مفاجأة من العيار الثقيل، حين علمنا أن عمّي روبير وقبل أن يهاجر لاجئاً هارباً من الحرب مع أسرته إلى ألمانيا باع المنزل لتاجر عقارات، بموجب الوكالة العامة المحرّرة باسمه من قبل عمتي منذ سنين طويلة، وقد فوجئنا بالتاجر يقف بالباب هنا مطالباً باستلام ملكه. وذلك قبل أيام قليلة من موعد سفري.

بعد أن سافرت، بقيت أمّي مدة شهرين طريحة الفراش تعاني من فتقين وانقراصات عدة في عمودها الفقري، أصابتها دون شك جرّاء حمل عمّتي وتنظيفها وتحريكها أثناء الفترة الطويلة التي خدمتها فيها.

أخلى عمتي وجدي دارهما للمالك الجديد، واضطرا إلى اللجوء إلى دار لرعاية المسنين تقوم على خدمتها مجموعة متفانية من الراهبات. وهناك تفاقمت كآبة جدّي وامتنع عن الطعام، حتى انطفأ في صمت عن عمر يناهز السنتين بعد المائة، بعد حياة صاخبة عاشها حتى الثمالة وختمها بحرب أحرقت بلده وخيانة أحرقت قلبه، وإفلاس أذلّه بعد عزّ طويل.

من الوطن.. إلى المنفى

أحببته أكثر من أي رجل في العالم. أحببته، لعدّة أسباب، لكل الأسباب، بدون أسباب. أحببته وكفى. أحببت جديّته ولهوه، ذكاءه وطيبته، رقيَّه وفجوره، رجولته وطفولته، طوله الفارع وجماله، ولعه وحنانه، شهوته، افتتانه بي، ونظرته التي تعلّقت بوجهي كزهرة دوار تلاحق شمسها.

منذ أن تلقّيت الدعوة لحضور تلك الأمسية، بدأت أشعر بالإثارة لسبب خفي. وعندما عبَّرَت صديقتي فرح التي كنت مقيمة عندها عن تردّدها في تلبية الدعوة، قرّرت أن أذهب في كل الأحوال حتى لو اعتذرت هي، لكنها اقتنعت أخيراً فذهبنا سويّة.

كان الداعي طبيباً من أصل فلسطيني متزوّج من طبيبة نمساوية ومقيم في النمسا منذ ما يقارب ثلاثين عاماً. كانا يحتفلان بالذكرى العشرين لزواجهما، وقد أقاما حفلاً في حديقة منزلهما الكبير دعيا إليه عدداً من أصدقائهما الذين هم من الشخصيات المرموقة في بريغنز، من أطباء وفنانين.

كنت قد تعرّفت إلى ذلك الطبيب وزوجته في حلب قبل سنوات عدّة، عندما نصحَتهما فرح صديقتنا المشتركة المقيمة في النمسا أن يقوما بزيارة الفندق الذي كنت أعمل به وذلك أثناء جولتهما السياحية في سوريا التي تضمّنت مروراً سريعاً بحلب.

اتَّصلت بي فرح وقتها وأعلمتني بأن أصدقاء لها سوف يمرّون بي في الفندق وأوصَتني أن أعتني بهم. وفعلاً، كانا في مكتبي بعد يومين، وعرّفاني إلى نفسيهما، الدكتور عز الدين النابلسي وزوجته هيلغا، بدا لي أنهما شخصان مميزان ومريحان منذ النظرة الأولى، سررت فعلاً بمعرفتها ودعوتهما للعشاء في الفندق، ما أتاح لنا قضاء وقت ممتع قطعناه في أحاديث شيقة وختمناه بوداع حار على أمل صادق باللقاء ذات يوم، وتحقّق الأمل بأسرع مما توقعنا، بأن التقينا في النمسا التي طرت إليها حين حلّت الحرب ضيفاً ثقيلاً على سوريا، وزارت حلب وأقامت في الفندق وأكلت المطعم وتركت آثارها البشعة حتى في نفوسنا الهاربة إلى أقاصي الأرض.

عندما تلقّيت تلك الدعوة، كنت أتخبّط في متاهات من العتمة، سارية خلف بصيص نور ضعيف يومض خلف جدران تنعطف بي يمنةً ويساراً، تقودني إلى الأمام تارة وتعود بي إلى الخلف تارة أخرى.

كنت قد غادرت منذ أيام عدّة، مركز إيواء اللاجئين الكائن قرب مدينة سالزبورغ الذي كنت قد نُقلت إليه بعد طلبي حقّ اللجوء في النمسا. حيث قضيت هناك نحو أسبوع أُبلغت في نهايته أن ملفّي حُوّل إلى إسبانيا لأنني دخلت أوروبا بواسطة فيزا صادرة من السفارة الإسبانية وذلك حسب اتفاقية دبلن. وكان عليّ أن أنتظر الرد بموافقة إسبانيا أو رفضها منحي حقّ اللجوء إليها. وقد قيل لي إنه في حال جاء الجواب بالرفض (وهو احتمال وارد نظراً للظروف الاقتصادية السيئة التي تمر بها إسبانيا)، فإن النمسا لن تجد سبباً لترفض منحي ذلك الحق على أراضيها. فنُصحت بأن أنتظر، ولم يكن عندي خيار آخر، فقط كان عندي قلق كبير من أن يطول الانتظار بي قبل أن أستقرّ في مكان يخصّني وحدي، ودون أن أكون ضيفة ثقيلة على أحد.

ومع أن فرح وبحكم الصداقة الطويلة والعلاقة الوطيدة التي بيننا كانت قد فتحت لي منزلها بمحبة لأشهر عدّة. إلا أن محبتها وكرمها لم يخفّفا إلا قليلاً من وطأة شعوري بالثقل والمهانة.

كنت أشعر فعلاً أنني أختنق في قاع المحيط، أنتظر سكون العاصفة كي أسبح إلى السطح، وأتنفّس. كان قلبي يرتجف برداً، لكن روحي كانت تقاوم مدركةً أنها ستملك يوماً ما القرار، لتعتق نفسها من عبودية الانتظار. كنت أنتظر ذلك اليوم وأتابع إيماني يوماً بعد يوم، بأنني أقوى مما يحصل حولي، أنني أنا، الحقيقة الوحيدة هنا، وكل هذا السواد الذي يحيط بي إنما هو وهم على طريق الزوال.

قلبي الذي كان يرتجف من البرد ومن الحرمان، كان يعشق منذ كثير من السنوات شبحاً غامضاً كان قد عبر في حياتي لبرهة وزوّدها بأحلى ما ابتدعته الخليقة على مرّ العصور، ومضى. مضى لكنه بقيَ.

كنت أعرف أنّ في الحياة أناساً يعبرون ويمضون، وأناساً يعبرون ويبقون. هو عبر ومضى وبقيَ. وبقيت أنا معه، على مرّ سنين، لا أعرف إن كنت حزينة لذهابه، أم سعيدة لبقائه. لا أعرف إن كان لا يزال موجوداً هنا فعلاً، أو أنه ما وُجد في حياتي قط.

التقيته في دمشق. هو دبلوماسي إسباني وسيم ومثقف، حاورني في الجلسة الأولى في قضايا عامة وعميقة. أعجبتني طريقة تفكيره، وأخذتني سلاسة إدارته للحوار حين سرقنا الوقت دون أن نشعر.

كان يعيش في دمشق منذ ثلاث سنوات، مكلفاً بمهمة دبلوماسية مبهمة، ويداوم في السفارة الإسبانية في المزّة.

كنت في زيارة عمل لدمشق، وقد دعاني مساء ذلك اليوم الذي كان مثقلاً باللقاءات والاجتماعات، صديقي الدمشقي علاء، وهو صاحب شركة سياحية حديثة ونشيطة صارت في فترة انتعاش السياحة في سوريا بعد العام 2004 واحدة من أهم الشركات في مجال استقدام السيّاح، وبالتالي واحداً من أهم عملاء فندقنا. دعاني إلى أحد المقاهي الحديثة للاسترخاء بعد اليوم الشاق. وما أن جلسنا حتى تلقّى اتصالاً هاتفياً. بعد انتهاء المكالمة، أخبرني أن صديقه الإسباني سوف يلتحق بنا، وسألني إن كنت أمانع.

أكيد لا.. بالعكس. قلت.

هو شخص كتير ظريف، والبنات بيحبوه. بيشبه جورج كلوني.

عم تمزح؟!

ضحكت، وتحمّست، واختلست نظرات سريعة إلى المرآة في الواجهة التي أمامي، واطمأن قلبي إلى الهيئة التي سأقابل فيها «كلوني».

عندما وصل، اجتاحتني للحظة خيبة صغيرة، لم يكن يشبه كلوني كثيراً. بعد أن صافحني بحرارة وأدب وابتسامة كبيرة، التقطت شيئاً من الشبه بينهما، لكنه ما إن بدأ بالكلام، وبدأت التعابير تتناوب على وجهه حسب موضوع الحديث، حتى نسيت كلوني تماماً. وعندما ودّعني بقبلتين حارّتين على الطريقة الإسبانية، عرفت لماذا تحبه البنات!

تناقشنا وقتها في مواضيع كثيرة، كالسياحة في سوريا، والطبيعة الديموغرافية للبلد، واختلافات الشعب، وتنوّع الأديان والسياسة. وقد تحدثت يومها بشيء من الأريحية على غير العادة، وكسرت حدة الحذر المعتاد ما دمت أحاور شخصاً غير سوري. استرسلت بالتعبير عن رأيي مستغلّة الفرصة النادرة، ومغامِرةً بالكشف عن قناعاتي التي كانت محرّمة وغير شرعية. ومع ذلك، فقد وجدني متحفّظة ومتخوّفة رغم تفهمه للوضع الحرج للحريات وإبداء الرأي في سوريا.

لكنكِ قلتِ إنكِ كنتِ سعيدة باستلامه للسلطة.

نعم كنت سعيدة. فبعد القمقم الذي كان والده قد حشر الشعب فيه، فرحنا بأن يقود البلاد شاب بدا مثقفاً وقريباً من عقليتنا، علّه يخرجنا من ذلك القمقم، بما أنه لم يكن في الأفق مجال آخر للخيار.

وقد فعل نسبياً، حسب ما أرى، فلماذا تغيّرت وجهة نظرك؟

فعل؟ أسمعت بربيع دمشق؟

نعم، لقد قرأت كتاباً عنه.

ذاك كان أول ما فعله، في أقلّ من سنة، كأنّه كان فخاً لاستدراج من لديه توجّهات للتغيير السياسي في البلد.

وهل كنت أنت واحدة منهم؟

أنا؟

ضحكت بسخرية.

بالطبع لا، كنت وما زلت جيدة جداً في دور المتفرجة فقط، في الحقيقة هو الدور الوحيد الذي تدرّبنا عليه جيداً. كان أفقنا محدوداً لدرجة أننا حتى لم نكن نفكّر أو نحلّل المشاهد التي كنا نملك حقّ التفرج عليها.

وماذا شكّل بالنسبة إليك إذاً ربيع دمشق؟

علّمني ألا أتأمّل خيراً! حسناً، لست أدري كيف سأشرح، لكن القصة بدأت منذ أن تولّى هو سدّة الرئاسة بعد وفاة والده في العالم 2000، لقد سخرنا وقتها بالسرّ طبعاً وتأسفنا على الطريقة المهينة التي أُدير بها

الموضوع، من تعديل للدستور تمّ في مجلس الشعب خلال ربع ساعة ثم تنصيب وليّ العهد على العرش خلفاً لوالده. سخرنا من الحدث لكنه لم يصدمنا، كنا مهيأين نفسياً لهذا الاحتمال وتقبّلناه كقضاء وقدر. الذي فاجأنا وصدمنا في الحقيقة كان الخطاب الذي ألقاه الرئيس الشاب بعد تأديته القسم، لقد تكلّم بأسلوب جديد فتح أذهاننا على آفاق سياسية كنا نخشى أن نحلم بها؛ وعدنا بإطلاق الحريات وبالتحول إلى الديمقراطية وصدقّناه، لنكتشف بعد أقلّ من سنة، أنه لم يكن يخاطبنا نحن في ذلك الوقت، بل كانت مجرد عناوين عريضة للإعلام العالمي الذي كان يتابع الخطاب.

ولكن في أقل من سنة، أليس حكماً سريعاً؟

كان هذا عمر ربيع دمشق. فكما صدّقت أنا الوعود الربيعية وأنا أتابع الخطاب في بيتي، هناك من صدَّقها في ساحات العمل السياسي، وهناك من قام بافتتاح منتديات ثقافية وفكرية وسياسية، وهناك من قام بإرسال رسائل مفتوحة للرئيس طالبه في إحداها بالعدل قائلاً: «أول العدل ردّ المظالم إلى أهلها، ومن غير الممكن أن تظلّ سوريا مملكة الصمت»، كما طالبه آخر في رسالة أخرى بنقل البلاد من وضع الرعية إلى وضع المواطنة، وأيضاً هناك من قام بإصدار بيان رسمي «بيان التسعة والتسعين» وقّع عليه تسعة وتسعون مثقفاً سورياً طالبوا برفع حال الطوارئ وإطلاق الحريات العامة والإفراج عن المعتقلين السياسيين، ليخرج وزير الإعلام بعد فترة وجيزة ويصرّح تصريحه الشهير: بأن «دعاة المجتمع المدني استعمار جديد»!

وبعد شهر تقريباً من هذا التصريح أُعلن انتهاء ربيع دمشق حينما قامت أجهزة الأمن بتجميد نشاط المنتديات الفكرية والثقافية والسياسية.

عشرة على عشرة، وليس هذا فقط، بل تم إلقاء القبض على كل المثقفين والسياسيين والكتّاب الذين قاموا بتلك النشاطات التقدمية، وحُكم على أغلبهم بالسجن لسنوات طويلة. وبالنسبة إليّ كمتفرجة ومستمعة وقارئة للأحداث من منزلي، كانت صدمة أخرى جعلتني أستفيق من الأولى التي تلقيتها يوم سمعت الخطاب وفرحت. فنفضت أحلامي بسوريا حضارية وديمقراطية من رأسي وأجّلتها إلى أجل غير مسمّى.

ما تقولينه صحيح على صعيد الحريّات السياسية، ولكن اقتصادياً، لقد خرجت سوريا فعلاً من القمقم، هل تنكرين؟

حسناً، لن أنكر.. وقد صفقنا كثيراً لافتتاح مصارف خاصة وشركات تأمين وبناء مول تجاري ضخم في أكثر من منطقة أسوة بكل بلاد العالم المعاصرة. ولكن، عندما تعرف من هو المموّل الأساسي والشريك ذو الحصة الكبرى في كل تلك المشاريع والمؤسسات الحضارية، وعندما تعرف حجم الانهيار في مستوى معيشة السكان وخصوصاً في الأرياف، ومدى التدهور الذي ألمّ بالركن الأساسي من أركان اقتصاد سوريا وهو الزراعة، تدرك أن ما حصل لم يكن لمنفعة الشعب والوطن، بل مجرد قشرة تجميلية تخفي لبّاً يتآكل بسرعة وينذر بكارثة تهدّد البلد. التحوّل الاقتصادي في سوريا لم يكن إلا مخطّطاً لترسيخ سلطة الإمبراطورية المتمثلة في الطبقة المسيطرة بطريقة أكثر عصرنة وتحضّراً.

هذه أقوال خطيرة. قال بغمزة ساحرة.

وأنا غير مسؤولة عمّا قلت، وأسحب كلامي، إلا إذا كنت قد سجّلت الحديث.

ضحك عالياً وقال وهو يلوّح بموبايله:

كوني طيّبة وعاقلة، صار بإمكاني الإيقاع بك بسهولة.

ضحكت مستنكرة:

لا أتخيّل أن تبتزّني بهذه الطريقة، come on، تبدو لي جنتلمان.

ومثل جنتلمان حقيقي، ابتسم بود ووداعة، وقام في غفلة منّا ودفع الفاتورة، ما جعلني أحدّث نفسي قائلة: «كأنّه يشبه ذلك الصبي المميّز، الذي يستحق أن يكون حبيباً لي».

الحب كان دائماً عنصراً أساسياً في حياتي، منذ أن فتحت عينيّ على الحياة عبر روايات مكتبة والدي. الحب كان بطل كل الروايات، ابتداء من «سندريلا»، و«بياض الثلج»، ومروراً بـ «آنا كارنينا» و«مدام بوفاري»، وانتهاء بـ «ذهب مع الريح» و«مرحباً أيها الحزن»... والقائمة تطول.

منذ طفولتي، وحتى قبل أن تتفتّح أنوثتي، بدأت أبحث عن صبي مميّز يستحق أن يكون حبيباً لي. بحثت في النادي الرياضي حيث كنّا أنا ورنين منتسبتين إلى فريق الصغيرات بكرة السلة، وكنت في حوالى الثالثة عشرة حين وجدت ضالتي في صبي بمثل عمري، طويل وأسمر وجميل، اكتفيت منه بالنظرات والبسمات واللفتات والتعليقات الصبيانية، حين كنّا أنا وصديقتا عمري لينا وغدير نزرع الشارعين حول النادي كل يوم ذاهبات وعائدات في نزهة بنات لا تنتهي. حبيبي الأول كان اسمه «آني»، وهو اسم نسائي مستعار أطلقته عليه أنا والبنات للتمويه، مثله مثل مها وتيريز، وهما اسما حبيبَي غدير ولينا.

لم أعد أذكر كيف انتهت قصة الحب الأول، ومتى وكيف تلاشت «آني» من حياتي. لكنني أذكر كيف انتقلت من حب إلى حب على مدى سنين عمري التالية باحثة عن «الصبي المميز الذي يستحق أن يكون حبيباً لي»، دون أن أحصل على العلاقة المثالية التي حلمت بها، وإنما فقط، على بضع قصص طوباوية مجنونة تشبه قصص الروايات التي تتلمذ قلبي بين صفحاتها.

حين بلغت السادسة عشرة، وكنت لا أزال طالبة في السنة المدرسية الأخيرة (البكالوريا) حدثتني أمي، وعيناها تلمعان، عن العريس الأول، وأذكر أنني غضبت منها غضباً شديداً وشعرت بالإهانة وثرت ثورتي الحقيقية الأولى من أجل حريتي.

وتتابعت الثورات على مرّ السنوات بتعاقب العرسان، الذي صار كثيفاً بين سن الثامنة عشرة والخامسة والعشرين، وبقي جيداً ولكن بكثافة أقل حتى ما بعد الثلاثين، نظراً إلى ما كنت أبدو عليه كفتاة جميلة ومؤدبة.

كانت ثوراتي تنتهي بانتصارات ساحقة وبدون جهد كبير، لأن أبي وأمي كانا - والحق يُقال - متفتحي الذهن، مؤمنين بي وواثقين من مستقبل باهر كان ينتظرني. كانت أمي بالذات تقوم بمحاولات كثيرة لإقناعي بمواصفات العريس، وتكتفي بتحذيري من إضاعة الفرصة تلو الأخرى، ومن ثم تدعني لشأني.

جدّتي لوريت كانت تقول لي: «البنت إلها رقصة»، بمعنى أن فرصة الفتاة للوقوع على عريس جيد تأتي خلال فترة قصيرة ما تلبث أن تنتهي بأفول عهد صباها الأول، وأنه على الفتاة العاقلة أن تختار فارسها قبل انتهاء تلك الرقصة.

وأنا كان لي رأي آخر، إذ كنت أرى حياتي حلبة كبيرة لن أشبع من الرقص فيها مهما طالت السنوات، ولن أغادرها قبل أن ألتقي بحبي الكبير الذي يعرف كيف يقود خطواتي، وكيف يتماشى دون نشاز مع إيقاع نغمات شريعتي.

إيمان والديّ بمستقبلي الباهر عائلياً، بدأ يبهت رويداً رويداً مع تقدمي في السن دون زواج. لكن عزاءهما كان في انخراطي الناجح في المجال المهني. في بداية حياتي وحين كنت لا أزال طالبة جامعية في كلية الاقتصاد، عملت مع صديقة لي كانت قد افتتحت مكتبة صغيرة لبيع الروايات والمطبوعات، وبطاقات التهنئة، والهدايا والتذكارات. بعد الجامعة، عملت في مكتب للطيران ومن ثم في مكتب سياحي لسنوات عدة، إلى أن سمعت بفندق مميّز يجري العمل على افتتاحه في حي الجديِّدة، وهو حي جميل عريق في قلب حلب القديمة، ما زال محافظاً على شوارعه العتيقة ودوره التقليدية الأثرية.

المدينة القديمة في حلب، كانت قد أُدرجت ضمن قائمة التراث العالمي للمواقع الأثرية، لدى الأمم المتحدة (اليونسكو) منذ العام 1986، ومع ذلك، لم تكن تلقى العناية الكافية التي تليق بها من قبل الحكومة آنذاك، ولم تكن مستثمرة سياحياً لا على النطاق العالمي ولا المحلي. لم نكن نعرف عنها إلا

دكان أبو عبدو الفوال، ودار الخالة ليونة.

كنّا في طفولتنا نحجّ إلى هناك مرّة في السنة، في أحدّ الشعانين، حين كانت أمي وبعد الاحتفال الديني الموشّى بالشموع وأغصان الزيتون الذي كان يقام في كاتدرائية السيّدة في ساحة فرحات المتاخمة لحي الجديِّدة، تأخذنا لزيارة خالتها ليونة التي تقيم في دار عربية قديمة هناك. كنا نعشق تلك الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجر الحلبي الشهير، ونعشق تلك الدار البهية بباحتها الفسيحة التي تتوسط الغرف العالية الأسقف، وسلالمها ذات الأسوار الحديدية البديعة الزخرفة، التي كانت تصعد بنا إلى الطابق العلوي ذي الدهاليز الطويلة، ومنها كنّا نطلّ على باحة الدار، متلصِّصين على نساء العائلة الصاخبات السعيدات بتأدية طقسهنَّ السنوي تحت شجرة النارنج وحول البركة الصغيرة ذات النافورة، التي كان عمو عبود زوج الخالة ليونة، يقوم على صيانتها مرة كل عام قبل أيام من أحد الشعانين.

وعندما ودّعت الطفولة وهجرت مشاوير أمي، لم أعد لزيارة الخالة ليونة في ذلك الحي الجميل إلا عندما توفي العم عبود حيث قمنا بواجب العزاء، وبعدها، انتقلت العائلة من الدار القديمة للإقامة في شقّة ضمن بناء حديث خارج أسوار حلب القديمة التي لم نعد نزورها إلا لماماً.

مع بدء الانتباه إلى أهمية التركيز على السياحة في البلد، وازدياد أعداد السيّاح الذين اختاروا سوريا كوجهة لرحلاتهم وجاؤوها مفتونين بالقديم والعريق فيها. نشأت فكرة الاستثمار السياحي لتلك الكنوز المنسية في قلب حلب، عبر تحويل عدد من تلك الدور القديمة إلى مطاعم وفنادق. ونجحت الفكرة نجاحاً باهراً ليس فقط في استقطاب السيّاح، بل أيضاً في استقطاب أهل البلد الذين كانوا يتوقون لأمكنة جميلة مثل هذه في مدينة عريقة وأثرية كحلب.

بعد افتتاح أول مطعم في المنطقة، افتتح الفندق الذي رشّحني أحد أصدقائي وكان صديقاً لمؤسسيه للعمل فيه. وكان التحضير لهذا الافتتاح وأعمال التحويل والتحسين التي جرت على ثلاث من الدور المتجاورة القديمة هناك قد بوشر بتنفيذها قبل سنوات، وأثمرت بعد جهود شاقّة عن تحفة فنية جميلة دُشّنت كأول فندق تراثي في سوريا في تشرين الأول من العام 1997، بثلاث عشرة غرفة ومطعم شرقي وبار، وطاقم صغير التحقت به بعد أيام عدة كمديرة للتسويق، بعد أن أستحوذ عليَّ سحر المكان العتيق وأسكرني عبق التاريخ الذي كان يتضوّع من الشوارع والزوايا التي استعدت فيها دفء أشعة شمس الربيع التي كانت تضيء دار الخالة ليونة.

وبدأ المشوار الذي انتهى بمأساة بعد خمسة عشر عاماً. كبرت بين تلك الحيطان العتيقة وكبر الفندق معي، الثلاث عشرة غرفة صارت ستين، بعد أن تمّ شراء عدد من بيوت الحارة واحداً تلو

الآخر وسنةً بعد أخرى، وتم تجهيزها وإعدادها لاستيعاب التضخم في أعداد السيّاح الذين كانوا يتهافتون للحصول على حجز في فندقنا الجميل الذي اشتُهر بسرعة قياسية. خمسة عشر عاماً من حياتي صرفتها في إدارة أمور الفندق القائم ومحاولة تأمين أفضل خدمة لزبائنه، وفي الوقت نفسه في التجهيز للفنادق التي كانت قيد الإنشاء في الجوار.

عندما كان الفندق صغيراً، كان عدد طاقم الموظّفين والعمال قليلاً، كان كلّ واحد منهم يدير أعمالاً عدّة في وقت واحد، وأنا كنت أدير كلّ شيء.

أنا التي وظّفوني إعجاباً منهم بشكلي الجدي المهيب وبالـ C.V المحترم خاصتي، لم يهتم أحد بتحديد طبيعة عملي ومنصبي رسمياً، باعتباري التحقت بالعمل بعد الافتتاح بأيام، بعد أن وزِّعت المسؤوليات والمناصب، من مدير الحجز ومدير الاستقبال ومدير عناية الغرف ومدير المطعم. أسميت نفسي مديرة تسويق، وعملت في كل الأقسام، وانخرطت في كل شاردة وواردة بحماس وشغف كبيرين.

لم تكن إنجازاتي دائماً ذهبية، بل عرفت كثيراً من الفشل وعدداً من الكبوات، خصوصاً في السنوات الأولى نظراً لانعدام خبرتي في مجال إدارة الفنادق، لكن السنين علمتني، واستلمت إدارة الفندق رسمياً بعد حوالى عشرة أعوام على افتتاحه.

في مكتبي الجديد، تلقيت رسالة تهنئة بمنصب المدير على هاتفي المحمول من رقم غريب، لم أهتمّ كثيراً بالموضوع، كما نسيت أن أردّ بالشكر على المرسل المجهول.

بعد حوالى شهر، حلّ موسم أعياد الميلاد ورأس السنة، تلقيت كالعادة كثيراً من الرسائل، من أرقام معروفة ومجهولة، لكن واحدة منهم استوقفتني إذ جاء فيها: «أتمنى أن نلتقي في هذا العام!» الرقم غير موجود عندي، لكنني لاحظت أنه الرقم المجهول نفسه الذي كان قد أرسل لي رسالة التهنئة سابقاً. أصابني الفضول، وأخرجت ألبوم البطاقات «Business cards» وقلّبت صفحاته، علّ اسماً من الأسماء التي فيه يومئ لي، وقد فعل ذلك الاسم الإسباني المزخرف بأناقة على البطاقة التي تحمل شعار السفارة الإسبانية. أخرجت البطاقة وقلبتها، فوجدت الرقم نفسه الذي ألحّ بتهنئتي، وتذكّرت كيف كتبه لي بنفسه في نهاية ذلك اللقاء اليتيم منذ أكثر من سنة طالباً مني الاتصال به، قبل أن يودّعني بقبلتين حارتين وقبل أن يهمس يومها علاء بلؤم في أذني: انتبهي منه، إنه متزوج وأولاده بطوله. يومها، دسست بطاقته في الألبوم مع زميلاتها وتناسيت مروره الجميل في تلك السويعات الخاطفة من حياتي.

«أتمنى ذلك أيضاً» أرسلت هذه الجملة رداً على رسالته، متناسية همسة علاء. ولم يتأخر الرد إلا أياماً قليلة، إذ أرسل يطلب حجز غرفة في الفندق لليلتين.

فحجزت له جناحاً، وسبع سنين من عمري.

في جلستنا الأولى حال وصوله، بادر بإخباري أنه وزوجته قد تطلّقا منذ نحو ثمانية أشهر. ووضع النقاط على كل الحروف للعلاقة قبل أن تبدأ، حين استطرد في شرحه لأسباب طلاقه التي تتلخّص في طبيعة عمله الذي يتطلّب السفر والتنقّل الدائم، ويطبع حياته كلها بطابع عدم الاستقرار، حيث يستحيل عليه الالتزام بأي علاقة زواج. لأن هذا العمل الذي يشترط الولاء الكامل يستحوذ على الأولوية المطلقة في حياته، متقدماً حتى على التزامه بعائلته وابنيه اللذين كبرا في كنف أمهما حتى التحاق أصغرهما بالجامعة هذا العام.

سمعت، وابتسمت. قلت له أنا آسفة من أجل الطلاق، لكنني كذبت. وتورّطت حتى الثمالة ولم أهتم. كانت فرحتي بمعرفتي أنه تحرر من زواجه، أكبر من خيبتي بمعرفتي أنه ملتزم بعمل لا يسمح له أن يعيش حراً وأن يتورط بأي التزام آخر. كنت فقط أبحث عن الحب، الحب أولاً والبقية تأتي. وقد حصلت على الحب وكان حباً رائعاً بكل المقاييس، ولكن البقية لم تأتِ من بعد، رغم مرور السنين.

ذلك الحب كان مختلفاً بطقوسه وقواعده عن كل ما عرفت في حياتي، ففارسي هذه المرة كان رجلاً غريب الأطوار، بسيطاً، قريباً من القلب وحلو المعشر، وفي الوقت ذاته غامضاً جداً. الدبلوماسية لم تكن فقط مهنته، بل كانت أيضاً هويته. كان دبلوماسي الدم والأنسجة، دبلوماسياً حتى النخاع، وأنا كنت عاشقة، عاشقة حتى النخاع.

كنت دائماً أتحرك على جمر حار في انتظار زيارته لي في حلب، وكنت أخترع مواعيد تافهة وأعقد صفقات سخيفة في دمشق لأسافر إليه وألقاه. كان مشغولاً جداً ومسافراً غالباً، لكنه كان موجوداً دائماً معي. كان حريصاً على حبنا البري غير المحدود وغير المحدّد بقواعد تقليدية.

الحديث الهاتفي لم يكن مستحبّاً، إذ كان التجسّس على المكالمات (حسب ما قال) وارداً وسهلاً، وهو لم يشأ أن يتطفّل أحد على محادثاته الشخصية، كان يفضّل التواصل كتابة بالوسائل التي كانت متاحة آنذاك، من رسائل نصية، وميسنجر.

عندما تجرأت بعد المرة الأولى التي اختفى فيها أياماً في بداية علاقتنا، وسألته بغضب أين كنت؟ أجاب باقتضاب وحزم: كان عندي عمل. وحين احتججت بسخرية: حباً بالله أي نوع من الأعمال

هو هذا؟! صفعني بكلمة واحدة وكثير من إشارات الاستفهام «عفواً؟؟؟».

كلمة واحدة فهمت منها الكثير، وإشارات الاستفهام وصلتني كإشارات استنكار. انسحب الدم من عروقي حين قرأتها على شاشة الموبايل، فجمد ذهني ولم أعرف بماذا أجيب.

أخيراً كتبت له: «اعذرني إن أزعجك سؤالي، عملك هو شأنك الخاص، أنا أدرك هذا وليس في نيتي التطفل، افعل ما يناسبك على أي حال، لم يعد الأمر يهمني».

بعد ساعات من الغليان، أجاب بدبلوماسية خالصة: «أنا آسف، لقد قصدت فقط من كلمة «عفواً» أنني لم أفهم سؤالك...عسى أن يعود الأمر يهمّك! اشتقت إليك. قبلات Besosssssssssss».

ابتسمت، ونسيت غضبي، ولم أسأله ثانية أبداً أين كنت ولماذا تأخرت، وأي نوع من الأعمال هذا الذي تمارس، لقد تعلّمت درسي الأول.

الدرس الثاني، كان في فراش الحب. التابو الخطير بالنسبة إلى نساء الشرق، لم يكن تابو بالنسبة إليّ، فقد حرّرتني منه روايات مكتبة والدي العالمية الكثيرة، العربية والمترجمة، القديمة والمعاصرة، الروايات التي حضنتني وشكّلت عقليتي، وأغنت فكري بعصارة الفكر الإنساني الأرقى على مرّ العصور، وساعدتني على رسم خرائط الحلال والحرام في حياتي، علّمتني أن العلاقة الجسدية مقدّسة شأنها شأن الحب، وأن الزواج ليس هو الشرط الوحيد لتجنب انحدارها إلى مدارك الزنى، إنما الحب هو، الشرط الوحيد، والمحلّل الوحيد.

ورغم أني كنت أتطلّع إلى اللذة الحلال، تماماً كما كنت أتطلّع للحب، إلا أنني لم أستطع أن أحلّل لنفسي أي علاقة جسدية كاملة مع أيّ ممَّن أحببتهم من قبل. لم أخاطر بمشاركتهم الحب حسب طقوسي وشريعتي وخرائطي الطوباوية لأنني كنت أعرف ما الذي يسكن رغماً عنهم في وجدانهم.

التابو بالنسبة إليّ، كان في عقلية الرجل الشرقي، أو بتحديد أكثر، في العقل الباطن الشرقي.

كل الشبّان والرجال الذين أحببتهم من أبناء بلدي، كانوا للأمانة يتمتّعون بعقلية نظيفة ومتحضِّرة اكتسبوها من ثقافتهم وانفتاحهم على الحياة العصرية، لكن عقليتهم تلك لم تكن تكفيني، لأضمن احترامهم لي كفتاة تمارس الحب معهم قبل الزواج. كنت أخاف من الرواسب المعشّشة فيهم، في عقلهم الباطن الذي لا سلطة لوعيهم المتحضر عليه. كنت أعرف من نفسي لأن تلك الرواسب كانت معشّشة حتى في عقلي الباطن، أنا نفسي، وهي نفسها التي كانت تردعني، وتقلقني، وتسألني وأنا

بين ذراعي حبيبي: هو يحبكِ، هو يشتهيكِ، ولكن، هل هو فعلاً يحترمكِ الآن؟!

سقط ذلك التابو بين ذراعي أليكس، الذي جاء من عالم يحترم النساء في الفراش كما يحترمهن في المكاتب والمقاهي، وفي المطابخ والمراقص. عالم يحترم شهوة النساء، ويحلّل رجاله اللذّة لأخواتهم وبناتهم قبل تحليلها لعشيقاتهم.

ارتاح عقلي وغفا، واسترخى جسدي وتفتّح، وبدا مستعداً بدهشة وحماس لتلقي الدرس الأحلى، والألذّ، والأعمق.

علّمني أن الحب يمكن أن يتفجّر لذة في كل خليّة من خلايا الجسد. علّمني حين كانت أنامله وشفتاه تدبّ بلطف على ظهري، أن كل ذرّة من بشرتي هي منبع للنور، وأن خصري هو مركز اللذة في الكون وأن كل فقرة من فقراتي هي حبة فاكهة حلوة حامضة تختلف بالطعم والشذى عن أختها. علّمني أن العشق تيّار من النشوة ينبع من أعماق الروح ويعبر الجسد وصولاً إلى نهايات الأعصاب، وعلّمني أخيراً كيف يكون الكمال في الحب، حين ترتاح الأرواح والأجساد في أحضان بعضها البعض، فلا يعود مهمّاً بعد ما الروح وما الجسد.

في السنة الأولى من الحب، كنت أقلق حين يختفي، أخاف أن أفقده وأصاب بالجنون، لكنه علّمني أيضاً أن أتوقّف عن القلق، حين كان يعود دائماً من تلقاء نفسه، مشتاقاً وعاشقاً.

حين عاد إليّ من تلقاء نفسه بعد قطيعة جديّة دامت ثلاثة أسابيع إثر خلافنا الأول، عرفت أنّه يحبني، وأنه لن يغادر ثانية، وأطمأن قلبي لوجوده في حياتي الذي صار رغماً عنه، التزاماً فطرياً لم يلزمه به أحد.

حصل ذلك الخلاف حين أرسلت إليه في الذكرى الأولى لبدء علاقتنا، رسالة تنضح بالشوق واللوم، لأنه لم يأتِ ليحتفل معي كما كنت أتأمّل. وأنهيت الرسالة بجملة: «أتساءل.. إلى متى ستبقى مشغولاً.. وسأبقى أنا أنتظر.. وأنتظر؟!!!».

رسالتي تلك أخرجته عن دبلوماسيته للمرة الأولى، فأجابني بعد ثوانٍ معدودات برسالة قاسية المضمون معسولة الكلمات تذكّرني بوضعه الذي شرحه لي بداية بأنّه ليس الرجل المناسب للارتباط، وتلومني على حزني وغضبي منه دون وجه حق! وختمها صراحة بوجوب قطع العلاقة. إذ كتب أنه مصدوم للطريقة التي خاطبته بها، وأنه ربما قد آن الآوان لكي يتركني بسلام، لأمضي في طريق آخر بعيداً عنه علّني أجد من يستطيع أن يمنحني ما لا يستطيع هو تقديمه لي. وأنه آسف لما سبّب لي من

ألم... لن ينساني، وسيحبني إلى الأبد.

عندما تلقيت رسالته تلك، كنت في الفندق في مكتبي، في ساعة متأخرة من المساء، أنا وسمكتاي البرتقاليتان اللتان كانتا تسبحان في سلام أمامي في الحوض الزجاجي الكروي. لم أستطع المغادرة إلى بيتي، بل لم أستطع القيام عن الكرسي، بقيت مسمّرة أحدّق إلى شاشة الكومبيوتر تارة، وإلى حوض السمك تارة، من خلال دموع غزيرة انسكبت على خديّ كما لم تنسكب منذ أعوام طويلة. كنت لا أصدّق أنني أشهد نهاية قصّة الحب الساحرة التي انتظرتها طويلاً في حياتي.

لحظة انتهائي من قراءة رسالته للمرة العاشرة، أحسست بطاقة سلبية غريبة تجتاحني، وتغمر المكان. شعرت بالدوران، وفقدت توازني، وأحسست بأنني أهوي من ارتفاع شاهق رغم بقائي مسمّرة على الكرسي، أغمضت عينيّ وأنا أسمع صوت طقطقة زجاجية عنيفة، وعندما فتحتهما، كان أول مشهد طالعني، مشهد السمكتين الميتتين الطافيتين على سطح ماء الحوض أمامي بسكون.

هل قتلت طاقتي السلبية سمكتيّ الصغيرتين المسكينتين؟ أم هي صدفة بحتة أن تصاب السمكتان بالصرع وتصطدما بزجاج الحوض حتى الموت؟

هل يملك الإنسان فعلاً تلك الطاقة المغناطيسية العجيبة التي تقتل وتحيي؟ أم هي لحظة موت مشؤومة مرّت في حياتي كالصاعقة التي أفرغت شحنتها في سمكتيَّ المسكينتين؟

دون تفكير، بدأت أصابعي تطبع، كلمات لم تستطع عيناي قراءتها من خلف حاجز الدمع السميك، فأرسلتها كما هي، من صميم وجداني المجروح مباشرة إليه:

«أعتذر عن الصدمة التي سببتها لك، لكنني أعرف أنك كنت تعرف منذ اليوم الأول ماذا أريد منك، لأنك أذكى من أن يُقال لك كل شيء بالكلمات.

أنا أعرف أن الذي صدمك ليس تلميحي بأنني أحبك، بل مطالبتي بحقوق لهذا الحب لا تريد أن تعترف بها. أنت تعرف أنها ليست صداقة تلك التي كنت أرجوها منك، فأنا (عفواً) لا أذهب مع أصدقائي إلى الفراش.

لا داعي لأن تعتذر، فقد كنت شخصاً رائعاً معي وأعطيتني أياماً حلوة. ولا داعي لأن تخاف إذا قلت إنني أحبك، فأنت شخص استثنائي وتستحق، وأنا صدّقتك حين قلت إنك تحبني، كثيراً من المرات.

ربما أسأت فهمك!! لكنك لم تبدُ لي كرجل وغد، وأنا مؤمنة أنك لست كذلك.

لست آسفة، سأمضي بسلام، وأتمنى لك السعادة.

ويبقى السؤال المهم الوحيد الآن: هل أحببتني فعلاً؟».

ثلاثة أسابيع انقضت، وأنا أحاول أن أصدّق أن كل شيء قد انتهى. فشلت محاولاتي، وصدق فشلي، لم تنته قصتي بعد، وشبحي الجميل، أجاب أخيراً عن سؤالي الأخير. نعم.. أحبني فعلاً، نعم.. اشتاق إليّ، وأرسل لي جملة أحيتني بعد موتي:

«هل حان الوقت لنتكلم؟».

وتكلّمنا، وأطلنا في الكلام، والتقينا، وسكرنا من حلاوة اللقاء، واقتنعنا، بأننا لن نقوى على الانفصال، وإن كنا مسلّمين بأننا لن نستطيع الارتباط.

وأنا.. تعلّمت الدرس الأهم في أكاديمية عشق الأشباح، واخترت وقرّرت، دون ضغط أو إكراه، أن يبقى هو في حياتي كما هو، رغم كل ظروفه الغريبة. أن يبقى كشبح يظهر ويختفي حسب إشارات مبهمة تتحكّم في مصيره ومصيري. أن يبقى ولو كان بعيداً، أن يبقى ولو مضى. لم يعد يخيفني ذهابه، فقد صرت أعرف أنه شبح وفيّ، سيعود حتماً مهما اختفى، وكل مرة يعود فيها يكون ظهوره رائعاً، وكافياً لي لأشعر بالرضا، بل لأعتبر نفسي محظوظة ومميزة، ومباركة بلحظات من حياتي لم تعشها غيري من النساء. وفي أعماقي، كنت أخرج عن النص وأؤمن أننا في يوم ما سنكون معاً، ستعود الأيام التي فرّقتنا عندما غادر دمشق بانتهاء مهمته بعد سنتين من الحب، ستعود وترمينا كل في حضن الآخر لنكمل حياتنا معاً في سلام. وعشت بعد رحيله مخلصة لإيماني هذا خمس سنوات، مدعومة باتصالاته التي لم تنقطع من كل أصقاع الكرة الأرضية، ومنتشية بشوقه الذي لم يخبُ، وحبه الذي لم يتناقص، لكنه أيضاً لم يزد.

عندما بدأت الثورة في سوريا، كثّف اتصالاته بي، وبدا قلقاً ممّا سيحدث ومتشائماً أكثر مما توقعت أن الأمر يستدعي. قال لي إنها بداية كارثة كبرى ستشهدها البلاد. أنا صدّقت، لأنه هو قال لي ذلك، وليس لأي بوادر كانت واضحة للعين والذهن آنذاك.

ألحّ عليّ أن أرسل جواز سفري إلى دمشق، حيث سيتكفل أصدقاؤه بمنحي فيزا يمكن أن أحتاج إليها في أي لحظة. أنا كنت تلك الأيام في غاية الانفعال والاضطراب، لم أكن أريد أن أغادر، كنت أريد أن أبقى لأشهد التحولات التي ستطرأ على بلدي بأمّ عيني وأعاصرها، لم تكن النيران قد اندلعت في حلب بعد، لكن الويلات كانت قد بدأت تنذر بأحداث كبيرة تشقّ طريقها إلى مملكة الصمت التي

تجرأت في يوم مشؤوم، وصرخت، فخرجت صرختها مشوّهة وحمقاء.

عندما سقط الفندق، كان حزنه صادقاً وعميقاً. أرسلت له صور الباحات المحترقة، والحارات المدمّرة، واحتار كيف يخفِّف عني ويواسيني. أُغلقت السفارات في دمشق وتوقفت عن العمل، وسحبت الدول ممثليها وموظفيها، قبل أن أرسل جوازي حسب نصيحته. فاضطّر أن يطلب هذه الخدمة من أصدقاء له يعملون في السفارة الإسبانية ببيروت. لم أصمّ أذني هذه المرة عن النصيحة، وذهبت إلى بيروت، وعدت بفيزا شينغن لسنتين، حصلت عليها بتوصية منه لصديقة قديمة له تعمل هناك اسمها إيزابيل، كان قد حجز لها غرفة في الفندق عندي منذ فترة فتعرّفت إليها حينذاك. فرحت إيزابيل برؤيتي وأظهرت تعاطفاً كبيراً، وساعدتني بكل ما تملك من نفوذ، وهي تتذكر آسفة الجناح الجميل الذي أقامت فيه في فندقنا الذي داهمته الحرب وأكلته النيران.

بعد أن ساءت الأحوال في حلب دون أن يبدو أي بصيص نور في نهاية النفق. وبعد أن صرت غريبة في مدينتي، مسقط رأسي ومرتع طفولتي وشبابي، وبعد أن فقدت الأمل بتحوّل إيجابي يحقّق شيئاً من أحلامي الكثيرة التي كنت أحلمها لوطني، قرّرت الرحيل. وفضّلت أن أعيش غربتي في مكانها الطبيعي، علّني أحافظ على الأقل في وجداني على صورة حلوة لوطن حميم أحنّ إليه وأحلم به. بينما في حال بقيت، غريبة في وطني، فأنني سأكون حتماً قد خسرت الوطن وخسرت الحلم وترف الحنين.

حين قرّرت الرحيل عن حلب، كانت المدينة مشطورة قسمين، شرقي خاضع لسيطرة الكتائب المسلَّحة من إسلاميين وثوار، وغربي حيث أقطن أنا، تحت السيطرة الحكومية النظامية. يفصل بينهما معبر صغير في محلة بستان القصر، تحرسه حدود نظامية من الجانبين تتوسطها منطقة محايدة بمساحة لا تزيد عن عشرة أمتار مربعة.

القسم الغربي من المدينة كان محاصراً من قبل الكتائب المسلحة، التي استولت على القرى المحيطة به، وقطعت الطريق الذي يصل حلب بباقي سوريا، وعليه، كان على من يريد الخروج أو الدخول إلى حلب، من مواطنين مسافرين أو قادمين أن يعبر معبر بستان القصر إذا كان مقيماً في حلب الغربية، ليخرج من الطرف الشرقي منها. أما البضائع من مواد غذائية ووقود، فقد كان إدخالها ممنوعاً منعاً باتاً. كان يسمح أحياناً للمواطنين الغربيين بالعبور إلى الشرق «المحرَّر» للتبضع بكميات قليلة من المواد الغذائية والخضار تكفي للاستعمال الشخصي وليس للمتاجرة، أما إخراج الوقود بأية كمية كانت، فقد كان من المحرمات، وطبعاً ليس أسهل من خرق المحرمات من قبل تجّار الحرب الذين كانوا يهرّبون البنزين والمازوت في أكياس وحقائب، ويبيعونها بأسعار خيالية.

كان القائمون على ذلك المعبر، يتسلّون بمعاناة الناس. إذ كانوا أحياناً وبدون سبب واضح يقررون إغلاقه. فتختنق المدينة وتجوع وتبرد وتُشل حركتها، حتى يصدر قرار جديد بإعادة فتحه ثانية.

مطار حلب كان مفتوحاً فقط للمروحيات الحربية التي تحطّ فيه وتقلع منه ليلاً، لأن المنطقة محاصرة أيضاً ويخشى في وضوح النهار من اصطياد الطائرات بواسطة مضادات الطيران.

عندما كان المعبر يُقطع بقرار رسمي من أحد أمراء تلك الكتائب المجاهدة، كانت ترتفع بعض الأصوات مطالبة الحكومة بإرسال الأغذية والوقود بالمروحيات، كما كانت ترسل مستلزمات الجيش من إمدادات ووقود وذخيرة، ولكن، الحكومة لم ترسل شيئاً، وكان على الناس انتظار ساعة صفو تمر بأمير المجاهدين ليقرّر فيها إعادة فتح شريان الحياة، لأكثر من مليون ونصف مليون إنسان.

كان عليّ لأغادر حلب، أن أبقى في انتظار إعادة فتح الطريق الأصلي الذي كان يصل المدينة ببقية أرجاء سوريا، أو أن أستغل شبكة علاقاتي الاجتماعية لأصل لمسؤول ما في النظام أو الحكومة يستطيع أن يمنحني أذناً خاصاً للمغادرة بواسطة مروحية عسكرية تنقلني من مطار حلب إلى مطار دمشق وطبعاً لقاء مبلغ غير قليل من المال، أو أن أخاطر بالعبور من خلال معبر بستان القصر لأستقلّ الباص من حلب الشرقية وأسافر في الطريق الخارج عن سيطرة الحكومة النظامية.

الانتظار، كان احتمالاً غير قائم. انتقلت إلى الثاني وأجريت اتصالاتي حيث وعدني أحد الأصدقاء القدامى خيراً، وأخبرني أن أكون مستعدة وجاهزة للتحرك في أي لحظة عند اتصاله.

جهّزت نفسي وحقائبي وبقيت في انتظار المكالمة التي لم تأتِ. ولدى سؤالي، اعتذر مني صديقي ونصحني بالصبر إلى حين عودة العميد المسؤول عن المطار من مهمة سافر إليها دون أن يخبر أحداً بموعد عودته. حين نفد صبري، انتقلت إلى الاحتمال الأخير، واتصلت بـ «أبو محمد» صاحب التاكسي الذي كان وسيارته من أهم عملائنا في الفندق، طلبت إليه أن يعبر بي إلى القسم الشرقي ليأخذني إلى مركز انطلاق الباصات في بستان القصر.

تكرم عينك آنستي.

بكرة فاضي أبو محمد

بكرة بالثامنة بكون تحت بيتك.

عندما ودّعت بحفل عاصف بالدموع أمي وأبي وأخي، وأختي رنين وغالي زوجها، غرفتي وبيتي وكل أشيائي، أحسّست بروحي تنسحب مني، وكدت أن أصرخ «إلهي أبعد عني هذه الكأس» لكنني تذكرت أن الله لم يستجب للدعاء ليلتها ولم يبعد الموت عن المسيح، لأنه كان الطريق الوحيد للقيامة، والحياة.

وكان أبو محمد في الثامنة صباحاً يلمّع سيارته تحت البيت، ساعدني بالركوب عندما نزلت إليه، أنا وحقائبي المحشوة بما استطاعت الإمكانية حمله من ملابس، وبما غلت قيمته المادية أو المعنوية وخفّ وزنه وأمكن حمله من أشيائي الأخرى الكثيرة التي تعلّقت بي وتعلّقت بها على مدى العمر ومرّ السنوات.

حكى لي أبو محمد في الطريق كيف نام ليلة في الجامع ثم نزح وعائلته إلى بيت أحد الأقرباء في الجميلية بعدما تضرّر بيته في حي صلاح الدين في المنطقة الشرقية إثر نشوب معارك ضارية هناك.

عندما وصلنا إلى ما قبل الحدود التي تفصل حلب الغربية عن الشرقية، ركن سيارته، وأنزل أمتعتي، التي استلمها طفل يجرّ أمامه عربة، رصّ حقائبي عليها قبل أن يجرّها أمامه متجهاً شرقاً.

بعد أن مررنا من أمام حاجر الجيش النظامي الذي أطلّع أحد عناصره على بطاقتي الشخصية وعاين حقائبي، كان علينا أن نمشي مسافة ثلاثة كيلومترات، إذ كان عبور السيارات ممنوعاً عبر الحدود. الكيلومتر الأول قطعناه ركضاً مثل كل الناس العابرين معنا، خوفاً من رصاص قناص الجيش الحكومي الذي كان متمركزاً على سطح مبنى القصر البلدي الذي يطلّ على حي بستان القصر بقسميه الشرقي والغربي، والذي كان أي شيء يتحرك في القسم الشرقي الخاضع لسيطرة المتمردين على الحكومة، هدفاً شرعياً لرصاصه.

لدى وصولنا لمركز انطلاق الباصات، خضعت للتفتيش عند مدخل الكراج من قبل عناصر مسلحة معارضة لم أعرف تابعيتها، أحد العناصر طلب مني أن أغطّي شعري بالوشاح الذي كان على كتفي، ففعلت دون مناقشة، الثاني طلب هويتي الشخصية، فأخرجتها له من حافظة نقودي، فحدقّ فيها بوقاحة وقال:

-معك دولارات؟

-نعم، قليل منها.

مدّ يده داخل الحافظة وأخرج الدولارات، لوّح بها في الهواء، وضحك حين شحب لوني وقال:

هذه يجب ألا تتركيها هنا، خبئيها. نحن لا نسرق، لا تخافي، لكن أولئك الذين ستصادفينهم في الطريق، معظمهم من السارقين، عليك أن تنتبهي.

أعادها لي، فشكرته، ووضعت النقود في جيب داخلي في حقيبة يدي.

نظر إلى بطاقتي الشخصية وسألني:

أنت مسيحية؟

نعم مسيحية.

أرمنية؟

لا.. حلبية. سورية وحلبية ومسيحية.

حسناً.. رافقتك السلامة.

شكرته ثانية وأنا أعيد البطاقة إلى حافظة نقودي، وتلك الأخيرة إلى حقيبتي. ارتخى الوشاح الذي أرخيته على شعري، فصاح العنصر الأول:

حجابك يا آنسة.

ابتسم الثاني «روبن هود» وقال:

حسناً لا تهتمّي بالحجاب هنا، نحن جماعة «سبور» ولكن أولئك الذين ستصادفينهم في الطريق، يجب أن لا تخلعي الحجاب أمامهم.

شكرته للمرة الثالثة وأنا أفكّر، مَنْ يكون هؤلاء الذين يأمرونني فأطيعهم؟ ومَنْ هم أولئك الأشرار الذين سأصادفهم في الطريق؟ جبهة النصرة؟ داعش؟ أمْ مَنْ؟ مَنْ الذي يتحكم في مصيرنا

ولقمة عيشنا وشكل ملابسنا ويعيد رسم خريطة بلادنا وحياتنا، وإلى متى؟

ركبت الباص الذي أوصى به أبو محمد، شكرته وودعته بعد أن منحته مبلغاً محترماً من المال.

عندما تحرّك الباص مغادراً حلب، عبر في شوارع وأحياء لم تطأها قدماي قبلاً ولم أكن أعرف بوجودها أصلاً في مدينتي. لكنها كانت رغم الدمار والخراب، مكتظّة بالناس، ضاجّة بالحياة. باعة متجولون وأطفال يلعبون ونساء ينشرن الغسيل في الشرفات.

البراميل المتفجرة التي كانت تلقيها مروحيات الجيش النظامي في تلك المناطق بهدف دكّ أوكار الإرهابيين، أثمرت دماراً هائلاً في معظم الأبنية التي كان الناس يواصلون حياتهم اليومية في الأجزاء السليمة منها. لم أصدّق ما تراه عيناي، بكيت بصمت، وتخيّلت أني أتحرك ضمن صورة في جريدة، أو لوحة في معرض فوتوغرافي عن فظائع الحروب، حاز مصوّرها على جائزة تقديرية من منظمة صحفيين بلا حدود.

غادرت حلب، كأنني غادرت مدينة أخرى، فهذه الأحياء المدمّرة الذي عبرها الباص لا تشبه مدينتي ومسقط رأسي.

إلى يميني جلست صبية كانت في طريقها إلى اللاذقية لتوسّط أناساً ليبحثوا لها عن زوجها المخطوف، ابنتها ذات السبع سنوات والتي تركتها مع أمها، كانت تتصل بها كل عشر دقائق.

على الطريق، وفي ساحة إحدى القرى التي كنا نعبر فيها، فاجأنا تجمع لعدد كبير من الباصات. أشير لنا بالتوقف، وقيل لنا إن الطريق قد قُطع منذ ساعات لتعرضه لقصف عنيف منذ الصباح. ما الحل؟ سأل عدد من الركاب، علينا أن ننتظر، جاء الجواب، وإذا لم يهدأ الوضع، ربما نعود أدراجنا.

نعود أدراجنا إلى حلب؟ فكرت. سيعود الباص إلى الجراج الذي انطلق منه في حي بستان القصر، الساعة ستكون قد تجاوزت السادسة مساء، بالتالي فإن المعبر سيكون مغلقاً، وسيكون عليّ أن أبقى في حلب الشرقية حتى صباح اليوم التالي.

لا تهتمي، إن عدنا إلى حلب، ستنامين معي في بيتي في بستان القصر.

طمأنتني جارتي زوجة المخطوف وهي تبتسم بوداعة. وفجأة عمّ الهرج والمرج، إذ اقتحمت

الساحة سيارة نصف شحن ترجّل منها شبان مسلّحون وهم يصيحون: «لا تتجمعوا، تفرّقوا بسرعة كل إلى اتجاه، هناك مروحية تقصف التجمعات، هيا تفرّقوا بسرعة».

باضطراب وسرعة قياسية، خلت الساحة من الناس إذ هرول كلٌّ إلى باصه، وتحركّت الباصات على غير هدى كلٌّ إلى اتجاه. وسمعنا صوت المروحية تقترب وتحوم فوق رؤوسنا، وتقصف.

اختار سائق الباص شارعاً ضيقاً في قرية صغيرة، وقف وأطفأ المحرّك في انتظار أخبار تدلّه على الوجهة التي يجب عليه اتخاذها، إلى الأمام قدماً أو عودة للخلف.

بعد ساعات من الانتظار بدأ القلق يتسلّل إلى نفسي، شعرت بالخوف والضياع، فكّرت بأهلي الذين ينتظرون بقلق مكالمة مني، وأدركت أي حماقة ارتكبت بمخاطرتي هذه، خصوصاً عندما مرّت بجانب الباص سيارات نصف شحن مسرعة، محمّلة بأجساد بشرية ممزّقة ودامية، لم أعرف إن كان أصحابها مصابين أم قتلى.

لكنني وصلت أخيراً إلى اللاذقية، بعد أن هدأت الاشتباكات واستكانت المروحية وأُعيد فتح الطريق أمام الباصات. وصلت وتنفست الصعداء، وتحول توتري إلى فرحة عارمة عندما التقيت أختي نور وزوجها وأولادها، الذين غادروا حلب قبل الحصار في إجازة قصيرة إلى بيروت، ولم يستطيعوا العودة. فاستأجروا بيتاً في اللاذقية وبقوا هناك على أمل تحسّن الأمور وإعادة فتح الطريق في وقت قريب.

بعد أن استمتعت لمدة أسبوع بدفء وجودي مع نور وزوجها فراس الذي تربطني به علاقة رائعة، وطفليهما كارلو وميليسا اللذان هما قطعة من قلبي، انطلقت بسيارة تكسي إلى بيروت، من هناك طرت إلى فيينا، باحثة عن حياة جديدة.

عندما عزمت على السفر، لم أكن أفكّر بطلب حق اللجوء. كان يروّعني لقب لاجئة، وتروّعني صورة مخيم اللاجئين، ويروّعني القانون الذي يمنع اللاجئ من العودة إلى وطنه لمدة خمس سنوات.

كنت أُفكّر بأليكس، ومعتمدة عليه. كنت أخطّط للانتقال إلى إسبانيا بعد أسابيع من وصولي إلى النمسا، إذ كنت واثقة أنه لن يتخلّى عني، وأنه بنفوذه وعلاقاته سيساعدني في الحصول على تصريح بالعمل هناك، أو على الأقل سيستطيع أن يمدّد لي الفيزا، أو سيعدّلها بطريقة ما ليضمن بقائي بطريقة شرعيّة. كنت مؤمنة أنه ملاكي الحارس القادر على فعل أي شيء من أجلي، لكنني تفاجأت عندما

وصلت النمسا، أن ملاكي الذي فرح كثيراً بمغادرتي أرض الحرب والنار، كان يتحضّر للسفر في مهمة ستدوم سنتين في العراق، وأنه لا يملك أي خطط بشأني، وليست لديه النيّة لدعوتي إلى إسبانيا، كما لم يكن يملك أدنى فكرة بأنني أخطّط للمجيء إليه.

الشبح أصرّ أن يبقى شبحاً مهما تغيّرت الظروف، وأنا التي قفزت في المجهول بمغادرتي بلدي وأهلي وتعلّقت بالهواء، صرت للمرة الأولى في حياتي أشعر بالحاجة الماسّة إلى كيان رجل من لحم ودم لأتمسّك به. كنت بحاجة إلى ذراع قوية تسندني. ليس أي ذراع، بل ذراعه هو، ذراعه التي كانت زناراً لخصري وشالاً لكتفي. الذراع التي عرفت وأحببت، والتي عشقت لحظات من عمري قضيتها وأنا غافية عليها. ذراعه تلك، طلبتها اليوم لتكون المرساة لقاربي الذي تتلاعب به الأمواج العاصفة، طلبتها اليوم، ولم أجدها. فاستوعبت حينها بمرارة سوداء الدرس الأخير، الذي كان عصيّاً على الفهم طوال كل تلك السنين، إن الذي قبلته وكرّسته في حياتي مثل شبح، لن يتحول يوماً رجلاً حقيقياً، الشبح هو مجرد كيان أثيري، وليس للأثير أذرع ولن يكون له في أي يوم.

عندما أيقنت أنه تخلّى عني، غرقت في كآبة مرّة، غير مصدّقة أن هذا يحدث لي. رغم أن اتصالاته التي استمرت كالعادة تسأل عني وتداعبني كأن شيئاً لم يكن، بقيتْ أهمَّ مصدر للبهجة في حياتي، وإن صارت تبدو لي كوردة تقدّم لشخص يموت جوعاً وعطشاً، وتذكّرني بشعر الرائع محمود درويش:

«إننا نحبّ الورد، لكنّا نحبّ القمح أكثر».

وبانقطاع القمح يبست روحي. وبعد أن تأكدت من استحالة الحصول على إذن بالعمل في أي دولة من دول أوروبا بعد أن استشرت وسألت عدداً من الأصدقاء المنتشرين في فرنسا وألمانيا والنمسا، اضطررت أن ألجأ للوسيلة الوحيدة المتاحة لي كسوريّة تريد أن تعيش بعيداً عن الموت والحرب، «التقدّم للحصول على حقّ اللجوء الإنساني».

حتى هذا الحل الذي كرهته واستعنت به مكرهة، لم يكن سهل التنفيذ. وحين صدمني الموعد البعيد الذي حدد لمقابلتي حين ذهبت لأتقدم بأوراقي في مدريد للحصول على حق اللجوء في إسبانيا، فضّلت الرجوع إلى النمسا عند فرح التي رحبّت بمحبة بي. وحاولتُ لقتل الوقت (الميت سلفاً) أن أغامر بطلب حق اللجوء في النمسا رغم معرفتي بضآلة حظي في الحصول عليه. أرسلوني إلى مخيم اللاجئين ذاك قرب سالزبورغ، وغادرته على مسؤوليتي بعد أن تلقّيت جواباً بأن ملفي أُرسل ليُدرس في إسبانيا. فكّرت أن أعود عند فرح لأرتّب بهدوء إجراءات سفري على نفقتي لألاحق ملّفي بنفسي

كسباً للوقت، قبل أن تنصحني محامية استشرتها من مكتب حقوق الإنسان، بأن أنتظر. لأن الجواب يجب ألا يتأخر في الوصول من إسبانيا. ووعدتني بتقديم الدعم لي إذا قررت المحكمة في النمسا إرسالي إلى هناك.

اقتنعت منها وبقيت وانتظرت، وعشت تلك الفترة التي اعتبرتها وقتاً مستقطعاً من حياتي، بقلب يرتجف من البرد والحرمان، حتى جاءت تلك الدعوة الواعدة من الدكتور عز الدين وزوجته هيلغا، التي انتظرتها بفرح وأنا أمنّي نفسي بأن ألتقي أخيراً بمن يفرّج ذلك الهمّ عن قلبي، ويضيف ألقاً جديداً إلى شحوب أيامي.

كانت أمسية لطيفة الجو من أماسي حزيران، أخذت فرح معها طبقاً من التبولة ساعدتها في تحضيره، وأخذت أنا زجاجة مشروب. وانطلقنا مع زوجها قبل الغروب يرافقنا شعور غامر بالبهجة والتفاؤل.

الحديقة كانت تعج بالمدعوين الذين وصلوا قبلنا، لم تكن الشمس قد غربت بعد، فاعتمرت بعض النساء بأناقة قبعات جميلة تمنيت لو أنني اعتمرت مثلها، ولكنني كنت أعرف أنه في هذ الزمن المستقطع الذي كنت أعيشه من عمري لا مكان للبذخ والأناقة، كنت فقط استعين بملابسي القديمة نفسها التي ما زالت بحالة جيدة وطراز حديث، لأظهر بمظهر لائق لا أتخيل نفسي راضية بدونه.

هيلغا وعز الدين كانا غاية في اللطف والظرف، اعتذرت منهما عند تقديم النبيذ لأنني لم أحضر طبقاً مصنوعاً بيدي كما وَعدَت أن تُحضر كل المدعوات، إذ إنني لا أملك مطبخاً لأطبخ فيه. ضحك عز الدين وهو يتلقى الزجاجة وقال: «يا سيدتي أنت لا حاجة بك لكي تطبخي، «أنت بيطبخولك» بإشارة إلى ذلك الفندق الذي خلفّته في بلدي مدمّر المطاعم والمطابخ ومشرّد العمّال والموظفين.

عرّفتني هيلغا إلى عدد من الأصدقاء، المقيم منهم في فيينا والمقيم منهم في زيوريخ. لفت نظري في البداية من بعيد رجل يشبه أليكس، وقد عرفت عندما قدَّمَته لي هيلغا لاحقاً أنّه فنان تشكيلي إسباني. لم يعجبني عن قرب، كان خجولاً وأقل وسامة مما بدا أولاً ويفتقد إلى الجاذبية التي تؤثّر بي، وما لبثتُ بعد دقائق أن تعرّفت إلى صديقه وشريكه في السكن وحبيبه، وهو فنّان أيضاً، أميركي الجنسية منطلق ومرح وأكثر وسامة وخشونة من حبيبه الإسباني!

أنجيليكا وزوجها فيليب، كانا زوجاً لطيفاً أيضاً، سألاني عن الحرب في بلدي وعن وضع الناس هناك، أبديا أسفهما وتعاطفهما، قبل أن تباشر أنجيليكا عزفها الجميل على الغيتار، بطلب من

جماعة بدأت تغني كلاسيكيات إنجليزية قديمة، أعرف وأحفظ وأعشق كثيراً منها.

أحسست بالمرح والانطلاق، واستمتعت بالتواصل مع أناس جدد، وطربت لاستلطافهم إياي بالطريقة نفسها التي استلطفتهم بها. تكلّمت مع بعضهم بالإنكليزية، ومع بعضهم الآخر بالفرنسية التي لم أكن بارعة فيها، لكنني يومها كنت متّقدة الذهن ومتوهجة الطاقة لدرجة كنت أشعر بها أن اللغات كلها كانت طيّعة تحت لساني.

كلمة استلطاف، وإن كانت هي الأكثر تواضعاً، إلا أنها في الحقيقة ليست الأكثر دقّة لوصف الانطباع الذي رأيته في عيون الناس تلك الليلة. كان هناك شيء أكبر، كالدهشة والإعجاب، كوني ضحية الحرب الأشهر مؤخراً وشاهدة العيان على أكبر مأساة يعيشها القرن الحالي. كوني وصلت لتوي من قلب حدث تاريخي يحدث في أقدم مدينة في التاريخ. وكوني جميلة وأنيقة ومتوهجة بطاقة غريبة جعلتني أغني وأحكي وأتواصل بسهولة وفرح مع كل الموجودين. كنت نجمة هبطت من سماء الحرب على حقل من المتفرجين المتعاطفين، وكان هو واحداً منهم.

جاء بعدي هو وزوجته التي كانت أيضاً تحمل طبقاً من صنعها وتزهو بقبعة أنيقة ما لبثت أن خلعتها بعد غروب الشمس. كنت منهمكة مع من حولي ومنتشية بنبيذي وموسيقا غيتار أنجيليكا. ضاع بين الناس ولم يلفت انتباهي حينها، إذ كنت عادة وبشكل لا شعوري لا أنظر إلى الرجال المصطَحبين زوجاتهم على أنهم رجال، لا يدخلون ضمن حساباتي ولا يخضعون لأي نوع من التقييم، إذ يكون انتباهي منصبّاً بشكل تلقائي على زوجاتهم، مقيّمة مستوى جمالهن وأناقتهن وظرفهن.

ولكنني بعد قليل، كنت أنا من اقتحم حلقة حوار كان هو يناقش فيها مع عدد من المدعوين جيمي (جميل) زوج فرح. قَرَعتْ سمعي عبارة أزعجتني قالها جيمي لمحدثيه بينما كنت أمرّ بمحاذاتهم، كان يتحدّث مثل محللي تلفزيون الدنيا، ويؤكد أن المظاهرات التي خرجت في سوريا في بداية الثورة كانت مفبركة إعلامياً.

تدخلت بشيء من الانفعال. أحسست بواجب يدفعني لأقول ما أعرف وما أنا مقتنعة به، إذ شعرت بالاستنكار أن يقوم شخص غائب عن سوريا منذ عشرين عاماً ولم يعاصر الحدث، بالتحدث كمندوب عن شعبها أمام جماعة من الأجانب المتعطشين لمعرفة الحقيقة ولسماعها من فم شخص معنيّ. بادرت بقولي:

عفواً، أنا كنت هناك عندما بدأ كل هذا. لقد كانت المظاهرات حقيقية،

وقد بدأت سلمية صرفة، ومن شارك فيها ودعا إليها بداية لم يكن من الإسلاميين المتطرفين، إنما عدد كبير من الشبان المثقفين العلمانيين، المسلمين منهم والمسيحيين، وقد تمّ قمعهم بطرق وحشية، وصلت إلى درجة إطلاق الرصاص الحي.

من أطلق الرصاص على المظاهرات؟ رجال النظام؟

كان ذلك هو سؤاله الأول لي، كانت عيناه تلمعان خلف نظّارة أنيقة بإطار أسود، وملامح وجهه جديّة جداً. أجبته، فبادرني بسؤال آخر ثم آخر، استرسلت في الحديث وتحدثت عن حلب وصعوبة الحياة فيها، وعن فندقي ودماره، وعن انتظاري المهين هنا لاستلام أوراق رسمية تشرّع وجودي وتسمح لي بالعمل لأستأنف الحياة.

الحرب تجربة لم أكن أتوقّع أن أعيشها يوماً، كانت مفاجأة صاعقة نسفت مخطّطاتي وغيّرت حياتي. لكنني استفدت منها بشيء واحد هو: لا شيء يصعب عليّ بعد اليوم، فالذي يخوض تجربة الحرب ويخرج منها، يمكن أن يخوض أية تجربة أخرى في الحياة بسهولة.

لم أرَ ابتسامته وقتها، بل خلت أنني سأرى الدموع تطفر من عينيه الجادتين الثاقبتين. أثناء الحوار الساخن كنت أتفحّصه بمكر نسائي، وجدته وسيماً وطويلاً جداً! وانتبهت إلى خنصره الذي يحمل خاتم زواج فمرَّ بي طيف شعور آسف، وتذكرت حينها أنه دخل مع تلك المرأة ذات الفستان الأبيض والقبعة.

كنت وزوجتي ومجموعة من الأصدقاء نعتزم جدياً القيام بإجازة في سوريا والأردن قبل نشوب الحرب مباشرة. كنّا ندرس المنشورات والبرامج ونقارن بين العروض المتاحة المقدّمة من شركات سياحية متعدّدة، كما كنا نبحث عبر الويب عن الفنادق هناك لنختار مكاناً لإقامتنا، للأسف لم يسعفنا الحظ!

آه، كان يمكن أن تكونوا ضيوفاً في فندقنا! كنّا نستقبل في المواسم المزدهرة كثيراً من السيّاح النمساويين، وكانوا يستمتعون بإقامتهم عندنا.

أنا آسف جداً حقيقةً، وسيسعدني أن تخبريني.. كيف يمكن أن نساعدك؟

فاجأني سؤاله وتعابير وجهه الحزينة والمتعاطفة، لم أتمالك نفسي فضحكت، إذ كان مزاجي رائقاً هذه الليلة، وأجبته:

شكراً جزيلاً للاهتمام، ولكن صدقاً، لا أملك الآن إلا الانتظار الذي أرجو ألاّ يطول. وصدّقني، سأكون بخير، أنا أعرف. سأخرج من معاناتي قوية ومعافاة وسأشقّ طريقي في حياة جديدة.

أتمنى هذا من كل قلبي.

ضحكت أيضاً بما لا يتناسب مع تعاطفه الحزين. شكرته واعتذرت، مغادرة الحلقة إلى أخرى أكثر مرحاً.

حين أحببت أن أتذوق ما أحضرته النساء من أطباق، توجهت للمائدة لأختار، كان هو هناك، يدلّني على طبق معيّن ويقول، جرّبي هذا، زوجتي صنعته.

وحين فرغت كأسي وذهبت لأملأها، كان هو هناك، ممسكاً بالقنينة في انتظار كأسي التي قدمتها إليه فملأها بأدب قائلاً «استمتعي».

وحين حلّ الظلام وجلست أمام النار التي أُوقدت وسط الحديقة، مُشارِكةً فرح وصديقتها العراقية في أداء أغنية لفيروز، كان هناك أمامي أيضاً، يتابع غنائي بدهشة، ويحدّق إليّ ساهماً من خلف نظارته الأنيقة.

ابتسم لي بود، عندما التقت عيناي المندهشتين عينيه، وتكرّر هذا الحدث كثيراً من المرات، فانتشيت، وسألت نفسي بعجب: ماذا هناك؟ ماذا يريد مني هذا؟

سارعت زوجته إلى الالتصاق به، ابتسمتُ لها عندما لاحت مني التفاتة ووجدتها تتفحصني باهتمام، وسألت نفسي أيضاً: ماذا تريد مني هذه المجنونة؟

النار والخمر والغيتار ومزاجي المحلّق فوق السحاب، أشياء جعلتني أصدّق أن الحياة يمكن أن تكون حلوة بالرغم من كل شيء.

أما انتشائي بنظراته التي لم تترك وجهي ولا لحظة، فقد جعلني أتساءل: هل هذا هو من كنت على موعد معه هنا الليلة؟ لكنني لم أكن أنتظر أن التقي برجل متزوج. ما الذي يحصل؟

وعند مغادرتي، صافحت وقبّلت جميع الأصدقاء الجدد الذين تعرفت عليهم وأحببتهم تلك الليلة، وهو، كان آخرهم. أخذ كفي في كفه بقوة، وهمس في أذني قبل أن يطبع قبلة الوداع على خدي:

لقد أخذت رقم هاتفك من جيمي.

تذكرت فجأة أنني لا أعرف اسمه:

آسفة، لكنني لم أعرف اسمك بعد؟!

جيرارد، اسمي جيرارد وسأتصل بك.

سيتصل بي! يريد أن يراني! وأنا أيضاً أريد، وبقوة ولهفة، ربما يكون هو! هو؟ من يدري؟ لكنه متزوج! متزوج؟ لست أدري، لا أريد الآن أن أفكّر، أنا سعيدة، أنا أطير، وأحب أن أتابع طيراني إلى أعلى فضاء يمكن أن يصل إليه جناحاي.

تلك الليلة، نمت وأنا أحلم أنني في حضنه. وكانت هي أول ليلة منذ أكثر من سبع سنين، أنام ولو في الحلم، في حضن رجل غير أليكس.

لم أكن يوماً من المؤمنين بالقدر المكتوب. أنا كنت وما زلت أؤمن بالصدف التي تتحكّم في حياتنا بعشوائية بحتة وتصنع أقدارنا بدون مقدمات أو أسباب منطقية. ثوانٍ قليلة قد نسبق أو نتأخر فيها عن موعد ما، قد تكون سبباً في مواجهة أحداث لم تكن في الحسبان، أحداث قد تغيّر خطة حياتنا إلى الأبد.

لماذا يحصل ذلك وكيف؟! هناك من يجيب: من أجل أن نواجه أقدارنا. وأسأل نفسي مثلاً: ماذا لو لم أتأخر؟ ماذا لو كنت أقل عنفاً في حركتي ولم أكسر ظفري وأنا أغلق الباب، ماذا لو لم أعاود

دخول البيت لتشذيبه، قبل النزول بعد عشر دقائق من موعدي المعتاد لتصدمني تلك السيارة التي خرجت مسرعة عن سيطرة سائقها المراهق في هذه اللحظة بالذات من عبوري تلك البقعة؟ هل كنت سأبقى حية أُرزق، أم أنني كنت سأواجه موتي المقدّر في تلك اللحظة في مكان آخر وبطريقة أخرى؟

ظهور جيرارد في حياتي كان يشبه ذلك القدر، لكنه قدر جميل. ماذا لو لم تنشب الحرب في سوريا، ولو لم يتدمّر الفندق؟ ماذا لو لم أغادر حلب؟ ماذا لو أعطوني في إسبانيا موعداً قريباً بحيث لا أضطر للقدوم إلى النمسا؟ ماذا لو كان تاريخ ذكرى زواج الدكتور عز الدين وهيلغا قبل أسبوعين مثلاً مما هو عليه، حين كنت لا أزال في مركز اللاجئين قرب سالزبورغ؟ هل كنت سألتقي بذلك الرجل الذي زلزل عمري وفجّر فيه ينابيع الحياة بعد جفاف طويل؟ هل كنت سألقاه في مكان آخر وطريقة أخرى؟ كنت أسأل نفسي، وأجيب نفسي بنعم. كنت أريد أن أُسقط عني ذنب الوقوع في غرام رجل متزوج، كنت أنتشي بالإيمان بأن الأمر لم يكن باختياري، فحبي لهذا الرجل هو قدري، الذي كان سيلاحقني إلى أقصى بقاع الأرض دون أن يكون بإمكاني الهروب. حبه الخارج عن سيطرته وسيطرتي، كان كسيارة ذلك المراهق، صدمني في تلك الليلة، لكنه لم يقتلني بل أحياني.

رؤيا /1/...

كنت أتفقد صالة الفطور كعادتي كل صباح، حين لمحته يحدّق إليّ من طاولته التي جلس إليها مع ثلاثة غيره من النزلاء. امرأة شقراء إلى يمينه وزوج من رجل وامرأة أمامهما.

عندما التقت نظراتنا حين استدرت مغادِرة الصالة، ابتسمت له بأدب، فرد الابتسامة بحماسة، وأحسست بنظراته تلاحقني حتى صرت داخل مكتبي.

تبعني حمود بقهوة الصباح، فسألته وهو يسكبها في فنجاني:

من هم النزلاء الذين يجلسون إلى الطاولة رقم *6*؟

الطاولة رقم *6*؟! آه نعم، مجموعة شركة «سيريتور» النمساوية.

ما إن غادر حمّود حتى فتحت على شاشة الكومبيوتر أمامي، المخطط الخاص بالنزلاء وتوزيعهم في الغرف للّيلة الأمس. وجدت غرفتين محجوزتين لشركة «سيريتور» مع طلب معاملة خاصة للنزلاء *VIP*. دخلت إلى التفاصيل وقرأت الأسماء: «الدكتور مانفريد رومبيرغ وزوجته - الغرفة *205*، الدكتور جيرارد كرايمر وزوجته - الغرفة *206*».

قُرع باب مكتبي المفتوح وأنا أرتشف أول رشفة من فنجان قهوتي، نظرت إلى الباب، فوجدته هو، ضيف مكتب سيريتور الذي كان ملفّه مفتوحاً على شاشة الكومبيوتر أمامي. كان يقف في الخارج، يبتسم بأدب ملتمسا الدخول.

تفضّل بالدخول. / *Please do come in*

Thank you.

فارع الطول، شديد الوسامة، جريء النظرات من خلف نظّارة ذات إطار أسود.

اسمي جيرارد، من النمسا، أنا نزيل في فندكم الجميل في الغرفة *206*. بادر بإنجليزية سليمة.

- أهلاً بك، أنا لميا مديرة الفندق، يسرني تشريفك لمكتبي، تفضّل بالجلوس، كيف أستطيع أن أساعدك؟

جلس أمامي قائلاً:

لقد لمحتك في قاعة الفطور، حين كنت تتفقدين البوفيه وتعطين تعليماتك للعمال. وقد رأيتك بعد ذلك تدخلين إلى هذا المكتب، تبعتك لأنني أريد أن أتزود ببعض المعلومات إذا لم يكن عندك مانع.

- بالطبع لا، بالعكس، سيسرّني أن أساعدك، هل تشاركني فنجان القهوة أو أطلب لك شيئاً آخر؟

آه لا شكراً، لقد أنهيت إفطاري للتو، وزوجتي ذهبت إلى الغرفة لتحضر شيئاً وستعود سريعاً وسنخرج. كنت فقط أريد أن أتزوّد ببعض المعلومات عن هذه الدار، في أي عام بنيت ومن الذي بناها، فقد لفت انتباهي نقوش

في حجارة الجدران تمثّل نجمة داوود السداسية، إلى جانب النقوش الإسلامية. الموضوع أثار استغرابي.

نعم أنت محق، بنيت الدار في نهايات القرن السابع عشر في هذا الحي، حيث قام كثير من أثرياء المدينة ببناء منازل لهم على الطراز العثماني الذي كان رائجاً في تلك الحقبة لأن سوريا كانت خاضعة لحكم السلطنة العثمانية وقتها. المالك الأصلي والمشيّد لهذه الدار مجهول للأسف، لكن المعروف أن كثيراً من العائلات تعاقبت على السكن فيها، وآخرها عائلة «غزال» التي تحمل الدار اسمها الآن، وهي عائلة مسيحية. أما سبب وجود النجمة السداسية فقد استرعى انتباهنا أيضاً خصوصاً لأنه موجود في كل بيوت المنطقة تقريباً، ولدى البحث تبيّن (حسب علماء آثار وباحثين) أن تلك النجمة قد تكون زخرفة إسلامية لاسم النبي محمد، كالتي شاعت في العصر الفاطمي الذي امتد من القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر، إذ وُجدت في كثير من العمائر الإسلامية في مصر أيضاً كقلعة «الجندي» التي أنشأها القائد صلاح الدين الأيوبي، كما وجدت في الفترة الأموية على صور المسجد الأقصى. ولا علاقة لتلك النجمة بنجمة داوود التي اختارتها الحركة الصهيونية عام 1879م رمزاً لها، والتي مع إنشاء دولة

إسرائيل في العام 1948 تم اختيارها لتكون الشعار الأساسي على العلم الإسرائيلي.

ولكن ألم يكن لليهود وجود في سوريا خلال القرن السابع عشر أو الثامن عشر؟ أليس وارداً أن يكون أحدهم قد بنى هذه الدار وزينه بنجمة داوود؟

وارد طبعاً، ولكن تكرار وجود تلك النجمة في كثير من الدور، جنباً إلى جنب مع الزخارف الإسلامية، يضعف من هذا الاحتمال. وبكل الأحوال، أظنّ أنك تعرف العداوة والكراهية التي يكنّها العرب لدولة إسرائيل، وبالتالي، فإننا نميل إلى ترجيح الفرضية الأولى، بأنّ هذا الرسم هو زخرفة لاسم النبي ولا علاقة له بالنجمة التي اتخذت رمز لتلك الدولة.

آه، شكراً للمعلومات القيّمة، أرغب أن أدونها الآن قبل أن أنساها لدى عودتي للنمسا.

ضحكت قائلة:

لا عليك، إن نسيتها، سنرسلها لك ثانية حيث أنت.

ضحك بدوره:

يبدو العرض مغرياً، أظن أنني سأتعمّد أن أنسى كي أتصل بكم من النمسا طالباً النجدة.

على الرحب والسعة دكتور كرايمر، أتمنى أن تكونا أنت والسيدة كرايمر مرتاحين في الفندق.

نعم، نعم، لقد وصلنا بالأمس فقط، سننام هذه الليلة أيضاً، وسنغادر في صباح الغد بعد الفطور، حتى الآن كل شيء رائع.

أنا مستعدة لتلقي أي ملاحظة، أرجوك لا تتردّد، يهمّني أن تكون إقامتكم مريحة وممتعة في حلب خاصة وفي سوريا عامة.

شكراً سيدتي، أقدّر جهودك، وأؤكّد لك أننا سنحمل الكثير من الذكريات الرائعة إلى النمسا.

على فكرة، لدي صديقة تقيم في النمسا منذ حوالى عشرين عاماً.

في أي منطقة من النمسا؟

البلدة اسمها بريغنز.

بدهشة كبيرة أجاب:

بريغنز؟ في الفورالبورغ.

نعم أظنّ أن المقاطعة تسمى هكذا.

يا للمصادفة، نحن من هناك، أنا أقطن في بريغنز! ما

اسم صديقتك؟

معقول؟!...حسناً صديقتي اسمها فرح، زوجها اسمه جيمي، جميل صباغ.

فرح وجميل صباغ!

ردّد الاسم كمن يريد أن يحفظه، وقال:

سأبحث عنها لدى عودتي، لأقول لها إنني تعرفت إلى صديقتها وقضيت أياماً جميلة في مدينتها الرائعة.

ضحكت مجدداً:

يقولون إن الدنيا صغيرة، صحيح هذا الكلام.

استطرد:

ألا تنوين القدوم إلى النمسا لزيارة صديقتك؟

ابتسمت له ببراءة وأنا أحاول الهروب من عينيه الجريئتين:

في الحقيقة كنت أخطّط لهذا الموضوع، وأتمنى أن يتحقّق قريباً.

دخلت فجأة دون أن تقرع الباب، سيدة شقراء أنيقة، تفتقر إلى الجمال، وصاحت بضيفي:

جيرارد! أنت هنا؟

خاطبته بالألمانية بلهجة متوترة، قبل أن تلتفت إليّ وتعتذر.

لا تهتمي سيدتي. أجبتها.

تفضّلي بالجلوس. استطرَدتُ بلطف.

تأملتني بشيء من الوقاحة، وابتسمتْ ببرود، ومن ثم أومأت لزوجها وسبقته في الخروج بعد أن ألقت عليّ تحية مقتضبة. هو حياني بهزّة صامتة من رأسه، وابتسم لي بود وانفعال قبل أن يغادر خلفها بصمت.

ماذا تريد منّي هذه المجنونة؟!

سألت نفسي، وأنا أعاود ارتشاف قهوتي التي بردت، سارحة في الزخارف الجميلة المنقوشة على الحجر العتيق، في واجهة المكتب أمامي.

في صباح اليوم التالي، لم أخرج لتفقد الفطور، فضّلت أن أبقى في مكتبي لأستمتع بقهوتي بمزاج جيد هادئ، لا تفسده وقاحة فراو كرايمر، ولا تهيجّه نظرات زوجها، لكنني تركت كعادتي الباب مفتوحاً، وترقبت زيارة خاطفة من الدكتور الوسيم الذي لم يمهلني لأنهي قهوتي.

صباح الخير. ودخل بابتسامة كبيرة.

«لعل فراو كرايمر ذهبت لتحضر شيئاً من الغرفة» قلت لنفسي.

صباح الخير، تفضل بالجلوس.

لا شكراً، جئت فقط لأعبر عن امتناني بالإقامة هنا، وسعادتي بمعرفتك.

أخرج من جيبه بطاقة ووضعها على المكتب أمامي:

هذه بطاقتي، فيها كل أرقامي وعنوان العيادة.

شكراً دكتور كرايمر، لي الشرف.

وناولته بدوري بطاقتي التي سألني بمجرد أن التقطها:

هل أجد فيها رقم هاتفك الجوال؟

لا، فيها فقط رقم الهاتف هنا في الفندق.

هل تسمحين لي إذا برقم هاتفك، أرجو المعذرة، لكنني تأثرت فعلاً وسعدت بمعرفة امرأة جميلة وقوية مثلك، ويهمّني أن نبقى على اتصال.

«قد يلزمه مزيد من المعلومات عن النقوش الإسلامية على الجدران» قلت لنفسي بمكر، وأجبته ببراءة:

شكراً دكتور كرايمر، أنا أيضاً سعدت بمعرفتك.

وكتبت له رقم هاتفي الجوال على الجهة الخلفية من بطاقتي، أخذ البطاقة وخبأها في جيبه بسرعة.

بلغ تحياتي للسيدة كرايمر.

أفضّل ألاّ أفعل.

عفواً؟ سألت بدهشة.

بريجيته لن تكون سعيدة بتحياتك، أنا آسف.

وقبل أن أعلّق لأعبر عن دهشتي، مد يده لمصافحتي قائلاً:

سنغادر الآن إلى قلعة الحصن، حلب مدينة رائعة، وناسها أروع.

وقفت ومددت له يدي، فالتقطها بقوة بكفّيه الاثنتين، حضنها بنعومة

وشغف، وانحنى هامساً في أذني:

سأتصّل بك.

لم أجبْ، ابتسمت بهدوء واستسلام، وشعرت بنبض يقرع صدري بإيقاع جديد.

وسرحت مجدداً بعد مغادرته في نقوش الأحجار القديمة على الواجهة أمامي، باحثة عن رمز يوضح لي سر هذا الإيقاع الجديد لنبضي. ووجدت نفسي أتساءل بحماسة، ماذا بخصوص إجازتي هذا العام، هل أذهب إلى النمسا؟!

بيت...

أحببته. في النمسا، في حلب، في الحرب، في السلم، في أحلامي الوردية أو في واقعي الأسود، لا يهم. المهم أنه اقتحم حياتي بروعة وأنني فقط أحببته. الحب كما في كل الروايات المكتوبة والمعاشة، لمس حياتي بلمسته السحرية ولوّنها بألوان بهيجة بعد شحوب طويل.

بدأت الحكاية بنظرته تلك التي ضبطتها مسترخية على وجهي. تلك النظرة أدفأت قلبي بلحظة، كما لم تستطع نظرات سليم العاشقة أن تفعل على مدى ساعات وأيام.

سليم هو شاب سوري يعيش في سويسرا منذ خمسة وعشرين عاماً، تعرّفت إليه ليس لأجل الصدفة، بل بترتيب من أخته التي اصطحبته وزوجها إلى بريغنز لزيارة فرح وزوجها خلال فترة وجودي عندها وقبل أسابيع عدة من لقائي بجيرارد.

تعرّفت فرح وزوجها إلى العائلة السورية التي جاءت من مدينة حمص واستوطنت في سويسرا منذ زمن بعيد عن طريق الصدفة التي جمعتهم ببعض الأقرباء والمعارف المشتركين ولمّا كانت بريغنز تقع تقريباً على حدود سويسرا، فقد كثرت الزيارات بين العائلتين إذ كان المشوار بين بيتيهما لا يتطلب أكثر من ساعة قيادة، فتطوّرت العلاقة إلى صداقة على مر السنين.

تعرّفت أنا إلى ناديا شقيقة سليم، عندما جاءت ذات صباح بالصدفة لتزور فرح. وقد أحببتها وأحبتني، ففكّرت أن تعرّفني إلى أخيها المطلّق منذ سنوات، علّه يعود عن إضرابه عن الزواج الذي أعلنه منذ انفصل عن زوجته بعد علاقة مضنية استهلكت سنوات شبابه وأعصابه، وأثمرت اثنين من الأولاد بقيا في كنف أمهما مع المحافظة على علاقة جيدة مع أبيهما.

عندما قالت لي فرح إن ناديا وزوجها سيأتيان مساء بصحبة سليم كي يتعرّف إليّ، لم أغضب ولم أستأ، أخذت الموضوع ببساطة وعقلانية، وقلت إنه لا مانع عندي أن أتعرّف إليه أيضاً، رغم أنني

أحسّست في قرارة نفسي أن ما تخطّط له ناديا سيبوء بالفشل.

وقد نجحت مساعي ناديا في الشق الأول من الموضوع، إذ سقط الشاب الذي يكبرني بأربعة أعوام صريعاً في غرامي وأقلع عن إضرابه عن الزواج، وعبّر عن رغبته في الارتباط بي، واستعداده لمساعدتي بأي وسيلة للحصول على الإقامة النظامية.

أغراني الموضوع بأن أفكّر قليلاً، أن أزن الأمور بعقلانية وتجرّد. لأنه في حال تمّ هذا الزواج، فإنني لن أعود بحاجة إلى طلب حق اللجوء في أي بلد بعد، سأحصل تلقائياً على الإقامة في سويسرا، وبعد سنوات قليلة سأحصل على الجنسية.

خرجت معه مرتين. ورغم أنني اتخذت قراري بعد عشر دقائق من المقابلة الأولى، إلا أنني لم أستطع أن أتنصل من رؤيته في المرة الثانية. لم أستطع أن أعلن رفضي بهذه السرعة، احتراماً له، واحتراماً للعقل والمنطق اللذين كنت قد قررت أن أمنحهما فرصة. وأيضاً احتراماً لصورتي في أعين الناس الذين اعتبروا عرض سليم فرصة رائعة لا تعوّض لإنقاذي من تخبطي وضياعي في متاهات الغربة واللجوء، وأن رفض عرض كهذا بشكل سريع هو حتماً ضرب من الجنون.

لكن احتراماتي تلك كلها، سقطت حين تجرأ عاشق الغفلة في لقائنا الثاني وأمسك يدي في المطعم. سحبتها منه بسرعة ورغبت أن أصفعه بها على وجهه.

أرجوك سليم.

لا تخجلي، أرجوك لا تخجلي!

ليس الموضوع خجلاً، صدقني.

وخجلت أن أقول له، أنني لم أشعر بالخجل، بل بالإهانة والغيظ! لم أتخيّل أن يتجرأ رجل على لمسي دون أن يكون عندي أي مشاعر أو رغبات تجاهه، شعرت بمجرّد لمسه ليدي أنه اغتصبني!

أشفقت أن أجرح مشاعره الطيبة، ففضّلت أن أبقى لطيفة لكن متحفظة حتى نهاية هذا اللقاء التي خلتها أبعد من الملكوت.

في طريق العودة، هاجت مشاعره تحت المطر، وتجرأ ثانية وضمّني بذراعه!

سليم.. افهمني أرجوك!

قلت بنبرة لم أستطع تجريدها من بعض العنف، وأنزلت يده عن كتفي وابتعدت.

أنا أعرف أنني أستعجل، ولكنني سعيد جداً، وأشعر بالراحة فعلاً، وأشعر بالحب!

نحن لم نتحدث عن الحب! إنه لقاؤنا الثاني فقط، ونحن لم نتعارف بشكل جيد بعد!

ما هو كنه هذا الشعور الذي يسمّى الحب؟ هل هو فعلاً أعمى ولم يجعله يرى الملل والخيبة في عينيّ اللتين كانتا ترقبانه ببرود حين لم أشعر تجاهه بأي انجذاب. هل هو غبي ولم يفهم تلميحاتي وحركاتي التي تعمّدت أن تقول له ألا يتمادى في أحلامه. هل هو أطرش ولم يسمع انتقاداتي لكل الأفكار التي طرحها وكل الآراء التي صرّح بها. بل هل هو حبٌ فعلاً ما شعر به ذلك الرجل تجاهي منذ لقائنا الأول؟ أم أنه توق لأنثى في خياله، شاءت الأقدار أن تشبهني.

في اليوم الثاني مباشرة، أرسلت له رسالة لطيفة، شكرته فيها على لطفه ورجولته، وعبّرت عن سعادتي لمعرفتي به كإنسان ممتاز وصديق مخلص، وأخبرته أنني لن أستطيع أن أجاريه بموضوع الزواج.

أجابني بعد دقائق برسالة تحكي عن صدمة كبيرة، صدمة حقيقية، قال إنه لم يصدّق ما قرأ، وأنه يريد أن أمنحه فرصة أخرى.

مستحيل.

أجبته بحسم، وقد استهجنت ثقته تلك بنفسه التي أوحت له أنني سأطير فرحاً عند عرضه الكريم، الذي من غير المعقول أن يُرفض. خصوصاً أنه كان قد أخبرني أنه بعد مقابلتنا الأولى اجتمع بولديه وأخبرهما أنه عازم على الزواج، كأن موافقتي مضمونة وبديهية.

أهانني أن أعتبر مسكينة ومهيضة الجناح، إلى درجة جُرِّدتُ فيها من حقي في الاختيار، ومن حقي في الاستنكار، من حقي في الانتقاد وحقي في الرفض.

وعند إجابتي عن السؤال: لماذا؟ بأنني لم أحبّه. واجهت نظرات تتهمني فعلاً بالجنون: حب؟ في ظروفك هذه وسنك هذه وتتكلمين عن الحب؟ وما هو الحب؟ هل هو غير عرفان بالجميل لرجل عرض إنقاذك بأن أعطاك اسمه وحياته و«جنسيته»! هل يكون الحب في هذا الزمن لامرأة سوريّة أهم من جواز سفر سويسري. بل هل يكون الحب إلا جواز سفر سويسري؟!

الكل نظر إليّ تلك النظرة إلاّ فرح، التي ابتسمت بتواطؤ وهمست في أذني:

لو كنت قد قبلت به، كنت سأكون سعيدة من أجلك، لكنني لم أكن سأرى فيك لميا صديقتي.

وبالمقياس نفسه، عندما تصرفت كذاتي، لم تكن سعيدة من أجلي، لكنني كنت بحق لميا صديقتها! عندما استسلمْتُ للصاعقة التي مسّت قلبي وأسكتت عقلي، في تلك الليلة في حديقة عزالدين وهيلغا.

تلك الصاعقة كانت أشبه بالصدمة الكهربائية التي تُعطى للقلب المتوقف عن النبض، لينبض من جديد. لم تكن القضية الجوهرية وقتها إن كان نبضي هذا شرعياً أو غير شرعي، القضية الجوهرية كانت احتفالي بتجدّد النبض وتمسّكي بالمحافظة عليه رغم كل الظروف ومهما كانت الشروط.

بعد تلك الليلة، عشت في سحابة وردية في انتظار اتصاله الذي كنت واثقة (لا أدري لماذا) أنه سيأتي.

استرخت أعصابي واستمتعت بالانتظار، لأنني عرفت أنه أخذ رقمي من جيمي. ولكنني من جهة أخرى، كنت أتحرّق لأعرف أنا رقم هاتفه، لأضمّه إلى قائمة أصدقائي في الهاتف والواتساب، لأشعر به قريباً وأليفاً، وليشعرني قربه بالاطمئنان، فتصرفت.

حين أرسلت إلى عز الدين رسالة الشكر عقب السهرة الحلوة التي استمتعت بها إلى أقصى الحدود، لم أتمالك نفسي، وطلبت منه بطريقة أردتها أن تبدو بريئة أرقام هواتف مجموعة من الأشخاص الذين قابلتهم في الحفلة. أنجيليكا، فيليب، إدفين، باربارا.. والدكتور جيرارد. فأرسلها لي بطيب خاطر. فرحت بالرقم وأضفته إلى قوائمي، دون أن أدري أن هيلغا التي طلب زوجها أرقام الجميع منها باعتبارهم أصدقاؤها، قد أخبرت زوجة جيرارد بالأمر، ولم تأخذ الأخيرة الموضوع على

نحو بريء كما أردت.

اتصل بي جيمي زوج فرح ذات صباح من مكان عمله وسألني عن أشياء متعددة ليست من الأهمية بمكان، وقبل أن ينهي مكالمته تذكّر شيئاً وقال:

آه صحيح، لقد وردتني اليوم رسالة لك على رقمي عبر الواتساب.

رسالة لي على رقمك؟ مِمَّن؟

من الدكتور جيرارد، هل تذكرينه؟ الذي قابلناه في حفلة الدكتور عز الدين.

تدفق الدم حاراً وسعيداً إلى وجهي ورقص قلبي. أذكره؟ ولو؟ وهل أذكر غيره؟

آه نعم، تذكرته، خيراً ماذا يريد، ولماذا أرسل الرسالة لك وليس لي؟

لست أدري، ربما أخطأ في تخزين رقمينا حين طلبهما مني ذلك اليوم، على كل سأرسل لك الرسالة الآن.

شكراً جيمي.

ووصلت الرسالة الأولى:

«مرحباً لميا، لقد كان من دواعي تقديري وسروري أن التقيت بك، وقد تأثرت بقصتك الحزينة. لقد كنت مشغولاً جداً خلال الأسبوع الماضي، وأنا الآن في إجازة خارج النمسا مع زوجتي، سأعود الاثنين القادم، وسأتصل بك. من هو المحامي الذي استشرته في موضوع إقامتك؟ تحياتي إلى جيمي وزوجته. جيرارد».

فرحت بالرسالة، لكنني استغربت وجهتها؟ وأيقنت أنه سجل رقم جيمي باسمي وبالعكس.

كنت أفضل أن أنتظر عودته من الإجازة ليعاود الاتصال بي، لكن كان عليّ أن أصحح له رقمي، خشية أن يرسل مزيداً من الرسائل لجيمي، فأرسلت له:

«مرحباً د. جيرارد، هذه لميا، أرجو أن تكون بخير، لقد استلمت رسالتك عبر جيمي، وأريد هنا أن أصحح لك رقمي. يومك سعيد».

عرفت أنه استلم الرسالة بعد ساعات عدة، لكنه لم يرد.

بعد أيام عدة، وحين كنت وحيدة في البيت مع ماركو ابن فرح ذي العشر سنوات، أتسلى بقراءة رواية من تلك التي خزّنتها ضمن ملف على اللابتوب قبل أن أغادر سوريا، طلب مني شاحن الموبايل خاصتي، ليشحن جهاز والده الذي كان قد نسيه في البيت، واستغلّ ابنه ذلك بأن استخدمه ليلعب ألعاباً لم تكن مناسبة للتحميل على جهازه هو، وعندما فرغت البطارية، كان على الولد إعادة شحن جهاز والده، لكنه لم يجد الشاحن، فطلب خاصتي لأنه كان مماثلاً لجهاز والده.

تكرم عينك حبيبي.

أعطيته الشاحن، ثبّته في جهاز أبيه ووصله بالكهرباء. خطر لي فجأة وأنا أنظر إلى موبايل جيمي، أن ألقي نظرة على الرسالة التي أرسلها لي جيرارد لأتأكد من رقمه الذي كان عز الدين قد أرسله إليّ:

ماركو، هل يمكن أن تفتح لي الواتساب الخاص بوالدك؟

أوك.

كي لا يظن الطفل أنني أتعمّد العبث بجهاز والده، سألته أن يفتح الواتساب بنفسه ومن ثم سألته أن يبحث عن اسم جيرارد، وعندما وجده فتح الرسائل الخاصة به، نظرت لأتأكد، ففوجئت برسالة ثانية، باسمي، مرسلة إلى رقم جيمي أيضاً:

«عزيزتي لميا، كيف هي الأمور، أخبريني بصراحة ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك، كيف أستطيع مساعدتك، جيرارد».

هذه رسالة لي، سأرسلها لنفسي.

قلت لماركو، وأرسلت الرسالة إلى رقمي قبل أن أعيد الجهاز للشحن. فرحت أيضاً، امتلأ قلبي بالحبور والامتنان، لكن حيرتي تصاعدت! لماذا عاد وأرسل الرسالة إلى جيمي ولم يجب على رسالتي التي من المفروض أنها وصلته لتؤكّد له رقمي؟! ولماذا لم يخبرني جيمي عن تلك الرسالة، ولماذا لم

يرسل لجيرارد نفسه تصحيحاً للأرقام؟ أما كان يجب أصولاً أن يتصل به ليقول له هذا ليس رقم لميا الذي ترسل له الرسائل وإنما رقمي أنا؟ هل شعر بالاستياء وفضّل تجاهل الموضوع والانسحاب منه خصوصاً أنه كان قد أملاني رقم جيرارد بعدما حوّل لي رسالته الأولى؟

أكلني الفضول، لكنني فضّلت أن أنتظر عودة جيرارد من الإجازة، علّه يعاود الاتصال بطريقة ما. عاودت قراءة رسائله، فرحت ثانية واطمأن قلبي، ووثقت بأنه سيفعل أي شيء ليلقاني قريباً.

عندما جاء يوم الاثنين موعد عودته، عاودني القلق ونفاد الصبر بانتظار اتصاله. خصوصاً أنني في هذه الأثناء، استلمت بإخطار من الشرطة الجواب الرسمي الذي يقضي بأن إسبانيا موافقة ومستعدة لمنحي حق اللجوء على أراضيها، وعليه، سيتوجب عليّ أن أغادر النمسا في غضون أسابيع قليلة.

عندما مرّت أيام ثلاثة أخرى ولم يأتِ الاتصال المنتظر، قررت أن أفعل شيئاً. إذ حدثتني نفسي أنه ربما فقدَ رقمي ثانية، أو مسحه من جهازه بنفسه كي لا تراه زوجته، وقد صدق حدسي. فقد علمت لاحقاً أنه كان يضطّر إلى مسح الرسالة وصفحة المحادثة في كل مرة، خوفاً من زوجته التي كانت تراقب هاتفه باستمرار، وقد كان لهذا السبب يرسل الرسائل إلى رقم جيمي على أمل أن تحول إليّ لاحقاً.

«أتمنى أن تكون قد قضيت إجازة سعيدة. لقد أُعلمت بأنني يجب أن أغادر إلى إسبانيا في غضون أسابيع. وقد تقدمت حسب نصيحة المحامية باعتراض على هذا القرار، لكنني أعرف أن فرصتي ضئيلة في الحصول على ردٍّ إيجابي. محاميتي اسمها كريستينا مالينوفيتش (أوكرانية الأصل) من مكتب حقوق الإنسان. لا أعرف أي نوع من المساعدة أنا أحتاج الآن، لكنني أعرف فقط أنني ممتنة فعلاً لاهتمامك».

بعد إرسالي الرسالة بدقائق، اتصل بي، ارتجف قلبي وأنا أنظر إلى اسمه على شاشة الموبايل، وعرفت أنني بمجرد لمس الشاشة وتمرير إصبعي إلى اليمين، سأبدأ جدياً قصة جديدة في حياتي.

ألو؟!

مرحباً لميا، أنا جيرارد.

آه مرحباً، كيف حالك؟

أنا بخير، وأنت؟

بخير الحمد لله، هل أمضيت إجازة طيبة؟

آه نعم، كانت قسطاً رائعاً من الراحة والاسترخاء، ثم عدت مجدداً للعمل الكثيف والشاق.

على فكرة، شكراً لرسائلك واهتمامك، أنا ممتنة فعلاً.

أخبريني، هل صحيح أنك ستغادرين قريباً؟

نعم، لكن عليّ أن أنتظر أولاً نتيجة الاعتراض الذي قدّمته على قرار النمسا برفضها منحي حق اللجوء. المحامية قالت إنها لن تتأخر، وسأغادر بعد أيام من صدورها.

لميا أخبريني صراحة، هل من شيء أستطيع أن أفعله، هل من المجدي أن نسأل محامياً آخر؟

لا لا، لم يعد الأمر مجدياً، لقد سبق واستشرت ثلاثة محامين وحصلت على الإجابات نفسها.

إذاً، هل أنت بحاجة إلى أي مساعدة أخرى، اطلبي مني أي شيء، سأكون سعيداً بمساعدتك.

ضحكت.

شكراً لاهتمامك د. كرايمر، ولكنني بخير ولا أعرف ما الذي يمكن أن أطلبه منك، ولكن!

خطر لي فجأة، أن أسأله بصفته طبيباً أن يحرر لي وصفة طبية لأشتري دواء الكوليسترول الذي أعاني من ارتفاع طفيف في نسبته بالدم لأسباب وراثية.

قولي لي أرجوك!

هل من الممكن أن تحرّر لي وصفة لأشتري دواء للكوليسترول؟ أنت تعرف أنه من المستحيل هنا أن أبتاع دواء من أي صيدلية بدون وصفة طبيب.

هذا سهل، وأقل ما يمكن، ولكن هل من المعقول أنك تعانين من الكوليسترول؟

نعم للأسف، نسبة ضئيلة، لكنها موجودة ولأسباب وراثية حسب ما قاله لي طبيبي في حلب، فأنا لست من هواة الأطعمة التي ترفع الكوليسترول، ماعدا الشوكولا، وغالباً أتناول المرّ منها.

حسناً، أنا جاهز على أي حال، أين تريدين أن أراك؟

لا أريدك أن تجهد نفسك أرجوك، أستطيع أن أمرّ بعيادتك في أي وقت.

هل تستطيعين ذلك؟ سيكون ممتازاً، هل تستطيعين أن تأتي اليوم؟

اليوم؟ (قفز قلبي من مكانه) لا مانع عندي، متى؟

أنا لا أستقبل المرضى عادة بعد ظهر كل أربعاء، فقط أبقى في مكتبي لأرتب وأصنف بعض الأوراق حتى السابعة، تستطيعين أن تأتي في أي وقت.

أعطاني العنوان، الذي كنت أعرفه مسبقاً من خلال بحثي في الإنترنت. وذهبت، بماكياج

خفيف جداً، وفستان أسود قصير، بسيط جداً ولكنه يبدو جميلاً عليّ، أملكه منذ سنوات عديدة، أحبه وأحتفظ به للأيام المرحة السعيدة. أردت أن أبدو جميلة، وأنثى، وبسيطة. تعمدت أن أشبه نفسي إلى أقصى حدّ، فظهرت بالشكل الذي يريحني والذي شعرت أنه يمثّلني خير تمثيل.

ذهبت وأنا مرتاحة، واثقة من نفسي، وسعيدة جداً. وأشعر بخفة وإثارة تأخذني إلى ذروة كل شيء، ذروة اللذة وذروة الفرح وذروة الحياة، الحياة التي افتقدتها داخلي ومن حولي منذ سنين.

وصلت إلى المحطة وركبت القطار متجهة إليه، وأنا أغني بنشوة مع الأغنية التي تصدح في رأسي من خلال سماعاتي ويتوافق إيقاعها مع دقات قلبي «You are too good to be true»، شعرت أن كل مَن حولي كان يسمعها معي، ويشعر بسعادتي التي تنعكس ألقاً وحيوية في كل حركاتي ولفتاتي. كل من مرّ بجانبي لفحته نسائم فرحي، ففرح من أجلي ومعي.

نزلت من القطار ومشيت إليه، إلى ذلك الرجل الذي كنت بالكاد أعرفه، لكنني مستعدة لأن أحبه ولأن أذوب في حبه، بدون أي شعور بالمنطق أو بالذنب. كنت أعرف أنني ألاحق شغفي بالحياة التي كادت أن تنطفئ في داخلي قبل أن تلوح لي مجدداً من خلال ذلك الرجل الطويل الغريب والمتزوج. وكنت أشعر أن لقائي به في هذه الفترة من حياتي كان هدية من الله، من السماء ومن القدر، وسيكون من الكفر بكل الآلهة وكل القيم السامية في الحياة، أن أرفض استلام هذه الهدية.

كنت أنا التي لم تؤمن يوماً بالقدر، مؤمنة أن الأيام ألقت به في دربي لغاية ما في نفس القدر. فلم أغيّر دربي بل مشيت فيه بفرح، وباستسلام لذيذ لذاك القدر.

كنت مؤمنة أنّه من واجبي (قبل حقي) تجاه هذه الذات التي مَنحتْها لي الحياة أن أجعلها على الأقل سعيدة ولو لأيام معدودة، بعد أن عذَّبْتها عمراً طويلاً باختيارات مجنونة وإخلاص لعشق بعد آخر، فيه من الحرمان أكثر مما فيه من المتعة. لست نادمة على ما فات، لأنني كنت صادقة مع نفسي ومخلصة لذاتي، ولأنني كنت واثقة أن صدقي هذا سيكافأ حتماً يوماً ما، وأن كل ما كان، ما هو إلا تحضير لما سيأتي.

وقد أتى. وقد آن الأوان لأخرج إلى النور لأستلم مكافأتي.

استقبلني في الشارع ليدلّني على المدخل الصحيح للعيادة. كانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها بعد لقائنا في حفلة عز الدين. حين لمحته من بعيد بزيه الأبيض الكامل (الذي اكتشفت بعد اقترابي انه يونيفورم خاص بالعمل) وجدته أقل وسامة من الصورة الباهرة التي انطبعت في ذهني وتلذّذت بها

طيلة الأسابيع الماضية. لم يخفّف ذلك من نشوتي بل على نحو ما زاد من شعوري بتفوقي وثقتي بنفسي، أقل وسامة أكثر وسامة، لا يهم، أريده كما هو.

صافحني، فشعرت بارتباكه، وتهيأ لي أنني أسمع نبضات قلبه حين اقترب. انحنى وقبلني قبلتين ودودتين على وجنتي. كم هو طويل! قلت في نفسي.

حين ولجت العيادة الكبيرة الفارغة، كنت أشعر بحر شديد بعد أن مشيت مسافة لا بأس بها تحت الشمس قادمة من محطة القطار. قادني إلى مكتبه، حيث جلست بأدب، وسارع لإحضار مروحة صغيرة لتبريد الجو وضعها في زاوية الغرفة.

هل تشربين الماء؟ لقد وضعت الزجاجة في البراد من أجلك.

أحب هذا، شكراً

تحبين المياه الغازية؟

آه لا، أفضلها بدون غاز.

ارتبك، لأن الغازية هي التي كانت بالبراد، وأحضر لي كأساً من المياه الطبيعية غير الغازية، والدافئة.

بعد أن شربت، تجاذبنا أطراف حديث مجاملات حول إجازته، القرار الذي استلمته بوجوب المغادرة، والوضع في سوريا. ثم كأي طبيب مع أي مريض، فتح ملفاً أمامه وراح يسألني ويدوّن فيه: اسمي الكامل، تاريخ ميلادي، طولي، وزني، الأمراض التي سبق وأصبت بها. ثم سأل عن عائلتي، وعن الأمراض التي يعاني منها كل منهم، ومن ثم سألني عن موضوع الكوليسترول فشرحت له كيف اكتشفته بالصدفة. قال:

مع احترامي لطبيب عائلتك، إلا أنني أريد أن أتأكد بنفسي من الموضوع، وأفضّل أن أجري لك فحصاً بالإيكو لنتأكد أيضاً من سلامة الغدة الدرقية، بما أنك قلت إن أختك أصيبت بفرط نشاط الغدة وهو مرض وراثي.

لم أكن أتوقع كل هذا، لكنني باستسلام وافقت.

انتقلنا إلى غرفة الفحص، حيث دعاني للتمدد على السرير المخصص لذلك. كنت متوجسة، وأفكر كل لحظة ما عساه سيفعل في اللحظة التالية. كنا وحدنا في العيادة الكبيرة، وكنت مستلقية بين يديه باستسلام بفستاني الأسود القصير. في حجرة الفحص الصغيرة، كان يتصرف بود ولكن أيضاً بمنتهى المهنيّة. أجرى لي كل الفحوصات التي يجريها أي طبيب لأي مريض، كنت أذوب خجلاً، وهو كان ثابتاً وحيادياً. لمسني عدة مرات بلطف وبقوة، في رسغي، في عنقي، وفي أعلى فخذي. لكنها كلها كانت لمسات يد طبيب لجسد مريضه، لا أكثر، ولا أقل، بدون أي تعبير عن شهوة ما أو عاطفة.

عندما أنهى الفحص السريري، دعاني إلى المخبر. أجلسني وجلس أمامي قريباً جداً مني، ربط أعلى ذراعي بشريط مطاطي وغرس إبرة غليظة في وريدي وسحب كمية من الدم. في تلك اللحظات، كنت أشعر بالإثارة، وتمنيت أن يبقي إبرته في وريدي، وأن يسحب دمي كله، لكنه اكتفى بالقليل، أفرغه في عبوة خاصة وكتب اسمي عليها.

حين انتهى، عدنا إلى المكتب، أخرج لي من درج في طاولته علبة وأعطاني إياها قائلاً:

هذه أقراص للكوليسترول من عيار 10 حسب ما شرحت لي.

المعذرة دكتور، أنا أريدك أن تحرّر لي وصفة وأنا سأشتري الأقراص بنفسي من أي صيدلية.

الأمر سيّان لا تهتمي، لا داعي لأن تشتري شيئاً، هذه تصلني كعينات مجانية، وسيسرني أن أقدّمها لك.

ولكن هذا محرج.

لا أبداً، هذا لا شيء، أنا أتمنى فعلاً أن أقوم بشيء ما من أجلك، لأجعل هذه الفترة الصعبة من حياتك أسهل ولو بنسبة قليلة.

شكراً جزيلاً لك، هذا لطف كبير.

أنت تستحقين. أنت امرأة مؤثرة واستثنائية، بصراحة، لقد لفتِّ انتباهي في تلك الأمسية الجميلة في حديقة عز الدين، انجذبت إليك لدرجة شعرت فيها زوجتي بالغيظ والغيرة الشديدة.

شكراً للإطراء أولاً، أنت أيضاً رجل مميّز لم أقابل مثله منذ زمن بعيد. وبالنسبة إلى زوجتك، فلست أرى من سبب لتشعر بالغيرة، لم يحصل شيء في تلك الأمسية يستدعي الانتباه.

نعم، أنت لا ذنب لك، أنا من تصرّف بشكل لافت للانتباه، وزوجتي تعرفني، وقد حدست عندما رأتك أنك ستؤثرين فيّ، ثم، صحيح أنه لم يحصل شيء بعد يستدعي الغيرة، ولكن من يدري، زوجتي تتنبأ، وتغار سلفاً.

ضحكت من كل قلبي، ومن كل قلبي تمنيت بخبث أن تصدق النبوءة، نهضت قائلة:

حسناً دكتور، شكراً جزيلاً لكل شيء، سأتركك تتابع عملك. متى تظهر نتيجة التحليل؟

خلال بضعة أيام، لا تقلقي سأتصل بك.

مضيت ورافقني نحو المخرج، فتح لي الباب، وقبل أن أخرج قلت له:

حسناً سأكون في الانتظار، بلغ سلامي للسيدة زوجتك!

ليست فكرة جيدة صدقيني.

هل تعني ما تقول؟ هل هي جديّة في غيرتها إلى هذه الدرجة.

هي جديّة، ومعها حق!

قبلني قبلتين دافئتين، وسألني:

هل أنت بخير؟ هل تقلقك فكرة الذهاب إلى إسبانيا؟

أنا بخير، في الحقيقة أنا أحب إسبانيا جداً، وأتلهف للعيش فيها، فقط تقلقني فكرة التشرد في الفترة الأولى، ولكن، أظن إنني سأتغلب على تلك المرحلة وسأكون بخير.

على فكرة يليق بك أن تعيشي في إسبانيا فأنت تشبهين الإسبانيات.

ربما هذا صحيح، هي السحنة المشتركة لحوض المتوسط.

صحيح، سحنة فاتنة.

ضحكت، وشكرته مجدداً.

أعندكِ كثير من الأصدقاء في مدريد؟

ليس الكثير، عندي صديقة واحدة وقد عرفتني إلى أختها وأخيها أيضاً، هم أناس لطفاء جداً. وقد كان عندي صديق إسباني حميم تعرفت إليه في دمشق، في الحقيقة كان أكثر من مجرد صديق، هو الذي دعمني لأحصل على الفيزا، لكنه بحكم عمله كديبلوماسي، مسافر دائماً، وهو الآن خارج إسبانيا.

فهمت! ولكن هل ما زلتما على اتصال؟

نعم من حين لآخر.. أنا آسفة لأنني أعطلك عن عملك، يجب أن أغادر.

لا لا تهتمي، عندي متسع من الوقت، أرجوك ابقِ، عودي للدخول فأنا أريد أن أستمع إليك!

ودون أن ينتظر ردي، سحبني من يدي إلى الداخل وأعاد إغلاق الباب، عدنا إلى المكتب، جلس أمامي وقال:

حدثيني إذاً؟!

وتحدثت، وسمعني باهتمام، بنفس الجدية التي كان يناقشني بها في أول محادثة بيننا في حديقة عز الدين وهيلغا. وحين أدركت فجأة أنني قضيت الكثير من الوقت، قرّرت ثانية أنه عليّ المغادرة، وقفت، فوقف بطوله الفارع أمامي، وبدل أن يقبّلني قبلتيه المعتادتين، ضمّني إليه بحنان، واستسلمت أنا لعذوبته غير المتناهية لعدة ثوان، وحين انتبهت، ابتعدت عنه بلطف قائلة:

المعانقة تشحن الطاقة الإيجابية للإنسان!

كان يبتسم بحنان، فابتسمت بامتنان:

شكراً للشحنة، كنت بحاجة إليها في هذه الظروف.

انتظري!

قال، وأخرج من درجه أيضاً شيئاً جميلاً وأعطاني إياه:

هذا لك، لقد قلت إنك تحبين الشوكولا.

آه، شكراً جزيلاً.

وأخذت بفرحة طفلة اللوح الكبير الأنيق، بغلافه الكرتوني الجميل النقوش والملفوف بشريط من الأورغونزا المعقود بشكل فراشة جميلة.

وخذي شيئاً من الفاكهة من أجل القطار.

حمل طبق الفاكهة الكبير الذي كان يستريح على طاولة جانبية في العيادة، وقدّمه لي، ضحكت

بصوت عال وأنا أتذكر جدتي لوريت وزوادتها في نزهات السيتروين:

فاكهة؟؟ في القطار؟ هاهاهاهاها، الرحلة لا تستغرق أكثر من عشر دقائق! لا تستدعي التزوّد بالمؤونة.

ولو، الفاكهة طعام صحي يجب أن تكثري منه. إن لم تأكليها في القطار كليها في وقت آخر.

لا أرجوك، شكراً.

ولم أستطع التوقف عن الضحك، فحمل قطعتي دراق وقطعتي إجاص وموزة، وضعها في كيس وأعطاني إياه.

ضعي هذا الكيس في حقيبتك، يجب أن تكثري من تناول الفاكهة.

حسناً دكتور، سأفعل.

خرجت أخيراً سعيدة بحمولتي الثمينة، من فاكهة وشوكولا وأدوية، وشحنة هائلة من الطاقة الإيجابية والسلام، الحب، الفرح والإثارة، متّجهة نحو محطة القطار وأنا أغني كعبد الحليم حافظ في فيلم معبودة الجماهير: «يا صحابي يا أهلي يا جيراني، أنا عايز أخدكو في أحضاني».

كانت إقامتي التي طالت عند فرح تحرجني وتجرحني. في الشهر الأول، كنت أشعر بالدفء والألفة، لكن البرد والغربة ما لبثا أن تسلّلا شيئاً فشيئاً إلى روحي مع الأشهر التالية التي تورطت بالبقاء فيها في الانتظار. فرح قريبة إليّ كنفسي، وأنا أحب أولادها وهم يحبونني. وزوجها جيمي كان كريماً معي وودوداً جداً. ولكن، أن تقتحم حياة عائلة لشهور، يعني أن تكون شاهداً على ما تستره الجدران والأبواب من قصص وخلافات وعادات غريبة وحماقات. أن تضطّر للاختفاء عند نشوب الخلافات، وللتأقلم مع غرابة العادات، ولغضّ الطرف عند ارتكاب الحماقات. أن تتنصل من عاداتك، وتتجاهل اختلافاتك وتلغي تماماً حماقاتك، وأن تدفن أحزانك في قبر عميق كي لا تفوح رائحتها فتشيع جواً من الكآبة في البيت المضيف.

صديقتي التي كانت تنتظر اتصالاتنا من قارة لأخرى، لتتنفس الصعداء ولتروّح عن نفسها عناء واجباتها الأسرية وهموم حياتها بالحديث معي، صارت تهرب من المنزل وأنا فيه لتروّح عن نفسها بعيداً عنه وعني، كأنني صرت أحد أعبائها أو همومها اليومية.

كنت أتعمّد أن أقضي وقتي خارج المنزل قدر المستطاع، أهيم وحيدة في الشوارع والطرقات والحدائق والحقول، تاركة لروحي مساحة من التنفس، وتاركة لهم أيضاً مساحة من الخصوصية، كعائلة لا يضطّر أفرادها إلى الابتسام بأدب لضيف يحتل زاوية من بيتهم، ليتفرج منها على طقوسهم المنزلية، ويحصي الثقوب في بيجاماتهم وجواربهم.

استعنت بتيريزا، جارة فرح اللطيفة التي تملك منزلاً جميلاً وكبيراً في الجوار، تؤجّر الطابق السفلي منه لطالب جامعي كان على وشك إنهاء عامه الدراسي والمغادرة. طلبت إليها أن تسمح لي بالإقامة في المنزل الصغير حين مغادرة الطالب ريثما تجد مستأجراً آخر. وافقت عن طيب خاطر، ودعتني حالما أخلى الطالب البيت للمجيء والإقامة فيه. وقد أخجلتني بكرمها ودفء استقبالها حين ملأت لي البراد الصغير بالفاكهة والجبن والزيتون، وزودتني بالبسكويت والخبز وبعض الكيك الذي صنعته ابنتها الظريفة.

كانت امرأة رائعة، في مثل عمر أمي مارجو تقريباً وبنشاطها، ذكية وتحب الحياة مثلها. تعشق مساعدة الناس، وتفعل ذلك بقلب دافئ. كانت تعمل كمتطوعة في مؤسسة خيرية، كما كانت نسبة إلى أصولها الأرمنية، قد تعلمت من جدتها كيفية ضرب المندل وقراءة الكفّ وبقايا القهوة في الفنجان، ما يجعل احتساء القهوة معها متعة مشوّقة. اعتدت أن أقضي معها أوقاتاً طويلة، رافقتها مرات عدة إلى أسواق خيرية نصبت في الساحات لجمع التبرعات لصالح المحتاجين الأرمن، كما شاركتها حفلات الشواء التي كانت تقيمها لأصدقائها من حين لآخر في حديقة بيتها.

الشقة التي أعطتني مفتاحها كانت صغيرة، لكنها أيضاً أنيقة ونظيفة، حديثة ومجهزة بكل مستلزمات الحياة العصرية. أحببتها منذ أن خطوت فيها الخطوة الأولى، وفرحت جداً حين سنحت لي الفرصة وسمحت لي تيريزا بالإقامة فيها.

سارعت إلى إحضار ملابسي وأشيائي من منزل فرح المجاور، رصصتها ورتّبتها في الخزانة والأدراج. نظّفت الشقة الصغيرة وفرشت الملاءات النظيفة على السرير. التقطت صوراً كثيرة لها من كل زواياها، وأرسلتها إلى أهلي وأصدقائي في كل أنحاء العالم.

اندفعت تحت الدوش محتفلة بحريتي. شعرت للمرة الأولى منذ شهور بنوع من الاستقرار،

جاء متزامناً مع الشحنة الكبيرة من الفرح والإثارة التي أهداها ظهور جيرارد لحياتي. خرجت من الحمام دون منشفة، تمددت على السرير، وأرخيت عليه جسدي وروحي لأتخفّف من ثقلهما، ولأخفّف من الأثقال التي أرهقتهما، وصرخت بحبور: «أخيراً.. أنا في بيتي»!

بيتي. الحلم الذي حققته منذ سنوات ومن ثم ضحّيت به. حققته في أخطر ثورة من ثوراتي، وأفشل ثورة. تخلّيت عنه كمن أنجب طفلاً بعد عقم طويل، ثم وأده.

في مدينة مثل حلب، من العيب أن يكون للمرأة بيت مستقل، وقد اقترفت ذلك العيب عن سبق إصرار، لا بل وقد تعذّبت كثيراً لأنال شرف تلويث سمعتي به. فعلت ذلك بشغف وعلى رؤوس الأشهاد، لكنني لم أستمتع بالنتائج كما كنت أرجو. كسر حلمي انكسار أمي، وأطفأت دموع أبي ثورتي.

بيت. باب وسقف ونافذة، ودخان يتصاعد من المدخنة. اللوحة الأولى التي يرسمها الطفل بمجرد أن يتعلم إمساك القلم. الطفل، أي طفل، بغضّ النظر عن جنسه. هل يعني هذا شيئاً ما؟ هل يعني أنني لم أكن شاذة الأحلام والرغبات؟ وأن الشاذ هو العقلية التي تقرر أن البيت الذي تسكنه امرأة دون زوج ليس إلا بيت دعارة؟ أم أن اقتراف الحلم هو بحدّ ذاته عمل شاذ؟ وأن الحلم الغريزي هو حق غير شرعي رُجمت براءته بأحجار شريعة العفن والضباب.

في الحقيقة المرئية، لم ينكر عليّ أحد حقي في ذلك الحلم، ولكن، كان المستنكر هو طريقة تحقيقه. فلكي أحصل على بيت، كان عليّ أن أكون خبيثة كفاية وذليلة كفاية لأحلم برجل يجلبه ليّ. كان يجب أن أختصر الطريق وأن أضرب كل العصافير بحجر واحد، أن أضرب كل الأحلام برجل واحد، حتى وإن كان هذا الرجل ليس حلماً بحدّ ذاته.

عندي مشروع خاص، وأحتاج إلى سلفة.

هذه أخبار جيدة، أشجعكِ، وأنا جاهز.

هكذا أجابني بحماس، مدير ومالك الشركة السياحية التي تملك الفندق الذي أعمل فيه، وهو شاب في مثل عمري تقريباً، شخصية غريبة واستثنائية، تربطني به صداقة من نوع غريب واستثنائي أيضاً. ابتسمت لحماسه وأجبته:

شكراً ولكن.. ليس الأمر كما تظن، أنا بحاجة إلى مبلغ كبير.

بانت الدهشة على وجهه:

كبير؟ «شقد كبير يعني»؟ وما هو المشروع أساساً؟ قولي لي وأنا سأقول لك كم ستحتاجين من نقود.

حسناً، سأشتري بيتاً!

هههه.. ماذا قلت؟

بيت.. قلت بيت.. سأشتري بيت.

صمت، فكّر قليلاً، ثم قال:

- مشروع ممتاز، ولكن فاجأني أن تفكّري أنت بهذا الأسلوب الاستثماري، أحسنت، من الجيد جداً أن تفكّري بشراء بيت كضمان للمستقبل، وأن تستفيدي بالوقت نفسه من تأجيره.

عفواً لقد أسأت فهمي ثانية.

كيف؟

لن اشتري البيت لكي أتاجر به أو لكي أؤجّره، سأشتري بيتاً لأسكن فيه.

تسكنين فيه؟ وحدك؟

نعم، وحدي.

لميا، أصدقيني القول، هل من مشاكل بينك وبين أهلك.

ضحكت:

لا صدّقني، أنت تعرف أهلي، لم يسبق أن حصل بيننا إلا خلافات عادية وعابرة، أنا أتمتّع بحريتي الكاملة في المنزل.

إذاً.. إما أن تكوني مجنونة، وإما...

وإما ماذا؟

اعترفي هيا.. هل هناك شيء لا أعرفه؟

بدأت أفهم ماذا يقصد، لكنني انتظرت أن يفسّر بنفسه:

شيء مثل ماذا؟ بربك!

علاقة جديدة، حب جديد...

داهمني الغضب، إلى جانب دهشتي وصدمتي فيه:

حتى أنت يا بروتوس؟! لقد توقعت ردّ فعل كهذا من مصادر مختلفة، لكن منك أنت؟!

بقي محدّقاً وصامتاً، فازداد غضبي:

لو كنت قد تورطت في علاقة مع أحد، فهل سأتقدم بطلب سلفة منك لأشتري له عشّ الغرام؟ أليس من الأولى أن أطلب منه هذا الطلب؟!

ابتسم بخبثه المعهود:

ربما ظروفه لا تسمح.

لسوء حظي إذاً، وقعت في غرام وغد وفقير.

ضحك بشقاوة طفل لئيم، فأضحكني معه، حتى قال:

إذاً، إن لم تكوني على علاقة بوغد فقير، فأنت حتماً مجنونة.

توقفت عن الضحك، وعاد الغضب ليشتعل داخلي:

أين الجنون في أن يكون لي بيتي الخاص؟

أنت تقضين معظم ساعات يومك خارج البيت، تعودين في المساء وتجدينه نظيفاً ودافئاً، وتجدين على مائدته طعاماً شهياً، تخلعين ملابسك وتستبدلينها بأخرى نظيفة ومكويّة دون أن تعرفي كيف ومتى. تضحّين بكل هذه الرفاهية من أجل ماذا؟ هل تعتقدين أنه من السهل أن تديري بيتاً؟ مصاريفه وصيانته ونظافته ومشاكله، كل هذا طبعاً بعد أن تستلفي مبلغاً يصبح قيداً في عنقك لسنوات، وبعد أن تخرج من المنزل الورشات التي سيكون عليك في الغالب أن تستعيني بها ليصبح البيت قابلاً للسكن.

برأيك ألم يحن الوقت بعد لأتحمّل مسؤولية نفسي وأريح أمي وأبي من هذه الواجبات السخيفة وهما في هذا العمر؟

هل اشتكيا؟

لا، لم يشتكيا، لكنني لا أجد وجودي منطقياً في بيتهما وأنا في هذا العمر، لا أشعر أنه بيتي بعد، كل الطيور تغادر الأعشاش بعد أن تتعلم الطيران، إلا أنا. يا أخي أنا أريد عشّاً أبنيه كما أريد، ألوّنه باللون الذي

أحب، وأعطّره بالرائحة التي أختار، لن أفرض مزاجي وذوقي على أمي وأبي في بيتهما، أولاً وأخيراً، ذلك هو بيتهما.

إن كنت تملكين هذه العقلية، فقد كان الأحرى بك أن تتزوجي، وتصنعي في عشّ الزوجية ما تشائين!

نظرت إليه بيأس:

رامز، أنت تصدمني!

أنا أفهمك صدّقيني، ولكن ألا تلاحظين أنك تفكرين برومانسية وخيال وردي؟! طيور وأعشاش؟! انزلي إلى الأرض يا عزيزتي، انضجي، فكّري بواقعية وموضوعية.

وفكّرت بموضوعية، فحسمت الحوار بأن سألته:

حسناً، بكل موضوعية، سأشتري بيتاً لأؤجّره، هل أنت موافق على مبدأ السلفة يا أستاذ رامز؟

ضحك بمكر وقال:

أنت ذكيّة بقدر ما أنت غبيّة، ومن أجل ذلك التناقض تعجبينني.

شكراً للطفك.

كم تريدين؟

وبدأت رحلة البحث عن شقة مناسبة، وكانت قد أعجبتني فكرة استثمار المنزل والاستفادة من تأجيره، فاستعملتها كخطوة أولى مع أهلي ليتقبلوا فكرة شراء البيت. وقد حصل وفعلوا بحماس، بل لقد ذهب الحماس بأمي بأن أخذت ترافقني إلى دكاكين السماسرة، والتفرّج على البيوت التي تعرض علينا

من قبلهم.

بالمبلغ الذي كان يختصر ميزانيتي، كان السماسرة يقودوننا للفرجة على بيوت تعيسة، في مناطق شعبية، حارات غير مستحبّة، دور عتيقة وغير قابلة للسكن بوضعها الراهن، شقق صغيرة وداخلية لا يدخلها الهواء الطلق، أقبية تحت سطح الأرض لا ترى الشمس، وغرف مبنية على سطوح الأبنية تصطلي بحرارة الصيف وتسوطها رياح الشتاء من جهاتها الأربع.

تصاعد إحباطي يوماً بعد يوم، إذ لم أتخيّل نفسي مسترخية بأمان على أريكة مريحة في أي من تلك الشقق المريعة التي عاينتها، إلى أن وجدته، ووقعت في غرامه من أول درجة في سلم البناء الذي يحتلّ طابقه الأخير.

كان يتألف من صالة وغرفة نوم، ومطبخ وحمّام في حالة لا بأس بها، وشرفة تنفتح على أفق بعيد، تجتازه سكة قطار، وتغرب في أقاصيه الشمس. سرّ نظافته أنه كان ممتلكاً من قبل امرأة عزباء غريبة الأطوار فنانة الطباع، تعمل كدليلة سياحية نهاراً وكمطربة أغان رومانسية وهادئة في مطعم راق ومحترم الأجواء ليلاً. عاشت فيه مع أمها العجوز سنوات عدة ثم عرضته للبيع آسفة بعد أن قررت الانتقال للعيش في دمشق، فسلّمتني إياه بشجن حتى تخيّلت أنني أسلبها نور عينيها.

لأنها كانت مضطّرة ومستعجلة، فقد باعته بسعر أقل مما يستحق بقليل، ولكنه كان مع ذلك أكثر من ميزانيتي بقليل، تدبرت الأمر بأن اتّبعت نصيحة مديري وصديقي الاستثنائي، بأن سحبت قرضاً عقارياً من بنك خاص لبناني الجذور كان قد افتتحه حديثاً إبان النهضة والانفتاح في سوريا عدد من الشركاء والمساهمين يترأسهم بحصة كبرى إمبراطور الاقتصاد في البلاد، وهو شاب من أقرباء الرئيس كان يسيطر على حوالى 60 بالمئة من الاقتصاد السوري. تمّت الصفقة بأن وُضعت إشارة حجز لصالح المصرف المُقرِض على الصحيفة العقارية الخاصة بالمنزل، على أن أسدّد القرض بأقساط شهرية لمدة خمسة عشر عاماً تُرفع الإشارة باكتمالها. عندما حسبت فيما بعد المبلغ النهائي الذي سأكون قد سدّدته بنهاية الخمسة عشر عاماً، وجدت أنه أكثر من ضعف المبلغ الذي اقترضته، أي أنني سأكون قد سددت كامل قيمة القرض بالإضافة إلى حوالى 120 بالمئة من سعره كفائدة صافية!! أذهلني الموضوع، لكنني قبلت الشروط بدون تردّد إذ لم أكن أملك حلاً بديلاً لأحصل على المنزل الذي خفق له قلبي.

المرحلة اللاحقة كانت في تجهيز البيت وتأهيله. كنت مضطرة أن أعتمد على نفسي كلياً، باعتبار أن الرواية المعلنة أمام أهلي وأقربائي أنني سأعمل على تأجيره، فلم يكن منطقياً أن أبالغ في

أعمال الإصلاح والديكور. لم أطلب مساعدة أحد لأوفر على نفسي عناء الشرح والتبرير. استعنت بالورشات التي كانت لا تنقطع عن أعمال الصيانة في الفندق لإنجاز المطلوب، من طلاء جدران إلى تمديدات كهربائية وتجديد الحمام وجلي البلاط أخيراً. أما المفروشات فقد تبرّع لي والداي بكثير منها، من طاولة سفرة مستديرة مع أربعة كراسٍ كنا قد نسقناها بعد شراء أخرى جديدة، إلى تلفزيون في حالة ممتازة، وأدوات للمطبخ. مديري رامز وصديقي أهداني كنبة جميلة وكرسيين. أما أختي رنين وزوجها غالي (ولأنهما كانا الوحيدين من الأسرة اللذين يعرفان مآربي) فقد أهدياني جهاز ريسيفر وصحناً لالتقاط المحطات التلفزيونية الفضائية. وقد ذهبت بمفردي إلى العبّارة (وهو شارع مشهور في حلب فيه سوق كبير لمختلف الأجهزة الكهربائية) واشتريت براداً صغيراً وغسالة ملابس. كما تسكّعت في الأسواق واخترت من متاجر أنيقة، لمبات وأجهزة إنارة ذات تصاميم حديثة وجميلة لكل أنحاء المنزل. أما غرفة النوم، فقد نقلت من بيت أهلي غرفتي القديمة التي كان أبي قد أوصى أحد أكبر نجاري حلب بصناعتها لي ولأختي رنين منذ زمن بعيد، ففككتها وأعدت تركيبها في الحجرة البنفسجية التي تطل على الشرفة الغربية، وذلك طبعاً بعدما اعترفت لهم أخيراً بما نويت، في جلسة عائلية عاصفة.

أخي يوسف اكتفى بالتعبير عن دهشته من قراري، رنين ونور لم تندهشا إذ كانتا تعرفانني وتعرفان ما يدور في بالي من خطط وأحلام، غالي زوج رنين دعمني وشجّعني، أما فراس زوج نور وبحكم تفكيره العملي وعمله كتاجر يخالط أصنافاً متعددة من البشر، فقد استنكر القرار خوفاً عليّ من رد فعل المجتمع المريض.

أبي، ميشو، تجهّم بمرارة وابتلع غضباً عارماً. لم يوافق على القرار، لكنه لم يمنعني:

أنت بالغة وراشدة وبتعرفي شغلك!

أما مارجو، فقد طار صوابها، واستعملت كل الطرق لمنعي من المغادرة. كانت خائفة عليّ، وخائفة أيضاً من ردّ فعل الناس الذين حسب ما قالت، لن يرحموني ولن يرحموا أهلي!

حاربتني وحاربت أبي الذي لم يمنعني، لكنها سرعان ما استسلمت وسلّمت أسلحتها، وتحوّلت من المعارضة الشرسة إلى الأم السعيدة ببيت ابنتها الجديد. فتحت لي خزانتها المعطرة وأخرجت منها عدداً من المناشف والشراشف والأغطية والمخدّات النظيفة، الحديث منها والقديم. ولم تنسَ أن تسمعني وهي تبكي أنها كانت تتمنى أن تراني مغادرة إلى بيت زوجي، وليس إلى بيت خاوٍ وموحش حسب رأيها.

وقد تمّ أخيراً. حملت كل ملابسي وأشيائي وانتقلت، وساعدني كل أفراد العائلة في حمل أغراضي والانتقال، رنين ونور وأولادهما، أمي وأخي وحتى أبي، الذي حمّلني قبل أن أخرج ساعة جميلة لأضعها على أحد رفوف المكتبة التي ثبتتها على الجدار الأكبر لغرفة الجلوس.

حين أغلقت الباب على نفسي للمرة الأولى أحسست بفيض من مشاعر متناقضة وغريبة، كنت سعيدة بحريتي التي اجتمعت معها أخيراً تحت سقف واحد، وقلقة مما قد يحمله الغد لكلتينا من متاعب.

كنت أغادر المنزل صباحاً إلى عملي، وفي الثالثة، كنت أذهب للغداء مع أمي وأبي، حيث أبقى حتى الخامسة والنصف قبل أن أعود للفندق ثانية، وفي حوالى الثامنة والنصف أو التاسعة كنت أعود إلى بيتي، أتعشى وأتفرج على التلفزيون، وأنام.

عندما كنت أتناول الغداء معهما، كانا يبدوان كئيبين ومنكسرين. صوري كانت منتشرة في كل زاويا المنزل، كأنني هاجرت إلى حيث اللارجوع، أو كأنني متّ.

كان ضغط أسئلة الناس ثقيلاً عليهما، لم يعرفا بما يجيبان، أحياناً كانا يتهربان، وأحياناً كانا يكذبان.

وكان قلق أمي عليّ بلا حدود، ولست أدري إن كان في ذهنها شكوكاً كالتي كانت في ذهن رامز، إذ فاجأتني يوماً بزيارة في السابعة صباحاً، وهو في العادة موعد ذهابها لرياضتها الصباحية في الحديقة القريبة، والتي استبدلت بها المشي السريع نحو بيتي، لتوقظني مذعورة، وتطلب مني بمرح أن أقدّم لها قهوة الصباح.

جيراني في البناء، كانوا متوجسين منّي، كأنني كنت أحمل مرضاً سارياً أو معدياً. تعرّفت إلى بعضهم قبل أن أنتقل للسكن معهم. حين كنت أتردّد إلى البناء لمتابعة ورشات الدهان والكهرباء والأدوات الصحية. عرّفتهم عن نفسي كمالكة البيت الجديدة، توقعوا من تلقاء أنفسهم أني سأعرض البيت للإيجار، بل وأحضروا لي كثيراً من المستأجرين. كانوا لطفاء معي كما كنت معهم، ولم أذكر أمامهم أنني سأنتقل للعيش هنا بنفسي، تهرباً من مواجهة استغرابهم وابتعاداً عن الإجابة عن تساؤلاتهم. إلى أن صادفت بعد انتقالي أحد جيراني عند البقال أسفل المبنى، فبادر إلى سؤالي بأدب:

عفواً، وأعتذر سلفاً عن السؤال، ولكن هل لي أن أعرف من الذي سيقيم في المنزل؟

أنا.

أجبت، وأنا أشعر بالارتباك والإحراج.

أنا من يقيم هنا، ومنذ ثلاثة أيام.

أنتِ؟ اتسعت عيناه دهشة، وتابع.

أستسكنين أنت في المنزل... وحدك؟ ألن تؤجريه؟

لا لن أؤجره في الوقت الحاضر، سأسكنه بنفسي.

حسناً جداً، أنا آسف، أنا آسف جداً، سامحيني للسؤال لكنني سألتك فقط لأتأكد.

واعتذر كثيراً بعد ذلك كأنّه اكتشف أمراً جللاً بسؤال غير مقصود، كأنّه فتح الباب فجأة على غرفة نوم امرأة عارية وكشف عن عورتها. وسألت نفسي مستغربة، لماذا أحسست بدوري بالذنب والإحراج وأنا أجيب عن سؤاله؟! لماذا لم أواجهه بثقة وقوة، هل تحركت عقدة الدونية في داخلي وذكّرتني أنني كأنثى مخلوق أدنى درجة من الذكر ولا يحق لي ما يحق له.

قلت له أخيراً بخجل وأسف شديدين:

لا بأس، لا عليك.

كنت على وشك الاعتذار منه، قائلة «سامحني، أنا آسفة. أنا امرأة عزباء وأعيش وحدي في بنايتكم، أرجو المعذرة. نادمة أنا جداً، صدقني!».

ومثل جاري المؤدب، العامل الذي أتى ليوّلف لي جهاز الريسيفر، شاب لطيف كنا نستعين بخدماته وخبراته في الفندق عندنا. حين عرف أنني سأقيم في الشقة وحدي، تنحنح وارتبك كأنني خلعت للتو ثوبي وجلست عارية أمامه. ارتباكه في ذلك اليوم، ونظرته إليّ التي تغيّرت في الأيام التي تلته، والتي صارت تحمل معاني غريبة ومبتذلة، جعلتني أيضاً رغماً عني، أشعر بالذنب والعار.

في الأسبوع الثالث من إقامتي هناك انقطعت عن الذهاب للغداء مع والديّ زهاء يومين، يومين فقط. تناولت غدائي في أحدهما مع صديقة لي في مطعم قريب، واضطررت في الثاني أن أبقى في العمل لمتابعة تصوير حلقة تلفزيونية عن بيوت حلب القديمة وذلك في أنحاء عدة من الفندق، المطاعم والغرف العلوية، الإيوان (الليوان) والحوش الذي تتوسطه بركة بنافورة صغيرة مثل نافورة العم عبود والخالة ليونة.

في اليوم الثالث، استقبلني أبي بدموع لم أرها في عينيه حتى تلك اللحظة من عمري، كان يبدو وكأنه قد شاخ جداً خلال يومين من غيابي. أمي كانت حزينة ومكتئبة، وأجهشت بالبكاء حين سألتها ما الأمر.

رجعت في المساء إلى بيتي وأنا محبطة ومحطّمة، كنت أحس بصخرة ثقيلة تجثم على صدري، وتمنعني من الاستمتاع بالحلم الذي حقّقته بعد صبر طويل.

كنت أعرف جيداً قبل أن أقوم بخطوتي تلك، ما الذي سيكون عليه ردّ فعل الناس إزاءها، ولم يكن الأمر يهمني. لكنني كنت أجهل مدى تأثير ذلك في أبويّ، ومدى تأثير ذلك في نفسي ومدى قدرتي على التحمّل.

وكعودة الابن الضال، عدت إلى بيت أهلي بعد أقل من شهر من مغادرتي، بعد أن أقفلت باب بيتي على حلم تحقّق ككابوس مقيت، وحرية مكبّلة، وكيان مشتّت بين فكر حرّ وخيال جميل، وواقع معقّد وقبيح.

عرضت البيت للإيجار، واستفدت من عائداته بتسديد أقساط قرضي المصرفي. وبعد حوالى السنتين، بعته لأخي رغبة مني بالدخول في مشروع استثماري صغير بعد فشلي بالتعايش مع مشروعي الثوري الكبير. أعطاني أخي الدفعة الأولى التي كنت قد سدّدتها عند شرائي الشقة بالمبلغ الذي كنت قد اقترضته من رب عملي على أن يُقتطع على دفعات من راتبي الشهري. أما أقساط القرض المصرفي الشهرية، فقد كان على المالك الجديد /أخي/ أن يتولى تسديدها من الآن وصاعداً.

المبلغ الذي استلمته منه، (والذي بدا مشؤوماً من الأساس)، سلّمته لرب عملي الذي كان بصدد شراء واستثمار دار جديدة مجاورة للدور الأخرى التي سبقتها في التحوّل إلى فندق تراثي من الدرجة الفاخرة. وصرت شريكته في هذا المشروع الأخير بنسبة 7 بالمئة. 5 بالمئة بالمبلغ الذي دفعته، و2 بالمئة كنسبة للإدارة. وتماماً كالمشروع الأول، لم يرَ مشروعي الثاني النور، بل النار، والدمار، وحرباً طاحنة حطّت في باحته الجميلة من حيث لا يدري، وأطاحت بكل شيء، ولم توفّر ولا حتى

الخمسة بالمائة نسبتي المشؤومة في المشروع المنكوب.

أحببت أن أشتري له شيئاً صغيراً لأقول له شكراً بطريقة لبقة. تهت في المتاجر الكبيرة والدكاكين الصغيرة باحثة عن قطعة أنيقة تمثّلني وتستحق أن تهدى إليه، على أن تكون رخيصة الثمن! كان الشرط صعباً، لكنني أخيراً وجدت ضالتي، أو أقرب ما يكون إليها في شمعدان على شكل وعاء خزفي مطلي بالذهب من الباطن وبالأسود من الخارج، وضعت فيه شمعة صغيرة، واشتريت له علبة أنيقة ذات شريط حريري، وحملتها معي عندما ذهبت لأستلم نتيجة تحليل الدم.

استقبلني أيضاً بطوله الفارع وزيه الأبيض الكامل. قبّلني في وجنتي، وقادني إلى مكتبه في نهاية العيادة الكبيرة الفارغة أيضاً إلا منّي ومنه.

عاجلني بكأس الماء البارد رغم أن الحرّ كان أخفّ وطأة من المرة السابقة، سألني عن أحوالي، فقلت أنني سعيدة ومعنوياتي قد ارتفعت لأنني انتقلت أخيراً للسكن وحدي.

أحقاً ما تقولين؟ أنا سعيد من أجلك جداً.

شكراً جزيلاً.

وقد أمرّ لزيارتك يوماً ما!

مُرحّب بك في أي وقت، دكتور كرايمر.

أخذ ظرفاً كان أمامه على الطاولة وقال مشيراً به إليّ:

هذه نتيجة تحليلك.

أخرج التقرير من الظرف، فرده، وتحرك بكرسيه المدولب إلى جانبي، واقترب مني ليطلعني على التقرير.

سأشرح لك.

وشرح لي التقرير ذا الثلاث صفحات، سطراً سطراً، بنداً بنداً. تحليل كامل لكل الأمراض

المحتملة وغير المحتملة، بما فيها تحليل الغدة الدرقية التي كانت رنين قد أخبرتني أنه باهظ الكلفة.

كنت مستمتعة باقترابه الذي جعل خدّه يلامس في لحظات سحرية خدي، ذراعه الممسكة بالتقرير كانت تلامس ذراعي، إصبعه الطويل الذي كان يؤشر به على الورقة صعوداً ونزولاً ليدلني أين يقرأ، كان يرتاح بين الحين والآخر على مسند الكرسي حيث استرخى مرفقي مستمتعاً بلمسات مقصودة وغير مقصودة منه.

وعندما أنهى قراءة وشرح نتيجة التحليل، اقترب أكثر ليملي عليّ نصائحه وإرشاداته كطبيب. كنت أستمع بجديّة ورباطة جأش، شابكة ذراعيَّ أمامي، بينما كانت أنفاسي تتقطع وقلبي يضجُّ بنبضٍ مرحٍ وعنيف.

تجرّأ أخيراً، وقبض بكفّه على ساعدي بحنان، نظر إلى عينيّ بعمق وقال:

ماذا أفعل لتكوني سعيدة؟

ابتسمت بصدق وأجبته:

أنت تفعل الآن! وأنا ممتنة وشاكرة لك جداً.

وفي الغد؟ والذي بعده وبعده؟ كيف سأهوّن عليك صعوبة هذه المرحلة؟

لماذا تريد أن تفعل ذلك؟

لأن هذا يسعدني.

اهتمامك الصادق يشعرني بالتفاؤل والفرح، وهذا يكفي.

لا، لا يكفي، أصدقيني القول، كيف تتدبّرين أمورك مالياً وأنت بدون مورد منذ فترة طويلة.

ارتبكت، ولم أعرف كيف أجيب، هل أكذب لأحفظ عزّة نفسي؟ أم أقول الحقيقة وأبدو كأنني أستجدي الصدقة! اخترت بدبلوماسية أن أقول:

حتى الآن أنا أدبّر أموري بطريقة أو بأخرى، أما بالنسبة إلى الغد، فسنرى ما سيحمل من مفاجآت!

اسمعي يا لميا، أنا مستعد لدعمك مادياً خلال هذه المرحلة، لا تكوني محرجة أبداً، أرجوك، لا أريدك أن تعاني أكثر أو أن تطلبي مساعدة من جهة أخرى. أنا موجود، ومصرّ أن أوفّر عليك ولو شيئاً بسيطاً من العناء، وسيسعدني ذلك.

وقتها لم أجبه بكلمات، بل نظرت إليه طويلاً، ورأيت فيه شيئاً جديداً، غير الحب، والإثارة، والفرح. نظرت إليه في تلك اللحظة، فرأيت الأمان، وكان هذا المشهد يختصر أمامي كل حب وإثارة وأفراح العالم. رأيت الأمان، فاسترخيت بعد توتر، وثقت بعد تردد، وارتحت بعد عناء، وأجبت بعد صمت طويل:

أعدك ألا أسأل سواك، إن احتجت شيئاً.

وقدّمت له هديتي الرخيصة:

هذا شيء تافه وصغير، فقط لأقول لك شكراً!

فاجأته الهدية، لكنه عندما فتح العلبة وعاين باهتمام ما فيها، قال:

أحببتها جداً، هذه قمة اللطف، ولكن، لست أنتظر منك شكراً على أي حال، أنا فقط سعيد بوجودك، سعيد بمعرفتك.

وأنا أيضاً صدّقني، سعيدة جداً.

قمت لأنصرف، وضعت التقرير وظرفه في حقيبتي التي علقتها على كتفي، فاقترب مني وعانقني، وبهدوء شديد وبطء شديد، قبّلني على خدي الأيمن، ثم الأيسر، ثم قبّل جبيني بحنان، وضمّني إلى صدره بقوة.

تخلّصت منه بلطف وأسف، تحركت نحو الباب، فاستوقفني.

انتظري لحظة، هذا لك.

علبة شوكولا أنيقة، وكيس فيه كمية من الكرز الأحمر الشهي. أخذتها وضحكت.

من أجل القطار؟

ضحك كطفل خجول، وتبعني حتى الباب الذي قبل أن أفتحه لأغادر عانقني ثانية. وقال وهو يلتقط أنفاسه المتقطعة:

يا إلهي، أنا أشعر بالحب!

شعور رائع على أي حال.

أجبته دون أن أفكر، كأنني أحرّضه على الاستمرار!

قبّلني بلطف من زاوية فمي، فمررت بإصبعي على خدّه المبتسم نزولاً إلى ذقنه الحلو وهمست:

شكراً!

وعندما فتحت الباب لأخرج سألني:

ما هو عنوان الشقة التي انتقلت للإقامة فيها؟

عندما اتصلّ بي ليسألني إن كنت أمانع أن يزورني بعد خروجه من العيادة، كنت مستلقية تحت الشمس في حديقة تيريزا، التي كانت مسافرة مع زوجها في إجازة خارج النمسا. كنت قد شربت ليتراً من البيرة المثلّجة، وكنت أحلم به، وأتذكر قبلته الخجولة على زاوية فمي.

كانت الساعة قريبة من الواحدة، وهو قال إنّه يغادر العيادة في السادسة، المسافة بين عيادته والحي الذي يقع فيه منزل فرح وجارتها تيريزا حيث أقطن الآن، كانت تستغرق حوالى العشر دقائق

بالقطار، وعشرين دقيقة ركوباً على الدراجة، كما اعتاد جيرارد أن يفعل حين يكون الطقس جيداً.

وعليه، كان عندي متّسعٌ من الوقت احترت ماذا أفعل به. قررت أن ألبّي دعوة فرح وأن أشاركها «المجدّرة» التي طبختها اليوم للغداء، والتي هي عبارة عن طبق حلبي شعبي شهير يتألف من الأرز والعدس والبصل المقلي.

سأسكب بنفسي.

قلت لها عندما دخلت ووجدتها قد باشرت الطعام بعد أن تأخرت عليها، دخلت المطبخ وسكبت كمية قليلة جداً من المجدّرة بدون بصل كي لا أصاب بالنفخة، وكميّة كبيرة من السلطة كي لا يبدو صحني فارغاً وملفتاً للنظر، وعدت إليها لأشاركها الطعام.

فرح التي كانت تعرفني جيداً، كانت تنظر إلى سعادتي البادية للعيان بعين الريبة، لكنها لم تصارحني بما كانت تضمر إلا بعد حين.

علاقتنا التي امتدّت على مدى عشرات السنوات، وشعورها المرهف عامّة ومحبتها لي خاصّة، وطريقة تفكيرنا المتشابهة، أمور جعلتها قريبة مني، وقارئة ماهرة لما يعتمل في داخلي.

فرح المحبّة والوفيّة، كانت السبب المباشر وغير المباشر لمغادرتي حلب إلى النمسا. حين نشبت الحرب، صرت همّاً من همومها اليومية، كأي فرد من أفراد عائلتها. كانت تعرف أن اليكس ساعدني بالحصول على فيزا شينغن لمدة عامين، فكانت تتّصل بي كل عدة أيام لتقنعني أن استعمل هذه الفيزا بالمجيء إلى النمسا، لأبدأ حياة جديدة ولائقة.

أنت أختي، بيتي بيتك، ومتلهّفة لقدومك.

بدأت صداقتنا حين التقينا في المدرسة الإعدادية. كنا طفلتين على أعتاب المراهقة، نترافق يومياً في ذهابنا وإيابنا من وإلى المدرسة، لأنها كانت تقيم في الشارع المجاور، ونصرف الوقت في ضحك هستيري دون أسباب واضحة.

تشابهنا في نواحٍ عدّة، واختلفنا في أخرى، كان لنا تقريباً المنشأ نفسه، المشاعر نفسها، والأحلام ذاتها. لكنني كنت مغامِرة ومندفعة، أضجّ بجنون التمرد والاختلاف، في حين كانت هي متردّدة ومتحفّظة، رقيقة الروح والجسد، فائقة الرومانسية والحساسية، ومسكونة بمخاوف ووساوس رافقتها حتى اليوم.

حين تقدّمنا لامتحان الشهادة الثانوية/البكالوريا، بدأت همومها تتكاثف منذ اليوم الأول للعام الدراسي لتتفجر ببكاء عاصف زمن الامتحانات. كانت تسألني بوجل بعد خروجنا من كل امتحان:

كيف؟

أبتسم وأجيب: لا بأس! وأنت؟

فتباشر بكاءً عاصفاً يقطع نياط القلوب، لا يتوقف حتى لحظة وصولنا البيت.

وحين ظهرت النتائج، كان معدّلها العام يقلّ عن معدّلي بنسبة ضئيلة، والتحقنا بالنتيجة بالكلية نفسها، لتتكرر المأساة عند كل امتحان من امتحانات الجامعة، إلى أن تخرّجت قبلي.

بمغادرتنا الجامعة، ودخولنا معترك الحياة العملية، ابتعدت مساراتنا وصارت لقاءاتنا أقلّ كثافة من ذي قبل، وبينما كنت انتقل من عمل إلى آخر، حصلت هي على وظيفة محترمة ومريحة في دائرة حكومية وثابرت فيها.

صارت سكرتيرة مدير الصحة بحلب، مدلّلة وذات كلمة مسموعة من الجميع بما فيهم المدير نفسه، للطفها وكفاءتها في العمل، ولابتسامتها الدافئة وشخصيتها المحببة وتعاملها الراقي مع الناس على اختلافهم.

عاشت فترة حلوة من حياتها ذلك الوقت، إذ تهافت الجميع بطيب خاطر لخدمتها وإرضائها بكل الوسائل المتاحة والخاضعة تحت السيطرة، حتى أنّها عندما نسيت مرة إحضار شيء مهم من البيت أثناء مناسبة اجتماعية كبيرة، طارت سيارة الإسعاف بنفيرها المستنفر وأحضرت لها ما تريد بسرعة قياسية.

في الثامنة والعشرين من عمرها، وافقت على طلب زواج أتاها من قريب-بعيد لها تعرفه معرفة سطحية. كان في عمرها نفسه، مقيم مع أهله في النمسا منذ فترة.

عندما حكت لي عنه، قالت إنه شاب ممتاز، لكنه يفتقر إلى قليل من الرومانسية. وعندما سألتها إن كانت قد أحبّته، قالت إنها اقتنعت به. فرحت من أجلها، لكنني تساءلت بيني وبين نفسي، عمّا ستفعله بتلك الأنهار من الرومانسية التي تفيض من داخلها، وفي أي بحر ستصبّها؟

انتقلت بعد زواجها للعيش في بريغنز، وهي مدينة صغيرة ورائعة الجمال في الفورالبورغ، المقاطعة الغربية من النمسا.

جمال المدينة والطبيعة لم يمتصّا صدمتها الهائلة بالحياة التي شعرت أنها فُرضت عليها، إذ كان عليها أن تعيش مع زوجها ووالديه. أبوه كان طاعناً في السن ومريضاً، وأمه التي اختارتها كنّة لها مقابل أن تحصل على طاعتها، لم تكن بالمرأة السهلة، بل كانت حماة مسيطرة أذاقت كنّتها الأمرّين.

جميل، زوجها الذي لُقّب في النمسا بجيمي، كان من النوع البارد الأعصاب واللامبالي، عكس عروسه المفرطة الحساسية والرومانسية، والتي كانت تتطلّع إلى بيت دافئ مستقلّ تغلق بابه عليها وعلى زوجها بأمان.

حصلت على بيتها الموعود أخيراً بعد ثلاثة عشر عاماً من الزواج، وانتقلت إليه مع أطفالها الثلاثة الذين أنجبتهم تباعاً وربّتهم في منزل مزدحم وجو عصيب. وكانت قبل فترة قصيرة قد التحقت بدورة تدريبية، لتحصل بعدها على شهادة تخوّلها العمل كحاضنة للأطفال. وقد باشرت بهذا العمل في منزلها الأول، حيث أصبحت وبتكليف من مؤسّسة اجتماعية تابعة للدولة، تستقبل الأطفال من مختلف الأعمار أثناء غياب أمّهاتهم، في العمل، في الجامعة، أو حتى في المصحّات التي كانت المؤسّسة ترسل إليها الأمّهات المدمنات، بعد أن تعهد بأطفالهّن إلى حضن أمين ليقوم برعايتهم.

حين جاءت فرح إلى حلب في صيف ذلك العام كعادتها كل سنة، بدت لي مختلفة. كانت مشعّة ومنتعشة، مسترخية نسبياً بعد أن حقّقت أحد أحلامها الرومانسية باقتناء ذلك البيت الجميل الذي يشبه البيوت التي كنّا نرسمها ونحن أطفال، وبعد أن استقلّت بعملها وعالمها بعيداً عن حماتها، ما زادها جمالاً وثقة بالنفس.

«صار عندي بيت جديد، وعم انتظر زيارتك». قالت لي بفرح كبير.

كان البيت فاتناً، مبنيّاً على الطراز الريفي من طابقين وسقف قرميدي وقبو كبير، ومحاط بحديقة صغيرة وجميلة، في شارع هادئ وراقٍ يضم مجموعة من أجمل منازل بريغنز الريفية.

اشترته وزوجها بعد أن صارت تملك راتباً جيداً يدعم مصروف العائلة، وقد أخذا قرضاً من البنك لتسديد ثمن المنزل الجديد، وصارا يتساعدان أيضاً في تسديد أقساطه الشهرية.

سآتي لزيارتك قريباً.

قلت لها بحماس وأنا أنظر إلى صورة تمثّل بيتها الجميل وقد غطّى الثلج سقفه وحديقته بمشهد

خلاّب.

أنهيت «المجدّرة» بسرعة دون أن أميّز مذاقها لفرط لهفتي، وشكرت فرح وهربت من عينيها المندهشتين إلى شقتي، حيث ذهبت لأباشر طقوس الاستعداد لاستقبال الضيف الكبير، والمثير!

كانت دقّات قلبي السريعة، تعيق حركتي وتفكيري، اندفعت بنشوة تحت الدوش الدافئ، وخرجت مسرعة، لأجفّف شعري ولأصقله بعناية. اعتنيت بدعك كل قطعة من جسمي بالكريم الخاص بها، واخترت أوفرول كتّانياً، أبيض قصيراً وبسيطاً ذا أزهار كبيرة زرق وبنفسجية، لبست تحته أجمل ما أملك من الثياب الداخلية، وأنا أسأل نفسي ما عساه سيحصل اليوم.

كنت خائفة أن تراه فرح وهو قادم، إذ كانت حديقتها تطلّ على الشارع المفروض أن يأتي منه. قهرت مخاوفي بأن تذكّرت أن فرح هي فرح، حتى إن رأته، فستفهمني حين سأحكي لها، وستقتنع مني وستدعمني، وحتى إن لم تفعل، فلن يهزّني خوف ولن يحوّلني قلق عن موقفي، لن ينتزع أحد الأعجوبة التي سكنت أخيراً قلبي وحياتي، أبداً.

بدا ظريفاً جدّاً وهو راكب دراجته معتمراً الخوذة، مرتدياً «شورت» خفيفاً بيج وتي شيرت بيضاء. اضطررت أن أخرج لأدلّه إلى المدخل، ترجّل مبتسماً عن الدراجة، تركها بجانب الباب ودخلنا البيت معاً.

اشتقتُ إليكِ.

بادر وهو يقبّل وجنتي.

وأنا أيضاً! أجبت.

كان يحمل حقيبة أخرج لي منها علبة شوكولا «ليندت»، وكيساً فيه كمية كبيرة من العنب الطازج الشهي.

شكراً جزيلاً، هذا كثير!

هذا لا شيء.

تفضّل إذاً، أهلاً بك في بيتي.

قلتها بصوت عالٍ ولهجة مسرحيّة، فضحك وهو يتفحّص الشقّة الصغيرة.

إنه جميل، أنا سعيد من أجلك.

اجلس، أرجوك.

وأشرت له إلى الكرسي الكبير المنجّد الوحيد الموجود في الشقة، حيث جلست أمامه على طرف السرير، على بعد شبر منه.

هل كل شيء على ما يرام؟ سأل.

نعم، أنا سعيدة لأنك هنا!

وأنا سعيد جداً.

جلس على طرف الكرسي ليختصر مسافة الشبر التي بيننا، وأخذ كفّي بين كفّيه، وقال:

أشعر أنك قريبة جداً مني، ولا أتوقف عن التفكير بك.

ترددت قبل أن أقول:

هذا يسعدني.

أطال النظر إلى وجهي وهو يبتسم بحنان، أربكت نظراته عينيّ بقدر ما أدفأت قلبي، فهربت منها بسؤاله:

ماذا تريد أن تشرب؟

قليل من الماء فقط.

شيء من العصير؟

لا شكراً، أكتفي بالماء.

قدّمت له الماء، وصببت لنفسي قليلاً من النبيذ، وجرعت منه جرعة كبيرة، لأشعر بالخفّة والاسترخاء.

جلست أمامه ثانية، ووضعت الكأس جانباً. فتناول يدي، قبّل كفي بحنان، واحتفظ به معه، فقلت:

أريد أن أقول لك شيئاً!

قولي.

منذ عرفتك، وأنا مندهشة من أمور كثيرة.

مثل ماذا؟

أمور تتعلق بردود فعلي.. مثلاً يدهشني أنني سعيدة جداً باهتمامك بي وأنت رجل متزوّج! ويدهشني.. أنني لا أشعر بالذنب مطلقاً!

ابتسم وقال:

أنا الذي يجب أن يشعر بالذنب، أنتِ لم تفعلي شيئاً لتشعري بالذنب.

ربما أفعل! أجبت بخبث.

ضحك، فضحكت معه وقلت:

لكنني لن أشعر بالذنب أيضاً.

سحبني إليه وأجلسني على حضنه، فاسترخيت هناك ولم أشعر بالذنب، بل بالأمان.

يجب أن تعرفي شيئاً عن علاقتي بزوجتي.

أحبّ ذلك.

هي علاقة تذبذبت بين صعود وهبوط!

كأي علاقة.

نعم، لكن الهبوط، كان إلى أدنى مستوى.

كيف؟

منذ سنوات عدّة، أقامت علاقة مع شخص آخر. وحين عرفتُ، اعترفت لي أنها لم تعد تحبني. كان ألمي شديداً وقتها وفكرت بالانفصال. لكن أولادنا الثلاثة كانوا في عمر صغير، ما اضطرنا إلى الضغط على مشاعرنا لإعادة الأمور إلى نصابها، وقد فعلنا، ولكنْ ثمّة شيء فيما بيننا كان قد انكسر.

وبعد.

كإجراء انتقامي، أقمت علاقة مع امرأة كانت تعجبني وقتها، وبقيت معها لفترة من الوقت.

يا إلهي.

بشكل أو بآخر تلك العلاقة على قصر مدتها ردّت إليّ شيئاً من الاعتبار، وعادت بعدها علاقتي ببريجيته عادية، كأي علاقة زوجية أخرى.

كنت فقط أفكّر، كيف لامرأة أن تخون رجلاً مثل هذا؟ قلت له:

لكنها تبدو شديدة التعلق بك الآن، وشديدة الغيرة عليك.

نعم، هي تعرف أنني أحب النساء الجميلات.. ضحك ضحكة طفولية خجلة.

ومن لا يحبّهن!

صدقت! هي أصبحت تبالغ في مراقبتي وحصاري بعد علاقتي تلك، تشعر أنها مهدَّدة دائماً.

وهل كانت علاقة واحدة؟

في الحقيقة يمكن أن نقول ذلك، كانت لي بعض الهفوات هنا وهناك، لكنني لم أدخل غير تلك العلاقة.

أعذرُ زوجتك في غيرتها تلك، فأنت رجل مميَّز. لكن أن تراقبك وتحاصرك فهذا ما لا أفهمه!! لا أفهم لماذا تتصرف بعض النساء بهذا الشكل؟ فبالرغم من كل إجراءاتها واحتياطاتها، ها أنت هنا الآن.

وأنا سعيد جداً لأنني هنا الآن.

ألا تشعر بالذنب؟

حسناً، أنا لا أحبّ أن أجرح بريجيته بأي حال. لكن معك أنتِ، أنا أشعر أنني في مكاني الصحيح.

كنت أستطيع أن أسمع ضربات قلبه (أو كان يخيَّل إليّ ذلك)، كان يرتجف وهو يحتضنني، وكنت أذوب تحت نظراته الدافئة كقطعة سكر. اقترب ببطء وقبّلني من شفتيّ، استسلمت بنشوة وأحسست أنني أخيراً، أنا وقلبي وشفتيّ، في مكاننا الصحيح.

عندما غادرني ذلك اليوم، أصبت في خضّم سعادتي بلوثة من هلع، أنزلتني من سمواتي الوردية إلى أرض الظلام.

هل هو فعلاً الرجل الذي رأيت وأحسست، وبسرعة فائقة عشقت، أم هو رجل آخر لم أتبيّن ملامحه جيداً لشدة لهفتي وهشاشة مشاعري في هذه الفترة من حياتي. هل سيعود للاتصال بي؟ وإن اتصل، هل سيبقى ذلك الرجل العاشق أم سيصبح مجرّد رجل لطيف عابر، متعاطف مع ظروفي ومعجب بشجاعتي؟! هل كان وهماً ما أقنعت نفسي به لأدخل شيئاً من الدفء إلى كهفي البارد؟ أم أن ذلك الإيمان في داخلي حقيقي وصادق.

حاولت إسكات الوسواس الذي سيطر على عقلي بتذكّر روعة تلك الساعات التي قضيناها معاً. تذكّرت لمساته الحنونة قبل قبلاته الشبقة، وعاطفته الدافئة قبل شهوته الملتهبة، وذروة الحب التي بلغناها قبل ذروة النشوة. اطمأن قلبي، وعاد إليّ شعوري بالأمان، فأغمضت جفنيّ أخيراً ونمت، وعندما فتحتهما في الصباح التالي، كان اسمه على شاشة موبايلي الذي كان يرن، أول ما رأيت.

صباح الخير عزيزتي أنا جيرارد.

صباح الخير، أعرف من تكون.

هل <u>أيقظتكِ</u>؟

شكراً لأنك فعلت.

أنا في طريقي للعيادة. أردت أن سمع صوتك، وأن أقول لك أن لقاءنا بالأمس كان شيئاً رائعاً، وأنني قضيت بعده ليلة جميلة وأنا أحلم بك. شكراً لأنك استقبلتني بالأمس، وشكراً لحضورك إلى حلمي.

لم أقل له إنني قضيت ليلة مضطربة نهشت الوساوس فيها عقلي وقلبي. لم أقل إنني أحسده لأنه رجل ويمتلك حق توجيه دفّة العلاقة، بينما على المرأة التي مثلي أن تعانق القلق وتنتظر. لم أقل أي شيء من هذه الأشياء الكئيبة، بل ضحكت بمرح، وأرسلت له قبلة، متمنية له يوماً سعيداً.

مساء ذلك اليوم، كنت عائدة إلى شقتي بعد نزهتي اليومية في الجوار، كنت سأدخل عند فرح

لأشرب معها القهوة، لكنني عرجت على بيتي لأحضر شاحن الموبايل، وأمام بابي رأيته، كان يركب درّاجته عندما التفتَ ووجدني أمامه. أطارت المفاجأة المفرحة عقلي، ضحكت كطفل يقابل بابا نويل في ليلة العيد، وصحت به:

ماذا تفعل هنا؟

وقبل أن أنتظر الجواب، أخذته من يديه ودخلت البيت وأغلقت الباب خلفي.

نظرت إليه فوجدته جميلاً جداً، عانقته بقوة وأرحت خدّي على صدره الدافئ الذي كان ينبض بحبّ وحنان.

ماذا تفعل هنا؟

عاودت سؤاله، فأجاب:

كنت في طريقي عائداً من العيادة، عرّجت لأعطيك هذه.

علبة شوكولا «ليندت» زرقاء، كنت قد رأيتها أمام الباب عندما فتحته بسرعة ودخلت.

شكراً عزيزي، أنا سعيدة جداً، كم تملك من الوقت.

ولا دقيقة للأسف، يجب أن أذهب.

هل جئت فعلاً من أجل الشوكولا فقط؟

نعم، ومن أجل هذه أيضاً.

قبّلني قبلة سريعة ورائعة

اشتقت إليكِ.

وأنا أيضاً.

قبّلته بدوري بشغف، قبل أن يفتح الباب ويركب دراجته ويمضي بسرعة البرق، تاركاً إياي في

صدمتي، أتساءل إن كان فعلاً هو من كان هنا منذ ثوانٍ أم هو خيال اخترعته مخيّلتي العاشقة. نظرت إلى حيث وضع علبة الشوكولا الزرقاء، وجدتها تبتسم بظرف، وتقول: أنا هنا، لم يكن حلماً، بل واقعاً أحلى من كل الأحلام.

لكن كيس الكرز الذي وجدته معلقاً على المقبض الخارجي للباب بعد أيام عدة، كان أقل حظاً من علبة الشوكولا الزرقاء. لم يشهد عناقاً ولا قبلات، بل جدالاً من نوع آخر.

طار صوابي من الغضب عندما عدت ورأيته. قلت في نفسي، ما خطب هذا الرجل المجنون؟ لماذا لا يستعمل هاتفه ليعلمني بمجيئه، حضنت كيس الكرز ودخلت، وقبلت حباته حبة حبة، واسترخيت عندما انفجرت حلاوته في فمي. أخذت هاتفي وطلبت جيرارد، لكنه لم يردّ.

تحت أنظار بريجيته. قلت في نفسي، وتابعت أكل الكرز.

بعد حوالى النصف ساعة جاءت فرح. فرحت بها، اشتقت إلى صديقتي التي كنت متلهّفة لأحكي لها عن قصة حبّي. استقبلتها بحبور، ودعوتها للجلوس على كرسيّ اليتيم الذي حضن أول قبلة لي ولجيرارد، وسألتها:

أتشربين الشاي؟ أم تأكلين شوكولا؟

لا.. باكل كرز.

أجفلت! حدّقت إليها بدهشة لبرهة قصيرة، لقد قبضت عليّ متلبّسة بالكرز، الذي كانت حبة منه ماتزال في فمي.

كرز؟! قلت. ثم غرقت في ضحكة صبيانية طربة، اكتشفت بعد برهة أن صديقتي لا تشاركني بها، ولا حتى بابتسامة على ثغرها الذي بدا مزموماً وغاضباً.

ما قصة الكرز؟ سألتني.

أنت قولي لي! لقد جئت من نصف ساعة فوجدته معلّقاً على مقبض

الباب من الخارج! هل رأيت من أحضره؟

نعم رأيته، ورآني، حيّيته وحيّاني. قالت بحزم.

هل هو جيرارد؟

وفكّرت أن أحكي لها كلّ تفاصيل القصة، وتحمّستُ للفكرة.

هو جيرارد، ومن يكون غيره، بابا نويل؟

لم أتمالك نفسي من الضحك ثانية، رغم أنني أعرف أن ضحكي يستفزّها ولا أعرف لماذا!

إنّه مجنون، لقد أتى منذ أيام أيضاً بدون سابق إنذار وأعطاني علبة شوكولا ومضى، واليوم هذا الكرز.

أنت تضحكين، لكن الموضوع خطير!

نظرت إليها فجأة فلم أجد فرح صديقة عمري، وجدت امرأة جهّزت أحجارها وجاءت لترجم الزانية.

ماذا دهاكِ؟

قلت لها، وشعرت بأن هذه المخلوقة الجالسة أمامي الآن ليست صديقتي التي من المفروض أنني سأفتح قلبي لها.

لميا، هل تدركين ماذا تفعلين، أنه رجل متزوج ولديه ثلاثة أولاد، هل فكّرت بزوجته المسكينة، كيف تجرئين أن تفعلي بها شيئاً كهذا؟

عمَّ تتكلمين فرح؟ أريد أن أعرف من أين أبدأ بالرد.

الكل صار يعرف أنك تخطّطين لسلب الرجل من أسرته.

صدمني قولها حقيقة، الكل؟

من تقصدين بالكل؟

هل تظنيننا أغبياء؟ لقد استاءت زوجته المسكينة منذ اليوم الأول، وقد علمت فيما بعد أنك طلبت رقمه من عز الدين.

وأنت كيف عرفت؟

هيلغا زوجة عز الدين أخبرتني، هي صديقة حميمة لبريجيته، وقد أخبرتها تلك أنها أمضت أسوأ ليلة في حياتها في حفل عيد الزواج ذاك.

مهلاً فرح، أنت كنت هناك ليلتها، ماذا فعلت أنا لأسبب لتلك المخلوقة كل ذلك الألم.

في تلك الليلة، لست أدري، أظنّ أنها استاءت من زوجها، هي تعرفه جيداً على أي حال.

وإذا كانت تعرف زوجها جيداً ولديها مشكلة معه، لماذا يقع اللوم عليّ أنا؟

أنا أعرف أنك شجّعته فيما بعد!

تعرفين؟ سأسألك لاحقاً ماذا تعرفين، ولكن، هي، بريجيته ماذا تعرف؟

لست أدري، أظن أنها تعرف أنك طلبت رقمه.

لقد طلبت أرقام أشخاص عدة وهو من ضمنهم.

بربك، لقد فعلت ذلك للتمويه.

حسناً، أنا وأنت نعرف أنني فعلت ذلك للتمويه، فكيف تعرف هي؟!

إنها ليست غبية.

وهل بقية النساء اللواتي طلبت أرقام أزواجهن في الوقت نفسه غبيات لأنهن لم يتوقفن عند الموضوع ولم يثرن مشاكل؟!

لست أدري، هي بالذات لاحظت أن زوجها قد أعجب بك، فتابعت الموضوع واهتمّت به حفاظاً على حياتها الزوجية.

حسناً إذاً، فلتستمر في متابعة المحافظة على حياتها الزوجية، لكن بمعالجة علاقتها مع زوجها وليس معي، دواؤها ليس عندي.

بربك لميا، هل تدركين كم هو مؤلم هذا الشعور الذي تشعر به. أنت غير متزوجة ولا تعرفين، هي امرأة مسكينة.

بربك أنت توقفي. توقفي عن التصرف كأنها هي صديقتك وأنا من جاء ليحطّم حياتها. تذكّري أنك صديقتي أنا، وأنّني أنا المسكينة هنا. وعليك أن تفهميني وأن تتعاطفي معي.

لن أتعاطف معك في جنونك، وفي عبثك بمشاعر امرأة لا ذنب لها. أتمنى لو تسألين أختيك رنين ونور عمّا تفعلينه، ستشرحان لك كامرأتين متزوجتين ما يمكن أن تشعر به تلك التعسة.

لقد أخبرت أختيّ مسبقاً عن كل ما جرى، وسيدهشك أنهما كانتا

سعيدتين عندما لمستا سعادتي، لكنهما حذّرتاني من المضي خوفاً على مشاعري أنا من علاقة غير مأمونة العواقب، وليس خوفاً على مشاعر بريجيته، وهذا بالتحديد ما كنت أنتظره منك! ثم، مهلاً، أخبريني أولاً منذ متى دار ذلك الحديث بينك وبين هيلغا؟

تنحنحت وقالت:

منذ فترة، ليست بالقصيرة.

ولماذا لم تعلميني؟

كنت فقط أراقب تصرفاتك الغريبة لأتأكّد!

تصرفاتي الغريبة؟

كأن تعبثي بموبايل زوجي وهو غائب!

جميل!

تفاجأت جداً، وترقبت مزيداً من المفاجآت إذ سألتها:

وكيف وجدت أنني شجّعته وأنني أخطّط لسرقته من أسرته؟

حسناً لميا، لقد ذهبت لرؤيته في العيادة.

نعم ذهبت وقد أخبرتك بذلك في حينه، مررت بك قبل ذهابي، وحكيت لك عما جرى بعد عودتي.

نعم قلت لي، لكن بصراحة! لم يكن شكلك يبدو كمن يذهب لزيارة طبيب.

مفاجأة أخرى، شكلي!

،كيف كان يبدو شكلي؟

كنت سعيدة جداً، وذلك الفستان الأسود!

ابتسمت رغم انفعالي، إذ تذكّرت روعة ذلك اليوم وروعة ذلك الفستان الأسود.

فستان خفيف كنت ألبسه في الإجازات على شاطئ البحر.

لكنه كان يبدو مثيراً، و...

توقَفَتْ، عندما لمحتْ ابتسامة تستريح على شفتيّ. زمّت شفتيها وصمتت. واكتفت بنظرة العتب القاسية التي كانت لا تحيد عن هدفها للحظة.

دعيني أقلْ لك شيئاً. حسناً، لقد أعجبت به في تلك السهرة كما فعلتِ أنتِ (وقد تحدثنا أنا وأنت عن ذلك بمرح وقتها عقب محادثة جمعتنا نحن الثلاثة، أتذكرين؟) وقد فاجأتني نظراته الملحّة بعدها وأفرحتني، لكنني لم أقم بأي خطوة في اتجاهه. نعم، طلبت رقمه من عز الدين لكنني لم أستعمله. نعم بحثت عن رسائله في موبايل جيمي وأنا آسفة للتطفّل، لكنني لم أطّلع إلا على ما يخصّني. نعم فرحت عندما ألحّ عليّ عارضاً المساعدة وطلبت منه كما أخبرتك وصفة طبية رسمية لشراء دواء الكوليسترول، وذهبت إليه لاستلامها. نعم كنت سعيدة بالذهاب، وتعمّدت أن أبدو جميلة وليس مثيرة كما قلتِ. وهو الآن يتصّل بي يومياً، وقد أهداني الكثير من الشوكولا والفاكهة والكرز وأنا سعيدة باهتمامه وهداياه. لا تنظري إليّ هكذا، أنا لا أتعمّد أيّ شيء ولا أخطّط لأيّ شيء، الأمور تسير من تلقاء نفسها ولا أريد أن أوقفها. أنا سعيدة

فقط، سعيدة بعد زمن من الجفاف والشقاء، وليس لديّ بعد أيّ مخططات شريرة أو خبيثة أو فاضلة.

لكن لميا، ألا تلاحظين أن هذا استهتار؟ استهتار بمشاعر إنسانة لا ذنب لها.

أرجوك فرح، افهميني، وأنا في هذا الوضع الخانق المأساوي لا يسعني إلا أن أتذكّر أنني أنا التي لا ذنب لها. أنا المسكينة التي تناضل لترمّم ما تبقى من مشاعرها الذبيحة لتبقى على قيد الحياة. طبعاً ليس على حساب سعادة أحد لأنها لو كانت فعلاً سعيدة مع زوجها التي تعتقد أنني أخطّط لسرقته، لما وصلت علاقتهما إلى ما وصلت إليه الآن. وهذا بالتأكيد ذنبها. أنا لست بصدد أن أحاكمها أو أن أعاقبها على ذنوبها، الحياة هي من تعاقب وهي من تكافئ، والحياة التي قست عليّ وامتصّت كل الرحيق من أيامي، هي من ألقت به في دربي دون أن تسألني أو تستشيرني. اعذريني فرح، لن أغلق بابي في وجه الحياة، مضحيّة من أجل علاقة مريضة، قد تقضي العمر معاقة، أو قد تموت في أي لحظة.

ولكن.. لميا، حتى إذا كانت العلاقة مريضة، دعيها وشأنها لتتألم أو لتموت في أية لحظة. لماذا تورّطين نفسك بإطلاق رصاصة الرحمة عليها؟

الحياة هي من اختارت لي هذا المسار.

ومتى كنت تؤمنين باختيارات الحياة؟

الآن صرت أؤمن.

بمجرد خروجها، دخلت في نوبة بكاء هستيري عنيف، لم أدخل مثلها منذ سنوات. خفت أن يُسرق حلمي مني بعد أن صار مشاعاً. خفت من ردّ فعله بعد أن التقى فرح أمام بيتي، وضبطته كما ضبطتني متلبّساً بالكرز! ساحباً دراجته بيد وحاملاً بالأخرى كيساً من الحبات الشهية الحمر.

لكنه في الصباح التالي، اتصلّ بي ليسألني إن كان بإمكاني استقباله مساءً!

لم أستقبله، وأخبرته باختصار عن الحوار الذي دار بيني وبين فرح، وطلبت إليه أن يتوقف عن المجيء، إذ لن يتحمّل الوضع أن تراه عندي ثانية.

لم يصب بالذعر كما تخيلت، تقبّل الموضوع ببساطة، وركّز تفكيره على اختيار مكان لنلتقي به. وتوصّل أخيراً إلى دعوتي إلى حديقة مدرسة وكنيسة القلب الأقدس Sacre coeur القريبة من بيتي، وقد وافيته هناك في السادسة والنصف.

جلسنا على مقعد خشبي تحت شجرة كبيرة، ثم أخرج من حقيبته زجاجة صغيرة من مشروب فاخر وعلبة شوكولا، شربنا في كؤوس بلاستيكية لم ينس أن يشتريها مع القنينة وتحدثنا طويلاً، وعانقني بعذوبة لا حدّ لها. سرقنا بضع قبلات شهيّة، وأرحت رأسي على كتفه الجميل، ونسيت!

أن تلتقي حبيبك في حديقة، وأن تجلسا متعانقين على مقعد خشبي تحت شجرة، لهو تصرف صبياني لم أقترفه في صباي، لكنني استمتعت حتى نهاية كل عصب من أعصابي باقترافه وأنا في منتصف الأربعينات من عمري.

بتكرار لقاءاتنا في تلك الحديقة الجميلة، طالت الأحاديث ما بيننا. فبين عناق وعناق، وبين قبلة وأخرى، حدثّني عن طفولته وشبابه، كيف نشأ في قرية جبلية وكان البكر في عائلة كاثوليكية تتألف من ثمانية أطفال! دخل الدير بقصد الانخراط بسلك الكهنوت (فأدركت أنها عادة كاثوليكية منتشرة في كل بلاد العالم!)، حتى اكتشف أنه يحبّ النساء الجميلات فغادر الدير مأسوفاً عليه. حدثّني كيف درس الطب، وكيف تعرّف إلى بريجيته التي تكبره بعام واحد، ومن ثم تركها وأحبّ فتاة غيرها، ثم كيف ظهرت في حياته ثانية وقادته إلى العشّ الزوجي وأنجبت له ثلاثة أولاد أكبرهم في التاسعة والعشرين، بينما بلغت أصغرهم الحادية والعشرين منذ أسابيع.

وبالمقابل، حدّثته عن حياتي، تجاربي، معتقداتي وإيماني. أريته صور أفراد عائلتي فرداً فرداً، وحكيت له نبذة قصيرة عن كل فرد، ولم أستثنِ أحداً.

«بالنسبة إليّ، كانت سعادة مدهشة أن أستمع إليك تتحدثين عن أفكارك ومعتقداتك وعائلتك. أنت امرأة استثنائية ولا أتوقف عن التفكير بك للحظة، أنا مفتون بك».

كانت تلك الرسالة التي أرسلها لي غداة حوارنا الطويل والعميق على مقعدنا الخشبي في حديقتنا الجميلة، التي كانت أشبه بالجنّة التي لم يعرف آدم وحواء متى عليهما أن يغادراها.

أُبلغت أخيراً برفض الاعتراض الذي قدمته على القرار الصادر بحقي بخصوص حجب حق اللجوء عني في النمسا وتحويله لإسبانيا، وعليه، لم يعد من المجدي البقاء في النمسا أكثر من ذلك، فعكفت على ترتيب أمور سفري إلى مدريد بمساعدة تلك المحامية الودودة من مكتب حقوق الإنسان.

عندما تحدّد موعد السفر، اتصلت بجيرارد لأخبره.

محبوبتي الغالية، أريد أن أراك اليوم. قال.

لا أستطيع اليوم، سأذهب للتسوق ولقضاء بعض الوقت مع فرح.

إذاً، في الغد، هل تستطيعين المجيء إلى العيادة؟

غداً؟ يكون السبت!

. نعم، ستأتي عاملة التنظيف صباحاً وسأذهب لأفتح لها الباب، وسأنتظرك هناك.

هل آتي في الخامسة؟

تعالي متى تريدين، لقد بدأ قلبي بالخفقان منذ الآن.

ذهبت في الخامسة، استقبلني بعناق حار كما ودّعني، ولم ينسَ أن يسألني عن الخطّة التي سأتحرّك على أساسها بمجرد وصولي إلى مدريد.

لم تعد الفيزا التي بحوزتي صالحة، ولذلك طلبت أن أسافر على

مسؤوليتي ونفقتي كما نصحتني المحامية كي لا أضطر إلى السفر بمرافقة الشرطة، وسوف يرافقني موظف من مكتب حقوق الإنسان إلى المطار، وسأُمنح ورقة رسمية استصدرها المكتب باسمي من الحكومة النمساوية كإذن سفر لمرة واحدة (Lessez passer)، ويفترض كما قالت لي المحامية أن أجد من ينتظرني في مطار مدريد.

البوليس؟

هي ليست متأكدة! لكنها تقول إنهم من المفروض أن يتكفّلوا بي بمجرد وصولي كطالبة لجوء.

وأين تعتقدين أنهم سيرسلونك؟

إلى فندق أو مركز خاص باللاجئين حسب ما سمعت، ريثما يحلّ موعد مقابلتي بعد حوالى الشهر.

وكيف تشعرين إزاء هذا؟

حسناً، إن ما ذكرته سابقاً هو أفضل سيناريو ممكن أن يحدث، ناهيك عن شكل ومستوى المركز الذي سأرسل إليه قبل وبعد المقابلة!

وما هو السيناريو الأسوأ؟

ألا أجد أحداً بانتظاري في المطار أولاً، وألا تتكفّل الحكومة الإسبانية بي قبل موعد المقابلة ثانياً، وعليه، سأواجه مشكلة، إذ سيكون عليّ أن أتحمّل مسؤولية تأمين إقامتي ومعيشتي لفترة شهر تقريباً. لكن...

ماذا؟

أستبعد هذا الاحتمال، فالمفروض أن ملفي قد أرسل مسبقاً إلى إسبانيا وتمت الموافقة عليه سلفاً. إذاً سيكون عليهم التكفّل بي بمجرد دخولي الأراضي الإسبانية.

الحقيقة أنني كنت أكذب، كان القلق ينهش قلبي إذ كنت أرجّح حدوث الاحتمال الأسوأ، بعدما لمست من سياسة في التعامل عندما جئت في المرة السابقة وأعطوني موعداً بعد خمسة أشهر بدون عرض تقديم أي خدمات خلال هذه الأشهر. لكنّني لم أقل له هذا، كي لا أبدو كمن يستجدي المساعدة، خصوصاً أنه كان يسأل ليعرف ما حجم المساعدة التي يلزم أن يقدّمها، لأنه كان مصرّاً على تقديمها على أي حال!

لميا، سأكرّر ما قلته لك سابقاً، لا أريدك أن تعاني مجدداً، وسأتكفّل بمنعك من ذلك.

لا تخف عزيزي، أتعشّم ألا تكون المعاناة كبيرة، على أي حال هي مجرد شهور ستة مبدئياً، وستمضي، وسأرى بعدها ما يمكن أن أفعل.

وفي حال حدوث السيناريو الأسوأ؟

لننتظر وسنرَ! ربما لا يحدث.

وإن حدث؟

حسناً، سوف أطلب مساعدتك.

وأنا جاهز منذ الآن، وللفترة التي تلزم، كي تكوني مرتاحة في مكان لائق ومناسب. أنت حبيبة قلبي. أنا حزين جداً لأنك ستسافرين.

لا مفرّ من السفر، عسى أن أعاود استئناف حياتي المعطّلة منذ فترة ليست بالقصيرة.

سأشتاق إليك، محبوبتي الغالية، صغيرتي الجميلة.

ضمّني إلى صدره وقبّل رأسي بحنان، بينما كنت مستمتعة بوقع كلماته التي تنسبني إليه، وسألته:

محبوبتك، صغيرتك، هل أنا فعلاً لك؟

على الأقل، أنت الآن بين ذراعي، ولي، وأتمنى أن تبقي هكذا إلى الأبد.

لم أقل له أنني بالفعل قد أصبحت له وانتهى الأمر، لكن المشكلة عنده هو، متى يصبح هو لي؟

هل أقول لكَ سراً؟

قولي!

معك، أصبح أنانية جداً على غير العادة، وأتمنى أن تكون لي، وحدي. لكنني أدرك بعد تفكير قصير أن الزمان والمكان ليسا مناسبين لمناقشة هذا الموضوع. حتى إن كنت أنت مستعداً فأنا لست كذلك، أريد فقط أن أستمتع بالشعور الذي بيننا الآن، ولندعْ ما سيأتي ليأتي في حينه.

قبّل رأسي موافقاً، بينما كانت يده تربّت على خدي، وتمسحه بلطف.

أريد منك فقط وعداً واحداً!

قولي.

عدني أننا سنلتقي ثانية.

من المؤكد أننا سنلتقي. لقد وعدت نفسي قبل أن تسأليني أن أعدك، أن ألقاك بأقرب فرصة ممكنة، سأفعل المستحيل من أجل هذا.

تبدّد قلقي فجأة، كسحابة رمادية من دخان في سماء واسعة صافية. خوفي من الآتي المجهول صار ترقباً لمغامرة سهلة. الشعور بالأمان، عانقني من جديد ووصل بي إلى ذروة لم أبلغ مثلها من قبل، ولا كنت أتخيّل أنني سأفعل.

الطاحون

لماذا عشقت مدريد؟ وما هذه العلاقة الغريبة التي ربطتني بها؟ أليكس؟! لقد خرج من المعادلة الآن، وسكن جيرارد كل تفاصيل حياتي، أليس الأجدر بي أن أعشق بريغنز وأن أحزن لمغادرتها؟

بريغنز! المدينة النمساوية الصغيرة الرائعة الجمال، حيث تعذّبت روحي بصمت أبشع أنواع العذاب، وحيث أهدى لي القدر بصخب فاضح، أثمن هدية تلقّيتها في حياتي على الإطلاق.

أحببت بريغنز، لكن مدريد، قصة أخرى، مختلفة تماماً. مدريد! حيث تنبض الحياة، وحيث تمضي روحي حرّة منتعشة سالية عن همومها وأوجاعها، محتفلة بالجمال الذي يحيط بها من كل اتجاه، ومنتشية بالراحة النفسية العميقة التي تفيض عليها سلاماً وأملاً.

عندما جئتها في المرة الأولى، كنت أطارد آثار أليكس الغائب في كل مكان، بصمات أصابعه، دعسات قدميه، الهواء الذي تنفّسه، والسماء التي تربّى وكبر تحت شمسها وبلّلت أمطارها رأسه الحبيب وكتفيه الجميلتين. كان شعوراً بالشجن الحلو يلفّني، ويقود خطاي في أنحاء المدينة الفاتنة.

وفي المرة الأخيرة، حين جئتها مشبعة بحب رجل آخر على حساب ابنها الضال، الذي تركْتُ قصة حبّه الكبيرة تنتحر أمام باب عيادة بيضاء في إحدى ضواحي بريغنز. احتضنتني مدريد ثانية أنا وحبّي الجديد، وعمّدتنا بمياه توليفتها الفريدة المقدّسة التي يكمن فيها السر.

السرّ في مدريد، أنني وجدت فيها تلك التوليفة الغريبة والجميلة، المناسبة تماماً لمزاجي والمفصّلة على قياسي، توليفة تضمّ ثلاثة عناصر: الإبهار، الحرية، وحلب.

«رشّة» من إبهار العظمة الملكية الأوروبية العريقة، الذي يتجلّى في القصور الشاهقة والساحات الفسيحة والمتاحف العظيمة والحدائق البديعة.

«رشْتان» من حرية الحياة العصرية والمتحضّرة، وبساطة الغرب الراقية البعيدة عن العقد الشرقية المتخلّفة.

وأخيراً.. «كمشة» من طقس حلب، دفء شمس حلب، وجفاف هواء حلب، وقمر ليالي حلب، ومرح وتلقائية أهل حلب.

مدريد، مدينة تنبض بحبّ الحياة، وأي حياة! الحياة لا كما يحبها النمساوي أو السويدي، الروسي أو الياباني، الأميركي أو الكندي. بل الحياة كما أحبّها أنا، أنا لميا ابنة حلب.

في المطار وكما توقعت، لم يكن أحد في انتظاري. ركبت تاكسي كأي سائحة أنيقة ومترفة، وطلبت منه إيصالي إلى فندق «ريكس» في شارع «جران فيا» الذي كنت قد أقمت فيه في المرة السابقة نزولاً عند نصيحة أليكس. ليس من أجل النصيحة أو الناصح ذهبت إليه هذه المرة أيضاً، بل لأنني كنت أحفظ عنوانه عن ظهر قلب، ولأنني كنت قد أعجبت بموقعه الرائع في ذلك الشارع الذي يعدّ من أجمل شوارع مدريد وأكثرها حيوية وقرباً من أهم الساحات والمواقع في المدينة.

أثناء الرحلة القصيرة في التاكسي من المطار إلى الفندق، أحسست بالاسترخاء والسعادة، ورقص قلبي لرؤية شوارع مدريد تحييني. لم أكن مهمومة ولا مكتئبة، وللمرة الأولى لا يكوي الشجن الحزين قلبي، بل العكس، كان قلبي عامراً بحبّ كبير، وكنت أشعر بالأمان، فاسترخيت، وصارت مدريد في عينيّ أحلى.

بعد ساعات من وصولي، هاتفني جيرارد:

عزيزتي، أخبريني، كيف أنت؟ كيف كانت الرحلة، هل كل شيء على ما يرام؟

عزيزي أنا بخير، وصلت سالمة والرحلة كانت جيدة، لكن الأمور ليست تماماً على ما يرام!

ماذا حدث؟

لا شيء! وهذه هي المشكلة، لم يحصل أي شيء! لم ينتظرني أحد في

المطار! ركبت تاكسي وجئت إلى فندق في شارع «جران فيا».

أنتِ الآن هناك؟

نعم.

حسناً ما فعلت.

غداً صباحاً سأذهب إلى المكتب الخاص باللجوء والهجرة الذي كنت قد جئته في المرة السابقة، سأسألهم عن ملفي الذي يفترض أن تكون النمسا قد أرسلته إليهم، لربما هناك إجراءات أخرى ستتّخذ ولن أكون مضطّرة لانتظار الموعد في الشهر القادم.

في المكتب ذاك، قابلت ماريو، الشاب نفسه الذي قال لي في المرة السابقة، حين استغربت تحديد موعد لي بعد خمسة شهور دون التكفل بتقديم أي خدمة خلال هذه الفترة:

أنا آسف، أعرف أن وضعك صعب ومعقّد، ولكن هذه هي المعطيات هنا اليوم، ليس بإمكاننا تقديم أيّ نوع من الخدمات لطالب اللجوء قبل أن تجري المقابلة.

ماريو، ابتسم بحيادية وقال إنه تذكّرني، وحين بحث عن اسمي في الإنترنت عرف أنني مرسلة من النمسا:

نعم هذا واضح هنا، لقد وافقت إسبانيا على استقبالك لكنها لم تحدّد لك موعداً جديداً باعتبار أنك تملكين مسبقاً موعداً محدّداً في الثاني من أيلول.

ولكن هذا يتطلّب شهراً من الانتظار بعد.

وهذا جيد، مدة شهر ليست بالمدّة الطويلة.

وأين يفترض بي أن أقيم خلال هذه الفترة؟

أنا آسف، أعرف أن وضعك صعب ومعقّد، ولكن هذه هي المعطيات هنا اليوم، ليس بإمكاننا تقديم أي نوع من الخدمات لطالب اللجوء قبل أن تجري المقابلة.

أعاد الجملة السابقة نفسها حرفياً، فابتسمت له وسألت:

حسناً، وبعد إجراء المقابلة ماذا سيحصل؟

سأحاول أن أؤمن لك مكاناً في مركز من المراكز الخاصة بإيواء اللاجئين في إسبانيا.

حسناً إذاً، شكراً جزيلاً لك، نلتقي في الثاني من أيلول.

وحال عودتي إلى الفندق، بدأت أبحث عبر الويب، عن فنادق أرخص من الذي أقيم فيه الآن، ريثما أعرف وأقرّر ما سأفعله خلال هذا الشهر الذي يبدو كإجازة قسرية في أحلى مدينة في العالم. أعجبني نزل صغير ومناسب السعر، ذو موقع جيد جداً، في الشارع الذي يصل ساحة «سول» بساحة الأوبرا، ولم يكن بعيداً عن «جران فيا» حيث كنت. نزلت من فوري لمعاينته شخصياً، وجدت الغرفة صغيرة جداً لكنها محدّثة ونظيفة، الحمام جديد وجيد جداً، وهناك شرفة صغيرة جداً أيضاً تطلّ على الشارع الذي يعجّ بالسيّاح ليل نهار، تُذكِّر النزيل في كل لحظة أنه موجود في قلب مدريد.

طلبت من موظفة الاستقبال أن تسأل مديرها عن السعر الذي يمكن أن يمنحني إياه لإقامة طويلة، واتفقت معها أن أتصّل بها صباح الغد، وعدت إلى فندقي راضية، مترقبة اتصال جيرارد، الذي لم يتأخر كثيراً، ليفتح ثغرة من نور على عالم لم يعد مظلماً منذ أن شعّ بوجوده فيه.

بادر وطلب مني أن أذهب في الغد إلى أقرب منفذ ل-: «ويسترن يونيون» لأستلم المبلغ الذي

سوف يحوّله لي، شكرته بامتنان كبير، وحبّ أكبر.

اتصلت بإيزابيل لألقي التحية ولأقول إنني في مدريد. إيزابيل هي الفتاة التي كانت تعمل في السفارة الإسبانية في بيروت حين طلبت الفيزا. منحتني إياها لمدة سنتين بعد توصية وكفالة من أليكس الذي كان صديقاً قديماً لها. وكان قد حجز لها غرفة في فندقنا حين جاءت إلى حلب مع صديقة لها، حيث تعرفت إليها. سبق واتصلت بها والتقيتها في زيارتي الأولى لمدريد، وقد فرحت لقدومي وعرضت عليّ المساعدة بكل الطرق الممكنة، وعرّفتني بأختها روسيو التي تشاركها السكن، وأخيها فرناندو الذي دعاني لحضور مباراة ريال مدريد في السنتياغو برنابيو. إيزابيل أصرّت في المرة السابقة حين أعطيت موعداً بعد أشهر وقررت أن أعود للنمسا، أن أنتقل من الفندق للمبيت عندها ريثما يحين موعد سفري، وقد فعلت، ونمت عندها ثلاث ليال قبل أن أحمل حقائبي وأسافر لألتقي بقدري الحامض الحلو الذي كان ينتظرني هناك.

بعد أن اتفقت مع إيزابيل على اللقاء في مساء ذلك اليوم، أجريت حواراتي اليومية على الواتساب. بدأت أولاً مع رنين ونور، وحكيت لهما عن نتائج لقائي بماريو في مركز الهجرة واللجوء، سألتاني طبعاً بقلق كبير كيف سأدبِّر أمور إقامتي طوال هذا الشهر في مدريد، اعترفت لهما بمساعدة جيرارد لي! لم يستنكرا كما شككت أن يفعلا، بل قالتا لي ما معناه، إن هذا الشخص يبدو كملاك أرسله الله لحمايتي في هذه الفترة الصعبة من حياتي.

وبانتقالي إلى محادثة أخرى مع صديقتيّ مايا ورندا الواصلتين لتوهما إلى ألمانيا وفرنسا، حكيت لهما أيضاً عما حصلت عليه من إجابات، وحكت لي كل واحدة منهما بدورها عن مستجدات حياتها الجديدة، وانخرطنا في ضحك صبياني حين حدثتنا رندا عن حبيبها اليافع عادل، ثم حين سألتاني عن جيرارد، فحكيت لهما حادثة الكرز التي انتهت بتلك المشادة بيني وبين فرح. رندا الشقية قالت لي وهي تضحك:

مبروك اللقب الجديد، «خطّافة الرجّالة»!

أحسن من «خطّافة الولاد» على الأقل! أجبتها بخبث، ملمحة إلى حبيبها الذي يصغرها باثني عشر عاماً.

مايا أعجبتها فكرة ركوب رجل في مثل مركز جيرارد الدرّاجة، الأمر الذي لم نألفه في سوريا:

يخرب بيتو، حبيتو!

وضحكنا سوية كل واحدة من بلدها، ضحك بنات شقيّات، ساليات عن هموم الدنيا، أو ضحك نسوة متعبات، عركتهن الحياة والحرب، وحطّت بهنّ أمواج العمر العاصفة على شواطئ مختلفة وبعيدة، وغريبة عن تلك التي حلمن بها في شبابهن وجنونهن.

أن تجد مايا نفسها امرأة وحيدة تعيش حياة جديدة في قرية ألمانية، مخلّفة وطنها وزوجها وابنيها على بعد آلاف الأميال. وأن تستمتع رندا بعلاقة طوباوية مع شاب يعشقها ويصغرها باثني عشر عاماً. وأن أتورّط أنا حتى الثمالة في حب رجل غير أليكس، متزوج ويكبرني بثلاثة عشر عاماً. أحداث كانت تبدو خيالية وسوريالية في وقت من الأوقات، لكنها اليوم حقائق معاشة بكل بساطة، وقد تقبّلناها وصدّقناها وهضمناها بكل يسر وسهولة.

العلاقة الخطيرة والآثمة التي لم تستطع فرح (التي تابعت أحداث سوريا من بيتها الآمن) أن تبتسم ونحن نناقشها، بدت لمايا ورندا اللتين تركتا كل شيء خلفهما رماداً، حدثاً ظريفاً ومنعشاً في خضّم دخان الحرب والغربة الذي كان يخنقنا ويعمينا. بدا هذا مثالاً حياً يترجم ما قلته لجيرارد في أول لقاء لنا: «بعد خوض تجربة الحرب، تؤمن بأن كل شيء يمكن أن يحدث، وكل التجارب القادمة في الحياة ستبدو سهلة وتافهة وكل الهموم سطحية».

«أي شيء يمكن أن يشعرك بالسعادة والرضا الآن، تمسكي به، ودعي الغد ليهتم بنفسه».

كانت تلك نصيحة رندا، التي غدرت بها الحياة في السلم كما في الحرب.

عندما دَخَلتْ المكتب للمرة الأولى حيث كنت أعمل، بَدت لي شخصية ظريفة ولكن غريبة بعض الشيء. كانت مشعّة بنضارة طفولية محبّبة، تشرق من ابتسامتها وألوان ثيابها. التحقت بالعمل معي في مكتب الطيران بعد أشهر عدة من مباشرتي العمل فيه، وأدهشني أنها كانت على وشك التخرج من كلية الأدب الإنجليزي، وتصغرني بعامين فقط، بينما كان شكلها يوحي بأنها ما زالت تلميذة في المدرسة.

ذكيّة جداً، قريبة من القلب وخفيفة الظل، تمتلك موهبة غزو القلوب من الضحكة الأولى. سرعان ما صرنا صديقتين، إذ فاجأني عقلها مثلما فاجأني عمرها قبلاً. فاجأني فكرها الحر النقي، وذهنها المتفتح على كل ما يمكن أن يغنيه في الحياة. فاجأتني جرأتها في التعبير والاختيار والمحاولة،

وأعجبتني ثوراتها التي كانت نوعاً ما تشبه ثوراتي.

تنحدر رندا من عائلة حلبية مسلمة، والدها كان طياراً برتبة عقيد ركن في الجيش السوري، وقد كان يخدم في مطار النيرب العسكري قرب حلب حيث عاش مع عائلته التي تتألف من زوجته الشابة وأبنائه الثلاثة التي كانت رندا أوسطهم والأنثى الوحيدة بينهم. العقيد زكريا كان ابن عائلة محافظة سنيّة ومتديّنة، لكنه كان رجلاً مثقفاً ومنفتحاً، لم يفرض الحجاب على زوجته الحسناء ولم يقيّد حريتها.

إبان الأحداث الدامية في سوريا أوائل الثمانينيات، حين قام الإخوان المسلمون بمحاولاتهم لقلب نظام الحكم، تم التشديد من قبل قوات الأمن لملاحقة كل من تلوح عليه مظاهر التديّن. فقام الشبان وقتها بالاعتناء بحلاقة ذقونهم، ومالوا نحو ارتداء الصرعات الغربية ليبدو شكلهم بعيد الشبه عن أشكال العناصر المتدينين المنتمين للتنظيم المحظور. كما امتنع الناس عن الصلاة في الأماكن العامة درءاً للشبهات، واستبدلت بالآيات القرآنية التي كان يعلّقها التجّار في دكاكينهم ومكاتبهم صور الرئيس وأعلام حزب البعث.

الضباط ذوو المراكز القيادية في الجيش، والتابعون للطائفة السنيّة، نادرو الوجود أصلاً. أوقف بعضهم عن الخدمة ووضع بعضهم الآخر تحت مراقبة دقيقة داخل مراكز خدمتهم وخارجها، خوفاً من تعاطفهم مع التنظيم السني المشبوه.

العقيد زكريا كان واحداً منهم، وسرعان ما تمّ كفّ يده عن الخدمة واعتقاله في مكان مجهول بعد أن طلب يوماً من عساكره قراءة الفاتحة على أرواح الشهداء بدلاً من الوقوف دقيقة صمت. اعتُبِر طلبه تحريضاً علنياً على (أخونة) المؤسسة العسكرية. تم اعتقاله في مكتبه في المطار، اقتيد إلى جهة مجهولة وانقطعت أخباره عن عائلته لمدة سبع سنوات، حتى تلقّت زوجته بعدها إشعاراً يعلمها بأن زوجها معتقل لدى المخابرات الجوية، وسيسمح لها بزيارته قبل ترحيله إلى سجن المزّة بدمشق.

بعد أن قطعت الأمل من عودة زوجها في المدى القريب، حملت منى، الشابة الجميلة، أبناءها الثلاثة الذي كان أصغرهم في الرابعة من العمر، وأكبرهم في العاشرة، وعادت لتقيم في بيت أهلها في حي السليمانية بحلب، حيث احتضنها والداها مع أولادها لعشر سنوات تقريباً، قبل أن تعود إلى بيتها الزوجي لتخفّف عن أهلها ضغط أولادها الذين تحولوا في هذه الفترة من أطفال إلى شبان ومراهقين، نضجوا في كنف جديّهم وأخوالهم والجيران المحبين، سكان البناء المطل على ملعب «رعاية الشباب» في حي يقطنه المسيحيون بنسبة تفوق التسعين بالمائة.

كانت عائلة عبد القادر العطّار محبوبة جداً في الحي بأفرادها الكثيرين واللطيفين. كانوا متعايشين بسلاسة وسلام، منفتحين ومتبادلين بغبطة لعاداتهم وأساليبهم في الحياة مع جيرانهم على اختلاف انتماءاتهم، حتى أصبح كل منهم موسوعة حلبية متكاملة ملمّة بتقاليد المسلمين والمسيحيين والأرمن من شرق حلب لغربها.

حين عَرِفتْ منى مكان وجود زوجها وسمح لها بمقابلته بعد سبع سنوات من الاختفاء، طَلَبَ إليها في أول زيارة لها إليه، أن تغادر بيت أهلها في حي السليمانية لتعود إلى بيتها الأصلي في الحي الذي كان قريباً من منازل أهله وأقربائه.

لا أريد لأولادي أن يتربّوا في السليمانية!

جرحتها ملاحظته، فأجابته:

السليمانية ربّت لك زوجة انتظرتك بصبر وبدون أمل لسبع سنوات مع ثلاثة أطفال، بينما كان الأقرباء القاطنون في الأحياء المجاورة لبيت أهلك يضغطون عليها لإقناعها باستصدار أمر طلاق غيابي أثناء اختفائك، لتتزوج من جديد.

وكما أمّها، تربّت رندا في السليمانية مع إخوتها، إلى أن بلغت التاسعة عشرة، حينها عادت مع عائلتها إلى منزلهم في تلك المنطقة الحديثة والبعيدة عن مركز المدينة، وذلك قبل حوالى السنتين من إطلاق سراح والدها، الذي ترك خلفه أطفالاً عاد ليجد أصغرهم يغادر سنوات المراهقة ويتّجه ليصبح شاباً جسوراً ومقداماً، وأكبرهم رجلاً رزيناً تعلّم كيف يتولّى مسؤولية أمه وإخوته باكراً، وأوسطهم، صبيّة جميلة، مرحة ومتحرّرة، صدمها شكل الرجل الذي دخل من الباب مدعياً أنه والدها.

الأشهر الأولى كانت صعبة ومؤلمة جداً، العقيد المخلوع المهيوب والصارم، انكسرت شوكته حين عاد لأسرةٍ لم تعد تشبه تلك التي تركها، أو التي أُرغم على تركها. جَرَحهُ أن أبناءه قد كبروا في غفلة عنه حتى لم يعد يعرفهم. لم يعاصر تحولاتهم ولم يكن هناك لينصحهم أو يزجرهم، ليحنو أو يقسو عليهم، ليعلّمهم كيف ينظرون إلى الحياة بالمنظار الذي كان قد أعدّه لهم، ليريهم عبره ما الصح وما الخطأ فيها.

كان يشعر بالغيظ عند أقلّ هفوة تصدر منهم، ويتمتم بكلمات غالباً ما كانت مسموعة ومستنكرة

من قبل الأولاد: «هي ترباية السليمانية!».

الضابط العسكري السابق، تحوّل رجلاً حنوناً تحكمه كتلة من العواطف، يحاول التواصل من جديد مع صغاره الذين كبروا ولم يتمتعوا بحنانه. والأولاد، الذين كانوا ينتظرون «بابا» لسنوات على أحرّ من الجمر، أربكتهم عودته إليهم، وشعروا وكأنّه رجل غريب نزل عليهم من الفضاء الخارجي واقتحم البيت ليشاركهم حياتهم. كانوا يبتسمون له ويقبّلونه، وينادونه «بابا حبيبي شتقتلك»، متجاهلين الارتباك الكبير الذي كان يضجّ في قلوبهم.

الفجوة المؤلمة التي صنعها الغياب بين الأب والأبناء، ما لبث الزمن أن ملأها. زمن امتد لسنوات، عاد فيها التوازن شيئاً فشيئاً للأسرة الممزّقة التي التم شملها نظرياً بعد اثني عشر عاماً، وفعلياً بعد أكثر من خمسة عشر عاماً.

بعد صدمات العام الأول لعودة الوالد، توصّل زكريا إلى التعامل بحكمة مع أبنائه. لم يسلبهم هامش الحرية الذي كانوا يتمتعون به. وثق بهم، بطيبتهم وحسن تربيتهم (التي تمت بالسليمانية بكل حال). رندا كانت تعيش في ذلك الوقت قصّة حبّها الأولى، مع زميل لها في الجامعة. شاب فلسطيني من نابلس يتقمص شخصية تشي غيفارا. تبنّت لأجله القضية الفلسطينية، تشبّعت بتعاليم غيفارا وأقواله وأسلوب حياته، وعشقت الحرية والثورة من أجلها في كل حين.

بانفصال العاشقين وذبول الحب، ذبل حماس رندا للقضية الفلسطينية ولغيفارا، لكن حماسها لحريتها لم يذبل. استمرت في النضج بوعي وفكر نظيف، وكوّنت لنفسها شخصية فريدة ومحبوبة، واستعملت موهبتها تلك بغزو القلوب لتوسعة شبكة علاقاتها، حتى أصبح لها من الأصدقاء والصديقات ما لا يعدّ ولا يحصى.

الصداقة غير المتوقعة التي جمعتنا، كان لها مفعول العدوى لمن حولنا. تعرّفتُ إلى أهلها وأحببتهم، كما تعرّفت إلى أهلي وأحبّوها. دعوتها لمشاركة الأسرة عشاء وسهرة عيد البربارة، ودعتني للإفطار في رمضان. الحدث الذي تحوّل إلى تقليد سنوي ننتظره بشغف، لما تبتدع لنا فيه منى من أطباق أقلّ ما يقال عنها أنها مذهلة، وخصوصاً، كبّة الدراويش، الطبق الذي تكرّره كل سنة نزولاً عند طلبي، وهو صنف من الكبّة كانت منى تعدّها بطريقة تختلف عن الكبة الطرابلسية التي كنّا نعرفها على موائدنا. دراويش منى المقرمشة المحشوّة باللحمة المفرومة والبصل والجوز، كانت خرافيّة المذاق، وتستحق انتظار عام كامل.

في السنوات التالية، ولائم الإفطار لم تعد تقتصر على وجودي وحدي. انضمّ إليّ فيها عدد من

الأصدقاء الذين تعرّفت إليهم رندا عن طريقي أو العكس. كما انضمّت لنا مايا، ليس لمشاركتنا الإفطار فحسب، بل لمشاركتنا علاقتنا التي اكتملت بوجودها، حيث صارت هي الضلع الثالث في مثلث صداقتنا البهيج.

مايا، صديقة قديمة لي ولأختي رنين، تكبرني بعامين، وقد التحقت بالعمل في مكتبنا بترشيح مني حين أعلن صاحب المكتب عن حاجته إلى محاسب، ولأنها كانت خريجة كلية التجارة والاقتصاد، اختصاص محاسبة.

كنا كفتيات في مقتبل العمر، نستمتع بأن نسمّي أنفسنا مجنونات. كان الجنون أحد أهدافنا، أو بالأصح كان وسيلتنا لبلوغ الهدف الضبابي في حينها، والذي كان يتلخّص في التأكيد على كينونة متميّزة ومستقلة ومختلفة لكلٍّ منّا. كينونة متمرّدة على كلِّ القواعد والنواهي المخطَّطة مسبقاً وناسفة لها من جذورها، مشكّلة على أنقاضها قواعد جديدة نابعة من الإنسان الجديد والمختلف الذي كنّا نراه فينا ولا نتخيّل أنفسنا إلا على صورته ومثاله.

وكنّا رغم جنوننا، ملتزمات جداً بتلك القواعد والمبادئ التي شكّلناها بأنفسنا لأنفسنا، ملتزمات إلى درجة الجنون. بحيث صار التزامنا بحريتنا بحدّ ذاته قيداً، لجمنا عن الجموح في مجاهل الشباب وانحرافاتهم المعهودة.

مايا كانت مخطوبة لشاب أحبّته أثناء عملهما معاً في طاقم استقبال فندق فخم كان قد افتُتِح في حلب حديثاً. كانت تتهيأ للزواج في ظروف مادية غير مريحة تماماً. إذ إن راتبَيّ موظفيّ الاستقبال، لم يكونا كافيين لمجرد تجهيز البيت الموجود أصلاً وهو بيت أهل غسان خطيب مايا. لهذا السبب اضطّرت أن تبحث عن عمل إضافي بعد الظهر إلى جانب عملها في الفندق صباحاً، حين اقترحتُ عليها الوظيفة في مكتبنا.

الضغوطات التي أحكمت قبضتها على أيامها تلك، لم تفقدها مرحها المعهود إلا في لحظات قليلة. فقد كانت مايا فتاة صلبة محاربة، تربّت في أسرة ميسورة، لكنها فقدت والدتها في وقت مبكّر لدى إصابتها بسرطان قاتل. وتزوّج والدها بعد سنوات عدة بامرأة أخرى اضطرت إلى التعايش معها بسلام نسبي.

والدها كان يملك فيما مضى واحدة من أشهر وأكبر دور السينما في حلب، وكانت تدرّ له دخلاً ممتازاً، يؤمّن به لعائلته مستوىً جيداً من المعيشة، تمتّعت به مايا في طفولتها، وبدأت تشعر بانحساره شيئاً فشيئاً حين توقفّت دار السينما عن العمل، ولم يستطع والدها بيعها، حسب القانون الذي صدر في

ذلك الوقت.

الشعب الحلبي كان يعرف السينما ويعشقها، منذ عرض أول فيلم في حلب في أحد المقاهي في العام 1912. وببلوغ أواخر الستينيات كانت قد افتُتحتْ في حلب الكثير من صالات عرض الأفلام التي كان الناس يتهافتون على ارتيادها. مع بداية السبعينيات (وبعد الحركة التصحيحية)، بدأ العمل بمرسوم يقضي بحصر استيراد الأفلام السينمائية بالمؤسسة العامة للسينما. وهي الشركة الحكومية التي استُحدثت لتعنى بالشؤون السينمائية من إنتاج وصناعة الأفلام المحلية إلى استيراد الأجنبية وعرضها وتوزيعها. في بداية الأمر، كان القائمون على المؤسسة يستوردون نوعية جيدة من أشهر الأفلام العالمية (وإن لم تكن أحدثها)، ويقومون بتوزيعها على دور العرض الخاصة عبر إجراء مزاد عليها. في تلك الفترة، أسعدنا الحظ (أنا ورنين) بحضور بعض الأفلام الجيدة التي كان والدي يختارها لنا ويصطحبنا إليها يوم السبت. كما كنّا نداوم مع العشرات من أبناء محيطنا بعد ظهر كل يوم أحد، على ارتياد صالة خاصة كنا نسميها «سينما النادي» تقوم بعرض الأفلام للأطفال، تدار من قبل نادي الشبيبة الكاثوليكية (النادي الذي كان له أيضاً فرع رياضي شهير استأثر فريقه ببطولة سوريا لكرة السلة على مدى كثير من السنوات، وهو الذي عرف فيما بعد «بنادي الجلاء الرياضي» الذي لعبنا ونشأنا فيه أنا وإخوتي). في بداية الثمانينيات، بدأ مستوى الأفلام التي كانت تستوردها المؤسسة العامة للسينما بالتدني، لم يعد للأفلام الأميركية أي وجود واستُبدلت بها الأفلام الروسية والأفلام الوثائقية وأفلام المهرجانات. وعندما توقف الاستيراد نهائياً، واكتفت المؤسسة بعرض الأفلام المحلية، بدا كأن شمس السينما في سوريا قد أفلت. لم يعد الناس يخطّطون للذهاب إليها ليلة السبت أو الخميس ولا في أي يوم من أيام الأسبوع، ونشأ جيل سوري كامل (منه يوسف ونور) لم يعرف ما هي السينما. وبتزامن ذلك مع القرار الذي صدر بمنع هدم أي صالة عرض سينمائية أو حتى تحويلها إلى مجمّع تجاري أو سياحي، تلقّى أصحاب هذه الدور الضربة القاضية، واكتفوا بإغلاق صالاتهم العملاقة التي كانت تتمركز غالباً في الوسط التجاري للبلد، وقبعوا في بيوتهم منتظرين معجزة من الله تفرّج عن عقاراتهم التي كانت باهظة الثمن وأصبحت عديمة القيمة والأهمية.

أبو سالم، والد مايا، كان واحداً من هؤلاء، وبقي يتمتّع مع عائلته بمستوى لائق للمعيشة ممّا جناه طيلة سنوات عمله السابقة، لكن إمكاناته لم تسعفه بدعم ابنته التي كانت تبني عشّ الزوجية إلا بالقليل.

الأشهر التي سبقت زواج مايا، كانت مسرحاً لروايات مختلفة كنا نحضرها بدهشة أنا ورندا من خلف طاولتينا في المكتب دون أن نصفّق. مرّة دخلت وهي تتراقص فرحاً وأعلنت لنا أنهم حدّدوا

موعداً لحفل الزفاف، بعد عدة أسابيع دخلت مكفهرّة وقالت إنهم أجَّلوا الموعد، ثم عادوا إلى تثبيته بعد أيام عدة كما قالت لنا وهي تزغرد طرباً، بعد أسبوع دخلت متورِّمة العينين، شاحبة الوجه ومنكوشة الشعر وقالت لنا: انتهى الأمر، لقد فسخنا الخطوبة. أُصبنا بالهلع، وقمت أنا في خفية منها بالاتصال بغسان، لأجده غاضباً وثائراً، وأعلن لي بدوره أن القرار نهائي ولا رجعة فيه. لكن كان ثمة رجعة فيه، بعد أيام قلائل، حُدِّد موعدٌ جديدٌ للزفاف أقرب من الأول، ووصلنا بهم في ذلك اليوم إلى هيكل الكنيسة حيث قالا: نعم، وتنفسنا نحن الصعداء.

رندا بدورها، أغرمت على نحوٍ مفاجئ بشابٍ يعيش في الإمارات العربية تقدّم لخطبتها بطريقة تقليدية. كان حلبي الأصل، غادر للعمل في دبي منذ أكثر من خمسة أعوام.

أثناء قضاء أحمد لإجازته في حلب، استغلّت والدته وجوده وأحضرته معها إلى بيت العقيد أبو يحيى ليتعرّف إلى ابنته الجميلة، التي غزت قلبه عند أول ضحكة خجولة صدرت عنها. وبالمقابل، فقد نزل هو أيضاً في قلبها منزلة حسنة على غير المتوقع، وجاءتنا في الصباح التالي بعينين عاشقتين، مختلفتين عن تلكما الخضراوين الشقيَّتين اللاهيتين.

تمّت الخطوبة بسرعة كبيرة لأنه كان مضطّراً للسفر ليلتحق بعمله في دبي، رغم امتعاظ حماته التي كانت متوجّسة من العجلة، وغير مرتاحة للشاب الذي عشقته ابنتها القوية المثقّفة من النظرة الأولى، ورضيت بإطاعة الشروط التي فرضتها حماتها دون كثير من التدقيق والمناقشة. قالت لنا رندا: لقد أحببت فيه انفتاحه وتحرّره، هو شخص مختلف وجريء ويعرف من أين تؤكل الكتف.

لكن أحمد العريس الجريء، لم يكن في الحقيقة يعرف للأسف حتى من أين تؤكل الشوربة!

بعد خطوبة قصيرة استمرّت أشهراً عدّة، أهدر فيها مبالغ طائلة على مكالماته الهاتفية مع خطيبته (قبل عصر الإنترنت)، أصرّ الخطيب على إتمام الزواج عند أول إجازة ينزل بها إلى حلب، ليصطحب زوجته معه عند عودته إلى دبي. إصراره ذاك فاجأ الجميع، إذ لم تكن رندا مستعدة ولا أهلها للزواج والسفر بهذه السرعة، ولكنهم استسلموا في النهاية لرغبة أحمد، كلهم إلا منى، التي استشرست كلبوة خطف شبلها، وهدّدت بفسخ الخطوبة إذا أصرّ العريس على موقفه. وأصرّ العريس، فأذعنت اللبوة الجريحة أمام دموع وحيدتها، ولوم وتقريع كل من سمع بموقفها واستنكر إصرارها على تأخير الزواج دون سبب محدد.

وتزوَّجت رندا أخيراً، لكنها لم تسافر!

في ليلتهما الأولى كزوج وزوجة، تصرّف أحمد بغرابة. تحوّل فجأة كمستذئب في ليلة اكتمال القمر. لم يغازل عروسه ولم يكن لطيفاً معها، بل على العكس بدا متوتراً وفظّاً. أنّبها بقسوة لمبالغتها في التعطّر بعطر لم يعجبه، وعندما ضاجعها، كان عنيفاً لدرجة أن سبّب لها نزيفاً استمّر ساعات عدة.

في الصباح التالي، قرر فجأة أن يصطحب زوجته إلى مصيف قريب لتمضية أيام كشهر عسل. لكنه اصطحب معه أيضاً أمه وأخوته، والتقى هناك بأصدقاء له، كان يترك عروسه بعد أن يضاجعها ليهرع للسهر معهم في أحد الملاهي.

طلب إليها في ساعة صفاء أن تتحمّله، لأنه حسبما قال مضغوط جداً ويعاني من مشاكل مالية ضخمة لم يصارح أهله بحقيقتها.

في إحدى الليالي، لم يرجع أحمد إلى الغرفة، رغم أن رندا سمعت صوته يدخل البيت في ساعة متأخرة. انتظرته، ولم يأتِ، فقامت لتستطلع الأمر. كانت الصالة خالية، وباب غرفة حماتها موارباً، دفعته ببطء واختلست نظرة إلى الداخل، لتجد زوجها متكوماً ونائماً في حضن أمه.

الجملة الأولى التي استقبلت بها رندا اتصالي بها للمباركة عند عودتها إلى حلب كانت:

لك مو طلعو الحب والرومانسية أكبر كذبة بالتاريخ؟!

مكثت مع زوجها في بيت أهله لأيام قليلة، قبل أن يسافر وحده إلى دبي على أن يرسل بطلبها لتلحق به بموجب عقد الزواج الذي اصطحبه معه.

عادت إلى بيت أهلها، حيث ذهبنا أنا ومايا لرؤيتها. هالنا نحولها وشحوبها والتغيير الذي بان عليها في فترة قصيرة. صادف في الأسبوع التالي عيد ميلادها، فاحتفلنا بها بحفل صغير حاولنا أن ننسيها فيه كربها، كما حاولنا إقناعها أن ما يحدث بينهما طبيعي وستتحسّن الأمور بمجرّد سفرها إليه.

اتّصل بها في ذلك المساء بالصدفة. قال لها إن الفيزا ستتأخر، وقال إنّه لن يكون بإمكانه جلبها إليه في القريب العاجل، وقال إن مشاكله المالية تتفاقم، ولم يقل لها كل عام وأنت بخير.

عندما أنهى الاتصال ووضعت السماعة، مادت الأرض تحت قدميها، لفّها سواد كامل وطنين قوي أصمّ أذنيها، هوت أرضاً، فطاش صواب والدها الذي لم يحتمل أن يفقد بهجة عمره وأميرته الصغيرة بعد أن وجدها.

بمجرد أن انتعشت وعاد اللون إلى وجهها، التقط العقيد السابق سمّاعة الهاتف، واتصل بصهره الافتراضي قائلاً:

شكراً من أجل سلّة الزهور التي أرسلتها لعروسك في أول عيد ميلاد لها وهي على ذمتك!

كان أحمد نائماً عندما أيقظه رنين الهاتف، فاستهلك برهة من الوقت حتى استوعب ما الذي يجري، وأجاب:

أنا آسف يا عمّي، نسيت، أنا مضغوط ومشغول، أنت تعرف، تكاليف الزواج...

تكاليف الزواج؟ الزواج يا بني ليس فقط تكاليف وأموال، الزواج حبّ وعواطف.

آسف يا عمو.. أنا ما بقى في عندي لا حبّ ولا عواطف.

وأنا.. ما عندي لا غسّالة ولا برّاد لأبعتلك ياهن!

خلّها عندك إذاً!

وقد نفّذ العقيد تهديده، تركها عنده، وأقسم ألاّ يدع هذا الوغد الوقح يلمس ثانية شعرة من رأس ابنته، زهرة عمره، وأميرة قلبه.

بعد طلاقها المفجع، لم تتحمّل رندا البقاء في حلب. لم ترحمها ألسنة الناس ولا عيونهم، الكل يريد أن يعرف لماذا طلّقها زوجها بعد أقل من شهر من الزواج!

سعت للحصول على عقد للعمل في الإمارات، وحصلت عليه بعد فترة وجيزة بمساعدة صديق لها من أيام الجامعة يقيم ويعمل هناك، وسافرت إلى دبي التي طالما حلمت بها، ولكن ليس كعروس ينتظرها عش الزوجية المريح، بل كفتاة عزباء وحيدة تنتظرها حياة شاقّة عليها أن تشقّ طريقها فيها.

في مراسلاتنا التي لم تنقطع، بدأت تحكي لي عن علاقتها التي تتطور مع حسّان، الصديق

القديم الذي كان يحبّها منذ أن كان زميلاً لها في الجامعة، والذي ساعدها لغاية في نفس يعقوب بالحصول على عقد العمل، ومن ثم حملها على راحات الكفوف واعتبر نفسه مسؤولاً عنها بمجرد أن حطّت طائرتها في مطار دبي.

لم تكن تحمل له حتى ذلك الوقت أكثر من مشاعر الصداقة والزمالة، لكن حنانه الجارف واهتمامه الذي وفّر عليها الكثير من العناء وخفّف عنها غربتها، نجح في استمالة قلبها ومشاعرها، إلى أن طلب منها الزواج.

كان قد دعاها إلى العشاء في مطعم تراثي، حيث لا طاولات ولا كراسي، بل وسائد وبسط وسجاد وصوان من نحاس يقدم عليها الطعام.

حين اعترف لها برغبته في الزواج منها، فكّرت رندا بأهله والبيئة المتديّنة والمحافظة جداً التي ينتمون إليها، أشارت إلى تنورتها التي انحسرت بجلوسها على الوسادة إلى ما فوق ركبتيها بكثير، وقالت:

أنظر إليّ جيداً، أنا هكذا ولن أتغيّر، هل تظنّ أنك سترضى أن تكون زوجتك هكذا؟

أنا أريدك هكذا كما أنت، ولا أريد منك أن تتغيّري، فقط أريد أن تصبحي زوجتي.

وكان يكذب!

بعد أن اتفقا على كل شيء، ونزلا إلى حلب ليتزوجا، وبعد إتمام ما يسمى «بكتب الكتاب» أي الزواج شرعاً في المحكمة. وقبل يوم من العرس الذي اتفقوا أن يقتصر على العائلتين، فاجأها بطلب نزل عليها كالصاعقة:

كرمى لحبنا، أتمنى أن تسعديني وتتحجّبي.

بدهشة كبيرة واستياء عارم أجابته:

الآن تطلب هذا الطلب مني؟ ألم تقل إنك تحبّني كما أنا!

طبعاً أحبك كما أنت، ولكنني أفترض أنك أيضاً تحبينني وتحبين إسعادي، أفلا تلبين لي هذه الرغبة؟

أنت تعرف قناعتي وموقفي، لن أتحجّب إلا إذا اقتنعت بذلك!

حتى إذا كان الثمن زواجنا؟

ولماذا يكون الثمن زواجنا؟ هل تخيّرني؟

نظر إليها بصمت، فأجابته:

إذاً سأختار، لا الزواج ولا الحجاب.

خلعت خاتم الخطوبة ووضعته على الطاولة أمامه بهدوء.

ليلتها، لم ينم حسّان ولم يدع أحداً ينام. جنَّ جنونه، اتصّل بي وتحدّث لساعات وبكى، واتصّل بمايا، واتصّل بإخوة رندا وأخوالها وخالاتها وكل من كان يمون عليها، لمساعدته بإقناعها أن تسامحه، وأن تعيد خاتمه إلى إصبعها حتى ولو بدون حجاب.

ولم تكن رندا فقط من كان عليها أن تسامحه، بل أمّها منى أيضاً، إذ لم تتحمّل الأم أن ترى ابنتها تُخدع ثانية، وتُلدغ من الجحر نفسه مرتين.

عندما طلع الصباح، كانت الوساطات قد فعلت فعلها، والمياه عادت إلى مجاريها. فأقيم حفل الزفاف مساءً كما اتُفقَ سابقاً، وتزوجت رندا رسمياً للمرة الثانية.

في السنوات الأولى من الزواج الذي أثمر طفلتين جميلتين، كان الوضع ممتازاً. لكن رندا فاجأتنا جميعاً بارتدائها الحجاب بعد فترة وجيزة من إنجابها ابنتها الثانية. فعلت ذلك دون أن تخبرنا، كأنها كانت متوجّسة من ردّ فعلنا، وعندما سألناها إن كان حسّان قد عاد للضغط عليها نفت بشكل قاطع واكتفت بالقول إنها هي التي اقتنعت بالموضوع.

صدمني تغيير رأيها بهذا الشكل واقتناعها بالحجاب، وجعلني أتساءل عن مصير قناعاتها الأخرى في الحياة والتي كنا نتشاركها. وأصابني قلق من أن أكون قد فقدت صديقتي وتوأم روحي. لكن المذهل بها، أنها بعد الالتزام بالحجاب بقيت المجنونة الطروب نفسها التي كانت قبله، مما زاد في

دهشتي عن نوعية تلك القناعة التي تشكّلت لديها ودفعتها لهذا التصرف. ناقشتها مرة أثناء إجازة لها في حلب، لكن إجابتها لم تشفِ غليلي، وخفت أن أجرحها فلم أستطرد، وبقيت أحبها كما هي، كتوأم روحي المحجب. وكتمت عنها اعتقادي بالتأثير غير المباشر لزوجها حسّان على قرارها هذا.

كنت أعرف أن علاقتهما جيدة، وأنه كان يفعل المستحيل لإسعادها، وهي كانت مقدّرة له ما يفعله وممتنّة جزيل الامتنان. فتخيلتُ أنها أرادت إسعاده بالحجاب كنوع من العرفان بالجميل. لكن الجميل لم يدم للأسف، إذ بدأ الانهيار يعرف طريقه إلى جدران بيت الأسرة الصغيرة منذ أن اكتشف حسان الـ «كويست نت»، وهي شركة للتسوق الشبكي انتشرت بكثافة في ذلك الوقت، تشترط للاشتراك فيها شراء سلعة من سلعها بسعر يفوق قيمتها بأضعاف، وبمجرد الحصول على الاشتراك يكون على المشترك تكوين شبكته الخاصة والعمل على إقناع أكبر عدد من الناس بالاشتراك، الذي يتم طبعاً عن طريق شراء سلعة ما، حيث يحصل المشترك على عمولة مجزية عند كل عملية شراء تتم عن طريقه أو عبر أفراد شبكته.

استلب لبّ حسّان بهذا المشروع، والذي يمكن بحسبة بسيطة أن يقنعك أنه سيدرّ عليك أموالاً طائلة في فترات قصيرة. قلّص ربّ الأسرة من ساعات عمله كمترجم في جريدة إنجليزية محترمة ليقضي وقتاً أطول أمام الشاشة متابعاً مشروعه، وشيئاً فشيئاً، قدّم استقالته نهائياً ليتفرغ كلياً، بدون أن يحصل على شيء بعد من الأرباح الموعودة.

حين تدخّلت زوجته معلنة اعتراضها، طلب دعمها ووقوفها بجانبه في مشروع عمره كما سمّاه، والذي سيثمر ملايين الدولارات خلال خمس سنوات.

كانت رندا ما تزال قائمة على رأس عملها، سكرتيرة في سفارة تايلاند في دبي. فتحمّلت مصاريف المنزل وأقساط مدارس البنات، مع الاستعانة بالمدّخرات التي جمعتها مع زوجها طيلة سبع سنوات من العمل والزواج.

حين قاربت المدّخرات على الانتهاء، وأعلن راتب رندا عجزه عن سدّ مصاريف وحاجات العائلة، كان عليها أن تتخذ موقفاً حاسماً. طلبت إليه أن يعود لعمله، على أن يتفرغ لمشروع حياته خارج أوقات الدوام، كان هذا الحل مستحيلاً بالنسبة إلى من تورط وأدمن حتى الثمالة، رفض، فتشاجرا، وترك المنزل، والعائلة، والمدينة كلها وعاد إلى بيت أهله في حلب ليتابع مشروعه عبر الإنترنت من هناك بعيداً عن ضجيج زوجته وتقريعها المستمر له وشكواها منه.

عاشت رندا لفترة وجيزة وحيدة مع طفلتيها في تلك المدينة الكبيرة التي لم ترحمها بغلائها

الفاحش. ولم تستطع الصمود طويلاً، فعادت إلى حلب مع ابنتيها بعد أن طلبت الانفصال. حصلت عليه بعد شهور مريرة، لتتطلّق رسمياً للمرة الثانية.

في كنف أمها وأبيها، بدأت رندا حياة جديدة بعزيمة ومرح مذهلين، وجبروت أنثى لم تفقد موهبتها في غزو القلوب. احتضنت ابنتيها واحتمت معهما تحت جناح والدها كتعويض لهما عن أبيهما الغائب، حيث قام أبو يحيى بمهمته بفرح وعاطفة، وحكمة أسبغتها عليه التجارب المرّة التي خاضها على مدى سنوات. واستقر وضعها نسبياً بعد حصولها على وظيفة جيدة في شركة تأمين جديدة خاصة من تلك التي افتتحت في ذلك الوقت.

فكرة التأمين كانت ماتزال غريبة بالنسبة إلى الصناعيين والتجّار السوريين، لكنهم ما لبثوا أن تهافتوا عليها أخيراً بعد توجّس وتردّد قصيرين. حين قامت الحرب في حلب كانت مايا منخرطة بعمل باشرته منذ حوالى الأربع سنوات في مجال عمل رندا نفسه، في شركة تأمين خاصة أيضاً افتتحت حديثاً في سوريا. لمعت مايا في وظيفتها المختصّة بالمبيعات، وحصّلت أرباحاً طيّبة فوق راتبها من العمولات التي كانت تستحقها عن كل عقد تحرره وبنسبة جيدة، شاركت فيها زوجها غسان الذي صار مديراً للمبيعات في معمل نسيج، في سدّ مصاريف البيت الذي انضم إليهما فيه كائنان نابضان بالجمال والحياة وهما ابناهما جورجيو وألين، اللذان كانا على أعتاب المراهقة.

عندما اندلعت الحرب، أغلق معمل النسيج قبل أن ينهب ويدمر، فأصبح غسان عاطلاً عن العمل. كما انحسر الإقبال على التأمين إلى درجة كادت تصل إلى الانعدام، وبالتالي، انعدمت العمولات التي كانت مايا تحصل عليها. واضطرت الأسرة أن تكيّف معيشتها مع الراتب الثابت المتواضع نسبياً الذي استمرت في قبضه.

رندا كان حظها أسوأ، إذ بعد عزوف الناس عن التأمين وانحسار الأرباح، قررت شركتها عدم تجديد عقود العمل لكثير من الموظفين ذوي الرواتب العالية تخفيفاً للمصاريف، وقد شملها القرار، وصارت بدورها عاطلة عن العمل.

في جلسة الوداع التي جمعتنا قبل أن أسافر، تحدثت الاثنتان عن عزمهما الرحيل أيضاً. كان الوضع الأمني مزرياً، ابنتا رندا لا تستطيعان النوم، لقرب منزلها من جمعية الزهراء حيث مبنى المخابرات الجوية التي تدور حوله ومن فوقه معارك طاحنة بمختلف أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، الطائرة والزاحفة. ما جعل الليالي رعباً حقيقياً لسكان المنطقة الذين بدؤوا بالنزوح عائلة تلو الأخرى.

مايا كانت تعاني من المخاوف نفسها، خصوصاً مع اقتراب ولديها من سن النضج وفقدانها شيئاً فشيئاً السيطرة على ضبط تحركاتهما.

بعد سفري بأشهر عدة، استطاع شقيق رندا المقيم في فرنسا بشقّ النفس أن يؤمِّن لها موعداً في السفارة الفرنسية بإستانبول، حيث قابلت السفير وطلبت منه منحها وابنتيها تأشيرات دخول إلى فرنسا كلاجئات. بعد المقابلة، بقيت في تركيا بانتظار الجواب الذي جاء بالموافقة بعد شهر، تعرّفت خلاله على شاب سوري مقيم في لندن، اسمه عادل، وموظف في منظمة تعمل في مجال الإغاثة وتأمين المساعدات للمنكوبين جراء الحرب داخل سوريا. كان عادل قد جاء بمهمة مؤقتة إلى إستانبول حيث التقى رندا التي كانت في ضيافة صديقة حلبية لها تعمل في المجال نفسه في فرع المنظمة في إستانبول. عمل سحرها الفطري عمله، فوقع في غرامها حتى أذنيه رغم أنه كان يصغرها باثني عشر عاماً. بقي يحوم حولها حتى غادرت إلى باريس حيث كان أخوها في الانتظار، وحيث ساعدها في تقديم أوراقها للمركز المختص بشؤون اللاجئين، للحصول على إقامة شرعية في فرنسا. استقرّت مبدئياً في قرية في النورماندي شمال باريس، في منزل مشترك مع لاجئة من الكونغو، أرسلتها إليه إحدى الجمعيات التي تعنى بشؤون اللاجئين، وألحقت البنتين بمدرسة القرية، وبدأت دروساً في اللغة الفرنسية ترتاد من أجلها معهداً قريباً بشكل يومي. عبر السكايب والواتساب. تطورت علاقتها بعادل، الذي عاد إلى لندن بعد انتهاء مهمته، وزاده الفراق غراماً وجنوناً. القصة في بدايتها كانت موضوعاً جيداً وظريفاً يدعونا (أنا وهي ومايا) للضحك والفكاهة كلما ناقشناه، وذلك لفارق السن الكبير بين العاشق ومعشوقته. ولكن على مرّ الأيام، بدأت رندا تتعلق جديّاً بعادل وتنتظر اتصالاته، دون أن تسأل نفسها أو تسألنا عن جدوى هذه الاتصالات، وإلى متى، وإلى أين.

أما مايا، التي كان أملها في الحصول على تأشيرة شرعية لدخول أوروبا معدوماً، فقد قررت بجرأة أن تركب الخطر، وتغادر سوريا عبر تركيا ومن هناك إلى اليونان عبر البحر بطريقة غير شرعية طبعاً. على أن تسافر من اليونان جواً إلى ألمانيا بجواز سفر أوروبي مزوّر دفعت من أجله مبلغاً طائلاً لأحد المهربين الكثر الذين ازدهرت أعمالهم بطريقة خيالية في هذه الفترة رغم ملاحقتهم من قبل البوليس الدولي لتسببهم بمقتل المئات غرقاً في عرض البحر.

بقيّة الخطّة كانت أن ترسل في طلب زوجها وأولادها بمجرد أن تحصل على الإقامة في ألمانيا بعملية اشتهرت بـ: «لمّ الشمل».

عندما سمعتُ بخطتها تلك عرفتُ أنها نوع من الجنون، لكن هذا الجنون كان الحلّ المنطقي الوحيد للوضع الهستيري الذي انغمست فيه وأسرتها كسورية فُرضت عليها مأساة غير واضحة

النهاية. أكبرتُ فيها شجاعتها النادرة وتضحيتها في سبيل انتشال عائلتها من الجحيم. وكانت محظوظة في الخطوة الأخطر، إذ عبرت البحر من دون مشاكل ووصلت إلى اليونان سالمة، بينما غرقت كثير من المراكب التي أبحرت في الوقت نفسه وذاب ركابها كالملح في الماء.

في تركيا وقبل أن تركب البحر إلى اليونان، قضت أياماً عصيبة في فندق رخيص وقذر في مرسين، بانتظار إيعاز من المهرّب للإبحار. كان ينتظر هدوء عاصفة هبّت في ذلك الوقت واستمرت لأيام طويلة، بلع فيها البحر عدداً من السفن التي لم تصبر ولم يقوَ ركابها على الانتظار للقاء حتفهم المروّع في عرض البحر.

جاء الإيعاز أخيراً وانطلقت، وبعد وصولها إلى اليونان، استعملت جوازاً بولونياً مزوراً يحمل صورتها، لتطير إلى ألمانيا، حيث تقدمت في اليوم التالي لوصولها إلى مركز حكومي وطلبت أن تمنح حق اللجوء. أُرسلت إلى مخيم مزدحم للاجئين وبقيت فيه حوالى خمسة أسابيع. وحدّد لها موعد للمقابلة الرسمية بعد أكثر من شهرين.

في أول أسبوع، أقامت في غرفة واحدة مع ثلاث من النساء وثلاثة من الأطفال. كنّ سوريات، لكن متعَبات وحاقدات وفظّات. واحدة منهن فقط كانت لطيفة نسبياً، لكن أطفالها البكائين الثلاثة كانوا بالمرصاد لأي لحظة سلام كان يمكن أن تتسلّل بالصدفة إلى الغرفة المزدحمة.

وبانتقال الأم وأبنائها وواحدة أخرى من الساكنات إلى مخيّم آخر، ارتاحت مايا نسبياً وتنفست الصعداء، وحاولت التغلب على كآبتها بالعمل كمترجمة للعشرات من اللاجئين العرب الذين لا يجيدون أية لغة أجنبية. كان تترجم لهم إلى الإنجليزية التي كان الموظفون الألمان يتقنونها بشكل كافٍ. فتواجدت معهم في الاستقبال، في مراكز الشرطة داخل المخيم، في العيادات والمستشفيات.

بعد مرور خمسة أسابيع، نُقلت إلى منزل مشترك مع اثنتين من النساء، مكثت فيه مدة شهر، ثم منحت شقة خاصّة بها في قرية جميلة قريبة من دوسلدورف. كان موعد مقابلتها الرسمية قد أزفّ، فذهبت مرتجفة الفؤاد وحكت عن رحلتها ومعاناتها، وأبلغت في النهاية أنها ستحصل على الإقامة في غضون أسابيع قليلة.

أحسّت أخيراً بشيء من الاستقرار، وبمجرد حصولها على إقامة لمدة خمس سنوات، باشرت العمل على الخطوة الأهم، التقدم بطلب لمّ الشمل، لإحضار غسان، وجورجيو الوسيم فارع الطول وألين الجميلة ذات الستة عشر ربيعاً، وقد أحرقها الشوق إليهم.

أنهيت حواري مع مايا ورندا، لأنه كان عليّ أن أرتدي ملابسي وأخرج لملاقاة إيزابيل. وقبل أن أُفلت الموبايل من يدي، تلقيت رسالة من غدير، شريكتي في مجموعة حوار أخرى اسمها: صديقات للأبد، تضمّنا نحن الاثنتين مع ثالثتنا لينا.

«اشتقت إليكما، أنا بخير، سأعود لأكلمكما ليلاً لأنني خارجة الآن، قبلاتي».

عانقتني إيزابيل وقبلتني، ونظرت إلى وجهي وقالت:

تبدين بحالة جيدة! تبدين أجمل! ماذا حصل؟

أنا سعيدة!

هل أنت عاشقة؟

ضحكت طرباً ولم أملك أن أنكر.

نعم، نعم، عاشقة جداً.

إيزابيل التي كانت تعرف بالحب الغريب الذي كان يجمعني بأليكس، والتي كانت آسفة لابتعاده عني ومستنكرة لتصرفاته الغريبة معي، فرحت حين سمعت أنني حرّرت قلبي من قبضته وملأته بحب رجل آخر.

نخب الحب الجديد.

شربنا الـ «ثربيثا» (البيرة) الباردة المنعشة في تراس جميل يطلّ على القصر الملكي. لحقت بنا روسيو أختها المحامية بعد أن أنهت أعمالها في مكتبها، فشاركناها كأساً جديدةً من الثيربيثا.

بحكم عملها السابق لثلاث سنوات في لبنان، كانت إيزابيل مطّلعة على أحوال المنطقة، واستمرّت متابعة لأخبارها بعد عودتها إلى مدريد. كانت تشعر بهول المأساة، وتشعر أنها تمسّها شخصياً، خصوصاً بعد أن تعلقّت عاطفياً بحلب ودمشق إثر زيارات خاطفة كانت تقوم بها إليهما خلال عطل نهاية الأسبوع أثناء إقامتها في بيروت.

عاوَدَت سؤالي بلهفة عن أوضاع سوريا عامة وحلب خاصة، تحدثنا طويلاً عن هذا النفق المسدود الذي دخلته البلاد، وعن معاناة الناس الذين أُرغموا على دفع فاتورة باهظة من الموت والدمار، الناس الذين سلب منهم وطنهم ليصبح مسرحاً لصراعات لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

حين عرفتْ أنني أبحث عن مكان للإقامة ريثما يحين موعد المقابلة، عرضت عليّ الانتقال إلى بيت أخيها فرناندو الذي كان يتحضّر للسفر في إجازته السنوية بعد أيام، حيث سيقضي ثلاثة أسابيع خارج إسبانيا.

شكراً جزيلاً للاقتراح، لكنني اتفقت مسبقاً مع أحد الفنادق الصغيرة قرب الأوبرا على إقامة طويلة مقابل سعر مخفض.

ليس عليك أن تنفقي نقودك في الفنادق إذا كان البديل موجوداً، هل أنت مجنونة.

لا، ولكن، هل سيكون فرناندو مرتاحاً لهذا الاقتراح؟ أليست هذه قلة ذوق مني أن أحتلّ منزله في غيابه؟

خذي الأمور ببساطة.

قالت روسيو.

ثقي أن فرناندو سيكون سعيداً.

لم أملك أن أرفض هذا العرض السخي المقدّم بطريقة ودية، وفي غاية البساطة والعفوية.

شكراً جزيلاً لكم جميعاً، أنا بالفعل ممتنّة وعاجزة عن التعبير.

ابتسمت إيزابيل، وربّتت على كفي بحنان.

لا يتوجّب عليك أن تعبّري عن شيء، نحن نتفهّم. وإننا معجبون جميعاً بشجاعتك ورباطة جأشك. أنت إنسانة قوية، قوتك وإصرارك

وابتسامتك، تدهشنا فعلاً، وسيسرنا أن نكون بجانبك في هذه الفترة.

ابتسامتي تدهشهم؟! هذه مجاملة وإطراء لطيف، لكنني فكرت بها أيضاً من زاوية أخرى. وتساءلت جديّاً إن كانت الأيام القاسية التي مرّت بي قد حوّلتني إنسانة قليلة الإحساس ملبّدة الشعور. أنا أبتسم وقت يُنتظر مني البكاء، أتأمل حين يُنتظر مني اليأس، أسترخي حين يُنتظر منّي التوتر، أعشق بفرح كالمراهقات حين يُنتظر أن أندب أحزاني كالثكالى.

هل تراني قطعت الشعرة الفاصلة بين القوة وقلّة الإحساس؟

«غدورتي، لنوشتي، لقد عدت لتوي يا حلوات، هل ما زلتما مستيقظتين؟».

مايا ورندا، لم تكونا الوحيدتين من صديقاتي اللواتي عضّتهنّ الحرب بأنيابها السّامة. غدير أيضاً، صديقة طفولتي وأحلى أيام شبابي، التي كانت ابنة تاجر من أكبر تجّار حلب، تركت زوجها وغادرت مع ابنتها الوحيدة إلى اللاذقية خوفاً عليها من القذائف التي بدأت تنهمر كالمطر على الحي الذي كانت تسكنه، واستأجرت هناك شقة صغيرة جداً وتعسة، وتوظّفت في شركة متواضعة كسكرتيرة ومترجمة. هي التي كنا نشهق أنا ولينا حين كنّا ندخل بيتها الكبير الفاخر الرياش والديكور، وهي التي كانت تدير إمبراطورية أبيها العريقة لتجارة الألبسة النسائية.

وليست هي شخصياً فقط من تأثّر بالحرب، بل صداقتنا أيضاً. صداقتنا الرائعة التي وُجدت قبل أن نوجد نحن، كانت لفترة من الزمن إحدى ضحايا هذه الحرب القذرة.

غدير التي كانت من عشاق التمرد والحرية طيلة فترة مراهقتنا وشبابنا. والتي كانت ولينا أول من جرّب معي التدخين في العلن حين بلغنا الثامنة عشرة، وذلك في مطعم صيفي مكتظ بالمعارف والأصدقاء. لم نفعل ذلك حبّاً بالتدخين (الذي لم أدمنه يوماً)، بل رغبة بإعلان تحدّينا لكل من تسوّل له نفسه أن يتدخل في قرارنا الذي شعرنا أنه صار اليوم ملكنا وحدنا، بعد أن بلغنا هذه السن المباركة.

غدير التي تحمّست وهلّلت للثورة المصرية ضد النظام الفاسد والأمني الذي كان يمتصّ خيرات البلد ودمائه، تحوّلت فجأة مثل معظم المسيحيين عندما قامت الثورة في سوريا إلى مؤيدة للنظام الحاكم ورئيسه، مغمضة عينيها عن الجرائم التي ارتُكِبت والدماء التي سالت. وبطوباوية ورومانسية، لبّت نداء الوطن في معركته ضد أعدائه كما أُوحي إليها عبر وسائل الإعلام الحكومية وعبر أجهزة مخابراته التي عملت جاهدة على استحداث وتنفيذ خطط إعلامية عالميّة لتجميل صورة

النظام في سوريا وتشويه صورة الثورة التي تشوّهت فعلاً على مرّ السنين عندما تسلّحت واستلم المتطرفون والإرهابيون قيادة الحرب التي كان الجيش السوري الحر قد بدأها ضد النظام.

الحق يُقال، إنه عندما سالت الدماء، ونادى بعضها بعضاً، بدأت الفظائع تُرتكب من الطرفين، (عندما كان في الحرب السورية طرفان فقط!)، وعمل مؤيدو كل طرف على التركيز على تلك الجرائم التي تُرتكب بحق فريقهم، مغمضين أعينهم أو متجاهلين أو حتى جاهلين أحياناً التي تُرتكب بحق الآخر.

في الفترة الأولى من الثورة، وقبل حتى أن تتحوّل إلى حرب، قُتل ضابط علوي مع اثنين من أبنائه ومُثّل بجثثهم بشكل شنيع كرد فعل انتقامي لأحداث دامية سابقة. كانت هذه الجريمة هي الأولى التي فتح عليها الكثيرون أعينهم التي كانت قد بقيت مغلقة أمام عشرات الجرائم الوحشية التي سبقتها، وكانت هذه الجريمة، حجّة غدير للاقتناع بوحشية الثورة، التي اختُزِلتْ بنظرها في مجموعة من المتطرفين المتوحشين.

وفي هذه الفترة بالذات قامت صديقة عمري، والفتاة التي تربيت معها وبنيت أولى خبراتي في الحياة بمشاركتها، بإلغائي من قائمة أصدقائها في الفيس بوك، لأنني كنت أحياناً وبحذر شديد، أُلمّح دون تسمية أحد، إلى جرائم النظام ضد المدنيين والأطفال وقد كانت كثيرة حينذاك. كنت أكتفي بالحزن على الضحايا، التي كانت وسائل الإعلام الرسمية تتجاهل وجودهم نهائياً، إلى درجة أن أُظهرتْ راهبة تعمل مع المخابرات في كل وسائل الإعلام العالمية لتقول باللغة الإنجليزية: «لا يوجد ضحايا في سوريا، أين هم هؤلاء الضحايا؟ أرشدونا إليهم لنذهب ونقوم بواجب العزاء». كان التوجّه في ذلك الوقت يميل إلى الإنكار، والفكرة التي كانوا يروّجون لها بعد أن أغلقوا الحدود في وجه الصحافة، أن الوضع طبيعي في سوريا ولا يحدث هنا أي شيء خطير، اللهمّ إلا بعض المناوشات التي يضخمّها أعداء الوطن لتشويه صورة النظام ورئيسه. وكان من الجرائم الكبرى، أن تعترف بوجود ضحايا أو أن تحزن عليهم، أو حتى أن تنشر على صفحتك في الفيسبوك صورة لطفلة قروية جريحة ولو بدون تعليق، الكل سيفهم بذكائه الحاد ماذا تقصد! وستصبح حينها تلقائياً عدواً للوطن.

ولهذا السبب خسرت صداقة رفيقة عمري، ولكن لفترة قصيرة فقط. لأنني عندما مررت باللاذقية لزيارة نور وعائلتها قبل مغادرتي، اتصلْتُ بها، إذ كنت أعرف أنها هناك. ردّت عليّ بلهفة صادقة، والتقينا بشوق كبير، وسهرنا سهرة من أروع ما يكون. شربنا كمراهقتين مجنونتين وضحكنا بهستيريا لذيذة مثل ضحكات زماننا الغابر، تحدثنا بحرية عن أنفسنا عامّة، وتحدثنا بحرقة عن حلب خاصّة، حلب التي كانت قطعة منّا، ولم نختلف يوماً في عشقها. وقبل أن أمضي، تعانقنا بكل حبّ

العالم، وعانقنا طفولتنا وجنون مراهقتنا وتمرد أحلام شبابنا، وهمست لها قبل أن أتركها:

بدي أقصف عمرك إذا رجعت لغيتيني من الفيس بوك.

في الليلة نفسها وقبل أن تنام، طلبت صداقتي من جديد، وكتبت على صفحتها:

«حسيت اليوم إني كنت عم شوفك طول الوقت.. وإنو ما افترقنا ولا لحظة».

وبعدت بنا المسافات ثانية، لكننا، لم نعد لنفترق، ولا للحظة.

لينا، ثالثتنا، كانت نسبياً الناجية الوحيدة من مآسي الحرب المباشرة، إذ كانت قد انتقلت للعيش مع زوجها في الإمارات بعد زواجها مباشرة، أي قبل حوالى عشرين عاماً من الأحداث، وقد أنجبت ثلاثة أولاد وربّتهم هناك. واستمرت لقاءاتنا بها في فترة الإجازات الصيفية التي كانت تقضيها في حلب. واستمرت فيما بعد صداقتنا الثلاثية المنتشرة في دول ثلاث، عبر مجموعة حوار على الواتساب اسمها: صديقات للأبد.

بانتقالي إلى بيت فرناندو، شعرت مجدداً بشيء من الاستقلالية التي كنت قد شعرت بها في بيت تيريزا، وعاودني الاستقرار، إذ ابتدعت لنفسي روتيناً جديداً أقضي بحسبه نهاراتي. لم أشعر بالوحدة، إذ كنت أولاً رفيقة جيدة لذاتي، وثانياً كانت حواراتي الممتدة على طول النهار عبر الواتساب مع أمي ورنين ونور، كانت على بساطتها وسخافتها أحياناً، الشريان الذي يربطني بحياتي وكياني الأصلي ووجودي، كانت الجزء الذي لا يُستغنى عنه من يومي إذ كان يشعرني أنني محاطة بهنّ، أسمع خطواتهن حولي وتلفحني أنفاسهن. أما مكالمات جيرارد فكانت المكافأة السخيّة التي تشجعني على الصبر والتماسك، ومن ثم حواراتي الطريفة والطويلة مع مايا ورندا، وأحياناً غدير ولينا، وأخيراً، فرح، التي عادت بعد أن ابتعدت لفترة بعد أن اتهمتني بالاستهتار لضربي عرض الحائط بحبي لجيرارد.

ودّعتني بودّ قبل أن أسافر وقالت لي بمحبة: «حافظي على لميا القديمة، ولا (تتيسي)!» طلبان متناقضان ويستحيل الجمع بينهما. فقد كانت تعرفني عندما يتحوّل رأسي إلى رأس تيس عنيد، ينطح الجدران الصلبة دون تمييز، وهذا ما كنت عليه دائماً، وما كنت أجسده في ذلك الوقت بالذات، تيساً عاشقاً ينطح في طريقه كل المبادئ والقيم والبديهيات.

لقد احترمتك عندما رفضت الزواج من سليم، وفرحت بصديقتي التي لا تبيع أحلامها الخاصة مقابل أي مكاسب.

وعليك أن تحترميني اليوم أيضاً، فتصرفاتي كلها تنبع من معتقد واحد.

قلت لها، وفكرت بيني وبين نفسي، إن التي كان سهلاً عليها أن ترفض باسبور سليم لإنقاذ خصوصية أحلامها، لم يكن سهلاً عليها أن تقاوم عاطفة جيرارد التي تجسّد أحلامها تلك. والعكس صحيح، من تكون صلبة أمام الحب والعواطف، يسهل عليها أن تدوس قلبها للحصول على مكاسب معينة.

كنت أسأل نفسي باستغراب، كيف تورطت في علاقة من هذا النوع الذي كانت تعافه نفسي وترفضه مبادئي رفضاً باتاً؟ وبثبات وهدوء كنت أجيب نفسي، إن دخولي في حياة هذا الرجل هو فضيلة سامية، وعلاقته المسمومة مع تلك التي تسمى زوجته هي الخطيئة الكبرى التي يجب أن يكفّرا - هما الاثنان - عنها.

اقتنعت، أن الحياة مليئة بالاستثناءات، إلى درجة ألغيت فيها القواعد من اعتقاداتي. واقتنعت أن الزواج ليس دائماً علاقة مقدّسة، بل هو في أحيان كثيرة قيد دنس، يتطلب جرأة عشق مجنون لكسره، ولهيب غرام جارف لتطهيره.

القاعدة الوحيدة في الحياة: لا وجود لأي قاعدة.

سافرت بعد أن قلت لفرح: لميا هي لميا، حديثة وقديمة، التيس سيبقى ينطح الصخور إلى أن تتكسّر قرونه.

بعد أن وصلت مدريد، وبعد مكالمة دافئة مع جيرارد زادتني شوقاً إليه، شاركت على صفحتي في الفيس بوك أغنية لماجدة الرومي، وأرفقتها ببيتين من القصيدة المغناة:

«وجهك فاجأني كالأمطار

في الصيف وهبّ كما الإعصار

والحب فرار والبعد قرار

وأنا لا أملك أن أختار».

بعدها بأيام، تلقيت من فرح التي حزرْتُ أنها قرأت بين سطور القصيدة وسمعت في الأغنية أنني مستمرّة في حبي المشبوه، رسالة تتّهمني فيها بالاستهتار وعدم مراعاة حرمة البيت الذي استضافني ولا أصحابه الذين فتحوا قلوبهم لي! إذ كنت أستغلّ وجودي بينهم للتخطيط لسرقة رجل من زوجته وأولاده، كتبت لي: «هنيئاً لك إنجازك العظيم، الذي تمّ على حساب تعاسة أناس آخرين».

صدمتني رسالتها للحظات، لكنني لم أحملها محمل الجد لأنني كنت أعرفها جيداً. أجبتها بهدوء أنني ورغم كل القسوة التي بادرتني بها، باقية على صداقتنا القديمة، وممتنّة جداً للأيام والشهور التي قضيتها ضيفة عندها، ولن أنسى جميلها هذا ما حييت. وقد كنت بالفعل أعني وأشعر بكل كلمة كتبتها.

بعد حوالى شهر، اشتقت إليها فعلاً، فكتبت لها:

«اشتقتلك أنا، معقول أنت ما اشتقتيلي؟».

ردّت عليّ بعد قليل، بلسان فرح الصديقة، فرح المحبّة وليس المؤنّبة، قالت إنها اشتاقت إليّ أيضاً ومتلهفة لسماع أخباري. تحدثنا مجدداً كلميا وفرح، ولم نأتِ على ذكر جيرارد بعد ذلك في حواراتنا مطلقاً. عاد إليّ شيء من توازني الذي اختلّ بانفصالنا القصير، إذ كان أحد الأمور المهمة في حياتي، أنني أخسر قطعة من ذاتي عندما أخسر صديقاً، والقاعدة تلك كانت استثناء من القاعدة الوحيدة التي تنص على أن لا قاعدة في الحياة.

كانت رنين مكتئبة هذا المساء، تفتّحت كلّ آلامها دفعة واحدة في هذا القيظ الخانق الذي كان يجثم على صدر مدينة حلب. قيظ لا سبيل لدرء شرّه أو لتخفيف وهجه بسبب انقطاع أو انعدام التيار الكهربائي النظامي، وتعويضه بالتيّار الضعيف الذي تولّده المولّدات البديلة التي زُرعت في كل حي من أحياء حلب، واستُثمرت من قبل أصحابها الذين عملوا على بيع الأمبيرات للأهالي كل حسب طلبه، وبمبلغ خيالي للأمبير الواحد. كان الناس يستجرّون كل حسب قدرته، ولكن القدرات مهما عظم شأنها، كانت أضعف من استجرار ما يكفي لتشغيل المكيّفات، فكان الميسور يشتري ما يضمن له تشغيل مروحة، والأقلّ يسراً، يستغني عن تلك الرفاهية موفّراً أمبيراته للإضاءة أو لجهاز التلفزيون، ناهيك عن البرّاد الذي كان ضرورياً في فصل الصيف، وكان الناس يديرونه في ساعات محددة ويستغنون عنه في أخرى لصالح التلفزيون أو أي جهاز اقتصادي آخر.

السيشوار/ مجفف الشعر، نُسي وجوده في المنزل، كان على النساء إذا رغبن في شعر أنيق، أن يتحملن كلفة الذهاب عند «الكوافور» الذي صارت أجرته أيضاً خيالية، بعد إضافة رسم محروقات

ومولّد الكهرباء على الفاتورة.

المكواة، المايكرويف، المكنسة الكهربائية.. أجهزة وُضعت جانباً وأكلها الغبار.

انعدام الكهرباء في المدينة سببه تضرّر المحطة الحرارية، المولّدة المركزية للكهرباء بسبب الحرب وخروجها عن العمل، وعدم التوصّل إلى سبيل لإصلاحها. إذ كانت تقع في منطقة تسيطر عليها قوات (معارضِة) مسلحة إسلامية، تشترط إعادة التيار الكهربائي للريف الحلبي قبل السماح للتِقَنيين بالدخول لإصلاح أعطال المحطة الحرارية التي تغذّي المدينة. كانوا يقولون: «إما أن يضاء الريف مع المدينة أو فليبقَ الكلّ في الظلام». وهكذا كان، تخبّط الجميع في الظلام، وانتقلوا من الظلام إلى الأشدّ ظلمة.

انعدام التيار سبّب أيضاً الشلل لمضخات شركة المياه التي تضخّ الماء في الأنابيب إلى البيوت. وبالتالي فإن المياه لم تعد تصعد إلى حنفيات السكان، صار عليهم هم أن ينزلوا إليها بالدلاء والأباريق والعبوات البلاستيكية (بيدونات) للتموّن من أي بئر قريب أو حنفية منخفضة المستوى بما يكفي حاجة العائلة ريثما تحلّ المشكلة. وعندما طال الانتظار، صار الناس يشترون المياه من صهاريج خاصة، عَمِل أصحابها على تعبئة الخزانات مقابل أسعار باهظة أيضاً، يدفعها الناس مرغمين، ومغامرين بدرجة نظافة المياه ومدى صلاحيتها للشرب أو حتى لغسل الأطباق والأواني.

لم تكن تلك الأسباب هي الوحيدة لاكتئاب رنين، بل لأنها أيضاً اشتاقت لولديها اللذين لم تستطع التواصل معهما بشكل جيد في الأيام الأخيرة، وذلك لضعف شبكة الإنترنت التي كانت تستخدم من أجل الاتصال بها شريحة 3G داخل هاتفها الجوال، بعد توقّف خدمة شبكة «الواي فاي» أيضاً بسبب تضرّر محطة البث بعد أن أُطيح بها وسرقت أجهزتها خلال الحرب.

كريم وجود، أقول عندما أتحدث عنهما أنهما ولدا أختي. ولكن حين أفكّر بهما، أشعر في قرارة نفسي أنهما ولداي أنا أيضاً، إنهما ولدانا جميعاً.

حين أعلمتنا رنين أنها حامل بكريم، تغيّرت الحياة بالنسبة إليّ. تلك اللحظة كانت أحد المفاصل المهمّة في حياتي، والتي لم تفقد أهميتها مع مرور الزمن لأنني لم أنجب طفلي الخاص، وبقي كريم طفلي الذي غيّر قدومه إلى الحياة حياتي، مثله مثل من تبعه من الأولاد. أخوه جود، وكارلو ابن نور، وأخته ميلسيا آخر العنقود والأنثى الوحيدة التي جاءتنا بعد ثلاثة من الذكور وسلبت لبّنا بأنوثتها الطفولية وجمالها وخفّة ظلّها.

لم يكن حدثاً عادياً أن تصبح رنين أماً، كما لم يكن حدثاً عادياً أن تصبح زوجة، ومن قبلها حبيبة لغالي، ومن قبل ذلك صبيّة جميلة بدأت بالتفتّح على الحياة بأنوثة شهيّة وقوام جميل وابتسامة أخّاذة.

كلّ الأحداث في حياة رنين لم تكن بالنسبة إليّ أحداثاً عادية، لأن رنين بحد ذاتها، لم تكن في حياتي شخصاً عادياً. كانت توأمي الذي يكبرني بثلاث سنوات، وحبيبة قلبي الأولى، وصديقتي الأقرب ومعلمتي الذكية الحكيمة ومحطّ إعجابي.

عندما غادَرَتْ رنين أسوار حديقة الطفولة وخَرَجَتْ إلى حقول الحياة كصبية جميلة، شعرتُ بالغيرة من السنوات التي اختطفت مني رفيقة عمري. لم أستطع وقتها أن أجاريها، وغضبت منها لإقصائها إياي وتفضيلها صحبة صديقاتها المائعات (كما كنت أراهنّ) على صحبتي.

أما هي، فقد كانت سعيدة بالتحرّر مني، ومتحمّسة للتخفّف من الذيل الذي لازمها منذ أن ابتليت به وهي في عامها الثالث. كانت تحبني كما تحب أي قطعة من جسدها أو روحها، لكنها في هذا العمر كانت تحب حريتها أكثر، كيانها المستقل، الذي كانت مستعدة من أجله للتضحية بقطعة من روحها.

أعطيتها حريتها لكن بحدود، صار لكلّ منّا صديقاتها الخاصات بها، لكنني وصديقاتي، بقينا نحوم حولها وحول صديقاتها. وبعد عمر معين، صارت صديقاتها صديقاتي، وصارت صديقاتي صديقاتها، وعادت مساراتنا لتندمج ثانية.

عندما بدأت مغامراتها العاطفية الطفولية كأي مراهقة فضولية لاكتشاف أسرار الحياة، كانت تحكي لي عن الشبّان الذين يحومون حولها، وأولئك الذين تتمنى لو أنهم يحومون. وكنت أعطيها رأيي كصديقة حكيمة بكل واحد على حدة، هذا لطيف لكن غبي، هذا وسيم لكن منافق، وهذا خفيف الظل لكنه مائع. كنت أحاول أن أكون حيادية أمامها، لكنني في قرارة نفسي كنت أكرههم جميعاً.

عندما ظهر غالي في حياتها، كانت قد قطعت مرحلة المراهقة بسنوات. كانت تعرفه منذ الطفولة بحكم كونه شقيق صديقتها التي زاملتها من أول سنة دراسية ابتدائية وحتى البكالوريا. شرارة الحب قدحت عندما كانا يلتقيان في الطريق إلى الجامعة، حيث كانا يدرسان في كليتين متجاورتين، هو في الحقوق وهي في الاقتصاد.

هو كان في سنته الأخيرة، وهي في السنة التي قبلها. كانت تعجبها في البداية وسامته الفطرية وطريقة نقاشه الراقية وخلفيته الثقافية المبهرة ووعيه العميق، إذ كان هو أيضاً من هواة المطالعة وقد

تتلمذ مثلنا بين دفّات الكتب، وصرف زمناً طويلاً من طفولته ومراهقته وأول شبابه بتسلق رفوف المكتبات مرتقياً شيئاً فشيئاً نحو الأدب الأسمى فالأرقى. وقد سبقنا في إبحاره في عوالم المعرفة إذ عرّج بطريقه على كتب التاريخ والسياسة التي لم تكن تستهوينا في أول سنوات عمرنا.

تطوّر الإعجاب إلى حب، حين شَعَرَتْ رنين بالصاعقة التي ضربته تنعكس منه باتجاهها، محققة صيداً «كيوبيدياً» موفقاً بتطويق القلبين الشابين بإشعاع واحد.

وحين حكت لي عن حبها الجديد فاجأتني بداية، فقد كنت أعرف الشاب وأحترمه ولم أتوقّع أبداً أن يكون ضمن دائرة الشبان المعجبين بأختي، أو واحداً من أولئك الذين كانوا يعجبونها. كان يكبرها فقط بعامين، لكنه كان يبدو أكبر، نسبة لشلة أصدقائه التي كانت تضمّ فتيات وشبان يكبرونه في العمر، لكنه كان يجاريهم نضجاً بل ويفوقهم وعياً.

فرحتُ به، وارتاح قلبي للحب الجديد الذي دخل قلب أختي، وأحسست فوراً بثقة كبيرة تجاه هذا الشاب الذي لم أكن قد احتككت به جيداً بعد، لكني حدست أنه شاب من عالم آخر، أقرب إلى عوالمنا من الآخرين، يحلّق معنا في سمواتنا، وكثيراً ما يكون تحليقه خارج السرب.

الحب الذي ولد بين رنين وغالي، تجايل مع الصداقة التي ولدت بيني وبينه. لم أرحم المسكينة من هيمنتي الأخوية حتى في قصة حبها، إذ كثيراً ما كنت أرافقهما في نزهاتهما وبرامجهما بدعوة صادقة منهما، حيث كنّا نقضي معاً وقتاً رائعاً، نتناقش في مواضيع مختلفة، جريئة ومشوّقة، لم نكن نستحسن ولا نستمتع بمناقشتها مع أصدقاء آخرين. ويوماً بعد آخر، زادت قناعتي أنني أسلّم صديقة عمري وتوأم روحي إلى أيدٍ أمينة.

مرت علاقتهما بالمراحل المعتادة لأي علاقة حب، حتى وصلت إلى العقدة التي تصل إليها علاقات العشّاق في حلب على وجه الخصوص. حين انتشر خبر العلاقة بعد أن شوهدا معاً في أكثر من مكان، ووصل الخبر للأقرباء والمعارف الذين بدؤوا كالعادة يتساءلون، وكان على الأهل أن يردّوا بإجابات تحفظ ماء وجههم، ووجه ابنتهم الصبية.

وقعت رنين كأي فتاة في وضعها، في مأزق حرج، لم تعرف بمَ تجيب أهلها، لأنها وحبيبها لم يناقشا فكرة الزواج بعد، نسبة لصغر عمريهما ولعدم استقرار الظروف المادية للطالب الذي كان على وشك التخرج.

كانت تأنف أن تبادر هي بفتح الموضوع، فتبدو كمن يعمل على اصطياد زوج. ومن جهته،

كان غالي غير ملمّ بما يدور من أحاديث في بيوت الأقرباء والمعارف، ولم يشعر بمعاناة حبيبته التي اعتادت أن تصارحه بكل شيء بوضوح تام.

حين ازداد الضغط على رنين، قرّرت فجأة أن تنهي العلاقة، وحين جنّ جنون الشاب العاشق ليعرف السبب، أرسلت له رسالة قصيرة، أوضحت له فيها موقفها، وعرضت عليه استعدادها بأن يلتقيا سراً، ريثما يصبح الزواج موضوعاً قابلاً للنقاش.

وأثمرت الرسالة موسماً مباركاً، فبعد صدمة صغيرة، وتردّد قصير، لم يحتمل غالي أن يفقد الفتاة التي ملكت قلبه، فاصطحبها إلى مكتب والدها، وعرّفه إلى نفسه، مضيفاً بأنّه يحب ابنته ويريد أن يتقدّم لخطبتها.

وتمّت الخطبة، وبعدها بحوالى ثلاث سنوات تمّ الزواج. وبدأ الشابّان حياتهما المشتركة في بيت صغير لا تتجاوز مساحته 45 متراً مربعاً. ذلك البيت الحميم كان أشبه بالمنتدى الذي يجمع الأصدقاء في سهرات دافئة ومرحة، كما صار بديكوره البسيط والمميّز وموسيقاه الجميلة الصادحة دائماً بين أرجائه بيتي الثاني، فصرت أقضي فيه وقتاً أكثر من الذي أقضيه في بيتي الأصلي، خصوصاً بعدما ولد كريم.

بعد سنتين من الزواج، أهدى رنين وغالي إلى العالم بشكل عام، وإلى عالمي أنا بشكل خاص، أجمل كائن تكوّن منذ فجر الخليقة. كريم الذي أُعطي اسم جده، بدأت علاقتي به منذ اليوم الأول الذي اكتشفنا فيه الحمل. وقد أعطي اسماً وكياناً حين اكتشفنا عبر تصوير الإيكو أنه ذكر، حيث صرنا نناديه ونتحدّث إليه، ونشتري له ألعاباً ومختلف أنواع الملابس، من البيجامات إلى مايوهات السباحة وصولاً إلى الجوارب، الجوارب الفاتنة الفائقة الصغر والحلوة الألوان.

عندما ولد، كان شيئاً وردي اللون نابضاً بالحياة والجمال. تسلّلت بصمت حين أدخلوا رنين إلى غرفة الولادة، وبقيت معها ممسكة بيدها، متحدّثة إليها، ضاحكة تارة وصارخة طوراً، إلى أن انفجرت اللحظة العجيبة المباركة، وظهر رأسه الوردي الحبيب، وانزلق من بعده جسده الصغير، وملأ صوت بكائه الغرفة فرحاً. فمنح العالم معنىً جديداً.

بكيت تلك اللحظة أحلى دموع حياتي، وهَمستُ في أذن رنين أطمئنها وأنا أضحك وأبكي:

ابنك أشقر، تطمّني.

رنين الجميلة السمراء، التي كانت سمرتها أهم أسرار جاذبيتها، نشأت على اعتقاد رائج في

شرقنا، أن البشرة البيضاء هي أهم معايير الجمال. وقد تكرّست عقدتها لدى ولادتي ببشرة فاتحة نسبياً، وشعر ذهبي، سلب ألباب أفراد العائلة الذين كانوا لا يتورعون عن التغزّل به أمام الطفلة السمراء غير آبهين بمشاعرها الطفولية.

حين أنجبت رنين ذكراً أشقر، أحسّت في لاوعيها أنها انتقمت من الحياة، وأخذت منها ما كان ينقصها لتصبح مكتملة الكيان، مكتملة الثقة بالنفس.

وقد أطلّ جود علينا بعد سنتين، بنفس الطلّة الوردية الشقراء، ما أضاف إنجازاً جديداً صار موضع فخر رنين وكل أفراد العائلة.

حين نشبت الحرب في حلب كان كريم قد أكمل عامه العشرين منذ أيام عدّة، وقبل هذا بشهور، كان قد اغتيل أمام عينيه، ابن المفتي أحمد حسون الذي كان طالباً في جامعته نفسها، حين قامت جماعة من المسلحين بإطلاق الرصاص عليه بينما كان واقفاً مع بضعة زملاء له أمام مبنى الجامعة.

وبعد أن حوصرت حلب واشتعلت الحرب في كثير من نواحيها، صارت كل المشاوير محفوفة بالمخاطر. كان رنين وغالي يعانيان مع الشابين اللذين كان من المستحيل استبقاؤهما في البيت، ومن المرهق للأعصاب انتظار عودتهما عندما كانا يخرجان، في مدينة موحشة لا ينير شوارعها المظلمة وليلها البهيم إلا قذائف عشوائية قد تسقط في أي لحظة في أي مكان.

قبل أن تستوطن الحرب مدينتنا، كان التيار الكهربائي يفصل عن أحياء المدينة بالتناوب لساعات عدة في اليوم ضمن برنامج تقنين. في تلك الساعات، كنا نستطيع أن نلمح في الآفاق البعيدة من المدينة، أشباح أنوار تضيئ سماء الليل. أما بعد، فقد كان يوم لست أنساه، قطع فيه التيار عن حلب كلها دفعة واحدة في ليلة غير مقمرة، عندما أصيبت المحطة الحرارية وتوقفت عن العمل. كنت في بيتي عندما داهمني الظلام، ظننته انقطاعاً عادياً فخرجت إلى الشرفة لأحصي عدد الشوارع التي شملها. فاجأني عتم كتيم يحدق إليّ بدون عيون، وداهمتني رائحة بارود واحتراق، وتناهى إلى سمعي صوت إطلاق رصاص بعيد يشق السكون الرهيب، ودوي قذائف متفرقة بين الفينة والأخرى. حدّقت بدوري إلى الليل الأعمى الأخرس إلا من حوار النار والدمار. الليل الذي ابتلع مدينتي الجريحة التي اعتادت البهرجة والدلع. وسالت دموعي بألم من يعانق حبيباً ميتاً، وتمتمت بصوت مسموع: لقد اغتيلت حلب. وتذكرت قصيدة بلقيس لنزار قباني: «شكراً لكم، شكراً لكم، فحبيبتي اغتيلت، وصار بإمكانكم أن تشربوا كأساً على قبر الشهيدة».

صار ضرورياً للشبان أن يغادروا هذه المدينة الميتة، ليعيشوا.

في هذه الفترة، توقفت الهواتف الخلوية عن العمل لفترة طويلة، فلم يعد بإمكان أحد أن يطمئن على من يخصّه لدى سماع انفجار قريب، ما زاد التوتر والإرهاق العصبي لأمّهات الشبّان اللواتي كانت رنين واحدة منهن. خصوصاً بعدما بدأت دوريات الشرطة تلتقط الشبّان الذين لا يحملون وثائق تثبت أنهم مؤجّلون مؤقتاً من الخدمة العسكرية لكونهم طلاباً جامعيين.

صار من الضروري للشبّان أن يحتفظوا بجيوبهم أينما ذهبوا بـ «دفتر العسكرية» وهو الوثيقة الرسمية التي تثبت تأجيل خدمتهم أصولاً، لإبرازه للدورية في حال مصادفتها. وقد حدث أن نسي كريم مرتين أن يحمل ذلك الدفتر معه، واقتيد إلى المخفر حيث استطاع الاتصال بوالده، الذي سارع إلى إحضار الدفتر المطلوب لتحرير ابنه.

في مرة ثالثة أوقفته دوريّة من تلك الدوريات، فأبرز لهم الدفتر الذي كان هذه المرة بحوذته، لكن لسوء الحظ، كان العناصر الثلاثة أميّين، لم يستطيعوا قراءة ما كُتب في الدفتر، فاصطحبوا الشاب إلى المخفر مع حفنة أخرى ممن التقطوهم مثله في طريقهم، حيث اطّلع الضابط الأعلى رتبة هناك على وثائق الشبان المغتَنَمين، وأُطلق سراح من ثبت تأجيله رسمياً منهم مثل كريم.

وقد نجا الشاب مرتين من قذائف هاون مصدرها القسم الشرقي من المدينة، انفجرت على مقربة منه. مرة عندما كان في أحد المقاهي القليلة التي بقيت مفتوحة لاستقبال الزبائن في حي العزيزية، يلعب الورق مع ثلاثة من أصدقائه. حيث اقتحمت القذيفة الطابق الذي يعلو المقهى مباشراً، مما اضطر الشبان من هول الصدمة، للانبطاح أرضاً تحت الطاولات، خشية الإصابة بشظية ما من زجاج المقهى الذي تحطم وتناثر في كل الاتجاهات. المرة الثانية حين كان يقف في شارع قريب من بيته مع صديق له يتبادلان الحديث في انتظار صديق ثالث، جعلتهما هذه القذيفة الأقوى عياراً من الأولى ينبطحان أيضاً أرضاً، ويخبئان رأسيهما بأذرعهما، ريثما يهدأ الغبار وينقشع الدخان. ولما عاد الشابان إلى منزليهما، سمعا لاحقاً أن والد صديق لهما مقيم في الجوار قد قتل متأثراً بشظية أصابت رأسه جراء تلك القذيفة. يومها، دخل كريم إلى غرفته وحبس نفسه فيها مصدوماً، وخرج في اليوم التالي وأعلن لوالديه قراره:

سأغادر حلب.

عندما ناقش والديه بقراره، كنت هناك، سمعته يقول:

أنا لا أستطيع أن أبقى حبيس المنزل، وفي الوقت نفسه صرت أخاف

من الخروج. أنا لست جباناً لكنني لا أريد أن أموت بقذيفة أو رصاصة طائشة. من أجل ماذا يموت هؤلاء الناس؟ أنا لا أريد أن أموت من دون سبب، لا أريد أن أموت من أجل قضية لا تهمّني، أنا لم أختر هذه الحرب، فلماذا أكون ضحيتها.

هل تستطيع أن تتحمّل مسؤولية الحياة بمفردك في بلد غريب؟ سأله أبوه.

نعم سأستطيع.

اسمعني إذاً، وأنت أيضاً يا جود إذا كنت تفكر بالطريقة نفسها، أنتما لم تعودا طفلين، وتعرفان ظروفنا المادية، أنا لا أستطيع أن أنفق على دراستكما في بلد أجنبي، عندي مبلغ متواضع في البنك سأقسمه بينكما، سيكفيكما لمصاريف السفر، وللإقامة والمعيشة لشهور معدودة، بعد ذلك، سيكون عليكما أن تعملا لتنفقا على دراستكما وتأمين معيشتكما، هل تظنّان أنكما تستطيعان القيام بذلك؟

كريم، وبنصيحة من أحد أصدقائه المقيمين منذ مدة قريبة في الولايات المتحدة الأميركية، راسل جامعة هناك، معرباً عن رغبته بالتسجيل فيها، طالباً مساعدتها في الحصول على فيزا دراسية لدخول أميركا. ونظراً لإجادته التامّة للّغة الإنجليزية التي اكتسبها عبر سنوات من الدوام في أقوى معاهد تعليم اللغات في حلب، فقد قُبل طلبه بعد مقابلة أُجريت له عبر السكايب مع إحدى موظفات الجامعة المعنية، وقد أرسلت الجامعة كتاب توسّط باسمه للسفارة الأميركية في الأردن، حيث ذهب وقدّم جوازه الذي مُهِر بالفيزا الأميركية التي تعتبر حلماً خيالياً لآلاف الشبّان الباحثين عن المستقبل.

طار إلى نيوجيرسي بعد عدة أسابيع، أتمّ تسجيله في الجامعة، ووجد عملاً كمساعد في متجر للهدايا والتذكارات بمساعدة صديق قديم لوالده من أبناء الجالية السورية في أميركا. استأجر غرفة صغيرة بحمام مشترك، وبدأ حياته منها في بلد يقع في أقاصي الأرض بالنسبة إلى مدينته الأم.

أما جود، الذي حوصرت المدينة قبل أن يتبلوّر مخططه، فقد اقتنع بالذهاب إلى بيروت للتسجيل في كلية الحقوق هناك. وقد غادر حلب بمغامرة كوماندوسية، حيث أمّن صديق له عبر معارف والده، مقعدين لهما في هيليكوبتر عسكرية تغادر مطار حلب نحو مطار دمشق. كان عليهما أن يصلا إلى مطار حلب صباحاً، وأن يبقيا في انتظار حلول الليل. وخوفاً من استهدافها من قبل الميليشيات المسلّحة التي تنتشر على مسافات قريبة من المكان، أقلعت الطائرة المروحية المطفأة الأنوار بهما تحت جنح الظلام وهي تحمل معهما عدداً من العساكر بينهم بعض المصابين.

بمجرد وصوله بيروت، أتمّ تسجيله في كلية الحقوق، وقد ساعده بعض من معارف والده اللبنانيين بإيجاد عمل كموظف أمن في شركة بدوام ليلي.

لم يكن الطموح يقف عند هذا الحد بالنسبة إلى ابن التاسعة عشرة، الذي صار رجلاً بين يوم وليلة، وأمضى شهوره الأولى في بيروت مقيماً في صالة فارغة تابعة لإحدى الكنائس هناك، موزّعاً وقته بين الكليّة والعمل، بابتسامة رائعة لم تكن تفارق وجهه الجميل. وجد جود خلال بحثه في مواقع خاصة عبر الإنترنت إعلاناً من الجامعة الأميركية في بيروت عن منحة خاصة ستقدّم لبضعة طلاب عرب بعد اجتياز اختبار معيّن تخولهم الدراسة على حساب الجامعة مع تأمين مصروف وإقامة في المسكن الطلابي الخاص. سارع بتقديم أوراقه في الموعد المحدّد، واجتاز الاختبارات المطلوبة بمساعدة لغته الإنجليزية السليمة وذكائه الحاد بتفوق لافت، وقُبِل ضمن المنحة المعلن عنها مع بضعة شبان آخرين على حساب مئات المتقدمين، انسحب من كلية الحقوق التابعة لجامعة بيروت العربية، وترك عمله كحارس أمن ليلي، وسلّم مفتاح الصالة للقائمين على الكنيسة، وانتقل إلى غرفة مشمسة حديثة تطلّ على شاطئ جبيل الخلاب، إذ صار رسمياً طالباً في الجامعة الأميركية في قسم فنون الإعلام.

نجح الاثنان في النهاية بتأمين نوع من الاستقرار لبدء حياة جديدة، لكن طريقهما لم يكن معبداً بالورود منذ الوهلة الأولى، إذ استغرق الأمر شهوراً كثيرة عصيبة، عانى فيها الشابان المدلّلان معاناة قاسية، وتحمّلا برجولة آلام الغربة والحرمان بعد حياة عاشاها في كنف عائلة أغدقت عليهما الحب والرعاية، وأمّنت لهما كل أسباب الرفاهية التي كان من الممكن تأمينها في ذلك الزمان.

في خضّم الفرحة الكبرى بنجاة الابنين الغاليين ووصول كل منهما إلى بَرّ أمانه، وتدبيرهما لأمورهما كأفضل ما يمكن، بدأت الأم التي فرغ بيتها فجأة من الحياة التي كانت تعجّ وترقص وتصرخ وتضحك فيه، بدأت تشعر بالوحشة، وبالشوق لولديها اللذين اضطرهما الزمن أن يصيرا رجلين في غفلة منها وبعيداً عنها.

قالت لي وهي تبكي:

أنا أعرف أن مصير كل الأولاد أن يتركوا بيوت أهاليهم يوماً، ليطيروا إلى حياتهم الخاصة، لكني لم أتوقّع أن أواجه هذا اليوم بهذه السرعة وبهذا الوقت المبكّر. ما زالا صغيرين! لقد كانا يلعبان هنا عشيّة السفر، لم أعاصر تحولهما إلى رجلين، لم أشبع منهما، أشعر أنه كان عليّ أن أقوم بكثير من الأشياء من أجلهما. صغيراي العزيزان، رجلاي الصغيران، أشتاق إليهما كثيراً.

وبكيت معها، وأنا أتخيّل الغرفة التي كانت تعبق بالفوضى والحياة، مرتبّة خاوية وباردة. والثياب التي كانت مبعثرة دائماً في كل الأرجاء، مطوية ومستقرة على رفوف الخزائن التي لم يعد يفتحها أحد، اللهم إلا أم ملتاعة القلب تحشر وجهها بين القمصان وتشمّ رائحة الكنزات النظيفة المهجورة، وتبلّلها بدموعها.

في الفترة الأولى من سفر الولدين، وأثناء معاناتهما وتخبطهما كل في غربته، كنت أتصل برنين لأطمئن عليها، فتقول لي:

أنا لا بأس بحالتي، لكنني خائفة على غالي!

ما خطبه غالي؟ أين هو؟

هو هنا في غرفة الأولاد، يبكي!

كان الأب فضلاً عن شوقه، خائفاً على ولديه. تجتاحه لحظات من ندم فظيع لتركهما يغادران وحدهما، ويستحوذ عليه في لحظات أخرى شعور بالعجز وشعور بالذنب تجاههما لأنه لم يستطع أن يزودهما بكمية أكبر من المال توفّر عليهما المعاناة. شعور كان يقوده لآخر، وأسئلة ملحّة كانت تطارده وتعذّبه ليل نهار. «هل ارتكبت خطأً بسماحي لهما بالمغادرة وهما في هذه السن، أم أن هذا أفضل لمستقبلهما؟ هل سيكونان بخير؟ أم سيضيّعان حياتهما بطيش وصبيانية؟ هل هما سعيدان؟ أم أن المعاناة قد قصمت ظهريهما الطريين؟ هل كان عليّ أن أتصرّف بشكل مختلف في حياتي ومهنتي

لأؤمن ثروة أكبر لأولادي؟ أم أنني فعلت الصواب وأعطيتهما مثالاً صالحاً؟ هل يستفيدان الآن في هذه الظروف من المثال الصالح أم أن رصيداً محترماً في البنك كان سيفيدهما أكثر؟».

ولم يتحسّن وضعه إلا بمرور الأيام، كثير من الأيام، التي حملت معها شيئاً من الاستقرار لأوضاع الشابين، انعكس إيجابياً على نفسيّة والدهما وبالتالي والدتهما، التي انخرطت لتنسى همومها بعمل تطوعي لصالح جمعية كاريتاس الخيرية العالمية، التي فتحت لها فروعاً في دمشق وحلب بهدف مساعدة المتضررين من الحرب، الذين كان عددهم يتضاعف يوماً بعد آخر حتى شمل في النهاية كل السكان الباقين في المدينة.

تغيّرت نفسية رنين وتحسّنت كثيراً. لم يعد عندها متسّع من الوقت للنواح فوق قمصان الولدين، صار وقتها موزعاً بين توزيع المعونات والأدوية على الناس في مقر الجمعية، وبين القيام بزيارات للبيوت لمعاينة أوضاع طالبي المعونة عن قرب، إذ كانت الطلبات كثيرة والميزانية محدودة. ولمّا كان الكل محتاجاً، كان عليهم أن يميّزوا بين المحتاج وبين الأكثر حاجة، حسبما تسمح الميزانية.

لقد دمّرت هذه الحرب اللعينة البشر. قالت.

في زياراتها الأولى للبيوت، كانت تعود باكية ومعتصرة القلب، واستغرق الأمر أسابيع عدة حتى اعتادت السماع لمآسي الناس الذين نهشت الحرب أرواحهم ودمّرت ممتلكاتهم.

كانت تقول لي:

عندما أحدّق إلى الجموع التي تحتشد وتتدافع عند توزيع المعونات وألمح بينهم أناس من علية القوم، ومن أرقى وأغنى عائلات حلب، أدرك أن شعباً كاملاً تحول إلى مجتمع من الشحاذين، وأدعي في داخلي بحرقة قلب «الله يذل اللي ذلنا»!

اطلاعها على معاناة البشر، خفّف عنها ألم معاناتها أيضاً، بل أنها صارت تشعر بالخجل من نفسها، وتشكر الله الذي خصّها بهذا النوع من المصاب الذي يبدو تافهاً أمام مصائب الأخرين.

وتحت ضغط شظف العيش في كنف الحرب، وتحت إلحاح أصدقاء لهما هاجروا إلى كندا مع بداية الأحداث، قرر غالي ورنين بالاتفاق مع نور وفراس، الذهاب إلى بيروت وتقديم طلب في

مفوضية الأمم المتحدة هناك للجوء إلى كندا، لكن غالي غيّر رأيه بعد أيام عدة، إذ أرعبه المصير المنتظر في بلد المهجر ذاك، وفكّر بالمهنة التي سيكون عليه أن يمارسها هناك، وهو المحامي الذي يتمتّع بسمعة طيبة في حلب ومركز مرموق. عزّ عليه أن يتحول إلى صبي (ديلفري)، يوزع البيتزا على البيوت، وهو في هذه السن وهذا المركز المهني والمستوى الثقافي. أجّل الموضوع إلى أجل غير مسمى، مفضلاً البقاء تحت سقف الحرب على الخوض في مغامرة غير معروف سقفها ولا قرارها. ومثله فعل فراس، الذي كان مستقراً في اللاذقية منذ سنتين.

نور أيضاً، التي كانت تشعر بالغربة حتى وهي في اللاذقية، لم تكن متحمّسة لفكرة الهجرة إلى كندا، رغم أن كل أصدقائها كانوا قد سبقوها إلى هناك. فراس كان يقول لها إن لا مستقبل للأولاد في هذه البلاد، وكانت مقتنعة بكلامه، مقتنعة أنها لن تستطيع العودة إلى حلب في القريب المنظور، ومقتنعة أن اللاذقية رغم كونها محافظة في سوريا، إلا أنها ليست بلدها ولا تنتمي إليها، تشعر بالغربة دائماً وتفكر أنها فترة انتقالية وحسب، ولكن انتقالية إلى ماذا؟ وإلى أين؟ لم تكن تعرف إجابة عن هذا السؤال.

عندما ولدت نور، كنت في العاشرة من عمري، فرحت بها جداً، رغم أنني كنت كبقية أفراد العائلة، في انتظار أخ ذكر ليوسف الذي كان قد بلغ عامه الرابع. بقي يوسف وحيداً، لم يأتِ الذكر، عوضاً عنه جاءتنا هذه الأنثى الشقراء الجميلة الطويلة القامة منذ ولادتها.

عندما بدأت تخطو خطواتها الأولى في الحياة وتكرج خلف أخيها في حقول الطفولة، كنت أتبختر ورنين نحو أولى سنوات مراهقتنا وشبابنا، بأنوثة خجولة وأحلام جريئة. يوسف ونور كانا بالنسبة إلينا الطفلين اللذين اقتحما بيتنا في توقيت غريب، إذ كنا أكبر من أن نستطيع مجاراتهما في طفولتهما كقرينتين لهما، وأصغر من أن نحتويهما بالحنان والرعاية كأمّين لهما. كثيراً ما كنا ننزعج من حركاتهما الصبيانية، وصخبهما وفوضاهما الطفولية التي لم تكن لتنسجم مع مزاجنا المراهق. في السنوات الأولى كنا نشعر بهما دخلاء على عائلتنا الرباعية ذات الطقوس المحبّبة التي ألغي العمل فيها بمجرد قدومهما الواحد تلو الآخر، لكننا في السنوات التالية، تعوّدنا وجودهما كشقيقين أصغرين ولكن من جيل مختلف وعالم مختلف وأفق مختلف. إلى أن كبرا فجأة، كبرا في غفلة عن جيلنا وعالمنا وأفقنا، كبرا في حين نسينا نحن أن نكبر، كنا نراوح في أماكننا معتقدتين أن الحياة ستنتظرنا هناك للأبد تحت النافذة.

يوسف الذكر الوحيد وولي العهد، قسا عليه أبي في أحيان كثيرة أكثر من المطلوب، خوفاً من السقوط في فخ المجتمع الذي يمنح الذكر حظوة مميزة ومكانة أكبر من التي كانت للإناث. وكتعويض

منه عن الدلال والوله اللذين كانت نساء العائلة الكبيرات يخصصنه بهما، والأفكار التي كن يحشينها في رأسه، عمد أبي إلى تكسير أجنحته الصغيرة كي لا يستعمل ذكورته للتحليق فوق رؤوس أخواته الإناث، ما أسكن في لا وعيه قناعة مؤلمة بأنه ظُلم وعُومل بأقلّ مما يستحق، علماً أنه كان طفلاً مميّزاً جداً، بذكائه الشديد وحيويته، ومواهبه الكثيرة، وقدرته على الإبداع في أي عمل يقوم به.

صار رجلاً في رفّة عين، رجلاً متزناً بطبع متفرّد لا يشبه أحداً، شديد الحساسية، مسكوناً بشجن عميق، وشديد التمسك بعالمه الخاص الذي تعدّ الموسيقى إحدى أهم أركانه، الموسيقى الراقية بأنواعها من الكلاسيكية وحتى المعاصرة. تخرّج من كلية طب الأسنان بتفوق، فاشترت له أمي عيادة وجهّزتها بالمبلغ الذي كانت قد ورثته عن أبيها وأودعته في البنك منذ ذلك الوقت في انتظار يوم كهذا.

أمّا نور، التي تعودنا على طول قامتها مُذ كانت رضيعة تحبو، فلم نكن نعتبره علامة نضج حتى عندما صارت في مراهقتها أطول منّا جميعاً (ماما ورنين وأنا)، فقد فاجأتني إلى حدّ الصدمة عندما رأيتها قريباً من المنزل تتمشّى بصحبة شاب أشقر كنت أعرفه منذ كان طفلاً شقياً ولاعباً في فريق الصغار لكرة السلة في النادي الرياضي الذي كنت ورنين منتسبتين إليه أيضاً، والذي أصبحت ترتاده نور بدورها حيث تلعب كلاعبة ارتكاز أساسية في فريق الشابات.

كنت عائدة من عملي في ذلك المكتب السياحي حينذاك حين ضبطتهما متلبسين. كان يرافقها كرجل مهذّب وهي بجانبه بدت خجولة وهادئة. لم أتمالك ضحكتي التي تلت دهشتي الكبيرة، حييتهما بحماس، وفاجأتهما أيضاً فضحكنا سويّة، وعرفت يومها أن أختي الطفلة قد صارت فجأة صبية.

ذلك الشاب كان فراس، الذي اكتشف أنوثة نور وأحبها وجعلها مركز كونه، حين كنّا نعتبرها مجرد طفلة العائلة ودميتها. وبقي فراس مخلصاً لاكتشافه وصار فخوراً به حين تحولت الطفلة بمر السنين امرأة رائعة الجمال فارهة الطول نابضة بالحياة وفرح الشباب.

فراس ابن العائلة الميسورة التي كان رجالها من أبيه وأعمامه يعملون في تجارة قطع الغيار، والذي كان يصغرني ببضعة أعوام، تحوّل بدوره من صبي شقي خفيف الظل ومحبوب، إلى رجل رائع بكل المقاييس، مع الاحتفاظ بدهائه وخفّة دمه. وتحوّل من الشاب الذي كان يحوم حول أختي الصغيرة، إلى صديق عزيز لي وأخ ظريف، اندمج بسلاسة رائعة مع غالي زوج رنين صديقي الأقدم الذي صار عديله عند زواجه من نور.

ونور بدورها التي دخلت كلية الأدب الفرنسي، صارت امرأة رائعة بغض النظر عن جمالها، مع الأيام تحولت من الطفلة المتطفلة الدخيلة التي ألقت بها أمي في بيتنا بتوقيت سيئ، إلى فرحة

العائلة وأميرتها الظريفة، وصارت شريكة لي ولرنين في صداقتنا الأخوية الجميلة التي هي بالفعل من أغلى الكنوز التي امتلكتها بحظ كبير في حياتي.

نور التي تنتابها نوبات من المرارة والعناد، اعترفت لنا أنها كانت في طفولتها تشعر أنها منبوذة منّا، إذ كانت علاقتنا اللصيقة تبدو لها عصيّة على الانفتاح لضمّ أخت صغرى تحتاج إلى صداقة أختيها الكبيرتين. أشعرنا اعترافها هذا بالذنب، وضاعف من محبتنا لصغيرتنا التي حالت أنانية مراهقتنا من احتوائها بيننا بعمق. تحمّلنا نوبات عنادها الصامت الكئيب، التي سرعان ما كانت تتبخّر لتسفر عن الوجه الجميل والمرح، للأخت التي لم نعد نتخيل حياتنا بدونها.

وبفرح كبير وحب كبير أيضاً، استقبلنا منها أحلى ما في عمرنا من زينة وألق، كارلو المذهل الذكاء والظرف أولاً، ومن ثم آخر العنقود وكل العناقيد ميليسا، التي سلبت بأنوثتها الطفولية الصافية عقولنا، واحتلت مكاناً مميزاً في قلوبنا التي كانت محتلة مسبقاً من قبل أولئك الذكور الثلاثة، كريم وجود وكارلو.

وطن.. غير شرعي

حلّ أخيراً اليوم الذي طال انتظاره، الثاني من أيلول.

الوضع في إسبانيا كان مختلفاً تماماً عمّا كان عليه في النمسا. المقابلة أُجريت لي في مكتب مدني وليس في مخفر للشرطة، ومن أجراها كانت سيدة أنيقة مبتسمة ترتدي تنورة قصيرة وأظفارها جميلة مطلية بعناية، وليس ضابطاً متجهماً. استقبلتني بعد انتظار عشر دقائق في قاعة انتظار كبيرة مكيّفة ونظيفة، جلس معي فيها بغير ازدحام عدد من الأجانب المتعددي الجنسيات، كلّ ببطاقة أنيقة معلّقة على صدره تحمل اسمه ورقمه. ميّزت منهم شابين سوريين، وعائلة عراقية، وكثيراً من المغاربة وبعض الآسيويين. إسبانيا كدولة تعاني من احتقانات ومشاكل اقتصادية، لم تكن تقدّم للاجئين خدمات طويلة الأمد ومغرية، لذلك لم تكن قبلة لهم مثل ألمانيا والسويد، كان يطلب اللجوء فيها فقط من تضطره ظروف معينة لذلك، كالذي يملك عائلة وأقرباء هناك، أو كالذي جاء إلى أوروبا بفيزا صادرة من إحدى السفارات الإسبانية حيث تطبق عليه اتفاقية دبلن، مثل وضعي. لكل هذا كان الوضع مريحاً في مراكز الهجرة واللجوء، ولم يكن الازدحام ضاغطاً.

لم أخضع لأي نوع من التفتيش، جواز سفري طُلب مني في بداية المقابلة وأعيد لي في نهايتها. سألتني الأسئلة ذاتها وأجبتها الإجابات نفسها، أرسلتني إلى غرفة جانبية حيث أخذت بصماتي من قبل موظف شاب. وفي الختام قالت لي:

حسناً، أعطيني الآن صورك الشخصية من فضلك.

الصور؟ هل كان عليّ أن أحضر صوراً؟

طبعاً، من أجل الاستمارات، وبطاقة الإقامة المؤقتة.

آه.. أنا آسفة.. لم أحضر صوراً.

لا تهتمي، اذهبي الآن إلى أقرب كشك وتصوّري، احتاج أربع صور من القياس الصغير. أنا في انتظارك.

خرجت مهرولة للبحث عن كشك للتصوير، وتذكّرت كيف قادني الشرطي في النمسا هو ومساعده إلى غرفة جانبية مليئة بالعناصر، حيث قاموا بأخذ وزني وطولي، ومن ثم ألصقوني إلى جدار أبيض والتقطوا لي أشنع صورة ظهرت فيها في حياتي.

الصورة هذه المرة كانت أفضل بكثير، ظهر فيها وجهي ممتلئاً ووردياً، على إثر الأطباق الإسبانية التي كانت روسيو تطهوها وتدعوني إليها. عيناي فارقتهما نظرة الضياع، بدتا تبرقان حباً وحماسة، لكنهما ما زالتا متعبتين، ومنهكتين.

عدت إلى مركز الهجرة واللجوء، سلّمتهم الصور، واستلمت بعد دقائق بطاقة صغيرة تحمل صورتي الجديدة. وأُعطيتُ موعداً بعد أسبوعين، لأسلّم جوازي السوري واستلم البطاقة الحمراء التي هي عبارة عن بطاقة إقامة مؤقت لستة أشهر، يحقّ لي بعدها العمل، على أن أنتظر شهوراً أخرى، لأحصل على إقامة طويلة تمتد من خمس إلى عشر سنوات، يكون بإمكاني وقتها مغادرة إسبانيا إلى أي مكان في العالم، ما عدا سوريا!

بعد أن استلمت البطاقة المؤقتة، طلبت مني السيدة أن أوقّع على أقوالي. وبعدما سحبت الأوراق الموقّعة، نظرت إليّ بابتسامة كبيرة وقالت:

حسناً هذا كل شيء، شكراً لك، حظاً سعيداً، نراك بعد أسبوعين.

شكراً لك سيدتي.

بابتسامة أكبر ودّعتها وخرجت من مكتبها وأنا أسأل نفسي، ماذا بعد؟ ألن يستلموني كلاجئة؟ ألن (يلقوا القبض عليّ) ويقودوني إلى المخيم بسيارة شرطة كما فعلوا معي في النمسا؟ هل أنا هنا هاربة من الحرب جاءت لتقديم طلب لجوء إنساني أم أنني امرأة أنيقة جاءت لتقديم طلب انتساب إلى نادٍ رياضي أو صحي؟

فكرت بماريو، وسألت عنه في كوة الاستعلامات، فطلبوا مني الانتظار لبضع دقائق قبل أن

يدخلوني إليه. بعد أن حييّته وذكّرته بنفسي سألته:

لقد قلت لي في المرة السابقة أنه بمجرد إجراء المقابلة، سيكون من حقي أن أحصل على الخدمات والتسهيلات التي تقدّم للاجئين.

نعم هذا صحيح، ما نوع الخدمات التي تحتاجين إليها؟

نظرت إليه بدهشة، هل هذا السؤال منطقي؟ هل يظن أنه يسألني عن نوع الرياضة التي أحب أن أمارسها في هذا النادي؟ البيلاتس، اليوغا أم الأيروبيكس؟! صعب عليّ أن اضطر إلى استجداء مساعدة، لكنني بعد صمت طويل، كان عليّ أن أقول:

أحتاج إلى مكان للسكن.

حسناً، لقد أُدرج اسمك تلقائياً اليوم ضمن برنامجنا، وسأبحث لك عن مكان شاغر في مركز من مراكز إيواء اللاجئين في إسبانيا.

ستبحث؟ وكم يستغرق البحث؟

لست أدري، سأراسل الآن كل المراكز وسأنتظر الرد. بالمناسبة، ألديك مانع أن يكون المركز في مدينة أخرى غير مدريد؟

في الحقيقة لا، مدريد لها الأفضلية بالنسبة إليّ، ولكن إن لم يكن هناك شواغر، فلا أمانع أن أنتقل إلى مدينة أخرى.

حسناً، سأرسل اعتباراً من الآن اسمك إلى كل المراكز المتوفرة في إسبانيا، في مدريد، فالنسيا، وأشبيلية، وسنرى من سيجيبنا بشكل أسرع.

وماذا عليّ أن أفعل الآن؟

اتركي لي رقم هاتفك، وسأهاتفك حالما أوفّق في الحصول على مكان.

كتبت له رقم هاتفي، وأَنِفت من سؤاله عن مكان للمبيت خلال هذه الفترة، لأنني لم أعد أريد أن أسمع الإجابة نفسها مرة أخرى. لكنني فكّرت بمصير الأشخاص الذين لا يستطيعون تأمين مكان للإقامة ولو لفترة قصيرة.

بالنسبة إليّ، فقد كنت مطمئنة طالما كان في حوذتي المبلغ الذي أرسله لي ملاكي الحارس، والذي لم أنفق منه الكثير لأنني قبلت اقتراح إيزابيل وروسيو ودعوة فرناندو، وأقمت في منزله طيلة فترة سفره في إجازته خارج إسبانيا والتي استمرت ثلاثة أسابيع، انتقلت بعدها إلى ذلك الفندق الصغير الذي كنت قد اتفقت معه مسبقاً.

عندما كلّمني جيرارد، وحكيت له ما حصل، عرض عليّ أن أصرف النظر عن انتظار جواب ماريو، وأن أبحث عن أستوديو أو شقة صغيرة في مدريد لاستئجارها والاستقرار فيها بتمويل منه طبعاً. أفرحني عرضه، إذ شعرت أن التزامه بمسؤوليات كهذه تجاهي، أمر يدل على ارتباطه بي ويعزّز من وجودي في حياته، لكنني، وجدت العرض أسخى وأكبر من أن أقبله هكذا ببساطة.

شكراً حبيبي، يسعدني عرضك، لكنني أفضل أن أنتظر الآن ما دمت أستطيع الانتظار، لربما يأتيني الجواب سريعاً، وحين يأتي الجواب من مركز ما، أفضل أن أحاول وأعاين ذلك المركز بنفسي، إن كان مقبولاً، فسأتحمّل البقاء فيه خلال هذه الأشهر الستة.

وأما إذا كان مريعاً، فلست مضطرة أن تبقي هناك، حبيبتي، لا تخجلي مني، يجب أن تستقري وترتاحي، لتستطيعي أن تواصلي حياتك بانطلاقة جديدة قوية، إن كان وجودك ضمن ذلك المركز مع شريكات لك في الغرفة نفسها سيشكّل ضغطاً نفسياً جديداً عليك، فأنت غير مضطرة لتحمّل ذلك.

أعدك عزيزي، لا تقلق، إن شعرت بأنني غير مرتاحة، سأباشر البحث

عن شقة صغيرة وسأسألك أن تساعدني.

وسأكون سعيداً جداً أن أراك مرتاحة ومستقرة.

اشتقت إليك.

قلتها بدون تفكير، عَبَرت الجملة من روحي إلى شفتي دون المرور في ذهني.

وأنا اشتقت إليك كثيراً، هل تعلمين أنني أمرّ يومياً على دراجتي بطريق عودتي من العيادة في حديقة الساكريه كور، أمرّ كالمراهقين أمام مقعدنا، وأتخيلك جالسة هناك تبتسمين لي.

ضحكت وأنا أتخيّله راكباً دراجته بالشورت الأبيض والخوذة، واشتقت له أكثر:

آه يا إلهي، أنت لا تُصدّق. محظوظ أنت، أنا لا أملك هنا الساكريه كور، لكنني أتخيلك أيضاً في كل الحدائق وعلى كل المقاعد.

Meine kleiner (صغيرتي)، يجب أن تعتني بنفسك، وأن تصفّي ذهنك، لتبدأي بالكتابة.

ممم.. هل أقول لك سراً؟ لقد بدأت فعلاً أخربش منذ بضعة أيام.

يسعدني جداً أن أسمع هذا، هل وجدت الشرارة أخيراً؟

وأنا يسعدني أن تكون أنت أول من يعرف بهذا، نعم، لقد وجدت الشرارة!

وفي قلبي قلت، لقد وجدتك أنت، وقد كنت أنت الشرارة.

كان قد سألني في إحدى جلساتنا على المقعد الخشبي في حديقة الساكريه كور، عن المشهد

الذي أتخليه للحياة التي أحلم بها، فقلت له:

أتخيل أنني في بيت جميل يخصّني، لا حاجة لي أن يكون كبيراً وفخماً، بل أريده أنيقاً وحميمياً ويعبّر عني في كل قطعة منه. أرى نفسي جالسة في زاوية محبّبة إلى قلبي، وأنا أكتب روايتي. وفي المساء، يأتيني حبيبي الذي أعشقه بكأس من مشروب لذيذ، فنشرب نخب سعادتنا وحبنا. وقد نخرج بين الحين والآخر لنزهة هادئة في قلب طبيعة جميلة، أو قد نسهر سهرة صاخبة في مربع ليلي مجنون، وقد نسافر كل فترة إلى بلد لنكتشف العالم، ولننشر حبنا وفرحنا في كل أرجاء الكرة الأرضية.

قبّل يدي وقال:

كم أتمنى أن أحقّق حلمك، وأن أكون فيه، ولكن، ما قصة الكتابة؟

الكتابة هي الهواية والمهنة التي أشعر أنّها تمثلني، لكنني خنتها إذ هجرتها بعد محاولة فاشلة أزهقت ثقتي بموهبتي.

محاولة واحدة؟

في الحقيقة عندي كتابات كثيرة جداً، لكن الجديّة منها كانت واحدة. عرضتها للنشر في دار كبيرة في بيروت، قوبلت بالرفض ونُصحتُ بإجراء تعديلات عليها. لم تقنعني التعديلات المقترحة، كما لم تقنعهم الرواية كما هي، فاكتأبت وفكّرت أن الموضوع يكمن في نقص بالموهبة عندي، إذ إن الكتابة فنٌّ لا يجيده إلا الموهوبون. لكن أحد الأصدقاء المثقّفين المطّلعين شرح لي أن الموهبة وحدها حتى في حال

توفرها لا تكفي، إذ يتوجب على الكاتب أن يعمل جاهداً من أجل إنجاز كتاب جيد. واستشهد بعدد من الكتّاب الذين مزّقوا آلاف الصفحات واستهلكوا كثيراً من السنوات قبل أن ينشروا روائعهم العالمية.

هذا الكلام صحيح.

نعم من الناحية النظرية، لكن عملياً، كانت ثقتي بنفسي قد اهتزّت، وفترت حماستي، فألقيت بالرواية المرفوضة جانباً، وانشغلت حتى أذنيّ في عملي في الفندق الذي كنت قد باشرته لتوّي، ما جعلني أنسى أو أتناسى حلم عمري الذي ظلّ يراودني ويعذّبني معاتباً إياي على كسلي وخيانتي.

ومتى كنت تنوين أن تحقّقي هذا الحلم.

كنت أنتظر أن تستقر روحي. كنت أحلم أن أعيش يوماً في ذلك المشهد الذي وصفته لك سابقاً، وكنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي ولكن لم أكن أعرف متى وكيف.

استقرار الروح ليس أمراً سهل التحقيق، وكي لا يطول انتظارك، حاولي أن تبدأي ولو بخربشات.

لا أستطيع. حتى تلك الخربشات يجب أن تبدأ بشرارة إلهام توقد فكرة ما في داخلك. أنا أختزن كثيراً من القصص والأفكار في ذهني، لكني أفتقد تلك الشرارة التي يجب أن توقد النار، نار الخلق والإبداع.

ستحصلين على شرارتك قريباً، وستكتبين واحدة من أجمل قصص

المرحلة الحالية، أنا واثق من هذا، أنا مؤمن بك.

الشرارة قدحت عندما كنت في السيارة مع إيزابيل عائدتين من القرية التي كانوا يملكون فيها بيتاً وقطعة أرض، وأول كلمة كُتِبتْ في منزل فرناندو، عندما اختليتُ بنفسي وشَعَرتْ روحي بحد أدنى من الاستقرار بعد غربة طويلة.

نار الشرارة كان مصدرها لمحة خطرت في بالي بإيحاء من قصة حبي مع جيرارد. وأول كلمة كتبتها، كانت بمباركة ثقته بي وإيمانه بقدراتي، وشعوري بالأمان في ظلّ حبه الكبير الذي انتصر على خوفي المزمن والقلق المعشّش في داخلي.

حين مرّ الأسبوع الأول دون أن يتصّل ماريو، أشفقَت عليّ إيزابيل من إنفاق كلّ هذه النقود في الفندق، وعرضت عليّ أن أنتقل للإقامة عندها ريثما يتم تأمين مكان لسكني. رفضت عرضها شاكرة في البداية، خوفاً من الإزعاج الذي قد أسبّبه لها ولأختها أولاً، وإشفاقاً على نفسي من دور الضيف الذي أدمى قلبي وروحي من كثرة ما لعبته مؤخراً. لكن روسيو بدورها اتصلت بي وألحّت عليّ بالمجيء وأقنعتني بضرورة توفير مالي لأيام أسوأ. قبلت أخيراً ممتنّة لهما، وانتقلت إلى بيتهما حيث صرت أنام في غرفة الجلوس على كنبة تتحول إلى سرير عريض كان عليّ أن أفرده كل ليلة، وأن أعاود طيّه مبكرة في الصباح التالي خشية إرباك حركة مضيفتيّ.

ولحسن حظي كانت الاثنتان تغادران المنزل في الصباح كل واحدة إلى عملها، مما يتيح لي الوقت الكافي لطي السرير وإعادته إلى وضع الكنبة من جديد وترتيب الغرفة كاملة، ولقد احترت كيف أوزع في أرجائها أغراضي وحقائبي بطريقة تكون مقبولة، لا تفسد شكل المكان ولا تعيق حركة صاحبتيه وراحتهما.

عاملتني الشقيقتان اللطيفتان، كواحدة من أفراد الأسرة، وحاولتا جاهدتين أن تشعراني بالراحة والهدوء. لكن النوم في غرفة جلوس بدون أبواب على سرير يظهر ليلاً ويختفي نهاراً، كان كافياً لإعادتي إلى الشعور بالتشرّد والضياع. فعاودتني الكآبة التي كنت أعرف كيف أخفيها بمهارة مكتسبة على مرّ السنين، إذ كنت أؤمن أنّ من حَولي لا ذنب لهم لأعذبهم بوجه عابس ومزاج سيئ. فلم تفارق الابتسامة شفتيّ ولا عينيّ، كنت أضحك معهم بصدق حتى عندما كانت روحي تبكي.

وما عمّق كآبتي وضياعي، اتصال جيرارد الذي تأخّر على غير العادة، في حين كنت لا أجرؤ أنا على الاتصال به خوفاً من أن تكون زوجته قريبة منه. لم أكن أريد بعد إشعال جبهة في أي مكان، ولم أكن مستعدة لمواجهة من أي نوع في هذا التوقيت المبكّر من العلاقة، لا معه ولا مع زوجته ولا حتى مع نفسي. كنت أعرف أن المواجهة ستقودنا وستجبرنا على خيارات لن تكون في صالحي، إذ إن العلاقة التي عمرها الفعلي ستة أو سبعة لقاءات لم تكن ستصمد رغم كل المشاعر الصادقة والعميقة أمام ثلاثين عاماً من العيش المشترك، بحلوه ومرّه وتجاربه وثماره الفاخرة التي هي ثلاثة من الأبناء الرائعين.

لكن غيابه أجبرني على التفكير بما كنت أهرب من التفكير فيه، بأن هذا الرجل الذي ملك قلبي في حين أنني عاجزة حتى عن إرسال رسالة إليه، هو مشروع طويل الأمد لسعادة بعيدة ومؤجلة، وعلاقة خيالية تحتاج معجزة إلهية لتنتقل من أرض الأحلام إلى أرض الواقع.

حين استجمعت جرأتي واتصلت به ظهراً، كان يبدو طبيعياً جداً ومشتاقاً إليّ كالعادة، متلهفاً لأخباري وحريصاً على كل التفاصيل المتعلقة بي. وحين قلت إنني اشتقت إليه، عرف أنني ألمح لغيابه الذي طال هذه المرة، وقال إنه كان مع بريجيته في رحلة إلى منطقة جبلية قريبة حيث التقيا مع زوج من أصدقائهما وقضوا عدة أيام في التسكع بين الجبال واحتساء المشروب الممتاز الذي يصنع في تلك المنطقة. ولست أدري إن كان قد شعر بالغضب الذي اعتراني من تسارع أنفاسي وخفقان قلبي، أم من السخرية التي غلّفت لهجتي عندما قلت:

واو... أي أجواء رومانسية؟!!! هنيئاً لكما!

نعم كانت الأجواء رومانسية جداً..لكن ما الفائدة! للأسف كنت مع المرأة الخطأ!

أنا آسفة أيضاً!

لقد كنت أتخيلك بجانبي طيلة الوقت، وأتوق إلى اليوم الذي سيجمعنا سوية في رحلة مثل هذه.

وأنا أيضاً يا عزيزي، لكنني مطمئنة لأنك كنت قد وعدتني أن تأتي

لتراني.

نعم وأنا عند وعدي، أحاول أن أختار الوقت المناسب الذي لا يلفت نظر بريجيته ويثير شكوكها.

بريجيته ثانية؟! فكّرت والأسى يعتصر قلبي.

لو كنتِ تستطيعين القدوم إلى باريس، أستطيع أن أتدبر اشتراكي بمؤتمر طبي هناك سيقام في الشهر القادم.

للأسف، غير مسموح أن أغادر إسبانيا الآن، إلى حين حصولي على الإقامة الطويلة.

لا عليك يا عزيزتي سوف أتدبر الأمر، المشكلة أن بريجيته تعرف أنك موجودة في إسبانيا، وسوف تشك بمجرد معرفتها أنني مسافر إلى هناك.

بريجيته أيضاً!! وتمنيت أن أقول له أن يتوقف عن ذكر اسمها أمامي، أن يتوقف عن تذكيري كل لحظة بأنه ليس سيد نفسه وأن قراره ليس ملك يده، بل ملك يدها هي، بريجيته.

أسمع في صوتك نبرة حزينة يا صغيرتي! ما الأمر؟

لا شيء عزيزي، قليل من الكآبة بسبب إحساسي بالتشرد، لقد قلت لك إنني عند إيزابيل الآن وأنام في غرفة الجلوس، كنت فقط أريد أن أسمع صوتك لأهدئ من روعي، لكنني لم أجرؤ على الاتصال، أنت تعرف!

تعمّدت ألا أذكر اسمها، ولو أن حديثي كان عنها. كنت أفضّل أن أدفن رأسي في الرمال كنعامة غبية، كي لا أراها تحدق إلى عينيّ بنظرات تحمل كثيراً من المعاني كنت في غنى عن تفسيرها. لقد قررت أنني الآن أريد فقط أن أستمتع بمشاعري، بحبي له وحبه لي دون التفكير في أي

عواقب، حبنا هذا هو حبل نجاتي الوحيد وعليّ التمسك به حتى وإن كانت النار تشتعل في نهايته.

كنت أؤمن أن الأيام كفيلة بإيجاد حل، أي حل، وأنني قد أكون محظوظة بأن أصل إلى برّ الأمان قبل أن تصل النار إليّ لتُجهز على ما تبقى من حبل خلاصي الحبيب.

تزامن اتصال ماريو مع استلامي للبطاقة الحمراء التي تعدّ إقامة مؤقتة لستة أشهر قابلة للتجديد. قبل أن استلمها، سلّمت جواز سفري السوري، وصرت رسمياً وفعلياً لاجئة ذات رقم تسلسلي، مدوّن في بطاقتي الحمراء وفي سجلات اللاجئين لدى الدولة الإسبانية.

بشّرني ماريو أنّه وجد مكاناً شاغراً لي في مركز يقع في إحدى ضواحي مدريد، وتبعد عنها مسافة أربعين دقيقة بالقطار، وسيكون عليّ أن أخضع لفحص طبي شامل قد تستغرق إجراءاته مدة أسبوع قبل الالتحاق بالمركز. سألته بإحراج عن وضع ذلك المركز بشكل عام، وعما إذا كنت سأشارك غيري من اللاجئات الغرفة، نظر إليّ باستغراب كمن يقول في سرِّه (شحّاد ومشارط) وقال:

> مستوى هذا المركز جيد حسب علمي، وستقابلين هناك أناساً ظروفهم مثل ظروفك. بالنسبة إلى الغرفة فسيكون عليك أن تتشاركي بها مع اثنتين من النساء، الغرف لا تضمّ حماماً خاصاً، إذ سيكون عليكن أن تتشاركن الحمّامات الموجودة في كل طابق مع سكّان الغرف الموجودة فيه.

خرجت وأنا لا أدري إن كنت سعيدة أم كئيبة، ثم فكّرت في أنني ما زلت أملك عرض جيرارد. مجرد الفكرة جعلتني أنفض الكآبة عني، وقرّرت بذهن صاف وقلب مطمئن أن أخوض التجربة كما كنت قد قررت مسبقاً، وأن أحاول التعايش في ذلك المركز قدر استطاعتي دون أن أطلب مساعدة جيرارد المالية. إذ لم أكن أستحسن أن أبدو أمامه وأمام نفسي كأني أستغله مادياً، رغم أنني كنت أعرف جيداً، أن موضوع استئجاره بيتاً لي، كان يعني لي أشياء أكثر بكثير مما كان يبدو. أن يستأجر بيتاً لي كان يشعرني بأنه رجلي، وأني امرأته. أنه مسؤول عني وملتزم بي. وهذا الشعور وحده كان أكثر أماناً ودفئاً من أي مسكن في العالم، كان بيتاً ووطناً بحدّ ذاته. دعوت نفسي لأن أتمتع به مادام العرض قائماً ولو لم يُنفّذ. سأتمتع بكونه رجلي الملتزم بي حتى ولو كنت سأقيم في ذلك المركز، في غرفة كئيبة مزدحمة بنساء لا أعرفهن.

وفي عشية اليوم نفسه، أهداني القدر هدية أخرى من حيث لا أدري. جاءني اتصال من رقم إسباني، وكان المتصل شاباً يتحدث بإنجليزية لا بأس بها.

اسمي إدواردو. أنا محامٍ، وفي الوقت نفسه أعمل كمتطوِّع في الفرع الإسباني لمؤسسة كاريتاس الخيرية العالمية التابعة للكنيسة الكاثوليكية. لقد سمعنا عنك وأخذنا رقم هاتفك من رياض وريتا، العائلة السورية التي تقيم هنا منذ أشهر عدة. نحن في صدد العمل على مشروع لدعم السوريين ضحايا الحرب، وخصوصاً المسيحيين منهم، وحين عرفنا أنك تبحثين عن مكان للسكن ريثما تستلمين إقامتك في إسبانيا، فقد قررنا أن نمدّ لك يد العون إذا كان الموضوع يهمّك.

شكراً جزيلاً، أنا مهتمّة طبعاً.

جميل جداً، سأخبر مجلس إدارة المؤسسة بردّك الإيجابي، وسأحدّد لك موعداً لمقابلتهم إن لم يكن عندك مانع.

يشرفّني ذلك طبعاً، بالمناسبة إن لمؤسستكم هذه فرعاً في مدينة حلب، وأختي تعمل هناك كمتطوعة منذ مدّة لا بأس بها، وسيسّرني أن أتطوَّع أنا أيضاً هنا معكم. سأفعل أي شيء، طبعاً حسب ما تسمح لي به لغتي الضعيفة وظروفي.

هذا عظيم، يسرّني أن أسمع هذا، وسيكون أعضاء مجلس الإدارة مسرورين أيضاً. لقد علمنا بظروفك، وطبيعة عملك السابق في حلب وكيف خسرت وظيفتك، وسيسرنا أن نحاول تقديم المساعدة بالبحث عن عمل لك عندما يسمح وضعك القانوني بذلك.

العائلة السورية التي تحدّث عنها، كانت قد رحلت من حلب منذ حوالى السنة إلى إسبانيا. وقد اختارت إسبانيا لأنها أيضاً لم تستطع تأمين فيزا لدخول أوروبا إلا عن طريق السفارة الإسبانية التي منحتهم إياها اعتماداً على دعوة رسمية أرسلت إليهم من قبل أصدقاء لهم جنسيتهم إسبانية. كنت أعرف الزوج الشاب معرفة سطحية، لأنه كان شقيق جارة رنين. وكنت قد اتصلت بزوجته لإلقاء التحية عليها بعد وصولي إلى مدريد بأسابيع عدّة وذلك بعد إلحاح من أختي. زوجته كانت غاية في اللطف وعرضت عليّ المساعدة في أي أمر يلزمني. حكيت لها عن ظروفي، فقالت لي إنها ستشاور في أمري زوجها الذي يعمل أيضاً متطوعاً في كاريتاس مقابل الحصول على رعايتها وخدماتها.

لم أكن أتوقّع في الحقيقة أن أحصل على هذا الاهتمام. فاجأني الموضوع وأسعدني جداً، وذهبت إلى الموعد الذي حُدِّد لي بعد أيام من مكالمة المحامي إدواردو.

استقبلني مجلس إدارة المؤسسة المكوّن من خمسة أشخاص. يرأسهم محامٍ كهل، ورجل دين. رافقني إليهم رياض، وهو الشاب الحلبي الذي كان قد استشارهم بشأني وأعطاهم رقم هاتفي بعد تواصلي مع زوجته. وقد ساعدتنا بالترجمة شابة سورية لديها صلات مع المؤسسة ومقيمة في إسبانيا منذ سنوات عدة.

سألوني عن وضعي، وعن حاجاتي الأساسية في هذه الفترة. سألوني عن عائلتي في سوريا، وشرحوا لي مشروعهم الجديد الذي يتمحور حول مساعدة الأسر السورية عامة والمسيحية خاصة التي تضررت بالحرب. وقد أسعدني في الحقيقة أن أجد مؤسسة مثل هذه تعمل جادّة وجاهدة لمنفعة السوريين، ولو أنني أدرك أن مساعدتها لن تكون إلا نقطة في بحر المعاناة الكبيرة والجهود الضخمة التي يحتاجها السوريون على مختلف أديانهم وطوائفهم ليستطيعوا إكمال حياتهم كبشر.

قالوا إنهم سيعرضون على الحكومة الإسبانية مشروعاً يتلخّص برغبتهم في مساعدة ثلاثين عائلة مسيحية على مغادرة سوريا والمجيء إلى إسبانيا، ومن ثم تكفّل هذه العائلات بتقديم الدعم لها لتحصل على الإقامة وتندمج في البلد الجديد وتباشر حياة جديدة بشكل طبيعي ومحترم.

ثلاثون عائلة مسيحية! لم أملك إلا الشعور بالامتنان من المشروع. لكنني أيضاً لم أملك منع نفسي من التفكير بآلاف اللاجئين السوريين: المسيحيين، والمسلمين، والأكراد واليزيديين المتكدّسين على حدود أوروبا في انتظار منفذ صغير يعبرون منه إلى أرض الميعاد. مأساة اللاجئين العالقين في المجر والتي احتلت ولفترة طويلة الحيز الأكبر والأول من كل نشرات الأخبار في العالم كانت

تشعرني بالخجل والعار، خصوصاً عندما فتحت لهم الحدود فتدفقوا بأعداد كبيرة وعبروا إلى النمسا وألمانيا بالقطارات حيث تمّ استقبالهم في المحطات من قبل الشعوب الأوروبية بالتهليل والتصفيق والهدايا، كأنهم حيوانات نادرة في سيرك كبير، أو مخلوقات فضائية عجيبة تعطّلت مركبتها في الفضاء فهبطت على الأرض هبوطاً اضطرارياً.

متابعة هذه المأساة، ذكّرتني بأبيات كتبها نزار قباني عام 1985:

«مسافرون نحن في سفينة الأحزان

قائدنا مرتزق

وشيخنا قرصان

مكومون داخل الأقفاص كالجرذان

لا مرفأ يقبلنا

لا حانة تقبلنا

كل الجوازات التي نحملها.. أصدرها الشيطان».

كنت أشعر بالذلّ عندما كنت أفكّر أن الناس يتفرجون في بيوتهم وهم مسترخون على أرائكهم، على الآلاف من أبناء بلدي وهم يتصارعون مع شرطة الحدود كالهمج، ويتعاركون مع الأمواج في بحار هائجة وهم على متن مراكب عتيقة مهلهلة، ممسكين بأطفال يبكون خوفاً وبرداً. عندما كنت ألمح تلك الدهشة وتلك الشفقة في عيون الناس، كنت أخجل عندما كنت أقول: أنا سوريّة!

أنا سوريّة. أنا الهاربة من النار، أنا راكبة البحر والمنتظرة على الحدود والمرافئ والأبواب. أنا التي يتهافت الصحفيون على التقاط الصور لبؤسي وقذارتي وجوعي. أنا المنكوبة التي تستحق العطف والشفقة، أنا التي ستفرح وتشكر وتمجّد عندما يُلقى إليها بالفتات. أنا سورية، يا للعار.

وفكّرت بالجدوى من إنقاذ ثلاثين عائلة من أصل مئات الآلاف. وسلّمت باستحالة الوقوف أمام طوفان المأساة التي تحلّ رويداً رويداً على العالم، كل العالم، عندما يرحل شعب بشكل جماعي من بلده ليستوطن بلاداً أخرى. أعداد هائلة وغير منطقية من المحتاجين المنكوبين الذين جاؤوا ليس بحثاً عن حلم، وإنما هرباً من كابوس. كم من جمعية تلزم لدعم كل هؤلاء، وكم من بلد يلزم لاحتضانهم، كم من مشروع يجب أن يقدّم، وكم من جهود يجب أن تبذل. ومن بعد، بعد أن يستقر هذا الشعب اللاجئ

ويشعر بالأمان، كم يلزم من الوقت لمداواة جروحه المتقيّحة وآلام روحه ووجدانه، كم من الزمن يلزمه ليندمج في مجتمع مختلف جديد وهو الذي تربّى على نبذ كل مختلف والخوف من أي جديد.

وفكّرت بشكل المشروع المعجزة الذي يلزم لردع كل هذا الجنون الذي اجتاح العالم، وحوّله إلى مكان مريع ينتظره مستقبل غامض.

نتيجة ذلك الاجتماع كانت إيجابية جداً بالنسبة إليّ، لقد تعهدوا بالبحث لي عن شقّة مفروشة لأسكن فيها، على أن يتكفّلوا هم بدفع الإيجار وفواتير الكهرباء والمياه، مع إمكانية المساعدة والدعم لسد احتياجاتي الأخرى حسب طلبي. شكرتهم من كل قلبي الذي كاد أن يتوقف من شدّة الفرح. وعرضت عليهم التطوع للمساعدة في أي مجال يلزم.

ستكون لي شقتي الخاصة أي معجزة حلّت عليّ من حيث لا أدري؟!

واحترت ماذا أفعل بعرض ماريو! لكنني عندما علمت أن البحث عن الشقة قد يستغرق أسابيع عدة، قررت أن أقبله، كي لا أبقى في ضيافة إيزابيل لوقت أطول من ذلك.

وبمجرد انتهائي من إجراء الفحوصات الطبية المطلوبة واستلامي لنتائجها، وضعت في أصغر حقائبي القليل من الملابس والأغراض، وتركت البقية في عهدة إيزابيل، وركبت القطار متوجهة إلى «ألكوبينداس» الضاحية المدريدية التي يوجد فيها المركز.

أيضاً، كان الوضع مختلفاً عما كان في النمسا. المركز كان صغيراً. بناء ذو ثلاثة طوابق في قلب الضاحية، لا يضم أكثر من سبعين لاجئاً.

النظام في إسبانيا يقتضي أن يبقى اللاجئ تحت رعاية الدولة لمدة ستة شهور فقط، حيث تؤمن له من خلال مراكز مثل هذه الإقامة والطعام، وبدل مادي للكسوة والمواصلات، ومصروف بسيط للجيب. وتمنحه «كرت» الصحة الذي يخوّله الحصول على الطبابة المجانية. كما تفرض على كل اللاجئين تعلّم اللغة الإسبانية من خلال دروس مجانية تنظّمها لهم داخل مراكز اللجوء وخارجها.

وبعد انقضاء الأشهر الستة، يغادر اللاجئ المركز، ويجدّد بطاقة إقامته الحمراء Tarjeta Roja لستة شهور أخرى، وتضاف إلى بطاقته عبارة «يسمح له بالعمل»، وعندها تتوقف الدولة عن دعمه، فيكون عليه أن يبحث عن عمل ليقتات منه، أو أن يلجأ لطلب معونة من إحدى المنظمات الناشطة في العمل الإنساني مثل الصليب الأحمر.

مركز «ألكوبينداس» كان يضمّ كثيراً من اللاجئين الأوكران، وكثيراً من الأفارقة، وعدداً لا بأس به من الفلسطينيين، وعائلة عراقية واحدة، وعائلتين سوريتين، وبضعة أفراد من جنسيات مختلفة إيرانية ولبنانية وصينية.

الخدمات في المركز كانت جيدة جداً نسبياً، الأمر الذي فاجأني إذ كنت أتوقع أن إسبانيا بوضعها الراهن الضعيف اقتصادياً، لن تعير كثيراً من الاهتمام للاجئين، خصوصاً أنني كنت أعرف أنها لا تخصّص لهم مساكن ولا رواتب بعد نهاية الأشهر الستة.

مستوى النظافة كان عالياً، وجبات الطعام متنوعة وجيدة جداً، الأدوات الشخصية والصحية التي توزّع على النزلاء كانت سخية ومناسبة وتفي بالغرض. النشاطات كانت مدروسة بعناية ومختلفة، منها كانت خارجية، كرحلات جماعية شهرية لأماكن سياحية متميزة. أو داخلية كعرض أفلام من حين لآخر على شاشة كبيرة في إحدى القاعات، أو استضافة ندوات ثقافية حول موضوع مهم أو بلد معين، إلى جانب دروس اللغة التي كانت تجري للمبتدئين داخل المركز، ودورات تعليم مهارات الكومبيوتر.

الأمر الذي كان صعباً وغير محتمل بالنسبة إليّ، هو مشاركة الغرفة مع اثنتين من النساء.

كانت إحدى زميلاتي في السكن عراقية كردية، والثانية سوداء من كينيا. العراقية التي كانت تنام إلى يساري كانت لطيفة وصغيرة السن، أما الكينية إلى يميني، فقد كانت غريبة الأطوار ومتحفظة، لم تفلح محاولاتي الودودة في كسر جليدها إلا قبل مغادرتي بأيام قليلة، إذ صارت تبتسم لي عند الدخول والخروج، وتردّ تحية الصباح بلطف بدل الجفاء والعبوس.

العراقية كانت طيّبة المعشر، ولكن عاداتها الخاصة التي كانت تمارسها على مسافة متر واحد مني كانت تثير أعصابي، كأن يخطر لها فجأة أن تقرض الجزر أو البسكويت، أو أن تستعمل الطاولة الصغيرة بين سريرينا لتأكل عليها «المكدوس»، وهو طبق تعلّمَته من صديقتها اللاجئة السورية هنا في المركز، ويتألف من باذنجان صغير الحجم، مسلوق ومكبوس بزيت الزيتون ومحشو بالثوم والفليفلة والجوز. رائحة الثوم النفاذة كانت تقتلني، وقطرات الزيت التي كانت تتناثر لتلطخ أوراقي كادت أن تذهب بي إلى الجنون.

جرّبي دوقيها، طيبة، ليش ما تاكلين؟

شكرا هيفاء، لكنني تغديت لتوي.

أنا ما تغديت، ما حبيت الغدا، شنو هاد كل يومين سمك سمك سمك.

ما بتحبي السمك؟

ما بحب أكلهم هون، ما يعجبني.

وتتابع أكل المكدوس الذي تحتفظ بمرطبان منه تحت سريرها.

الكينية كانت لها عادات أسوأ، كأن تمضغ العلكة بصخب ورقاعة، وأن (تأخذ راحتها) وتتحدث بالهاتف أو بالسكايب باللغة الفرنسية التي كانت تجهل أنني أفهمها، بصوت عالٍ ونبرة مستفزة، فحيناً كانت تصرخ وهي تكيل اللوم والتقريع والشتائم لأحد الشبان لسبب لم أعرفه، وأحياناً كانت تبدو منسجمة وطيبة المزاج، فتضحك بصوتٍ مرتفع وغريب.

كان لها خصر نحيل يعلو عجيزة مستديرة ضخمة، تبرزها بارتداء السراويل الضيقة، وتتبختر بها في المطعم وقت الغداء أو العشاء، ما يدخل البهجة والنشوة في نفوس الشبان في المركز، الذين كانوا يتندرون بها في سهراتهم الملغومة ببضع سجائر من الحشيش، في الحديقة المجاورة.

عندما يحلّ الليل وتخلد شريكتاي إلى النوم، كنت أشعر بمشاعر سوريالية عجيبة، وأتهيّب الاستسلام للنعاس وأنا محاطة بامرأتين غريبتين. كنت أشعر أنني سأنام في العراء، وأن شريكتيّ الاثنتين هما آلاف من الأشخاص الذين يحاوطونني ويقتحمون عزلتي وخصوصيتي وخلوتي الليلة، وكنت أستسلم أخيراً لنعاس يحملني إلى نوم خفيف، متوتر، متأهب وحزين.

وفي النهار، حين لا أكون في حصة اللغة الإسبانية أو في قاعة الطعام، أبقى حبيسة سريري، محدقّة في شاشة اللابتوب المفتوح على حضني، وأنا أقرأ إحدى الروايات الخمسين التي كانت صديقتي غدير قد نسختها لي من جهازها على قطعة USB وأهدتني إياها عندما ودّعتها في اللاذقية قبل سفري، فنسختها بدوري في جهازي المحمول الذي لم أتخلَّ عنه في كل الأماكن التي ذهبت إليها من فنادق ومخيمات وبيوت أصدقاء ومراكز لاجئين، إذ كان وجوده معي بكل ما يحتويه من ملفات وصور ومراسلات ومؤخراً أجمل الروايات، يعد متنفسي الوحيد والوسيلة التي كانت تساعدني على قتل الوقت الكئيب قبل أن يقتلني.

وكلما أحسست بالملل من ساعات القراءة الطويلة، كنت أخرج لأتمشى ولأكتشف المدينة الصغيرة. أُثبت السماعات في أذني، وأتسكّع منتشية بالأغاني التي كان يخيّل إليّ أنهم كتبوها ولحنّوها

وغنّوها، ليحكوا عن قصتي مع جيرارد، الذي لم يتصل بي خلال الأيام الثلاثة الأولى من إقامتي في المركز.

عندما جاءني اتصاله، كنت متحمسة لأحكي له عن أخباري الجديدة. لكنه بادر بأن أخبرني أنه انقطع عني لانشغاله بمشكلة مع زوجته التي أصيبت بالجنون عندما اكتشفت أنه ما زال على علاقة بي. شعرت بالحنق الشديد، لكنني تمالكت نفسي وقلت بهدوء:

أنا آسفة جداً يا عزيزي، وما هو الوضع الآن؟

لا بأس، لقد سوّي الموضوع، لقد أخبرتها أنك اتصلت بي فقط بمجرد وصولك لإسبانيا لإلقاء التحية، وهذا كل شيء.

فكّرت أن أقول له: «وهل ستبقى تكذب عليها للأبد؟ لكنني لم أسأله ذلك السؤال كي لا يجيبني بـ: «وماذا تقترحين عليّ أن أفعل؟»، لم أكن أعرف ماذا يمكن أن يفعل! لم أشأ أن أقترح عليه شيئاً كي لا أضع نفسي في مواجهة قرار قد يقصيه عن حياتي في الوقت الذي أنا بأمسّ الحاجة إليه فيه. الوقت ما زال مبكراً لاتخاذ قرار، علينا أن نبحر في العلاقة أكثر، أن نتورّط واحدنا في الآخر أكثر، قبل أن نقرّر إذا كنّا نريد أن نعيش ما تبقى من الحياة متّحدين أو منفصلين.

ما هي أخبارك يا عزيزتي، هل من جديد؟

آه.. نعم.. حدثت أمور كثيرة في الأيام السابقة.

حكيت له عن نتيجة اجتماعي بمجلس إدارة المؤسسة الخيرية، وحكيت له عن انتقالي إلى المركز ومشاركتي الغرفة مع اثنتين من النساء، حكيت له عن شريكتيَ، وعن طبيعة الحياة في المركز. كنت أحكي وأحكي ولكن ذهني وقلبي كانا مشغولين بقصة زوجته. كنت أشعر بنوع من المذلّة كوني المرأة التي كتب عليها أن تقبع في الظلّ تاركة الرجل الذي تحبّ يتشمّس مع امرأة أخرى. كنت أريده أن يشعر كم هو مؤلم هذا الشعور، أن تكون ممتلكاً من قبل شخص لا تملكه. وجدت نفسي فجأة بعد انتهاء المكالمة، أكتب إليه رسالة عبر الواتساب، فيها معلومة كاذبة كنت أريد بها أن ألقي حجراً في سكون بحيرة ثقته بامتلاكه لي.

«بالمناسبة، حبيبي السابق أليكس موجود في إسبانيا الآن. وقد اتصل بي بالأمس ويريد أن

يراني، وأظنّ أنني سألقاه غداً. سأعلمك لاحقاً بما سيجري بيننا من حديث (إذا كان الأمر يهمّك!)».

أجابني برسالة أخرى بعد برهة، يقول فيها:

«كل الأمور المتعلقة بك تهمّني يا حبيبتي، أنا مرتبط بك بعاطفة عميقة وسأبقى كذلك مهما كانت الظروف، حتى إذا كنت ستستمتعين بلقائك مع حبيبك السابق، وحتى إن كان هو حاملاً إليك عرضاً جيداً يمكن أن يسعدك، حتى إن كان سيهتّم بك، فإن عرضي بأن أدعمك بأي شيء تحتاجينه سيبقى قائماً. أحبك، واشتقت إليك يا عزيزتي».

بقيت لبرهة من الوقت ساكنة وأنا أفكر بما تعنيه كلماته، هل يتخلّى عني برجولة لمصلحة الثاني، أم يحاول أن يقنعني بأنه يحبني وسيحبني للأبد؟ هل شعر بالغيرة؟ هل أحسّ بالخطر؟ هل خاف أن يفقدني؟

أجبته بعد تفكير عميق:

«لن ألتقي بأليكس لأستمتع معه! يجب أن أراه لنقفل العديد من القضايا التي بقيت عالقة بيننا. أما بالنسبة إليك، أنا مقدّرة وشاكرة جداً الدعم الذي قدّمته لي والذي تعرض أن تقدمه. ولكني في الحقيقة أريد شيئاً أكثر، رغم أني أعرف أنّه ليس مسموحاً أن أطلب أكثر!.. دعنا نناقش هذا فيما بعد».

لم يردّ، أحسست بعد إعادة قراءة الرسالة أنني أسقطت نفسي وأسقطته في الفخّ الذي طالما هربت منه. لكنني قلت في نفسي لا بأس أن يدرك أن ما بيننا ليس مجرّد لعبة لقتل الوقت، عليه أن يبدأ برؤية الموضوع من كل جوانبه، فالحقيقة لن تبقى مختبئة لوقت طويل، وفي النهاية، لن يصحّ إلا الصحيح.

قررت أن لا أعاود الاتصال ولا إرسال أي شيء. فضّلت أن أنتظر اتصاله لأشعره بالقلق. وعندما اتصل بعد يومين، كنت مرحة جداً ومتفائلة، وحكيت له أنني سوّيت الموضوع مع حبيبي السابق، وأنني قلت له إنني مغرمة الآن بشخص آخر دون إعطائه أية تفاصيل.

بدا لي مرتبكاً، وقال:

حبيبتي، رغم أنني شعرت بالغيرة والمرارة، إلا أنني أريد الأفضل لك دوماً. لا أريد أن أكون عقبة في طريق سعادتك. لقد حكيتِ لي مسبقاً عن قصة حبك تلك، وقد عرفت أنك كنت عاشقة لهذا الرجل لفترة

طويلة من حياتك. فإذا كان قد بقي أثر ما لهذا الحب في قلبك، لا أريدك أن تخسريه من أجل ألا تجرحينني! لا تفكري بي، فكري بسعادتك.

كيف يفكّر الرجال؟ كيف يفكّر الرجال؟

أولاً أنا سعيدة لأنك شعرت ببعض الغيرة، هذا شعور صحي وعليك أن تجربه من حين إلى آخر. وثانياً، أنا لم أخسر حبي خوفاً من أن أجرحك. هذا الرجل الذي أحببته لسنوات والذي شعرت بالانتماء إليه كما قد سبق وأخبرتك، لم يكن الأفضل لي. لقد تخلى عني في عزّ حاجتي إليه، ولم يشعر بي عندما كنت أعيش أصعب ظرف حياتي. أنا لم أخسره الآن بسببك، بل لقد سبق وخسرته منذ زمن بعيد، من قبل حتى أن ألتقي بك. فلا تقلق يا عزيزي، ولا تحمّل نفسك مسؤوليات جديدة، يكفيني أن أشعر أنك تحبني، وأنك هناك من أجلي ومعي. حالياً أنا لا أريد أكثر، وإن كنت أطمح لأكثر، لكن، ليس الآن.

نعم أنا أحبك، وآسف للوضع الذي نحن فيه.

هل أصاب الحجر الذي ألقيته في البحيرة هدفه، أم أنه أثار دوائر من الشك تحركت في غير وقتها؟ لأريح نفسي رجعت إلى فكرة القدر التي آمنت بها مؤخراً وقلت، لو كان هذا الرجل قدري، لو كان حبنا الذي مشينا إليه صاغرين هو فعلاً قدرنا، لن تغرقه بضع دوائر من شكّ ولو جاءت في غير زمانها.

ثلاثة أسابيع مرّت، قبل أن يأتي اليوم الموعود وأنتقل إلى الشقة التي اختاروها لي بعد أن اصطحبوني لمعاينتها قبل أيام.

عندما تلقيت الاتصال المنتظر من كاريتاس، وأُبلغت أنهم وجدوا شقة مناسبة ويريدون مني أن آتي لمعاينتها قبل التوقيع على العقد، فرحت، وخفت من الخيبة في الوقت نفسه. خفت أن تكون الشقة

سيئة المستوى أو الموقع، وتساءلت كيف يمكن أن أتصرّف في هذه الحالة، هل سأخجل وأقبل بها كما هي، أم أنني سأقول إنها لم تعجبني لأنتظر أسابيع أخرى قبل أن يجدوا لي شقة غيرها!

لكن الرياح جاءت بما تشتهي سفني، الشقة التي لم تكن فاخرة، كانت جيدة الموقع، جميلة ومريحة، مفروشة بأثاث مقبول نسبياً وأنيق الطراز وإن لم يكن جديداً أحببتها منذ النظرة الأولى، وارتاحت روحي فيها قبل جسدي.

قبل أن أغادر المركز، طلبت موعداً من المدير الذي كنت قد أعلمته بمجرد وصولي عن احتمال مغادرتي في موعد غير معروف، عندما دخلت عند كارلوس، أخبرته أنني أريد أن أغادر في الغد، وأني جاهزة لإجراءات الخروج التي يتطلبها الموضوع.

وقبل أن أمشي، أريد أن أثني على العمل الذي تقومون به هنا لتسهيل حياة كل هؤلاء اللاجئين. في الحقيقة لقد فاجأني مستوى الخدمات المقدّمة هنا والطريقة التي تقدمونها بها. أريدك أن تعرف أنني مقدّرة جداً لجهودكم، فشكراً جزيلاً لكل واحد منكم.

ابتسم بدهشة، ولمحت ظلاً من خفر مؤدب في وجهه وقال:

يسعدني جداً ويثلج صدري أن أجد من يقدّر ما نقوم به، شكراً لك، وحظاً سعيداً.

لم تكن المرة الأولى التي يشكرني فيها كارلوس بدهشة، فقد سبق أن فعل ذلك أيضاً قبل عشرة أيام من مغادرتي، عندما سلّمني فرع المحاسبة شيكاً لصرف المبلغ الذي يُمنح للاجئين مرة واحدة عند دخولهم لشراء الكسوة والثياب، مضافاً إليه مصروف الجيب والمواصلات لشهر واحد طبعاً.

ارتبكت عندما أمسكت الشيك واحترت ماذا أفعل به بما أنني مغادرة بعد أيام قد تكثر وقد تقل. طلبت مقابلة كارلوس أيضاً، ودخلت إليه بعد انتظار قصير، حيث استقبلني برفقة أنابيل، المشرفة الاجتماعية التي كانت قد رحبّت بي سابقاً وشرحت لي بالتفصيل المبالغ التي سوف أحصل عليها كوني لاجئة ونزيلة في هذا المركز، ارتحت لوجودها أيضاً، وبادرت بالكلام:

لقد استلمت اليوم هذا الشيك من المحاسبة، وأريد قبل أن أصرفه أن

أتأكّد إذا كان ذلك من حقي، علماً أنني يمكن ألا أبقى نزيلة في هذا المركز طويلاً.

تبادل الاثنان النظرات وقالت أنابيل:

لم أفهم، ماذا تقصدين؟

لقد سبق وأخبرت كارلوس عند وصولي، أنه من المحتمل أن أغادر هذا المركز في أجل غير مسمى. الموضوع ما زال قائماً، لكنني لست متأكدة بعد، ولا أعرف إن كنت سأغادر أو متى سأغادر، من الممكن أن يطول الأمر أو يلغى، ومن الممكن أن يتمّ في غضون أيام، لذلك، أنا أخشى أن أفقد حقي في هذا المبلغ بمجرد مغادرتي، وبالتالي، لا أريد أن أصرف الشيك وأتصرّف بمال ليس من حقي.

تبادلا النظرات ثانية غير مصدقين، وقال كارلوس بدهشة:

إنها المرة الأولى في تاريخ هذا المركز التي أُواجه فيها موقفاً كهذا.

ضحكت أنابيل مؤكدة وقالت:

أنت أول شخص يتصرف بهذه الطريقة، تقبضين على الشيك في يدك، ثم تأتين به هنا لتسألي إن كان المبلغ من حقك أم لا! شكراً جزيلاً لك.

عفواً، أنا لست إنسانة عجيبة ولا فائقة المثالية، لكنني لا أريد أن أفعل إلا الصحيح. أريد فقط أن أحصل على أوراق إقامتي دون مشاكل لأعرف كيف أبدأ حياتي من جديد. لا أريد أن أستغل أحداً كما لا أريد أن يستغلني أحد.

أنت محقة.. قال كارلوس. على كل حال هذا الشيك من حقك الآن ما دمت نزيلة في المركز، اصرفيه ولا تتردّدي، وعندما تعلمين الموعد الذي ستغادرين به، نريد منك فقط أن تعلمينا قبل ذلك بمدة وجيزة لنتمكن من إنهاء إجراءات المغادرة، وشكراً جزيلاً لك، شكراً صادقاً وعميقاً.

لا داعي للشكر، شكراً لكم أنتم.

أتمنى لك حظاً سعيداً.. قالت أنابيل.

قام كارلوس بشكري بدهشة للمرّة الثانية، حين عبّرت بصدق عمّا كان يجول في داخلي من تقدير كبير لكل فرد من العاملين هنا، وكل أنواع الخدمات التي يقدمونها للاجئين الموجودين بكل إنسانية واحترام ورحابة صدر بل وفكاهة أحياناً تنسي النزيل همومه. ذلك المركز الإسباني الذي قضيت فيه ثلاثة أسابيع كان مكاناً محترماً جداً، ويستحق فعلا أن ترفع له القبعة.

ودّعت الأصدقاء الذين تعرفت إليهم خلال تلك الأسابيع، واتفقنا أن نبقى على اتصال. ودّعت موظفي الاستقبال والحراسة، وجررت خلفي حقيبة ثيابي الصغيرة بعد أن علّقت اللابتوب على كتفي، ومشيت نحو محطة القطار وركبته إلى حيث بيتي أنا، الذي همست بمجرد أن أغلقت بابه خلفي: Esta es mi casa (هذا هو بيتي). وقمت فوراً بتصويره من كل الزوايا والغرف وأرسلت الصور إلى أمي وأخوتي وصديقاتي، ولم أنسَ طبعاً جيرارد، حيث أرفقت الصور بجملة Esta es mi casa.

باشرت حملة تنظيف للشقة حال وصولي استمرّت كل الليل. واحتفلت بإخراج ملابسي وتعليقها وترتيبها في الخزن، بعد أشهر من التكدّس في حقائب كانت تسافر معي وتنتقل من بيت إلى بيت، وتستقر باستكانة وخجل في زاوية معينة من غرفة المنزل المضيف لتُستعملَ كدرج وخزانة.

في اليوم التالي ذهبت صباحاً برفقة ريتا زوجة رياض التي كانت تقطن قريباً منّي للتسوّق، وعدت مسرعة لإكمال أعمال التنظيف التي بدت وكأنها لن تنتهي. وفي المساء، التفتّ للعناية بجسدي الذي كنت قد أهملته لشهور، وكأنه طيلة تلك الفترة لم يكن جسدي. أزلت الشعر بالآلة الصغيرة الكهربائية عن ساقيَّ وذراعيَّ، ومن ثم وضعت الكريم الملّون على شعري بغرض صباغته بعد أن ظهر الشيب واضحاً في خباياه وجذوره، وافترس مساحات لا بأس بها منه. وفور انتهائي هرعت إلى

هاتفي الذي كنت قد سمعت رنينه أكثر من مرة حين كنت مشغولة وبعيدة عنه، لأستطلع ما استلم من رسائل ولأردّ عليها ريثما يحين موعد غسل الصباغ عن شعري.

بلهفة ونشوة لمحت رسالة من جيرارد، يردّ بها عليّ بعد أن استلم صور الشقة:

تبدو جميلة جداً، أريد أن أزورك فيها، هل أنت سعيدة؟ أنا مرهق بسبب تراكم العمل والمناسبات الاجتماعية هذا الأسبوع، إذ أنام قليلاً جداً، وغرفة نومك الجميلة يمكن أن تكون مكاناً مثالياً للراحة والاسترخاء!! كيف تجري أمورك يا حبيبتي؟

كتبت إليه:

أنا سعيدة جداً، لكنني مرهقة أيضاً بسبب أعمال التنظيف والترتيب التي أنهيتها للتو، أنا أستعد الآن لدخول الحمام لأستمتع بدوش دافئ. أتمنى لو كنت هنا لنسترخي سوية في غرفتي الجميلة! هل اشتقت إليّ كما اشتقت إليك؟

بعد أن خرجت منتعشة الجسد من الحمام قرأت ردّه الذي أنعش روحي:

أشتاق إليك كثيراً يا حبيبتي.

ألقيت بنفسي على فراشي الجميل وفكرت: «اليوم بدأت حياتي الجديدة!».

باشرت الدوام في معهد لتعليم اللغة الإسبانية، وهو المعهد نفسه الذي يرتاده رياض وريتا. كنت قد ألممت بالمبادئ الأولية للّغة أثناء حضوري الدروس في مركز ألكوبيندس، ومع ذلك، بدا لي للوهلة الأولى أن المنهاج المتبّع في هذا المعهد أعلى من مستواي، أحسست بقليل من القلق، ما لبث أن تبدّد في الأيام التالية حين بدأت أندمج وأحب هذه اللغة التي كانت قريبة من الفرنسية إلى حدٍّ بعيد.

بعد استقراري في الشقة والمعهد، ذهبت إلى المقر الرئيسي لمؤسسة كاريتاس التي تكفّلت

بدعمي ورعايتي لأتشكّر القائمين عليها، ولأذكّرهم بأنني جاهزة للعمل التطوعي، وأنه سيسعدني أن أساعد بتقديم أي شيء أستطيع تقديمه. استقبلوني بحفاوة وحرارة، وعرضوا عليّ المساعدة في إتمام الإجراءات الإدارية التي كان عليّ أن أقوم بها، كتثبيت مكان إقامتي في مجلس المحافظة ومخفر الشرطة، واستخراج البطاقة الصحية، وفتح حساب في البنك. وقد رافقتني في اليوم التالي من طرفهم محامية لطيفة تتحدث الإنجليزية تدعى بيلار، وأنهينا معاً كل تلك الإجراءات الضرورية الخاصّة بإقامتي.

الكذبة التي كذبتها على جيرارد في ما يتعلّق باتصال أليكس، لم تكن في الحقيقة كذبة بالمعنى الصحيح، بل كانت فقط معلومة تمّ التلاعب بتاريخها وحسب، إذ أُعلن عنها قبل موعد حدوثها بقليل.

أليكس، شبحي الفاتن، الذي كنت أعرف تماماً كيف يتصرّف، كنت واثقة أنه سيعاود الاتصال بي يوماً ما. لكنني بعد وقوعي في عشق جيرارد، لم يعد يهمّني أن أسأل متى. كان قلبي قد أُوصد من ناحيته، ولكن ذهني كان لا يزال يحفظ دروسه التي كلّفتني لأتعلّمها الكثير من السنين والدموع والأعصاب، ما زالت مكتبة الروح تحتفظ على أهمّ رفّ من رفوفها، بالشهادة التي استحققتها عند تخرجي من أكاديمية حبه. لم أنسَ ولن أنسى، ذلك الشبح الذي لا ينساني.

كنت قد توقفت عن مجاراته والردّ على اتصالاته منذ اليوم الأول الذي التقيت به بجيرارد. وبعد محاولات عدّة منه قوبلت بالبرود والاختصار، ومحاولات أخرى قوبلت بالتجاهل، توقّف عن الاتصال. وشككت للحظة في سرّي أنه فهم أنني لم أعد رهن مشاعري الجارفة تجاهه، حتى أنني اعتقدت جازمة، أنه عرف أنني أقمت علاقة مع رجل غيره. كنت أشكّ دائماً أنه يعرف عني كل شيء حتى دون أن أقول، وكنت أشكّ أحياناً (بفانتازيا خيالية) أنه يستطيع اختراق هاتفي بطرقه الدبلوماسية المخابراتية، ويعرف منه كل محادثاتي وأخباري وأسراري. وأحياناً كنت أجفل عندما كنت أشعر فجأة أنّه يراني حين أفتح صفحة الحوار معه على الواتساب لأعاين بفضول صورة بروفايله الجديدة، ولأعرف موعد آخر ظهور له «أون لاين».

ورغم كل شيء، كان قلبي الذي ذاب في حب رجل سواه، واثقاً من أنه سيعاود الاتصال يوماً كأن شيئاً لم يكن. كيف ومتى، لم يعد الأمر مهماً الآن، كما لم يكن في الحقيقة مهماً ومصيرياً في أي وقت. سيعاود الاتصال فقط ليقول أنا هنا، ثم سيعود للهرب مخترقاً جدران حياتي من جديد، قبل أن يطالبه حبي بالمزيد، وقبل أن يغريه حبه بالبقاء. سيتبخّر ثانية في عالمه الأثيري الذي لم ينكر الانتماء

إليه ولم يتنكّر له يوماً.

عندما رنّ هاتفي رنّة السكايب ذلك المساء، وقرأت اسمه على شاشة الموبايل، أصابني ذهول وجمود لبرهة من الوقت، حدّقت في الاسم طويلاً كأنني أرى غائباً عاد من سفر طويل. لقد وصل أخيراً الاتصال الذي لم أعد في انتظاره.

دقّ قلبي بعنف عندما حركت إصبعي على الشاشة لأسمح للاتصال أن يتم.

ألو. قلت بصوت متماسك وجدي، فأتاني صوته مرحاً ومتحمساً.

هاااي لمياااااااا.. كيف حالك؟

قبل أن أتصنّع التماسك والجديّة ثانية لأجيب، شعرت أن الهاتف تجمّد في يدي، لم أعد أسمع شيئاً، نظرت لأعرف ماذا حصل، فلم أستوعب، تجمّد الاتصال!! فَصلتُ من طرفي، وأغلقت صفحة السكايب وحاولت إعادة فتحها، لكن رسالة صغيرة أعلمتني أن جهازي غير متصل بشبكة الإنترنت.

ما خطب شبكة الإنترنت الآن؟!

تساءلت بدهشة، وقفزت كالمجنونة لأعاين جهاز الراوتر، فوجدته يعمل بشكل طبيعي، عدت لمعاينة جهازي، فاكتشفت أن خيار الواي فاي ضمن قائمة إعدادات الجهاز «مغلق»!! وقبل أن استغرب وأسأل نفسي كيف أُغلق ذلك الخيار أثناء المكالمة، أعدت تفعيله بسرعة، وقبل أن أصل لإعادة الدخول إلى السكايب، كان الهاتف يرن ثانية، إذ أعاد أليكس الاتصال.

لميا.. كيف حالك؟

بخير.. وأنت.

أنا بخير أيضاً.. أخبريني أين أنت؟

كان الفضول يقتله ليعرف أين أنا وماذا أفعل، وقد قلت له إنني قد بلغت الاستقرار أخيراً في قلب مسقط رأسه مدريد. لم أقل له ما تعوّد أن يسمع مني دائماً، لم أقل إنني اشتقت إليه، لم أقل إنني أتلهّف للقائه، لم أقل أنني قلقة عليه نظراً لوجوده في بغداد، اكتفيت فقط بسؤاله:

وأين أنت الآن؟ أما زلت في بغداد؟

نعم ما زلت في بغداد، مهمتي هنا تنتهي عند حلول الصيف القادم أي بعد حوالى ستة شهور.

وماذا بعد ذلك؟

لست أدري، قد أعود إلى مدريد، أو قد أنتقل إلى أميركا، الأمر غير واضح بعد.

حسناً أنا أعرف.. ستختار الخيار الأصعب والأخطر! هنيئاً لك مقدماً وحظاً سعيداً.

ضحك بخفّة كما اعتاد أن يفعل وقال كما اعتاد أن يقول:

هذه هي حياتي، وهذا قدري، ماذا أملك أن أفعل!

لست مضطراً لأن تفعل شيئاً مادامت هذه الحياة ترضيك، حظاً سعيداً بكل الأحوال.

أخبريني عن حلب، عن عائلتك، هل الجميع بخير.

نعم، لحسن الحظ أفراد عائلتي بخير حتى الآن، ولكن حلب للأسف ليست بخير.

أنا آسف جداً.. وماذا تتوقعين؟

أتوقع؟ أنا من سيتوقع؟ مرحباً.. أنت هو الخبير هنا، يجب أن أسألك أنا هذا السؤال، أرجوك أنت قل لي، ماذا تتوقع؟

للأسف الكارثة كبيرة ومستمرة.

وانخرطنا في حديث طويل ناقشنا فيه مسؤولية كل الأطراف عن المأساة التي تجري في سوريا. كنت أتحدث إليه، وعيناي مثبتتان على وجه جيرارد المبتسم أمامي في صورة أنزلتها من الويب وطبعتها هنا مع صور أخرى لعائلتي ووضعتها في إطار جميل على رفّ بارز من مكتبة غرفة الجلوس. كنت أستمد القوة والثقة من تلك الابتسامة وأتحدى أليكس بتثبيت نظرتي هناك.

وقبل أن ينهي المكالمة التي خَلَتْ من أي لمحة غرام، قال إنه سعيد لأنه اطمأن عليّ، وسعيد لأنني في إسبانيا وليس في باريس حيث سمع بوقوع اعتداء إرهابي بالأمس فخشي أن أكون قريبة من المكان فاتصل ليطمئن!

باريس؟ ما الذي سيأخذني إلى باريس؟ ضحكت في نفسي وقلت يا للمحاولة الفاشلة، يا للحجة التافهة!

لقد ذكرتِ لي مرة أنه عُرض عليك العمل في فندق في باريس يملكه رجل سوري، أليس هذا صحيحاً؟

آه نعم، لكنني لم أذهب لأنني لم أتمكن من تأمين رخصة للعمل في فرنسا. اطمئن، أنا في مدريد، سالمة وحيّة أرزق.

هذا يسعدني يا عزيزتي، انتبهي إلى نفسك، ولا تنسي أن تطمئنيني عنك من وقت لآخر برسالة واتساب، قبلاتي لك.

شكراً.. أليكس.

وفصلت، دون أن أرسل له القبلات التي كنت قد اعتدت أن أُغرق الأثير بها.

فصلت، وأنا فخورة بنفسي، إذ كنت قوية متماسكة وهادئة. لقد ناقشته بأريحية واسترخاء كأنني أناقش أحد إخوتي. لكن تماسكي وصفاء ذهني لم يمنعا قلبي من أن ينبض بعنف، ولا كفيَّ من الارتجاف. وتذكرت كيف اختفت إشارة الواي فاي من التلفون فجأة، وعاودت سؤال نفسي بدهشة،

كيف حصل هذا؟ هل قمت لشدة ارتباكي بلمسة عشوائية على شاشة الموبايل؟ ولكن، كم لمسة عشوائية كان عليّ أن أقوم بها لأتوصل إلى إلغاء تفعيل الواي فاي؟! فكّرت فجأة بالسمكتين البرتقاليتين الميتتين على سطح الحوض الصغير، وسألت نفسي، هل هي شحنة من الطاقة السلبية مجدداً؟

إذا كان أليكس يستخرج مني طاقة سلبيّة مدمِّرة، فقد كنت مقتنعة أن جيرارد يستخرج طاقتي الإيجابية الخلاّقة. من أجل هذا السبب بالذات، كنت لا أشعر بالذنب معه بل بالفخر. نعم، كنت فخورة بـأنني استطعت أخيراً أن أصل إلى بداية طريقي المنتظر، وكنت مؤمنة أن دعمه المباشر وغير المباشر لي، هو من أهم أسباب تماسكي وتفاؤلي وشجاعتي في مواجهة المجهول. آمنت أن فرحة قلبي بحبه ونظرتي الإيجابية الجديدة، هي من أرغمت الحياة أن تصبح بدورها إيجابية معي، وأن تمنحني الهدايا التي كنت أستحقها منذ زمن بعيد ولم أحصل عليها.

صرت أستمتع برؤية وجهه الحبيب بين الحين والآخر بعد أن طلبت إليه ذات مرة أن يفتح الكاميرا أثناء المكالمة عبر السكايب، طبعاً كان علينا أن نتحيّن فرصة غياب بريجيته كي نستمتع بهذا الترف. رؤية ابتسامته وعينيه وطريقته في الكلام وتعابير وجهه، أمور كانت تعذبني وتزيد من شوقي إليه. كنت أشعر بالحزن يغمرني عقب انتهاء كل مكالمة مرئية. وكنت لقتل ذلك الحزن أستحضره بطوله الفارع ووجهه الجميل، وأمدده بجانبي على الفراش، مستمتعة بالنوم على صدره وفي دفء ذراعيه، وبالاستيقاظ أمام نظرات عينيه المتيَّمتين اللتين كانتا هما القصة الأصلية منذ اللحظة الأولى، القصة كلها.

انتظمت أيامي في حياتي الجديدة التي بدأتها عندما انتقلت إلى شقتي العزيزة، بنظام قريب إلى حدّ كبير بذاك الذي كنت أحلم به لحياتي المثالية.

ففي الأيام التي لم يكن عليّ فيها الذهاب إلى المعهد، أو إلى مقر كاريتاس للمساعدة ببعض الأعمال المكتبية، كنت أسترخي في الصباح وأتناول الفطور في فراشي، وأنهض متأخرة لأمارس بعض الأعمال المنزلية أو لإعداد الطعام. بعد الظهر كنت أتفرّغ للكتابة التي كنت أستمر بها حتى ساعات الفجر الأولى، تلك الخربشات التي بدأتها في بيت فرناندو، بدأت تأخذ شكلاً جديّاً وكأنها تتحول إلى رواية، كنت مع كل كلمة أخطّها أشعر بمزيدٍ من الاستقرار والأمان، كنت أشعر بالرضا والاكتفاء، كنت أشعر بالإشباع. الكتابة كانت تمثّل عندي في اللاوعي المهنة التي خُلقت لأمارسها، وفي كل السنوات التي كنت فيها قد انقطعت عنها، كان يسكنني شعور بالذنب وبالبطالة.

بكتابتي تلك الخربشات، شعرت أنني أصالح ذاتي، وأنني أعود بعد بطالة طويلة إلى ممارسة مهنتي كأي فرد صالح في هذه الحياة.

جيرارد كان يسألني دائماً عن روايتي ويبدو سعيداً جداً بها، إذ أدرك دون أن أبوح أنا أن دخول حبه حياتي هو من أعاد إليها التوازن، وفجّر فيها الطاقات الإيجابية الخلاقة التي أعادتها إلى عنفوان المراهقة، حين كنت صبيّة متحمّسة تزرع الأوراق البيض بالقصائد والروايات دون أن تفكر بالنتائج.

بعد نكسة روايتي الأولى التي رفضت دار النشر طباعتها ونشرها، صرت أشكّ جدياً بموهبتي. توقفت عن الكتابة رغم أنني كنت أستطيع أن أكتب، لأنني لم أشأ أن أكتب كلاماً ميتاً وأفكاراً مكرّرة تفتقر إلى الإبداع. كنت ألاحظ أن المكتبات كانت تغصّ بآلاف الكتب، بينما المقروء منها يعدُّ على أصابع اليد الواحدة. أنا كنتُ أريد أن أصنع كتاباً ليُقرأ وليُشكّلَ فرقاً، ولم يكن يهمني أن أصنع كتاباً لمجرّد أن ينشر، وينام بكسل على رفوف المكتبات.

كنت أحلم بكتاب أبوح فيه بما في نفسي بحريّة، دون أن أفكّر برد فعل كثير من الأطراف على كثير من القضايا التي كانت تستفزّني لأكتب رأياً مباشراً واضحاً عنها. كان صعباً أن أُخرِج من داخلي كاتبة صادقة، في بلد تربّينا فيه مع الخوف. الخوف الذي عشّش في نفوسنا وخلايانا حتى دخل في جيناتنا ضمن تركيبة الحمض النووي السوري. جيناتنا هذه للأسف، التي نحملها معنا اليوم أينما حللنا، لا يتشكّل منها مجتمع حرّ، ولا إنسان حرّ، ولا كاتب حرّ. وقد كان على الباحثين عن الحريّة من أشباهي، إما أن يخضعوا لعمل جراحي موجع أو انقلابي معقّد، يستأصلهم من وطنهم ويستأصل من خلاياهم كروموزوم الخوف، الذي زرعته فيها حوالى أربعين عاماً من الترويض في حظيرة الوطن، وإما أن يصمتوا بحذر وصبر، وأن يمارسوا حريتهم كعادة سرية، وأن يتعايشوا بسلام مع تلك الفضيلة الأكبر التي يتمتّع بها حاملو الهوية السورية المعاصرة.

حين أخبرت أهلي أنه قد طُلب مني عبر مؤسسة كاريتاس التي ترعاني أن أقدّم حديثاً لصحيفة مشهورة عن خبرتي في الحرب واللجوء، فرحوا للوهلة الأولى ثم بدؤوا بتقديم النصائح لي، الواحد تلو الآخر، بدءاً من أبي وصولاً إلى أصغر فرد في الأسرة.

انتبهي، إذا سألوك في السياسة، فلا تتورطي بقول شيء قد يضرّ بك وبنا!

نعم اطمئنوا، لن أقول شيئاً.

وحين سألتني الصحفية عن رأيي بالمتسبّب في تلك الكارثة التي دمّرت بلدي ودمّرتني وأذلّت شعبي وأذلّتني، تلعثمت وقلت لها:

كل الأطراف مسؤولة عما حصل!

ومن برأيك الذي بدأ؟

ليس مهماً من الذي بدأ، الوضع صار معقّداً وصعباً، وما نحتاج إليه الآن هو أن نوقف هذه الحرب، ومن ثم قد نتحدث في السياسة.

لست أدري إن كان واضحاً بالنسبة إليها أنني أتهرّب من الإجابة، لأنني كنت أخاف. حتى وأنا على بعد آلاف الأميال، فإن هويتي السورية المعاصرة المتمثّلة بالخوف تسكنني وتسيّرني وتلجمني. حتى وأنا لاجئة ذليلة وفاقدة لكل ما كنت قد جنيت، أخاف من التصريح باسم من ساهموا بتشريدي ودماري، ومن بادروا بإذلالي وشاركوا بإحراق ذكرياتي وجنى عمري.

حين شكرتني الصحفيّة ولملمت أجهزتها وأوراقها ومضت، شعرت بالألم يعتصر قلبي. وسألت نفسي، إلى متى وإلى أين؟ ستلاحقنا هذه اللعنة القومية وتكمّ أفواهنا؟ متى ستحلّ المعجزة، التي ستفكّ ذلك السحر الأسود، لتحرّرنا.

* * *

«عزيزي، أريد أولاً أن أطمئن أنك بخير، وبعد، أعتقد أن لديك ما تخبرني إياه! إذا كان اعتقادي في مكانه، فأنا جاهزة لأن أسمع، أو أقرأ. (هل ما زال بإمكاني أن أقول إنني اشتقت إليك؟!)».

أرسلتها إلى جيرارد بعد انقطاع دام ستة أيام. ستة أيام لم يكلّمني فيها ولم يرسل رسالة، رغم أنني أعرف أن بريجيته مسافرة وليست في بريغنز. شعرت بشيء غريب ما، وأدركت (حسبما تعلمت من كتاب الرجال من المريخ والنساء من الزهرة) أنّه دخل الكهف، وانتظرت بهدوء أن يخرج من كهفه، لكن صبري نفد في اليوم السادس، فقررت أن أعرف ماذا هناك مهما كلفني الأمر.

«ما زال بإمكانك أن تقولي أي شيء حبيبتي. أنا - للأسف - لست بمزاج جيد، أنا مكتئب

ومتعب، لقد قفزت إلى القطار لتوي متوجهاً إلى سالزبورغ لحضور مؤتمر طبي هناك، أنا آسف سأكتفي بالكتابة ولن أستطيع أن أتكلم معك فالمكان مزدحم جداً هنا، كيف حالك، هل كل شيء على ما يرام؟ بالنسبة إليّ فأنا لست بخير، أنا منهك وأشعر وكأنني محبوس في قفص».

وجدت جوابه هذا بعد انتهاء درس اللغة الإسبانية الذي دخلته بعد أن أرسلت له رسالتي، كان قد أرسله منذ حوالى أكثر من ساعتين.

«قفص؟ هل بريجيته ما زالت خارج بريغنز؟».

أرسلت إليه فأجاب بسرعة:

«ستعود اليوم مساءً، وهذا هو السبب الرئيسي وراء هروبي إلى سالزبوغ».

«أنا آسفة يا عزيزي. هل تستطيع الآن أن تتكلم، أم أنك ما زلت في القطار».

«ما زلت في القطار، لن أصل قبل ساعة».

«أخبرْني صراحة، هل تشعر بأنني، بطريقة ما، أشكِّل ضغطاً عليك؟».

«أنتِ؟ أنتِ لا تضغطين عليّ إطلاقاً، القفص هو بريجيته!».

«عزيزي، عليك أن تسترخي، وأن تصفّي ذهنك، هل أستطيع أن أرسل لك قبلة؟».

«أنا أشعر بقبلتك فوق شفتيّ. سأحاول أن أسترخي الآن وأن أصفّي ذهني. الطريقة الأفضل لفعل ذلك هي أنت، أن أفكر فيك، أن أتخيّلك معي، جالسة هنا بقربي.. قبلاتي لك حبيبتي، وكل ما هو أكثر من القبلات!!».

كنت أتمنى لو كان الظرف أفضل، ليحكي لي أكثر عن القفص الذي يعاني من العيش فيه. هذه هي المرة الأولى التي يعترف لي بها بكل هذه المرارة بمعاناته مع زوجته، ناهيك عن موضوع تبادل الخيانات القديم.

شعرت بنوع من التشفّي غير الشرير، وطمأنت نفسي أنني ألعب الدور الصحيح في حياته وليس المدمّر، إذ أكدّت لي تعاسته اليوم أن هذه المرأة لا تستحقه، ولن تشفع لها سنوات زواجهما الثلاثين عندما سيحطّم طيرها قضبان ذلك القفص، ليحلّق نحو حريته وسعادته.

بعد يومين كتب لي:

«أنا في طريقي إلى محطة القطار عائد إلى الفورالبورغ. لقد تحسّن مزاجي فعلاً وأشعر بالاسترخاء. إنها تمطر بغزارة. سالزبورغ هي المدينة النمساوية الأكثر هطولاً، لكنها مع ذلك من الممكن أن تصبح الأكثر رومانسية عند التسكّع في شوارعها القديمة تحت مظلّة واحدة معك! لقد اشتقت إليك».

«إنها تمطر هنا أيضاً، سأرسل إليك بقبلة تحت المطر».

«لقد وصلت القبلة، لكنني أرغب بالمزيد!!!».

لم أقل له إنني أنا أيضاً أرغب بالمزيد، لكنني لم أستطع أن أخفي هذا الموضوع عن نفسي، أحبه، أشتاق إليه، إلى قبلاته وإلى المزيد والمزيد.

كنت أصمت، وأحتفظ بحقي في الرد، بحقي في الطلب، طلب ما هو حلالي في شرع الحب. أحتفظ به إلى أن يحين الأوان. ولكنني أكذب إن قلت، أنني رغم كل ثقتي وإيماني بجيرارد، كنت أشكّ للحظات، بأن مسألة تحطيم القفص، قد تحتاج إلى رجل آخر، يختلف عن هذا الطبيب الوديع المسكون بطالب الدير المطيع، الذي لم يتصرف ولا مرّة واحدة في حياته بجنون.

في إحدى جلساتنا القليلة في بريغنز، وحين كنت أحكي له عن نفسي، وكيف كان ينعتني أهلي وأصدقائي أحياناً بالمجنونة. نظر إلى المدى البعيد بعمق وحسرة وقال:

أنا لم أفعل شيئاً مجنوناً في حياتي!

أبداً؟

أبداً.

لكنك تفعل الآن، هل هناك جنون أكثر من هذا.

حدّق إليّ بدهشة كأنني كشفت له سرّاً، وقال ببراءة طفل طيّب:

هل تعتقدين ذلك؟

ضحكت يومها من كل قلبي من طيبته، التي كانت تريحني وتخيفني في الوقت نفسه، إذ كنت

أعرف أن زوجته تستغلها أفضل استغلال، لتفرض سيطرتها الكاملة عليه. السيطرة التي سيكون صعباً عليه أن يتخلّص منها بعد إدمانها لأكثر من ثلاثين سنة.

وكنت أستغرب كيف يستطيع أن يكذب عليها، وهو على هذا الكمّ الكبير من الوضوح، إذ كان يبدو لي وكأنه أوضح رجل في الوجود، مقارنة مع غموض أليكس. الأرواح الخبيثة كانت تهمس أحياناً في أذني: «إذا كان يستطيع أن يكذب بسهولة ويخفي حقائق عن زوجته، التي ربتّه على يديها وتعرف كل خفاياه وتفاصيل حياته وشخصيته والتي تعيش معه في بيت واحد، أفلا يستطيع أن يكذب عليك أنت التي لم تقابليه سوى مرات معدودة، وتفصلك عنه آلاف الأميال؟!».

كان يبدو طرحاً منطقياً، وعندما كنت أبحر في خضمّه، كنت أتخيّله داهية وزير نساء، يكذب عليّ وعلى زوجته، وعنده غيري وغيرها الكثير من العشيقات. لكن ذلك الخيال البشع سرعان ما كان يتبدّد، لأن المنطق يتعطّل دائماً حينما يسود الحب. أنا أثق به، لأنني في صميم قلبي أشعر بهذا، لأنني أحبّ هذا، ولأنني بصدق أكبر، أحتاج هذا، أحتاج أن أثق به، لأثق بالحياة من جديد.

والمنطق على أي حال، له احتمالات كثيرة وغير محصورة بتلك التي تدّعيها أرواحي الشريرة، مثلاً: من المنطقي أن يحبّني، أنا المرأة الجميلة المختلفة التي ظهرت أمامه فجأة، وهو الرجل العالق تحت سيطرة امرأة ليست باللطيفة ولم تعد بالجميلة. أنا الحرية والإثارة والحب، وهي القفص والملل والتسلط. يقول المنطق، إنها بالضغط الذي تمارسه عليه، قد دفعت به في اتجاهي، وقد أحبني فعلاً، ولكن، إلى أي مدى يمكن أن يذهب به هذا الحب؟ هذا ما أنا الآن بانتظاره! ما تراه يقول المنطق؟

المنطق مؤجّل، القرار مؤجّل، الشكّ مؤجّل، والحزن مؤجّل، إلى ما بعد اللقاء المرتقب الذي أنتظره بفارغ الصبر. لقد وعدني أن يأتي، وأنا أصدّق وعده.

وقد أتى اليوم الموعود، جاء إليّ حبيبي الرائع الذي طلع لي ذات ليلة صيفية من قلب الألم. المؤتمر الطبي في باريس الذي طال بحثه عنه وانتظاره له، عُقد أخيراً، وقد شارك في حضور فعالياته ونشاطاته لمدة يومين، وطار إلى مدريد بشكل سري في اليوم الثالث، مفوّتاً المشاركة في طقوس الاختتام، متطلّعاً إلى الاحتفال بتأدية طقوس أخرى، أكثر دفئاً وإثارة وجمالاً.

لم يكن يجرؤ أن يعلن أمام بريجيته أنه ذاهب إلى إسبانيا، كانت ستشكّ باعتبارها تعرف أنني هناك، فرتّب لحضوره ذلك المؤتمر في باريس، على أن يلاقيني هنا فقط ليومين قبل أن يعود أدراجه إلى باريس، ومن ثم إلى النمسا.

لم يشأ أن ألاقيه في المطار، حمل حقيبته وشوقه ورغبته المتّقدة، ولاقاني على باب بيتي بمشهد درامي.

كنت أعرف أن طائرته ستصل في العاشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين، فانزرعت كشتلة عطشى على الشباك منذ العاشرة والأربعين. في الحادية عشرة والخامسة والأربعين، توقّف تكسي أمام باب العمارة، ونزل منه رجل طويل وسيم، بشعر ناعم يغلبه بياض أنيق مثير ونظارة سوداء الإطار.

نسيت أن أتنفّس وكاد أن يتوقف قلبي، وددت أن يبطئ الزمن منذ هذه اللحظة لأستمتع بكل ذرة أثير تهيم في فضاء هذين اليومين اللذين لا أعرف بعد كيف سأعيشهما ومتى سأعود لأعيش مثلهما.

فتحت باب الشقة، وخرجت وألصقت نفسي بباب المصعد الذي كان يحمله إليّ، ووصل أخيراً، بأجمل ابتسامة يمكن أن ترتسم على وجه إنسان.

قفزت إليه وتسلقت قوامه الفارع الذي بدا لي كجبل الأولمبوس الذي تسكنه كل الآلهة، حملني بخفة ورفعني إلى المعبد المقدّس، فقبّلته كصلاة افتتاحية لطقوس عشق خيالي نبت كواحة في قلب الصحراء.

دخل بي إلى البيت ونسي حقيبته في المصعد، ولم يتذكّرها إلا بعد ما لم نحصِه من القبل، ولم نشبع منه من العناق.

أخيراً. قال لي.

أخيراً. أجبته.

بعد قبلة أخرى سألته إن كان متعباً، فقال لا، الرحلة استغرقت جواً ساعتين إلا خمس دقائق فقط. سألته إن كان جائعاً، فقال نعم، جائع إليك! ولا تسألي أسئلة أخرى فليس من شيء مهم بعد، بما أنك الآن بين يديّ.

أسندت رأسي على صدره وكدت أن أجهش بالبكاء، لكن نوبة من المرح اجتاحتني فجأة فقلت له:

تعالَ أُرِك بيتي.

درت به في أرجاء الشقة الصغيرة، فوجد صوره موزّعة في الغرف ضمن أُطُرٍ جميلة، استغرب، وقال:

هذا كثير!!

ماذا؟! ألم تعجبك؟

ليس هكذا، لكنني لا أحب نفسي في الصور.

لكن أنا أحب. إنها فقط وسيلة لتشعرني أنك معي في البيت، وأنك فرد من أفراد عائلتي وواحد من أحبّتي.

وأشرت له إلى بقيّة الصور الموزعة في الغرفة، لكل أفراد عائلتي.

لا أستطيع أن أعيش من دونهم، أو بالأصح، لا أستطيع أن أعيش بفرح من دونهم.

لففت ذراعيّ حول خصره وضممته بحنان إلي.

ولا من دونك.

ضمّني بدوره بقوّة وقبّل رأسي، وقال لي بالألمانية:

أنت محبوبتي الغالية. «Du bist meine lieber schatz».

عندما فتح حقيبته وأخرج العلبة الأنيقة وقدّمها لي، لم أفتحها بسرعة بل حاولت تخمين ما الذي يمكن أن تحتويه:

كرز؟

أبداً! لا مزيد من الكرز!

ضحكت وأنا أتذكّر فرح التي ضبطته متلبّساً، حاملاً كيس الكرز ذاك.

افتحيها. قال، ففعلت بصبر نافد.

تحت الورقة اللامعة، وجدت علبة أنيقة وثمينة، ممهورة باسم شركة عالمية، دقّ قلبي، إذ خمّنت ما يمكن أن تحوي علبة كهذه.

آه، هذا كثير! قلت قبل أن أفتح العلبة، كأنني خفت من الذي يمكن أن أجده داخلها.

افتحيها أولاً، أتمنى أن تعجبك.

فتحتها منقطعة الأنفاس، فإذا بسوارٍ ذهبي غاية في الأناقة والنعومة، مرصّعٍ بأحجار صغيرة من الألماس، من موديل حديث ومشهور.

آه جيرارد، هذا غالٍ جداً!

ماذا تقولين لميا؟ أنت هي الغالية فقط، وتستحقين أكثر بكثير من هذا السوار التافه.

لا ليس تافهاً، إنه جميل جداً، شكراً حبيبي، شكراً جزيلاً.

لا داعي لأن تشكريني أرجوك.

ضممته وقبّلته بفرح وخجل، وفكّرت بالتناقض الغريب ما بين وضعي كلاجئة مفلسة، وامتلاكي لهذه القطعة الغالية التي لن أجرؤ على وضعها في رسغي أمام أحد، كي لا أُسأل من أين لكِ هذا!!

وفكّرت وأنا في حضنه، لو أنه أحضر لي خاتماً عوضاً عن ذلك السوار! أما كان الإيحاء سيصبح أكثر رومانسية؟ كنت سأعتبر نفسي خطيبته، بمجرد أن أضع خاتمه في أصبعي! وكنت

سأقول له في قلبي: «نعم أقبل». هل تراه تعمّد أن يحرمني هذا الإحساس؟

عندما كان يحتسي قهوته أمامي كنت أتأمله بدهشة وأنا أفكر أنها المرة الأولى التي أراه فيها يشرب القهوة، حتى أنني لا أعرف كيف يحبها، وإن كان بالأساس يحبها أم لا. صنعتها له بطريقة جعلتها تشبه القهوة النمساوية، إذ أضفت لها بعض الحليب وقليلاً من السكر.

هل أعجبتك؟

ممتازة، Perfect!

رشفت من فنجاني وسألته:

في العادة هل تشرب القهوة بكثرة؟

لا. أشرب فنجاناً في اليوم، وعلى الأكثر اثنين.

ماذا تشرب في الصباح مع الفطور؟

أشرب حليباً، أو عصير برتقال.

Zumo de naranja؟ قلتها بالإسبانية، فابتسم وهزّ رأسه.

أنت تعرف هذه الكلمة؟

نعم.

قلت لي إنك لا تعرف الإسبانية!

أعرف بضع كلمات.

أنت تعرف كل شيء! قلت بتعجّب، وإعجاب.

سبق أن ذكرت لك أننا قضينا حوالى الأربعة أشهر في إسبانيا، حين كانت بريجيته تقوم بإعداد دراسة خاصة بعملها في أحد المعاهد هنا، تنقّلنا بين مدريد والكاسيا لامانشا.

نعم، عندما حكيت لك أنني ذهبت إلى كوينكا، قلت لي إنك تعرف كوينكا، وحين ذكرت لك أنني في توليدو، قلت إنك تعرف توليدو، كلما تحدّثت لك عن شيء أو مكان أو فيلم، تقول إنك تعرفه، أنت تعرف كل شيء!

ضحك ضحكته البريئة تلك وقال:

طبعاً أنا لا أعرف كل شيء، ولكن يحدث أحياناً من أجل الصدفة أن تحكي لي عن مكان أو شيء كنا قد زرناه أو نعرفه مسبقاً.

صمتّ، وقد استرعى انتباهي وغضبي أنه يتحدث دائماً بصيغة المثنى!

هلا تحدّثت معي بصيغة المفرد أرجوك؟ أريدك أن تتحدث عن نفسك كشخص، وليس كزوج بريجيته!!

لم يستوعب في البداية ما قلت، لكنه سرعان ما ارتبك وقال:

آه، أنا آسف، لم أقصد!

ندمت على ملاحظتي قاسية النبرة، ما كان يجب أن أطلب منه هذا! قلت لنفسي معاتبة. ما الجدوى من هذا؟ حتى إذا انتبه إلى ألفاظه أمامي، فأنا أعرف أنه سيبقى يفكر بصيغة المثنى، وكيف لا، وله معها كل هذا الهامش العريض والضخم من الذكريات والخبرات على مدى ثلاثين عاماً؟ أكاد أجزم أن معظم ما تعلّمه من أمور في الحياة، تعلّمه وهو معها! بينما أنا لا أعرف بعد ما نوع القهوة التي يحب!

بماذا تفكرين؟ سألني وهو يمسح بأصبعه الرقيق خدي.

لا شيء عزيزي، فقط أفكر بتلك الخبرات الكثيرة المتنوعة التي اختبرتها معها، والذكريات الكثيرة التي تجمعكما! إنه عمر طويل ذلك الذي عشتماه معاً! لا أدري ماذا أقول، هذا صعب جداً.

لقد بقينا معاً كل هذا العمر برغم كل تلك المرارة بسبب الأولاد، فقط الأولاد.

ولكنك لا تستطيع أن تنكر أنكما قضيتما أوقاتاً ممتعة أيضاً، وزرتما أماكن رائعة.

طبعاً لا أنكر، لكن كل تلك المتع لا تقارن بمتعة وجودي معك، وأكرّر أنني لم أبقَ معها من أجل أن نسافر معاً، أو نلهو ونستمتع ونختبر غرائب الأمور معاً، كل تلك الأمور كان من الممكن أن أقوم بها مع أي شخص آخر، لكن الأولاد، هم أولادها هي، ولم يكن من الممكن أن أعطيهم حياة صحية وسعيدة إلا معها هي، وبالتالي، عشنا العمر هكذا كما ترين.

نعم عزيزي أنا أفهم.

أنا أفهم، ولا أحب ما أفهمه!

ألم تشتقْ إلى مدريد؟ قلت بهدف تغيير الجو، علّنا نخرج قليلاً ونصنع لنا معاً شيئاً من الذكريات في هذا المكان.

بلى، لكنني اشتقت إليك أكثر.

ابتسمت وقد استسلمت بسهولة للإغراء.

هل تريد أن تجرّب الاسترخاء في غرفتي؟

أريد أن أجرّب غرفتك، ولكن أريد أن أجرّب فيها شيئاً آخر قبل الاسترخاء.

حملني كعصفورة سعيدة أرخت جناحيها على كتفيه، وطار بي إلى عالم من خيال، ولذّة وحب.

جرّبنا أخيراً الاسترخاء معاً في غرفتي الجميلة. هو نام ملء جفنيه، وبقيت صاحية محتارة أين أريح رأسي، أعلى كتفه أم صدره؟

على كتفه خبأت وجهي في عنقه الدافئ، وانتشيت برائحته الزكية الحبيبة، وعلى صدره ألصقت أذني بقلبه، وأحصيت نبضاته وأنا أحاول أن أفهم ماذا تقول. وما بين رائحة عنقه وصوت نبضات قلبه، شممت رائحتها وسمعت صوتها، الذي كان نشازاً عكّر صفو جنّتي وهنائي.

في المساء، خرجنا معاً لنعمّد حبنا تحت سماء مدريد، منيّت نفسي بالتسكّع في المدينة التي عشقت وأنا محتضنة الرجل الذي أعشق، لكنه قال بمجرد أن نزلنا:

دعينا نجد مطعماً جميلاً وهادئاً لنتعشى ونشرب كأساً.

حزرت أنّه كان خائفاً من أن يراه أحد أصدقاء بريجيته الإسبان وهو يحتضن امرأة أخرى في الشارع، عذرته، إذ فكّرت بكميّة الإحراج التي يمكن أن يسببها هذا الموقف له ولي، وللقائنا هذا بالمجمل، لكنني لم أمنع نفسي من التساؤل بصمت وخيبة ونحن ندلف إلى المطعم: «ولكن ماذا عن أمنيتي؟!».

أثناء العشاء في ذلك المطعم الجميل، وبوجه ترتجف الظلال على ملامحه خلف لهب شمعة صغيرة، كان يحدّثني عن أولاده، وكنت سعيدة بالاستماع إليه. كنت أرتشف الكلام من شفتيه بلذّة تفوق لذّة ارتشاف المشروب الإسباني الفاخر. بين كأس وأخرى، كان ينتقل بي من قصة ابن إلى آخر. كان يتحدث عنهم بافتتان يقارب الوله، وكنت أصغي وأعلّق بشغف يقارب الابتهال. نسيت أن أطرح عليه ذلك الموضوع الذي أجّلته طويلاً حول شرعية وجودي في حياته ومستقبلي معه، كنت مسترخية، منتشية وسعيدة، إلى درجة لم أعد أفكّر معها بشيء خارج حدود لحظتي تلك، ولم أعد أطلب شيئاً أكثر

من عيشها بكل أبعادها. كنت مستسلمة لدفء صوته، ودفء كفّه التي لم تتخلَّ عن كفي، إلا لتلتقط الكأس، التي كان يشرب منها نخب محبوبة قلبه، أجمل امرأة في الوجود، التي هي أنا.

وعندما عدنا إلى البيت، نمت ليلتي تلك في حضنه ملء جفوني، مطمئنة إلى ذراعيه الحنونتين اللتين كانتا تطوّقان من الخلف خصري، ومنتشية بأنفاسه الدافئة التي كانت تدغدغ أذني وعنقي، مُخدّرة بما كان قد سقاني من شرابه وحديثه ونظراته التي لم أرَ مثلها في عيون رجل آخر، والتي أغنتني عن التفكير في الغد، وعن التفكير في الأمس. ضاعت ملامح زوجته من مخيّلتي، ومُحيت بصماتها عن جسده وتلاشت رائحتها في خضّم لقائنا الجميل، وصارت قضية وجودها في حياته باهتة وتافهة، أمام روعة وجودنا معاً، وعنفوان حبنا الذي توهّج بأبهى حالاته في تلك الليلة.

في الصباح التالي، نزلنا وتناولنا الفطور في مطعم صغير قريب، وعدنا إلى المنزل ولم نغادره حتى موعد الطائرة في المساء. تحدّثنا عن كل شيء إلا عن مستقبل علاقتنا، لم أرغب بأن أستدرجه لذلك الموضوع لأنني لمست أنه غير مستعد بعد لأن يهدم حياته ويعيد بناءها من جديد، خفت أن أفسد هذه النشوة الجميلة التي كانت تلعب بخفة في روحينا وقلبينا هذا اليوم، أشفقت على تلك الساعات القليلة التي اقتنصناها من الزمن، من أن تُهدر في جدال مؤلم أقنعت نفسي بأن زمانه لم يحن بعد.

عندما حان موعد السفر، لم يرضَ أيضاً أن أرافقه إلى المطار، ودّعني في البيت بعناق حنون وطويل.

شكراً لأنكِ هنا. همس في أذني.

شكراً لأنك أتيت. أجبته.

أنتظر أن تنتهي من كتابة روايتك، أتلهّف لقراءتها.

وقبل أن يقبّلني القبلة الأخيرة سألته وأنا معلّقة على قمة جبل الأوليمبوس.

هل تعدني؟

أعدك حبيبتي.

ونزلت من قمة جبلي المقدس، فنزل بدوره إلى التاكسي الذي وصل بعد أن كان قد طلبه مسبقاً.

كان يعرف ما أريد: «أن أراه ثانية». وقد أعطاني كلمته، التي حفظتها في قلبي كزهرة ربيع، جفّت مع الأيام وتحوّلت إلى وجع عميق.

ربيع حبنا الذي أزهرت براعمه بألوان خلابة، استحال خريفاً كئيباً فجأة قبل أن يأتي الصيف. لكن رياح ذلك الخريف العاتية التي اقتلعت الأزهار وأطاحت بها في فضاء قاتم، غفلت عن برعم صغير بقي مختبئاً ومعلّقاً بأعجوبة غريبة على غصنه، وأثمر ثمرة صيفية غضّة، في خريف جاف عاصف وموحش.

لقد وقع المحظور، وعرفت بريجيته أنه كان عندي، لم نعرف كيف عرفت ومتى، لكن مجرد معرفتها بالأمر، كان كارثة كبرى بالنسبة إلى الزوج المستلب المقموع من قبل زوجته القوية المتسلطة.

اتصل بي في مساء اليوم التالي لمغادرته. عندما سمعت الرنّة الخاصّة به، كنت أتسلّق الكنبة لأعلق فوقها شريطاً على شكل أعشاب خضر مزينة بكرات حمر وذهبية لامعة، كجزء من ديكور الميلاد الذي كان على الأبواب. رقص قلبي وتركت الشريط من يدي وقفزت عن الكنبة، وهرعت إلى هاتفي أبحث عنه، وأنا أفكّر بالأشواق التي سيبثّني إياها لافتقاده إياي بعد لقائنا الرائع ذاك.

مرحباً لميا.

مرحباً حبيبي، كيف كانت رحلتك؟

جيدة لا بأس، كيف حالك أنت؟

أنا فقط، اشتقت إليك، اشتقت إليك، اشتقت إليك.

وأنا اشتقت إليك أكثر، حبيبتي، لكنني لست بخير!

لست بخير؟ ماذا حدث؟ ما الموضوع؟!

بالأمس عندما وصلت ليلاً، كانت بريجيته في انتظاري، كانت تعرف

أنني كنت في مدريد.

وإذاً؟!

عرفت أنني كنت عندك، فلم أستطع الإنكار، لقد أوقعت بي.

كيف عَرفتْ؟

لست أدري، لم تخبرني كيف، فقط أخبرتني أنها تعرف.

ماذا قلت لها بالتحديد؟

لم تعطني الفرصة لأتحدث كثيراً، هي في ثورة عارمة الآن وأنا لا أعرف ماذا أقول.

عزيزي كان عليك أن تعرف أنك لن تستطيع أن تخفي الموضوع عنها للأبد.

نعم أنا أعرف هذا طبعاً، ولكن، لم أكن مستعداً للمواجهة الآن.

حسناً، لقد تمّ الأمر، عليك أن تواجهه الآن شئت أم أبيت.

أنا مرتبك جداً في الحقيقة، وآسف جداً.

أنا آسفة أيضاً يا عزيزي، من أجلك ومن أجل نفسي، لقد حاولت وسعي أن أؤجل هذه المواجهة حتى الوقت الذي نشعر فيه أننا مستعدان لها، لكنها حصلت الآن رغماً عنّا! أخبرني ما الوضع؟ ماذا تنوي أن تفعل؟

أعتقد أنني وبريجيته يجب أن نتحدث الآن عند عودتي إلى البيت.

وما الذي في ذهنك؟ ماذا ستقول لها؟

لا أعرف بعد، المشكلة أنه ليس عندي أي حجة الآن، لقد كانت طيّبة معي في الأيام الأخيرة، لقد تغيّرت بشكل ملحوظ.

ما الذي تتحدث عنه؟! اعذرني فأنا لن أملي عليك أقوالك وقرارك، ولكنني مؤمنة أن هذه المرأة التي عشت معها ثلاثين سنة لم تعطك السعادة التي تستحق، أنا مؤمنة أنك لم تأتِ إليّ بسبب جمالي الذي لا يقاوم ولا لأنك رجل منحلّ يلاحق شهواته ونزواته ويحب أن يخون زوجته، لقد جئت إليّ لأن هنالك خللاً ما في علاقتك معها، لقد جئت لأنك كنت تفتقد الحب والفرح في حياتك، وأنا كنت مؤمنة أيضاً أن رجلاً مثلك يستحق أن يعيش حياته بحب وفرح.

طبعاً لميا، ما تقولينه صحيح، أنا أفتقد للحب والفرح معها، لكنني كنت أتجاهل هذا لأجل الحفاظ على العائلة، العائلة التي تعني طبعاً أولادي الثلاثة.

أولادك كانوا بالفعل بحاجة إلى تضحياتك ليكبروا في جو سليم، لكنهم لم يعودوا أطفالاً الآن، من حقك، بل من واجبك تجاه نفسك أن تبحث عن حياة تجد فيها السعادة والرضى. إنها ليست خطيئة صدّقني، بل الخطيئة أن تعيش مقموعاً ومحروماً.

أنا لم أعتد البحث عن سعادتي بمعزل عن سعادة أولادي، لا أستطيع أن أفعل هذا.

اسمع جيرارد، أنا لا أحرضّك من أجل أن تتركها وتأتي إليّ، أنا أتحدّث بالمطلق. حتى إن لم تلتقِ بي، ربما كنت ستلتقي امرأة أخرى وتقع في حبها. إن كنت غير راضٍ عن حياتك مع بريجيته، لماذا لا تفكّر جديّاً بالانفصال عنها.

لقد فكّرت بهذا كثيراً وتمنيته، لكنه مشروع صعب جداً، بل ويوشك أن يكون مستحيلاً. هذا القرار سيهدم العائلة كلياً، فمن المؤكد أننا لن ننفصل بطريقة راقية وودّيّة، بريجيته ستحارب بكل قوتها وبكل الأساليب والأسلحة، وأنا أعرف مدى تعلّق الأولاد بها، ولن يغفروا لي أبداً.

أظلمت الغرفة من حولي وأنا أسمع هذه الكلمات، وحدّثت نفسي أن ما يحصل هو مجرد كابوس عابر اقتحم لحظة نعاسٍ ألمت بي فجأة، لم أستطع أن أصدّق أنني أعيش هذه اللحظات فعلاً، لست أملك القوة الكافية لأسمع منه المزيد، فبادرت:

حسناً عزيزي، اسمعني، إنها حياتك وأنت أدرى بها، والقرار يجب أن يكون قرارك وحدك. لا أريد أن أسمع منك المزيد، فأنا أعرف أنك الآن متوتّر ومرتبك. اذهب إلى زوجتك وتحدّث معها، ثم فكّر وقرّر بهدوء ما هو الأفضل لك. أنا أُفضّل أن أبقى بعيدة هذه الفترة حتى تفكّر بذهن صافٍ، وتتجنّب الوقوع في مزيد من المشاكل. بعد أن تتّخذ قرارك أعلمني به. عليك أن تعرف أنني كنت عاجلا أو آجلاً سأطلب منك الطلب نفسه، لأنه من غير المنطقي وغير المنصف لكرامتي وإنسانيتي وأنوثتي أن أعيش كعشيقة خفيّة لك طوال العمر، كنت فقط أنتظر أن يمر بعض الوقت، لأعرفك أكثر ولأثق بقراري أكثر قبل أن

أطلب منك تغيير مصير عائلتك لأجلي، للأسف، جاءت المواجهة في وقت أبكر مما أردت، إنها هنا الآن ولا نملك الفرار منها أو تأجيلها بعد. فكّر بهدوء وقرّر، وأخبرني.

لميا.. أنت تعرفين ما تعنين بالنسبة إليّ، تعرفين كم أحبك، تعرفين ماذا فعلتِ في حياتي خلال تلك الأشهر الأخيرة... هذا الموقف صعب جداً.

أعرف أنه صعب، صعب عليك وصعب عليّ، ولكن أين المفرّ؟

.....

أعرف أنه صعب عليك أيضاً أن تنهي المكالمة... حسناً سأنهيها أنا... حظاً سعيداً... عزيزي.

فصلت الخط، وأنا استرجع جملته الأخيرة التي قالها بصوت متهدّج وسألت نفسي: هل كان يبكي؟ هذا الرجل القوي الذي انتشلني برجولة من حطامي وأعاد ترتيب حياتي وأعطاني وجوده القوة والشعور بالأمان، هل تراه يبكي كتلميذ صغير خوفاً من مواجهة المعلّمة التي ضبطته يغشّ في الامتحان.

هل فاجأنا الموقف؟ بالطبع لا، كنّا نعرف أنه آتٍ لا محالة، كنّا أنا وهو مسترخيين في أحضان حبنا كآدم وحواء، نرمق التفاحة المعلقة على الشجرة فوقنا بصمت، ولا نجرؤ على قطفها خوفاً من أن نطرد من جنتنا. لكن رياح الخريف العاتية اقتلعت التفاحة أخيراً ورمت بها في حضننا لنُضبط متلبّسين، ولنستلم إشعاراً شديد اللهجة، بوجوب مغادرة فردوسنا الحبيب في اللحظة والتو.

نفضت رأسي بقوة، ورفضت أن أنهار، قمت إلى شرائطي الخضر وكراتي اللامعة الحمر، التقطتها وتسلقت الكنبة من جديد لتعليقها على حامل الستارة الخشبي. أردت أن أتابع عملي وحياتي رغم ما كان، هذا العمل الذي بدأت به منذ نصف ساعة، كامرأة مبتهجة راضية تتراقص طرباً وثقة بالحياة، أكمله الآن، كامرأة كسيرة القلب مهيضة الجناح، تقاوم الانهيار وتترقب انقطاع آخر خيط يربطها بالحياة.

دموعي لم تتساقط إلا عندما دخلت غرفة نومي، ورأيت ابتسامته تطلّ من الصورة قرب سريري كأن شيئاً لم يكن، مددت يدي إلى الصورة ونزعتها من الإطار، وأعدت وضعه مكانه خالياً من الابتسامة الحبيبة، التي كانت قد تحوّلت بلحظة من منبع لطاقتي إلى ابتسامة سخرية تهزأ بمشاعري وأحلامي وحبي الكبير.

في الصباح التالي، كتب لي:

«عزيزتي، أنا آسف جداً، لكن الوضع يزداد سوءاً، لم تسنح لي الفرصة بالأمس للحديث مع بريجيته، لقد دعينا للعشاء من قبل الدكتور عز الدين وزوجته، وقد أثاروا موضوعنا! يؤسفني أن أقول لك إن السوريين في بريغنز مستاؤون منك جداً ويتحدثون عنك بأسلوب غير لائق، أحدهم وهو صديق جديد لعز الدين قال إنه لمحني أدخل بيتك. تأزّم الوضع أكثر بعد هذا الحوار، وسيكون عليّ هذا المساء أن أواجه بريجيته لنتحدث في الموضوع».

أعدت بذهول قراءة الرسالة، وتوقفت كثيراً عند السوريين في بريغنز! الآن الكل سيرمونني بأحجارهم بحجّة الغيرة على الشرف الرفيع. تذكّرت حسام، وأدركت أنه هو صديق عز الدين الجديد الذي ادّعى أنه رأى جيرارد يدخل بيتي. حسام الشاب السوري زوج صديقة فرح الذين وصلوا إلى بريغنز قبل مجيئي بشهور عدة، واستأجروا منها الشقة الصغيرة الملحقة بدارها، هو الذي تجاهلت وتغاضيت عن محاولاته استمالتي ومغازلتي والتقرّب مني، حفاظاً على علاقة فرح مع زوجته سها، وحفاظاً على علاقتي أنا مع الجميع.

تذكّرت فجأة أن حسام وسها كانا معنا في حفل عز الدين ذاك، وقد تعرّفا إلى جيرارد هناك. وتذكّرت كيف حدّثني حسام عنه بعد أيام من الحفل مبدياً إعجابه به.

حسام كان يتعمّد اللحاق بي أحياناً أثناء مشواري اليومي، ليشاركني نزهتي ويتبادل معي الحديث حول أمور شتى. كنت أرتاح لوجوده بداية عن حسن نيّة، باعتباره شاباً مثقفاً رزيناً ومن عائلة محترمة، صدّقت أنه قد يكون صديقاً جيداً في وقت كنت أحوج ما أكون فيه إلى صديق، حتى بدأ بالتعبير عن عواطف يحملها لي في قلبه.

استغربت تصرفاته في أول الأمر، وأخذتها على سبيل المزاح، لكنّه عندما أفصح عن مشاعره بوضوح، أخبرته أنني لا أبادله تلك المشاعر، ومن المستحيل في يوم أن أفعل، وصرت أصدّه بحزم وصل إلى حدود العنف أحياناً، وأتحاشى لقاءه قدر الإمكان، بشكل لا يلفت الانتباه، إذ كنت وقتها في غنى عن مزيد من المشاكل والقصص.

أدركت الآن أن حسام الذي سمع من زوجته قصتي مع جيرارد، تمسّك بها ونشرها على أسوأ صورة ممكنة، انتقاماً مني لتفضيلي شخصاً آخر (متزوج أيضاً) عليه. أثار الموضوع مع عز الدين، وادّعى أنه رأى جيرارد عندي في البيت.

بغضّ النظر، عن صورتي التي تدمّرت في مخيّلة عز الدين وهيلغا اللذين أحببتهما وفرحت بصداقتهما، فقد حزّ في قلبي أن يتمّ التجريح بي بهذا الشكل من قبل شخص كان يسعى بكل طاقته لارتكاب ما استهجنه منّي عندما ارتكبته مع سواه. لقد تصرّف بسوقية وحقارة، بعد أن تصرفت معه بكل رقيّ واحترام. كان ذلك أمراً غريباً وغير مقبول، من شخص كان يبدو محترماً جداً مثله.

لقد أُحكم الحصار حول جيرارد الآن، الطبيب الوقور وربّ الأسرة النموذجية، صار عليه أن يدافع عن نفسه ليدفع عنه صفة الزوج الكاذب الخائن، والأب المستهتر اللعوب. كنت أعرف جيداً، أنه لن يتصرّف كما أحلم، لن يقوى أن يقف في وجه الجميع ليقول: «أنا رجل عاشق، وعشقي الذي أعيشه الآن هو أطهر وأصدق ما عشت في حياتي». منطقياً، كنت أعرف أن الكارثة واقعة لا محالة، وأنني قد هزمت. لكنني في الصميم، لم أصدّق أنه سيتخلّى عني، فأنا لم أكن أمثّل في حياته مجرد امرأة أحبها لشخصها، أو جسدها، أنا كنت سبباً جعله يحب ذاته أكثر، وحياته أكثر، فمن أجل حياته وذاته وليس من أجلي، كان يجب ألا يتخلّى عني، لكنه فعل.

بعد أربعة أيام من الصمت، والانتظار على صفيح ساخن، جاءت الرسالة التي كنت في انتظارها:

«حبيبتي لميا، أنا أشعر بالسوء والانكسار، وأشعر بالذنب، لأني أعرف أنني أؤذيك بعمق باضطراري لإنهاء علاقتنا وإنهاء حبنا، رغم كل ما أعطيتني إياه من حب وفرح وسعادة صافية ومشاعر رائعة، خلال تلك الأشهر الأخيرة المباركة. لقد كان زمناً أكثر من رائع ذاك الذي قضيناه معاً، وفترة من أفضل وأسعد الفترات في حياتي إن لم تكن أسعدها على الإطلاق. لقد كنت وما زلت مغرماً بك إلى أقصى الحدود، أشتاق إليك، وتسكنين حتى في أحلامي. ليس من العدل أن أجرحك، أنا أعترف. لكنني مضطر للتوقف بعد أن أدركت حجم الفضيحة خلال عشاء الدكتور عز الدين. أنا حزين جداً من أجلك، ستبقين دائماً في قلبي وفي فكري. عسى أن تسامحيني يوماً!».

أعدت قراءة الرسالة بتناوب بين فيض من المشاعر وتلبّد في المشاعر، أوجعني قلبي وتقطّعت أنفاسي، فكّرت ألا أجيب وأن أدع الأمر ينتهي عند هذا الحد، لكنني لم أستطع، فكتبت إليه:

«ليس هناك شيء لأسامحك من أجله، لقد كنتُ أعرف الوضع المعقّد منذ البداية ولم يردعني

ذلك عن الاستمرار. لقد كنتَ لي سنداً كبيراً في أسوأ فترة من حياتي، وحوّلتها إلى الأفضل على الإطلاق. سأبقى ممتنّة لك مهما يحصل. لكنني لا أريدك أن تكون حزيناً من أجلي، إن لم تكن حزيناً من أجل نفسك لفقدانك إياي!».

وبين مصدّقة وغير مصدّقة، رحت أكرّر لنفسي: «نعم، لقد فعلها، لقد تخلّى عني!» لم تصدق أحاسيسي التي كانت تغفو مطمئنة في الصميم، لم يَصْدُق إيماني بالحظ السحريّ الجميل الذي جمعني به لغاية في نفس القدر، ولم تتغيّر غايات القدر ومقاصده نحوي «إدماء قلبي، مرة إثر مرة إثر مرة». وفي لحظة واحدة، بشعة، غادرني الشعور بالأمان، وعاد لي خوفي وتوجّسي من المستقبل المجهول، ومن المصير الذي كان ينتظرني في غربتي هذه.

اتصلت بي أختي رنين في صباح اليوم التالي كأنها التقطت ذبذبات حزني على بعد آلاف الأميال، بعد ليلة لم أنم فيها إلا هنيهات قليلة ومتقطّعة، بادرتها بالقول:

خمّني ماذا حصل.

ماذا؟

لقد أنهينا العلاقة.. أنا وجيرارد.

ماذا؟ متى حصل هذا؟

ليلة الأمس.

سألتني عن الأسباب، وأجبتها، سألتني كيف أشعر، فلم أعرف كيف أجيبها.

حبيبتي أنا حزينة من أجل حزنك الآن، ولكنني في المطلق سعيدة. نهاية هذه العلاقة الشائكة الخطيرة العواقب هي خبر جيد بالنسبة إليّ.

نعم، لم تكن بالعلاقة المثالية، لكنها كانت أحلى ما حدث في حياتي. لم أجد من يحبّني مثله، كنت أشعر بالأمان والاستقرار معه، كان رائعاً معي، كالخيال، ليس كالخيال بل فعلياً كان مجرّد خيال، كالأغنية تماماً:

«جيد جداً ليكون حقيقياً... Too good to be true».

كوني عقلانية، لقد كان وجوده إيجابياً في حياتك خلال هذه الفترة ولكن في النهاية هو ليس لك، لا تنتمين إليه، زوجته وأولاده أولى به.

زوجته لا تستحقه، لقد سبق وخانته وتعامله دائماً كطفل صغير.

لكن من الواضح أنه لا يقوى على الانفصال عنها.

نعم، لأنها مسيطرة على كل تفاصيل حياته.

فكّري بإيجابية لميا، لقد قضيت معه أوقاتاً حلوة، فلتكن ذكرى طيبة وكفى. ما كان عليك أن تتعلّقي به، يجب أن تتعلّمي ألا تتعلّقي بأحد في هذه الحياة.

وكيف أقضي مع رجل أوقاتاً حلوة إن لم أحبّه، وإذا كنت أحبّه، كيف لا أتعلّق به؟

يجب أن تتعلّمي.

فات الأوان، أنا سأبقى أنا، لم يعد أمامي فرصة للتغيّر أو التعلّم.

عسى أن تجدي من هو بصفاته دون أن يكون مرتبطاً.

نعم قد أجد، عندما أبعث من جديد (بالعمر التاني إن شاء الله).

كبّري عقلك.

لا تخافي، فترة قصيرة من الحزن وبعدها سأكون بخير، لا داع لأن

تقلقي.

فترة الحزن القصيرة لم تكن بالسهلة، في بدايتها كنت ملتزمة بالمساعدة في البيع بسوق خيريّة تقيمها مؤسسة كاريتاس بشكل سنوي قبل أسابيع قليلة من عيد الميلاد. الفتيات والنساء المتطوعات معي كنّ ظريفات جداً وودودات، وطبعاً نظراً إلى جنسيتهن الإسبانية، كنّ أيضاً ثرثارات (بالمعنى الإيجابي طبعاً). كنت قد تعرفت إلى قسم كبير منهنّ في النشاطات السابقة التي كنت قد شاركت بها مع المؤسسة، وهنا في إسبانيا، عندما تتعرّف إلى شخص، وخصوصاً إذا كان أنثى، وإذا عرف أنك عازب، فإن السؤال الثاني الذي يسألك إياه بعد سؤاله عن اسمك هو: هل لديك حبيب؟ (Novio).

في إسبانيا يستعملون كلمة واحدة لتسمية الحبيب والبوي فريند والخطيب، أنا كنت أبتسم عندما أُسأل هذا السؤال، أفكّر بجيرارد وأقول بفخر وفرح: نعم. في الخلاصة، كل الموجودات هنا صرنّ يعرفن أنني على علاقة برجل نمساوي وسيم. كنّ يسألنني كلما التقين بي: اوولا.. لميا كيف حالك، كيف هو حبيبك النمساوي؟

في اليوم الأول لقطيعتنا، عندما ذهبت إلى السوق والتقيت صديقاتي الجديدات، سألنني كالعادة عنه، أجبت بابتسامة لم تفارق شفتي: «ليس بخير، نعاني من بعض المشاكل هذه الأيام» حزنّ واستنكرن وقالت لي إحداهن: «لا تبتئسي، إن انفصلتما، ستجدين إسبانياً جميلاً وتقعين في هواه، الإسبان جيدون في الحب..» ضحكت. وقلت لها: «أعرف».

عندما كنت أعود إلى بيتي مساءً، لم أعد أشعر بالإلفة السابقة والأمان والدفء المعهودين، كأنّ البيت تغيّر. لم أعد أستمتع باللقيمات التي كنت أعدّها كعشاء لي، ولا بالكأس الذي اعتدت شربها كل ليلة، كأن الطعام فقد نكهته، وكأن الشراب فسد فجأة.

وعندما كنت آوي للنوم، غرفتي كانت تبدو موحشة وناقصة بدون تلك الابتسامة بجانب السرير، التي كانت تحرس نومي وتسهر على أحلامي، وتستقبل أول شعاع صباحي ينعكس من عينيّ عندما أفتحهما على يوم جديد.

من حسن حظّي أن مايا صديقتي أتت من ألمانيا لزيارتي في عطلة الميلاد. كان لقائي بها في مطار مدريد عاصفاً وموشى بالدموع، لم نصدّق أننا نلتقي مجدداً، وفي مدينة تبعد آلاف الأميال عن مدينتنا الأم، التي شهدت ولادتنا وصداقتنا وجنون شبابنا وآلامنا وأفراحنا وذكرياتنا.

مايا لم توفّق بعد في جلب زوجها وأولادها ضمن إجراء لمّ الشمل، كان عليهم انتظار موعد

من إحدى سفارات ألمانيا القريبة (أو البعيدة) حيث يمكن أن يقدّموا طلبهم مرفقاً بالدعوة الرسمية التي سترسلها إليهم، لتتمّ الموافقة على لمّ شملهم واللحاق بها. ذلك الموعد لم يكن سهلاً، إذ كان الازدحام على السفارة الألمانية في بيروت أو تركيا خرافياً، كما لم يعد بوسعهم الدخول بالجواز السوري إلى الأردن أو أي من البلدان العربية الأخرى، حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير بمحاولة الاستفادة من سفارة ألمانيا في موسكو أو طهران أو كوالالمبور، باعتبارها الدول الوحيدة التي يمكن أن تمنح بسهولة للسوري تأشيرة دخول.

بالنتيجة، كان يمكن لمايا أن تقضي الميلاد وحيدة مثلي، لو لم تأتِ إلى إسبانيا ليلتمّ شملنا الصغير ثانية في أسبوع دافئ جميل.

همنا في الشوارع مثل فراشتين سعيدتين، شربنا البيرة في بارات مدريد الجميلة مثل سائحتين، وأكلنا البائيا والشورّوس بشهيّة مصارعين، استرخينا بلا مبالاة في البيت كقطتين كسولتين، تنقّلنا ذات ليلة بين علب الليل المدريدية مع إدواردو مثل مراهقتين، لبسنا قروناً وعل الميلاد وتجوّلنا بهما ضاحكتين، كطفلتين هربتا من ملجأ أيتام كئيب، لتجدا نفسيهما في قلب مدينة كبيرة تشعّ بالألوان والأضواء وتضجّ بالناس المحتفلين بروعة الحياة.

سافرت مايا في اليوم قبل الأخير من السنة. وبمجرد أن ودعتها في المطار وركبتُ المترو عائدة إلى بيتي، عادت أشباحي السود لتحوم حولي، كأنني كنت قد خلعت لتوي تعويذة سحرية تبعد الأرواح الشريرة، خلعتها وأركبتها في طائرة مغادرة إلى دوسلدورف، وعدت لاستئناف (فترة الحزن القصيرة) التي كانت أيام زيارة مايا وقتاً مستقطعاً منها.

الفكرة التي كانت تقبض على قلبي وتخنق روحي وقتها، أنني وللمرة الأولى في حياتي سأقضي ليلة رأس السنة وحدي، أصارح أشباح أحبتي الذين هجروني وأطارد أرواح أهلي الذين هجرتهم.

إيزابيل وروسيو وفرناندو كانوا مدعوين للعشاء عند أخيهم الأكبر، ريتا ورياض كانا مدعويَن عند أصدقاء لهما، وصديقاتي الجديدات كلّ منهنّ مشغولة مع عائلتها. ورغم أنني لم أكن أشعر بأي رغبة في قضاء رأس السنة مع أناس علاقتي حديثة العهد بهم، إلا أنني تهيّبت من قضائها وحيدة، على كنبتي تلك التي كانت قد احتضنت عناقنا العذب واستمعت لأحاديثنا الحلوة، حين كان جيرارد هنا، ومايا هنا.

حتى أليكس، شبح حياتي، اكتفى بإرسال تهنئة عادية بالعيد، من مكان مجهول، في حين أني

كنت قد توقّعت أنه سيكون هنا في عطلة الأعياد، وسيحاول رؤيتي، وقد يدعوني لقضاء رأس السنة معه، وسأحتار بأن أقبل أم لا!

استغربت الشحّ الذي أحكم سيطرته على أيامي بعد رخاء طويل، هل هي السنوات العجاف قد أطلّت بعد سنوات الخير والبركة؟ وكم تراه سيطول موسم القحط ذاك.

استجداءً لشيءٍ من المرح لليلة الغد وطرداً للكآبة، اتصلت بإدواردو، وهو المحامي الشاب اللطيف الذي كان أول من اتصلّ بي من طرف مؤسسة كاريتاس عارضاً المساعدة، وهو الذي دعاني ومايا منذ أيام لسهرة جميلة زرنا معه فيها كثيراً من بارات المدينة، اتباعاً لعادة إسبانية تقضي بأن لا يستقر الساهر في مكان واحد، بل أن يحتسي كأساً هنا وآخر هناك، متنقلاً حتى انقضاء الليل بين الأندية الليلية الساحرة والبارات الحميمة الحديثة والقديمة، التي لا تعدّ ولا تحصى في مدريد.

اتصّلت به بحجّة سؤال عابر، علّه في سياق الحديث يسألني عن برامجي لليلة الغد ويستنكر وحدتي ويدعوني لضياع جميل في ليل مدريد، لكنه أجاب عن السؤال التافه بحماس وأدب، ولم يسألني شيئاً عن خططي بشأن الاحتفال المرتقب، بل ذكر أمامي أنه لن يكون غداً في مدريد، بل سيذهب ليحتفل ليلاً مع أهله في الضيعة التي يعيشون بها خارج المدينة.

لم يبقَ أمامي، إلا أشباحي وأحزاني، وكنبتي الحمراء الحنون، والسكايب.

كان أهلي يحتفلون كعادتنا كل سنة في بيت أختي رنين، تحدّثت معهم واحداً واحداً عبر السكايب، قبّلتهم وقبّلوني ثم تابعوا سهرتهم بينما كنت أنا أتابعهم عبر شاشة اللاب توب، أسمع أصواتهم الأليفة، وأُنصت لأحاديثهم المحببة، بينما كنّا على تواصل مع نور التي كانت في بيتها في اللاذقية عبر الواتساب.

وانتهت الليلة أخيراً وسطعت شمس باهتة لعام جديد، عنوانه الأول كان العزلة والجفاف، وعنوانه الأخير كان غير واضح بعد.

حاولت استعادة روتين حياتي التي بدأتها منذ أشهر عدة هنا وأحببتها، لكنني لم أفلح. بدأت أستعيد الشعور بالوحدة الذي رزحت تحت وطأته في النمسا قبل أن ألتقي حبي الجميل، كما داهمني شعور مُلحّ باللاجدوى والخواء، وسألت نفسي للمرة الأولى منذ غادرت حلب: ماذا جئت أفعل هنا؟!

كل الأجوبة عن ذلك السؤال بدت لي مقيتة، وبدا واضحاً لي أن حبّي لجيرارد وحبّه لي بالأحرى، كان هو العمود الفقري لسعادتي واستقراري وتفاؤلي بالحياة الجديدة، حيث انهارت تلك كلها

بمجرد أن انسحب من حياتي، وتركني هيكلاً مشلولاً مسكوناً بنفس حزينة قلقة. ورغم ذلك، كنت لا أزال أبدو وأعيش كامرأة قوية. قوية نعم، أتابع حياتي كأن شيئاً لم يكن، نعم، لكن سعيدة ومنتعشة ومطمئنة الروح، لا.

وتمنيت للحظات ألا أكون قوية، تمنيت لو أنشج بحرقة وأنهار وأقتعد الفراش، علّني أستنفذ شيئاً من الألم الذي يضجّ بداخلي. تمنيّت ألا أبقى صنماً مبتسماً لا ينضح بما فيه. تمنيّت عندما يسألني إخوتي وأصدقائي كيف حالك، أن أقول إنني لست بخير، أن أقول إنني متعبة، وحزينة حتى أقصى حدود الحزن، تمنيت، لكنني لم أستطع، لم أستطع إلا أن أبتسم، وأجيب عند ذلك السؤال: «منيحة أنا منيحة».

حتى روايتي التي كنت أتنفس عبر كتابة كلماتها، استعصت عليّ وزادت من اختناقي. إذ كان المحور الرئيس فيها، قصة حب جميلة استلهمتها من قصتي مع جيرارد. عندما تقوَّضت قصتنا، وتدمَّر إيماني بذاك الحب الأبدي الكبير، لم أعد أعرف أن أكتب كلمة واحدة عن الحب بعد، عن أمر شعرت بأنه خانني وفقدت ثقتي به، احترت من أين أجلب الأكاذيب لأحشو الصفحات، واحترت كيف أكتب عن الفرح وقلبي يفطره الألم.

لقد كنت أعرف بأنها في النهاية رواية، وليس من المفروض أن تكون قصّة حياتي، بل يمكن أن تكون قصّة حياة امرأة من مخيلتي، قد تكون سعيدة وقت شقائي، قد تصبح شقية يوم سعادتي. قد تكون أكثر أو أقلّ حظاً مني في مواقف مختلفة، وقد تكون أجرأ أو أجبن مني في مواقف أخرى. وقد كنت أعرف أن من قواعد الكتابة أن أُخلص لامرأة خيالي تلك أكثر من إخلاصي لشخصي. كنت أعرف كل ذلك لكنني كنت قد نسيت. في خضمّ كتابتي المحمومة أضعت الحدود ما بين بطلتي وبيني، واختلطت قصة حبها بقصة حبي، حتى صار الفصل يحتاج جهداً إضافياً، إذ جربت أن أغيّر في مسار شخصية بطلتي، وجربت ألا أتخيل حبيبها بصورة جيرارد، الأمر الذي لم أنجح فيه تماماً، وعطّلني عن الكتابة لأيام، حتى اضطررت في النهاية إلى إعادة تسهيل الأمور، وقرّرت الاستمرار في إعارة حبيب بطلتي وجه وشكل حبيبي الهارب للحفاظ على إيقاع الرواية، وقمت بإعادة وضع صورته التي كنت قد أخفيتها، في مكانها المعتاد أمامي أثناء الكتابة، وتظاهرت بيني وبين أصابعي أن هذا الرجل المبتسم فيها ما زال حبيبي، لأبحر في الكتابة بسلاسة أكثر، بتعبير حي وحقيقي عن مشاعر قريبة وملموسة.

استعدت شيئاً من أنفاسي من خلال استئنافي الكتابة، كما استعدت الكثير من أنفاسي بانتهاء عطلة الأعياد والعودة للدوام في معهد اللغة الإسبانية.

بالمقابل، تقطعّت أنفاسي من جديد، عندما وصلتني رسالة جيرارد العائد لتوّه من إجازة طويلة قضاها في منتجع جبلي مع زوجته وأولاده الثلاثة.

في ذلك اليوم بالذات، كنت أشعر بروحه تحوم حولي، كنت متوقعة أنه عند عودته إلى عيادته وتحرّره من رقابة زوجته اللصيقة، واستعادته روتينه اليومي الذي كنت جزءاً منه، سيذوب شوقاً إليّ وقد يحاول أن يتصّل بي، وقد فعل.

«مرحبا لميا. أشعر بذنب كبير لعدم الاتصال بك، ولتركي إياك وحيدة، أرجوك أخبريني كيف أنت؟».

شعرت بالاستياء من رسالته تلك التي جاءت بعد كل هذه القطيعة لتقول إنه يشعر بالذنب! فأجبته:

«أنا بخير، أرجوك أن تتوقف عن الشعور بالذنب، أنا أكره هذا الشعور. لقد قضيت وقتاً جميلاً مع صديقتي في الميلاد، لكنني في رأس السنة كنت وحيدة، وحزينة بعض الشيء. ماذا عنك؟ هل أنت بخير؟».

أجابني برسالة طويلة تحكي عن تفاصيل إجازته التي قضاها في التزلّج مع كل أفراد الأسرة، وأنهاها بجملة: «أنت دائماً في فكري».

سرحت قليلاً في أفكار ومشاعر لا عنوان لها، ثم كتبت إليه:

«جيرارد اسمعني أرجوك، لا تعد للاتصال بي ثانية بدافع من الإحساس بالذنب، لست بحاجة لشفقتك، افعل ذلك في حال اشتقت إليّ فقط. لقد صدمني بالفعل أنك تخليت عني بهذه السهولة، لكنني لست غاضبة منك. ستبقى للأبد ملاكي. إذا كنت سعيداً الآن أكثر مما كنت عندما كنا معاً، فهذا جيد. استمر في كونك سعيداً، وبعيداً.. عزيزي!».

هل كان يجب أن أقول له أنني تعيسة لغيابه وأنني أذوب شوقاً إليه؟ أم كان يجب أن أكون قاسية اللهجة حازمة الكلمات، أو هل كان من الأفضل، ألا أجيب أبداً؟ أتساءل كمراهقة تشاجرت مع صديقها الشاب ذي العضلات المفتولة، وأستغرب أن أكرر العيش في تلك المواقف والمشاعر، وأن أعاني من ذلك النوع من الآلام والهموم وأنا في هذه السن! إذا كان الحب والهيام وقفاً على الصغار، فمتى سأكبر؟ بالنسبة إليّ، أنا لا أريد أن أكبر!

طوال حياتي، كنت متمسّكة بالحب، وكنت أحب أن أعيش في حالة حب. ورغم كل الجراح

والآلام، فأنا أحب قصص الحب التي مرّت في حياتي وأفتخر بها، أشعر أنني عبرها عشت الحياة بكل أبعادها من أقصى الفرح إلى أقصى الألم. ولم أندم لأنني لم أتزوّج. لا أشعر بالنقص أو الأسف، إلا لأمر واحد لم أختبره ولم أعشه، وأشعر أن فقدانه يشكل طعنة لأنوثتي: الأمومة طبعاً، الأمومة.

عندما قرأت رواية «حكايتي شرح يطول» للكاتبة اللبنانية «حنان الشيخ» التي وثّقت فيها السيرة الذاتية لأمها، شعرت كم هو رائع أن يكون للمرء ابناً يحكي عنه، ويفخر به، وينظر إليه تلك النظرة المختلفة التي تجمع بين العاطفة والدهشة والانتماء. شعرت وقتها للمرة الأولى بالأسف، لأنه لم يوجد في هذه الحياة من ينظر إليّ تلك النظرة. ليس هناك من يحبني بدهشة وينتمي إليّ، وليس هناك من يعتبرني سبب وجوده. تذكرت كيف كنت أشير إلى أمي في المدرسة بفخر، وأسفت بأنه ليس هناك من يشير إليّ هكذا ويقول: هذه أمي.

في الأسابيع الأخيرة، وبعد غياب جيرارد تحديداً وانهيار ثقتي بحبه، صرت أذوب حناناً وعاطفة كلما لمحت طفلاً صغيراً، وبالأخصّ إذا كانت أنثى. كنت عندما أصادف واحدة في الشارع أو المترو أو الحديقة، أشعر بمتعة عجيبة في مراقبتها، عيناها شعرها ثيابها حركاتها. وأشنّف أذني لسماع كلماتها الظريفة التي تكرج كالسيل، إذ غالباً ما كانت البنات الصغيرات ثرثارات. كنت أضحك بصفاء وأفكّر، كم كان رائعاً لو أنجبت طفلة من جيرارد، كم كانت ستولد جميلة، ذكية وظريفة.

وللحظة مفاجئة، جاءني إلهام خاطف وهمس في أذني «لِمَ لا؟!» لِمَ لا؟ سألت نفسي، ولكن بالطبع لا، مستحيل، فالفترة التي كان فيها جيرارد في مدريد، لم تكن الفترة المناسبة لجسمي ليتقبل الحمل، مستحيل أن يحصل هذا إلا بمعجزة. ولكن، ألم يكن دخول هذا الرجل في حياتي معجزة بحد ذاتها، من قال إن المعجزات لا تحدث؟

واستُلب لبّي بهذه الفكرة، ولكثرة ما فكّرت بها صدّقتها، سكنتني وسكنتها. وانشغلت لساعات كثيرة بالبحث في الإنترنت عن حالات نادرة مثل حالتي يحصل الحمل فيها في وقت غير متوقع، ووجدت ضالتي، بتفسير علمي وطبي مؤكد، فأيقنت أن ما أشعر به ليس مستحيلاً، وأن معجزتي قد تكون حقيقة حيّة.

صار عليّ أن أتأكد، ومع أن الموعد المعتاد لدورتي الشهرية كان قريباً جداً، إلا أنني لم أستطع الانتظار. اشتريت من أقرب صيدلية جهاز كشف الحمل المنزلي، وجئت به إلى البيت بقلب يدقّ بعنف، ووضعته على طاولة الليل بجانبي، ليكون استعماله أول ما سأفعله في الصباح التالي.

ميلاجرو

جرت العادة في حلب، أن يأكل الناس في أول يوم من السنة طعاماً أبيض اللون، تفاؤلاً منهم بالسنة الجديدة، وتمنياً بأن تكون ببياض الطبق الذي يأكلونه.

وبالتالي، كانت كل المطابخ في حلب اليوم تفوح برائحة الكبّة اللبنيّة، التي دأب الحلبيون على طبخها لغرامهم بصنف الكبة بحد ذاته، ولبياض اللبن الذي يرافقها.

الكبّة هي عجينة اللحم الأحمر الطري المطحون مع البرغل والبصل، والتي تُشكّل منها أشكال كثيرة كأقراص أو كرات أو مخاريط قد تحشى باللحم المفروم أو الجوز أو شحم الخروف (وصار يستعاض عنه مؤخراً بالزبدة للتخفيف من الدسم).

ما يستعمل للكبّة اللبنية هو كرات محشوّة بالزبدة وبالبهارات، تطبخ مع صلصة من اللبن الرائب وقليل من الرز والنشاء. كنا جميعاً مغرمين بهذا الطبق الحلبي الشهير، وخصوصاً عندما تطبخه مارجو، في مطبخ بيتنا الذي كان قبلة لتجمّع كل أفراد العائلة.

هذه السنة، كنت سعيدة وفخورة جداً، لأن طفلي الصغير الجميل كان معي، وقد انضم بانسجام إلى أطفال العائلة. ابني أنا، أنجبته بقرار مجنون جعلني أماً قبل أن يفوت الأوان. صغيري كان ذهبي الشعر، حلو القسمات، ويتمتع بسحر طاغٍ يأسر كل من يراه.

كنت أستمتع بمراقبته يجلس على السجادة في غرفة الجلوس، تحت

أقدام والدي، يلعب مع كارلو وميليسا ابني نور، بينما كان كريم وجود ابنا رنين، يتسليان بمداعبته ومضايقته بأسئلة مضحكة وأغنيات طريفة. كان الجميع يضحكون ملء أشداقهم، بصخب وحبور.

كنا نحن النسوة في المطبخ نقبع فوق طنجرة اللبنية. أنا كنت أحرّك اللبن فوق نار هادئة، رنين بجانبي تفرم السلطة، أمي ونور تدخنان خلسة، وبعيداً عن مرأى والدي.

شعور بالسلام والاكتفاء كان يغمرني، إلى أن لاحظت فجأة، أن اللبن الذي أحركه في الطنجرة فوق النار، بدأ يفقد بياضه ويتعكر، وشيئاً فشيئاً، تحوّل لونه من الأبيض إلى الأحمر، اختنقت الكلمات في حلقي، ولم أستطع أن أنادي أمي.

فُتح باب المطبخ بعنف، وسمعت الأولاد يصرخون، تركت الملعقة واندفعت لأرى ما يحدث في الداخل، فلمحته، وحيدي وحبيبي، ابني الذي أنجبته بمعجزة لن تتكرر، لمحته مستلقياً أرضاً بلا حراك على السجادة نفسها، وطلقة نارية قد استقرت في جبينه.

فتحت عيني بذعر، فاجأني ظلام الغرفة وسكونها، ودموع ساخنة على وجنتيّ.

ما أبشع نهاية هذا الكابوس، وما كان أجمل منه حلماً في بدايته! تذكرت تفاصيله مجدداً، وعاودت البكاء، كأنني لم أصدق أنني استيقظت وأن ما كان لم يكن إلا مجرد كابوس. جلست في الفراش بعد انحسار النوبة، مسحت دموعي وأشعلت ضوء المصباح على الطاولة قربي. رأيت جهاز اختبار الحمل مستلقياً هناك بهدوء في انتظاري. أخذت موبايلي من جانبه لأعرف كم الساعة، كانت السادسة والأربعين دقيقة، وظلام الليل في الخارج لم يكن قد انجلى بعد.

فكّرت أن أنهض لأجري الاختبار، لكنني شعرت أنني منهكة بعد ذلك الكابوس ومتعبة، «ما زال الوقت مبكراً» قلت لنفسي، وعدت للاستلقاء من جديد، وأغمضت عينيّ اللتين لم تجفّ دموعهما بعد، وغرقت بسهولة في حضن النوم.

أيقظتني رنّة حادة، إنها رنّة الواتساب الخاصة بمجموعة عائلتنا، فتحت عيني، كان نور الصباح يملأ السماء كما ظهر لي من خلف ستار النافذة، أخذت الموبايل، إنها التاسعة وخمس دقائق. فتحت صفحة المحادثة لأستطلع كنه الرسالة، فإذا بها من ميليسا ابنة نور

«بسولة ابن عمي، أكل رصاصة براسو وقت كان بالمدرسة، وهو هلق بالمستشفى، صلولو».

قفزت من السرير مذعورة وقد تذكرت كابوسي ذاك، لكنني تمهّلت قليلاً، وتساءلت إن كان ما قرأت مزحة طفلة في التاسعة.

كتبت إليها مسرعة.

«ميلي، عم تمزحي؟!».

«لا لميا.. ما عم أمزح، هو بالمستشفى بالعناية المشددة».

«وينا نور؟».

«مامي هون.. عم تبكي».

تجمّد الدم في عروقي، وأحسست بخدر بارد في يديّ وقدميّ، رصاصة في رأس طفل في الخامسة من العمر؟! ماذا يمكن أن تخلّف هذه الرصاصة؟

اتصلت بنور لفوري، ردّت عليّ بعد رنين طويل بصوت يخنقه البكاء.

نور أخبريني، هل ما تقوله ميليسا صحيح؟

نعم صحيح، لقد سقط الطفل فجأة في باحة المدرسة دون أن يعرف أحد السبب، وعندما أُسعف إلى المستشفى اكتشفوا رصاصة في رأسه، هو في قسم العناية المشدّدة الآن، ولا أحد يعرف شيئاً عن مدى خطورة وضعه.

خنقتني الدموع لبرهة، كنت فيها أصغي لنحيب أختي، أخيراً تمالكت نفسي وسألتها:

ولكن من أين وصلت الرصاصة إلى باحة المدرسة؟

وكيف لأحد أن يدري؟

طبعاً، ليس لأحد أن يدري! الأسلحة منتشرة بكثرة بين أيدي الزعران و«الشبيحة» الذين يسمّون أنفسهم «لجاناً شعبية» والذين يطلقون النار لأتفه سبب. قد تكون رصاصة طائشة من لجنة شعبية تنظّم الطابور أمام المخبز، وقد تكون رصاصة عشوائية موجّهة بقصد الأذى من طرف

المناطق الذي تسيطر عليها العصابات المسلّحة التي يسمونها تجاوزاً بالمعارضة، مع أنها لم تعارض يوماً إلا الشعب، ولم تصب بنيرانها إلا المدنيين.

رصاصة تصيب رأس طفل، وليس من المفجع فحسب أن لا أحد يدري مصدرها، إنما المفجع أن لا أحد يعمل على الكشف عن ذلك المصدر، ولا على محاسبة المسببين في حال اكتشافهم، بحجّة الحرب المشتعلة في المدينة. سيسارعون إلى تسجيل الحادثة برسم العصابات المسلحة، متغاضين عن إمكانية كون أحد عناصر اللجان الشعبية المدعومة والمسلحة من قبل الحكومة هو المتسبب، وتاركين الحبل على الغارب لهؤلاء المسلحين، الذين كانوا قبل الحرب حثالة من المهربين واللصوص والمدمنين والعاطلين عن العمل، وجدوا فرصتهم الذهبية في اندلاع الحرب، وهبّوا للتطوع للعمل كلجان شعبية، واستلموا سلاحاً ونفوذاً ورواتب بحجّة الذود عن البلد، الذي عاثوا فيه فساداً يشابه ذلك الذي يقوم به أولئك الذين حملوا هم السلاح أصلاً لمحاربتهم.

حلب مدينتي، زهرة المدائن السورية التي استحالت مقبرة للعصافير، استحقّت عن جدارة المركز الأول الذي منحته لها هذا العام مجلة «لايف واير» الأميركية ضمن دراسة عالمية تقوم بها سنوياً عن أخطر المدن في العالم.

باسل ذلك الطفل الجميل الذي كنت أعرفه جيداً وأداعبه دائماً كلما التقيته عند نور، كان قد عاد إلى حلب لتوّه مع عائلته منذ بضعة أيام فقط، بعد أشهر قضوها في بيروت، من أجل القيام بإجراءات طلب الحصول على تأشيرة سفر إلى كندا. قوبل الطلب بالرفض، فعادت الأسرة إلى حلب بعد أن استنفذت قسماً كبيراً من مدّخراتها خلال إقامتها لشهور في بيروت ذات الغلاء الفاحش.

نظرتُ إلى جهاز اختبار الحمل القابع في علبته على الطاولة بجانبي، أخذته بيد مرتجفة، وانا أفكر بنوع العاهة التي يمكن أن يخرج بها ذلك الطفل السيئ الحظ التي اختارت الرصاصة رأسه بالذات دوناً عن الأطفال الآخرين الذين كانوا يحتشدون في الباحة.

رنّ الموبايل تلك الرنّة الحادّة مجدّداً، تركت الجهاز من يدي وأخذت الموبايل لأقرأ ما استجد، كانت ميليسا أيضاً.

«خلص.. مات.. مات.. مات...».

مات؟؟؟ مات؟؟؟ بهذا البساطة والسرعة مات؟؟؟ طفل ينبض بالحياة كتفاحة نضرة، برصاصة طائشة مجهولة المصدر، مات!!!

أظلمت الدنيا حولي، ألقيت التلفون جانباً، وصفعت وجهي بكلتا يديّ. انهمرت دموعي، وتذكرت صورة ابني في كابوسي، جثة هامدة، مع فوهة دامية تتوسط جبينه. فكّرت بأم الطفل المنكوب، كيف تعيش الآن كابوسها؟ ولم أستطع أن أتخيَّل حجم الألم الذي جاءها زائراً طارئاً في هذا الصباح.

تناوبت في مخيلتي صور الطفل الضاحك الظريف وصور أمه، رأيتها عندما كانت حاملاً به، واستعدتُ لهفتها ونفاذ صبرها لإنجابه، تذكّرتها عندما أقامت حفل استقبال كبيراً في الفندق عندي احتفالاً بمعموديته.

في كل الصور التي كنت أملكها لها في ذهني، كانت ضحكتها تبدو مشعّة وعريضة، خصوصاً في حفل المعمودية ذاك. كانت تبدو سعيدة جداً وفخورة بابنها الجميل إلى آخر حدود الفخر، غافلة عن المأساة التي كان يخبئها لها القدر.

تذكّرت عينيه اللامعتين وخدّيه الورديين، تذكّرت ضحكته المجلجلة وصوته العذب، وكلمات ميليسا لم تكن تفارقني، كانت أشبه بالختم الذي يمهر في مخيلتي كل الصور، مات... مات... مات.

اختنق الهواء من حولي وضاق صدري. رمقت جهاز اختبار الحمل الذي أوجعني شكله، إذ ذكّرني بعبثية كل هذه اللهفة وكل ذلك الانتظار. عبثية العمر الذي قضيته في تمنّي إنجاب طفل قد تقتله «في حلب» رصاصة طائشة في ثانية، لتصيح ميليسا فوق رأسه: مات!

فكرت بحزن ميليسا وكارلو، وصدمتهما لفقدان ابن عمهما بهذه الطريقة المفجعة، أليس من المبكّر أن يعيش هذان الطفلان معاناة كهذه؟!

وكم ستترك هذه الحادثة من آثار بشعة ستكبر معهما في وجدانهما الغضّ.

ازداد اختناقي فلم أتحمّل البقاء، لبست كيفما اتفق وخرجت إلى الشارع هائمة على غير هدى في الطرقات، تنشّقت الهواء البارد بعمق علّه يخفف من النيران التي كانت تأكل رئتيّ.

دموعي كانت تنساب تلقائياً كلما لمحت طفلاً مع أهله الذين كانوا يبدون سعداء به. كنت أفكّر في تفاهة إنجابه إلى هذا العالم، تفاهة انتظاره ومحبته ورعايته والسهر عليه، تفاهة اختيار ملابسه وتصفيف شعره، تفاهة أن يكون هذا الطفل يعيش في حلب، حيث يمكن أن تأتي في لحظة رصاصة طائشة، لتخترق بكل هدوء جبينه الصغير، تحت شعره المصفف بعناية، ليقال عنه بكل بساطة: مات.

كنت أجرجر أقدامي في الشوارع وقد سكنتني عبثية هذه الحياة، عبثية أن أهرب إلى بلاد بعيدة

وأن أبدأ حياة جديدة رغم الألم والذلّ والخوف المطبوعين كوشم على جبيني، عبثية الوقوع في الغرام والمعاناة منه رغم الوقوع الكبير في حفرة الحرب وفقدان القدرة على القيام. وعبثية أن أفكر بإنجاب طفل جديد إلى هذا العالم، وأن أقلق لكونه شرعياً أم غير شرعي، رغم أنني أنتمي إلى مدينة مثل حلب، حيث يتمّ اغتيال الأطفال في مدارسهم، كالعصافير على الأغصان.

جفاف حلقي ذكّرني أنني لم أشرب أو آكل شيئاً في هذا اليوم المشؤوم، دخلت أول مقهى صادفته، شربت فنجان قهوة وكأساً من الماء، وأكلت قطعة بسكويت صغيرة.

حين عدت منهكة إلى بيتي، استقبلتني العلبة الصغيرة البيضاء لجهاز كشف الحمل حيث تركتها. نظرت إليها بأسى، ومن ثم ألقيتها داخل درج الطاولة الصغير، ولسان حالي يقول: حامل أم غير حامل؟! ما الفرق؟! لماذا ينجب الناس أطفالاً؟ ولماذا قد أنجب أنا؟

أخذت هاتفي وأجريت اتصالات عدة مع المنكوبين من أحبتي في الطرف الآخر من الكرة الأرضية. تحدّثت أولاً مع نور وفراس، فراس بدا متماسكاً لكن الدمار الذي كان بداخله لم يخفَ عني. تحدّثت مع أمي، ومع رنين، ورددت باختصار على رسائل الكثير من الأصدقاء الذين سمعوا بالموضوع وأرسلوا يسألون بقلق وحزن عن تفاصيل الحادثة. تمنيت أن أسمع صوت جيرارد، تمنيت لو يتصل حتى ولو كان سيقول أنه يشعر بالذنب. ما أتفهني، يشعر بالشوق، يشعر بالذنب، ما الفرق، كل المشاعر ستزول، الحياة ذاتها ستزول، كان فقط سيكفيني أن أعرف أنه يفكّر بي، وسيكفيني لو أسمع صوته ليهدأ قلبي وليصفى ذهني، على الأقل في هذه اللحظة الثقيلة، التي أشعر وكأنها لن تزول.

ولكن في النهاية كل شيء يزول، الحزن يزول، الفرح يزول، حتى الوطن يزول. والخلود الذي يسعى الإنسان إليه منذ فجر الخليقة ما هو إلا انعكاس للحظات شعشعت فيها الروح، وحلّقت في آفاق ليست محدودة بمكان ولا زمان، لا بجسد ولا بأرض ولا بوطن.

في الصباح التالي، استيقظت من نوم لا أحلام ولا كوابيس فيه، كان قد اختطفني باكراً في دوامة من نعاس، بعد إرهاق اليوم الثقيل. فتحت عيني بكسل، كانت الساعة تقترب من الثامنة، تذكّرت باسل المسكين وأمه المنكوبة، فاعتصر الألم قلبي.

في هذا الصباح أيضاً، تلقيت وأنا في فراشي، خبراً حزيناً آخر من حلب عبر الواتساب، زادني تشبثاً وإيماناً بعبثية الحياة وتفاهة الهموم التي تنتابنا إزائها. لقد توفيت عمتي ماتيلد، شفيقة، الطفلة المطيعة التي لم تكبر، والعمّة التي وُلِدت عانساً.

ماتيلد عمتي، الأنثى التي خانتها أنوثتها، الابنة التي خانها والداها، والأخت التي خانها أخوها، والمؤمنة المتديّنة التي تخلّى عنها الله وكلّ أنبيائه.

عرّابتي التي حملتني عندما لبستُ الثوب الأبيض في معموديتي، وطفلتي التي حملتها عندما لبست ثوب المرض والانكسار. لماذا خانتها الحياة بعد أن أُعطيت لها؟! لماذا عاشت هذه المرأة؟ لماذا وُجدت وتنفسّت ودقّ قلبها؟ لماذا تأنّقت وخاطت الثياب وابتاعت مساحيق التجميل؟ لماذا صلّت واشتغلت بدون توقّف أو عطلة أو استراحة، لماذا تعذّبت وتألّمت، ولماذا في النهاية، ذهبت خالية الوفاض إلا من جراح ثخينة.

لم تجرّب التمرّد ولا الجنون ولا لمرة واحدة، لم تذق لذّة الغرام، ولم تعرف معنى الأمومة، وحين هرمت وانهارت، أُخرجت حتى من بيتها الذي كان صديقها الوحيد، وحبيب لياليها. البيت الذي أنفقت سنوات عمرها في تنظيف جدرانه ومسح بلاطه وتلميع تحفه وتجميل زواياه، لفظها ذات خريف أصفر، لتتشرّد في شتاء مظلم عانت الأمرّين من صقيعه، حتى أهديت إليها رصاصة الرحمة هذا الصباح.

«لن أكون ماتيلد ثانية، لن أستلم منها راية العمّة العانس في العائلة، أبداً!».

حدّثت نفسي بعد برهة من السكون، ونهضت من الفراش، فتحت درج الطاولة التي بجانبي، ونظرت إلى العلبة البيضاء فيه.

بالأمس سألت نفسي، لماذا قد أنجب أنا؟ واليوم، أسأل نفسي: ولِمَ لا؟!

أخرجت العلبة من الدرج، فتحتها، أخرجت الجهاز الصغير من كيسه، قلّبته وتأملته، ثم قرأت التعليمات المرفقة باللغة الإنجليزية لمرات عدّة، ترجمت كلمة أو كلمتين عبر الغوغل، كي لا أرتكب أي خطأ محتمل عن سوء فهم أو سوء استعمال. دخلت الحمّام بقلب يرتجف، حصلت على بضعة نقاط من البول أسقطتها في المكان المحدد، ووقفت أنتظر النتيجة.

مكتوب في ورقة التعليمات المرفقة أن النتيجة تحتاج للظهور من حوالى خمس دقائق إلى عشر، بدت لي وكأنها عشرة قرون، كانت تتنازعني فيها موجات من الثقة بحدسي، وموجات من التكذيب لهذا الجنون الذي سكنني واستلب لبّي دونما مبرر.

قاربت الدقائق الخمس على الانتهاء ولم يظهر إلا خط واحد بعد، وانتهت الدقائق الخمس، ولحقتها الدقيقة السادسة، ومن ثم شارفت السابعة على الانتهاء، حين ظهر الخط الثاني الذي كنت

بانتظاره، والذي أعلن لي بسخرية عبثية «مبروك، أنت حامل»!!!

شعرت بالدوار وببرودة وخدر في أطرافي، هل هذا معقول؟ اللعبة التي كنت أستمتع بتأديتها تحوّلت إلى حقيقة، الخيال المجنون الذي كنت ألاحقه، وقع مستسلماً بين يدي! هل هذا معقول؟

نظرت في المرآة، رأيت طفلة متقطعة الأنفاس تحدق إليّ بعينين لامعتين، ابتسمْتُ لها، فابتسمَتْ، ضحكْتُ معها، فضحكَتْ، نظرْتُ في عينيها وقلتُ لها وقالت لي: سأصبح أماً!

رجعت إلى فراشي واندسست تحت اللحاف، طوّقت بطني بذراعي وأنا أفكر بالمعجزة التي تقبع فيها «هل هي أنثى؟ كيف سيكون شكلها؟ هل ستكون فارعة الطول كوالدها؟ والدها؟؟!!» ردّدت هذه الكلمة لمرات، وكأنني فجأة قد تذكّرت شيئاً! كيف سأخبر والدها؟! وماذا سأقول له؟ لقد سألني حين كان هنا، وعندما كان يحضنني في هذا الفراش نفسه كما أحضن ابنته الآن، عن إمكانية حملي في هذا الوقت، فأجبته: مستبعدة! هل سيفكّر أنني كنت أنصب له فخاً لأنتزع منه التزاماً وارتباطاً كما يفعلون في الأفلام؟ هل سيُصدم حين يعرف أنه سيرزق بولده الرابع؟ وهل سأحتمل أنا قسوة ردّ فعله التي أتوقّع أن تكون مفجعة.

الرجل الذي لم يقوَ على الاعتراف أمام زوجته بأنه يحبني، كيف سيتعايش مع فكرة إنجاب طفل مني؟ الفكرة الأولى التي ستخطر في باله هي: ماذا سأقول لبريجيته؟

كيف سيقول لبريجيته؟ وقبل بريجيته! كيف سأقول له أنا؟ ومتى سأقول له؟ وماذا سأقول له؟ ماذا سأطلب منه؟ لقد قرر مسبقاً أن يتابع حياته بدوني، يشعر بالأسف، يشعر بالشوق، يشعر بالذنب! لا قيمة لكل تلك المشاعر الآن، لقد اختار قراره وشرع في تنفيذه وانتهى الأمر، لن أستجديه ليعود، فقط سأطلب أن يمنح اسمه لطفله ثم ليرحل حيث يشاء، وليقل لبريجيته ما يشاء.

هل سيطلب مني التخلّص من الطفل؟ هو المتديّن الكاثوليكي الذي لم تسمح له عقيدته أن يقدم على الطلاق، هل ستسمح له الآن أن يشارك في جريمة إجهاض؟

حضنت ابنتي بقوة أكبر، وهمست لها: «معجزتي، لن أتخلى عنك أبداً، مهما كلفني الأمر».

وقررت أخيراً ألاّ أبادر بالاتصال، سأنتظر اتصاله، أنا أعرف أنه خلال فترة قصيرة سيشتاق إليّ وسيتصّل، حينها سأجسّ نبضه رويداً رويداً، وعلى أساسه، سأقرر كيف ومتى قد أبلغه بالخبر السعيد، الخبر الصاعقة، الخبر المعجزة.

لن أستجديه، كما لن أغضب منه في أي حال، لأنه أخيراً في كل الأحوال، كان السبب في

معجزتي. لقد قلت لنفسي عندما التقيته وعشقته، أنه ظهر فجأة في طريقي لغاية في نفس القدر، فهل تكون ابنتي هذه، هي غاية القدر تلك من لقائنا ذاك؟!

كان عليّ النهوض للذهاب إلى المعهد لحضور درس اللغة الإسبانية، قمت بنشاط وخاطبت ابنتي:

هيا يا صغيرتي عليك أن تتعلمي الإسبانية.

نزلت إلى الشارع وأنا أستغرب هدوء مشاعري التي خلت أنها اقتربت من قلّة الحس أو اللامبالاة. أي امرأة غيري كانت ستشعر أنها تورطّت بمصيبة، في حين أشعر أنا بالصفاء والسلام. ماذا يحدث لي؟

انتبهت إلى أنني بعد أن عرفت بوجود ابنتي داخلي، قد تغيّرت نظرتي إلى كل الأشياء من حولي. فحين مشيت في الشارع لأول مرة برفقة صغيرتي الموعودة، صرت أنظر إلى الأطفال بعين أخرى، وللأمهات بعين أخرى، وللحياة بمجملها بعين أخرى. فارقني شعوري بالوحدة، وفارقني شعوري باللاجدوى، والأهم من هذا كله، فارقني شعوري المزمن بالخوف. صار عندي هدف واضح وكبير، لكي أعيش من أجله، وأكافح من أجله، ومستعدة بقلب ثابت، حتى أن أموت من أجله.

بعد خروجي من المعهد وفي طريق عودتي، داهمتني أخيراً الأفكار الهدّامة المقلقة (فاطمأننت إلى صحتي النفسية!)، عاودني خوفي المزمن وسألت نفسي إن كنت محقّة بما أقوم به من جنون؟! فكرت أنني بعد أن أحلّ مشكلة إعلام جيرارد، كيف سأواجه مشكلة شرح حالتي لمجتمعي الصغير هنا، ماذا سأقول لريتا ورياض، لصديقاتي في المؤسسة من موظفات ومتطوعات، ولأصدقائي الجدد القائمين على أعمال المؤسسة كمجلس إدارتها، الأب خوسيه لويس، والسكرتير أنطونيو وإدواردو وبيلار والبقية، هل ستتغير نظرتهم لي بعد معرفتهم بحملي دون زواج باعتبارهم مؤسسة كاثوليكية متديّنة؟ هل سيعتبرونني اللاجئة الجاحدة التي تركت بلادها غارقة في الحرب والدم وجاءت لتعبث بمجون في أوروبا؟ أم سيشفع لي فكرهم الغربي المعتاد على التعايش مع فكرة الأم العازبة، والمتحرر من نبذ العلاقة الجنسية وتحريمها خارج إطار الزواج!

ومن ثم توالت الهموم واحداً تلو الآخر، وكان الهم الأكبر مادياً بحتاً. إذ سرحت بخيالي إلى ما بعد ولادتي وتخيّلت حياتي كيف ستكون. إن تعثرت الآن بالحمل والولادة والأمومة، فكيف سأستطيع التقدّم لعمل جديد وإثبات ذاتي فيه! وإن لم أوفق بالحصول على عمل، كيف سأنفق على ابنتي؟ هل

سأستجدي المؤسسة؟ أم سيكون عليّ أن استجدي جيرارد، لأبدو كمن خطّطت لتنجب من رجل ثري من أجل أن تستفيد من ماله الذي ستبتزّه منه بحجّة تربية ابنه.

عندما وصلت بيتي فوجئت بالعشرات من الرسائل القصيرة وعبارات التعزية تزدحم في الواتساب، والميسنجر وعلى صفحتي في الفيس بوك.

لقد ماتت عمتي ماتيلد! كنت تقريباً قد نسيت!

لم أتحدّث مع أحد اليوم. بعد أن أخبروني صباحاً بالوفاة لم أعاود الاتصال بأحد من أفراد أسرتي. كنت أتمنى أن تكون رنين قربي، أو حتى صغيرتي نور، لأرى بريق السعادة في أعينهما المحببة عندما ستعرفان أنني سأنجب لهما طفلة جميلة لتنضم إلى فريق أولادهما الرائعين، تماماً كما كانوا في حلمي قبل أن يتحول إلى كابوس.

اشتقت لأمي، وتمنيت لو أنني أسترخي في حضنها اليوم، لأرمي همومي وهموم ابنتي هناك، وأستمتع بدفء شعور الأمومة في حضن أجمل أم في العالم.

ليس فقط لأنني قدّرت أنهم مشغولون بإجراءات الجنازة والدفن وتلقيّ التعازي، لم أتصّل لأنني كنت متهيبة هذا الخبر الكبير، الذي كنت سأنزله عليهم كالصاعقة. فضّلت أن أؤجل الصاعقة، ريثما أتمالك نفسي قليلاً.

حتى مايا ورندا، لم تتصلا بي اليوم ولم أتصل بهما، تهربت من محادثتنا المعهودة على الواتساب. واخترت أيضاً أن أمضي ليلتي الأولى مع ابنتي بصفاء، دون صدامات أو حوارات مع أي كان. حسبي الأفكار التي تتصارع كالديكة في رأسي. هذه ليلتنا الأولى معاً كأم وابنة، وأفضّل أن نمضيها بأكبر قدر ممكن من الهدوء وأكبر قدر ممكن من السلام.

ماتت عمتي المسكينة، حضنت خوفها وحرمانها وبؤسها وماتت. عاجلاً أو آجلا سأموت مثلها، بخوف أو دون خوف، بابن أو دون ابن سأموت مثلها، لا أريد لأحد أن يقول ساعتها، ماتت لميا المسكينة. سأعيش حياتي الباقية حتى الثمالة، ما دام كل شيء إلى زوال.

«لا تقلقي يا صغيرتي، المهم أنك صرتِ هنا اليوم، والباقي كله تفاصيل صغيرة، سنعمل على حلحلتها مع الأيام».

كنت أعرف أن صغيرتي تلك غير قلقة ولا مهتمّة بما أقول، حبّة توت صغيرة صمّاء متشبثة بجدار رحمي، لا يهمّها كثيراً أن تبقى أو تذهب، أن تعيش أو تموت، أن تولد إلى هذه الحياة السخيفة

أولا تولد. كنت أعرف أنني بإنجابي إياها لا أمنّ عليها بشيء، إذ أنني أنجبها ليس من أجلها بل من أجل ذاتي. كنت أعرف أنني أنانية، وأتعشّم أن تسامحني ابنتي على أنانيتي، عندما ستذوق طعم السعادة في الحياة.

عرفت الآن لماذا يتمنى الأهالي أن يكون أولادهم سعداء، من أجل أن يغفروا لهم فعلتهم الأنانية الحمقاء، حين أنجبوهم بقرار مجنون إلى هذا العالم المجنون.

بعد العشاء الذي استغنيت فيه عن كأس النبيذ، وضعت اللابتوب في حضني، وشرعت في الكتابة. تفتّحت شهيتي بصورة غير مسبوقة، وتسابقت الأفكار والجمل والكلمات في رأسي، لتنهمر عبر أصابعي أسطراً جميلة على الشاشة أمامي.

أحداث يومي هذا غيّرت مجرى أحداث روايتي، إذ أهدتني إلهاماً جديداً جعلني أعدّل مقاطع وأحذف أخرى، قبل أن أضيف مقاطع جديدة أكثر جرأة وخيالاً من التي كنت قد كتبتها مسبقاً.

أنهكني التعب في الساعة الثانية والنصف فجراً، فاندسست في الفراش وألقيت برأسي الممتلئ بالنعاس على المخدة، وقبل أن أستسلم للذة النوم، انتبهت إلى نقطة مهمة فاتني التفكير فيها: ماذا سأسمي ابنتي؟ وطار من رأسي النعاس.

أيقظني هاتف أمي في الصباح التالي. حكت لي عن الجنازة، وسألتني عن نفسي. قلت لها إن كل شيء على ما يرام! وبعد المخابرة، تحدّثت عبر الواتساب مع رنين ونور لفترة طويلة أيضاً، لم أجرؤ خلالها على التلميح لهما بأي شيء، وقرّرت بعد اكتشاف صعوبة الخوض في الموضوع، أن أؤجل الاعتراف بأمر حملي إلى ما بعد التوصّل إلى حلّ بشأن إخبار جيرارد.

وفي ساعة تفكير عقلاني، ناقشت بيني وبين نفسي موضوع الإجهاض.

إذا كان ردّ فعل جيرارد سلبياً، وامتنع عن الاعتراف بالطفل (احتمال مستبعد لكنه وارد) هل سيكون من الحكمة أن أحتفظ أم أن أجهض الجنين؟

أولاً لا تقولي جنين، هذه ابنتي، وابنته. هذه الطفلة قطعة منه سرقتها

لي الحياة وأهدتني إياها خلسة، رغماً عن أنف بريجيته التي تظنّ أنها تصادر تفاصيله وروحه وتحتكر كل قطعة فيه. هذه الطفلة هي حبنا الذي حاربوه، وقد اكتسى جسداً غضّاً ونبضت فيه روح جديدة. هذه المعجزة هي حبنا الذي انتصر، وبقي حياً بعد أن فشلوا في أن يقتلوه.

وثانياً؟

ثانياً، هذه الطفلة هي فرصتي الأخيرة لكي أصبح أماً!! فرصتي التي جاءت دون أن أسعى إليها، لتقول اقتنصيني فأنا الحدث الكبير الذي سيتوّج مشوار حياتك ويعطي أنوثتك تمام الكمال ويعطي خلايا جسدك الخلود. فرصتي لأستمر في الحياة بعد أن أموت، فرصتي ليكون لي نسل ينحدر مني ويتحدّث بفخر عني.

وثالثاً؟

ثالثاً، هذه حياة جديدة وكيان منفصل بحد ذاته، من حقه أن يعيش. وقد تكون حياته حدثاً مؤثراً، يضيف شيئاً ولو صغيراً إلى ملامح وجه التاريخ.

السبب الأول جميل، والثاني أجمل، الثالث والرابع والعاشر، مقنع وقمة الروعة. ولكن عملياً، بدون أب وبدون احترام المجتمع، هل تقولين لي كيف؟

الأب!!! لم يقرّر موقفه بعد. والمجتمع، سأكسب احترامه طبعاً لأنني أعرف أنني إنسانة محترمة، ابنتي ستكون محترمة مثلي، وفي النهاية

لا يصحّ إلا الصحيح. وأنا أشعر أن ما أفعله صحيح.

حسناً إذاً، قبل البتّ بالقرار، علينا انتظار النقطة المعلّقة، ردّ فعل الأب.

ليكن، بضعة أيام فقط، وستوضع النقاط على الحروف.

لوضع النقاط على الحروف، كنت أنتظر اتصاله، وأثق أنه سيأتي، لكنه تأخّر. هل يعقل أنه لم يشتق لي بعد، خلال كل هذه الفترة؟ لم أصدّق! وسلّيت نفسي أثناء الانتظار باختيار اسم لابنتي.

أردت لها اسماً مشتقاً من مدينتي، حلب. اسماً يذكّرها ويذكّر من حولها بالمدينة الساحرة العريقة التي تنتمي إليها. بحثت طويلاً، فكّرت وحاولت أن ابتكر، لكن ما من كلمة أقنعتني، لتعبّر عن ابنتي ومدينتي في لفظ واحد.

فكرت أن أسميها اسماً يشبهها، ويصف وجودها في حياتي، وجودها الذي هو أشبه بالمعجزة. هي بحق، معجزتي. سأسميها إذاً «معجزة». فرحت بالاسم وارتاح قلبي لما يعبّر عنه. كلمة معجزة بالإسبانية تعني (ميلاجرو). ميلاجرو! اسم جميل، يبدو لطيف الموسيقى وقوي المعنى، لقد قرّرت إذاً. اسم ابنتي منذ هذه اللحظة هو «ميلاجرو».

وتمهيداً لوضع النقاط على الحروف، ارتأيت أن أذهب إلى عيادة طبيب نسائي لأتأكد أكثر وأطمئن إلى وضع الحمل ومدى صحته وسلامته. طلبت موعداً من المستشفى العام، فأعطوني عنوان طبيب مختصّ، أخذوا عيّنة من دمي لتحليلها، وحجزوا لي موعداً عنده بعد أسبوع.

مرّ الأسبوع ولم يتّصل جيرارد، فذهبت إلى الموعد وحدي، دون طيفه الذي كنت أتمنى أن يرافقني في هذا المشوار، كأب شرعي لطفلتي، وشريك شرعي لي، رجلي وحبيبي وملاكي، وقدري الجميل الذي وهبني معجزة حياتي.

بعد اطلاعه على نتيجة تحليل الدم، وبعد حوار مكثّف أجبت فيه عن أسئلة كثيرة، قال لي الطبيب أنني في الأسبوع الخامس من الحمل، وشرح لي كيفية نمو الجنين ومراحل تكوّنه في داخلي.

سألني عن عمري، وارتحت عندما لم يفاجئه الجواب كما كنت أتوقّع، وقدّرت أنه في هذه البلاد ليس من النادر أن تحمل النساء في الخامسة والأربعين، في حين أنه في بلادي، تتحول الكثيرات من النساء إلى جدّات قبل هذه السن، ويقمن بزيارة العيادات النسائية فقط لمرافقة بناتهن الحوامل.

وعندما قال لي إن جنيني ما زال أقصر من رمش عيني، تفاجأت وأنا أفكّر بكم من الوقت يلزمه بعد ليصبح بحجم حبة التوت تلك التي كنت أحلم بها.

وعندما أعاد ذكر كلمة: «جنينك»، قاطعته قائلة بحزم:

«ميلاجرو» من فضلك.

لم يفهم للوهلة الأولى ماذا أريد، ثم ما لبث أن ابتسم وردّد خلفي:

ميلاجروس.

لا، ليس ميلاجروس، اسم ابنتي هو ميلاجرو.

آه آسف، ميلاجرو، اسم جميل!

ابتسمت له بود شاكرة صبره وقلت:

شكراً دكتور.

وكيف قرّرت أنها ابنتك وليست ابنك؟ سأل مداعباً.

نظرت إليه ببلاهة وأجبت:

لست أدري.

حافظ على ابتسامته الودودة، وأضاف:

لنتعشّم إذاً أن تأتينا ميلاجرو، ولكن من باب الاحتياط، لا مانع من التفكير باسم ذكري أيضاً.

طبعاً دكتور، سأفعل.

لم أحبّ أن أجادله كثيراً، لم أشأ أن يأخذ عني انطباعاً أولياً بأنني امرأة مجنونة. كما فكّرت أنه

على أي حال محقّ بما قال، لكنني مع ذلك لن أفكّر الآن إلا بميلاجرو.

أخبرني أن صحتي وصحة ميلاجرو جيدتان، وأن كل شيء يبدو سليماً وطبيعياً حتى الآن، لكن نظراً لتقدّمي في السن أولاً، ولأنه حملي الأول ثانياً، فإنني يجب أن أخضع لمراقبة دقيقة وعناية ممتازة.

أعطاني التعليمات اللازمة، وموعداً آخر بعد أسبوعين حين سيكون بإمكاني الاستماع إلى دقّات قلب ابنتي ورؤية وجهها، إذا سارت الأمور على ما يرام. ودوّن لي على بطاقته رقم هاتف إضافي للاتصال في حالة الطوارئ.

وقال لي بحبور وهو يودّعني:

حظاً سعيداً سنيورا، اعتني بنفسك وبميلاجرو!

خرجت وأنا متوجّسة بعض الشيء، وسألت نفسي إن كانت سنوات عمري التي تزحف بسرعة نحو النصف قرن، ستساعدني باجتياز شهور الحمل بسلام، دون أن تلفظه أو تلفظني في منتصف الطريق.

لكنها أساساً معجزة!! ستعتني بي وبنفسها وليس من داعٍ للقلق، طمأنت نفسي ومشيت في طريقي وأنا أتساءل: ألم يحن الوقت بعد لإخبار جيرارد؟

رؤيا /2/...

منقوش على جدار عتيق ما، نبوءة تقول إن مرور هذا الرجل بغض النظر عن زمانه ومكانه، لم يكن عبثياً في حياتي!

يجب أن يعرف الآن، عليّ أن أخبره أن الحب الذي صعقنا بشرارته المفاجئة، قد أثمر روحاً جديدة تنبض الآن في أحشائي وفي أعماق وجداني وقلبي.

الحب الذي قالوا عنه عقيماً، منحطاً، محرّماً ومنبوذاً، وهب الحياة أرقى قيمة يمكن أن توهب أبداً، حياة أخرى!

ذلك الوقت الذي سرقناه خلسة من عمر إجازتي تلك في النمسا، ومن عمر حياتي وحياته وصحرائي وصحرائه، المكتسيتان ثياباً خضراً من باب المجاملة والحشمة. ذلك الوقت المبارك الذي تحرّرنا فيه من كسوتنا فأسقطنا عنّا المجاملة وأسقطنا الحشمة، وكشفنا عورة صحارينا العطشى ومن ثم سترناها في بحيرات من شغف. ذلك الوقت الذي مزجنا الحب فيه بشيء من الجنس ومارسنا الجنس فيه بكثير من الحب، لم يكتفِ بإعطائنا جنساً رائعاً وحباً أروع، بل توّج هداياه بكيان صغير جمع فيه أشياءنا كلها التي تناثرت في فراش العشق المحموم، ونفخ فيه من أنفاسنا التي شهقناها وزفرناها سوياً، روحاً جديدة معمّدة بماء الحب المقدس.

زيارتي التي قمت بها إلى النمسا في الشهر المنصرم خلال إجازتي الصيفية، لم تكن بريئة الأهداف تماماً، بل كانت ملطّخة بذنب الشوق إلى ذلك الدكتور الوسيم (إذا كان الشوق ذنباً!) الذي استمر في مراسلتي بإلحاح بعد

لقائنا القصير في الفندق حين جاء سائحاً مع زوجته وزوج من أصدقائهما، ونزل في الغرفة 206.

لست أدري ما الذي استمالني في كلماته تلك، ما الذي حرّك المشاعر في قلبي، بعد أن بقيَتْ لسنين طويلة حكراً على ساحر إسباني بعيد، يحركها من مكانه المجهول بخيوط خفية كما تحرك الدمى في مسرح العرائس.

الأحداث المفجعة التي اجتاحت العالم كله، والحروب المدمّرة التي اجتاحت العالم العربي خاصة، والتي نجت سوريا منها بمهارة ديبلوماسية واستراتيجية جديدة ولعبة سياسية ذكية حقنت (ولو مؤقتاً) الدماء التي فارت في عروق الشعب ووصلت إلى حافة الإهراق. تلك الكوارث شغلت ساحري ذاك عني، بما أنه يعمل في المجال الديبلوماسي باختصاص غير واضح تماماً، فخفّف من اتصالاته بي لكنه لم يقطعها، وتباعدت الفترات بين محادثة وأخرى بتباعد المسافات بين البلاد التي كانت يتنقل فيها مؤدياً مهامه الدبلوماسية تلك. فمن إسطنبول إلى واشنطن ومن واشنطن إلى الدار البيضاء، ومن الدار البيضاء إلى لندن، ومن لندن إلى بغداد. تحياته من كل تلك البلدان لم تكن تنقطع، ما انقطع كان أملي في رؤيته ذات يوم، إذ كان يبدو كالزئبق الذي يطير كلما قبضت عليه، وكالشبح الذي إذا عانقته اكتشفت أنك تعانق الهواء.

ظهور جيرارد بدمه ولحمه في حياتي، جعلني أكتشف مدى شوقي إلى حب رجل ملموس وحقيقي، ومدى قنوطي وحرماني، في سنواتي تلك التي صرفتها في حب شبح هائم في فضاء من أثير.

جيرارد، الطبيب الوسيم، وبمجرد أن وصل داره عائداً من رحلته تلك التي زار حلب فيها، وقبل حتى أن يتنهّد ويقول: *Home sweet home*. قام بإرسال كلمتين لي عبر الواتساب: «سعدت بمعرفتك. جيرارد».

وبدأت الاتصالات بيننا، وتطورت بوتيرة سريعة وحماسية حيناً، وبطيئة وهادئة حيناً آخر. تبادلنا كتابة سطور حلوة وقليلة، ولكن لمرات كثيرة. لم نكن نتحدث كالعشاق لساعات وليال طوال، بل كنا نكتفي كل عدة أيام بدقائق منعشة وحديث مرح وديّ فيه شيء من كل شيء. تلك الدقائق كانت تجدّد

الروح في جسدينا وتضخّ دماً جديداً في عروقنا.

كان عمر هذه العلاقة الغريبة ما يقارب الخمسة أشهر، حين بادرني جيرارد بسؤال حرّك أمواجاً من الانفعالات داخلي:

ألن تأتي لزيارة صديقتك في النمسا كما ذكرتِ لي سابقاً؟

شعرت بحرارة تجتاحني، وسمعت صوت دقات قلبي، هل أراه قريباً؟ هل يعقل فعلاً أن أتورّط وأراه؟!

وإذا جئت؟ ماذا سيحدث؟ هل سأراك؟

وهل سأستطيع أن أضيّع فرصة كهذه؟ لميا، يجب أن تعرفي، أنا أشعر بالحب يمتلكني، والشوق يحرقني لكي أراك.

سيسعدني أيضاً أن أراك قريباً، صديقي جيرارد!

وكالمسحورة والمستلبة اللبّ، قمت بترتيب رحلتي تلك بأسرع وقت ممكن. اتصلت أولاً بفرح التي كنت بحق مشتاقة إليها وسعيدة جداً بزيارتها، أبدت حماسها وفرحها لقدومي، وشرعت بترتيب برنامج سياحي لنا حافل وصاخب.

ضغط العمل في الفندق لم يكن كبيراً، فنسب الأشغال كانت نسبياً منخفضة، انعكاساً للأحداث التي كانت تجري في الجوار وتهدّد البلد، لذلك استطعت أن أقتنص لنفسي أسبوعين من الزمن، لأسترخي في إجازة طال شوقي إليها.

كنت أملك فيزا شنغن لا تزال سارية المفعول، بعد أن أوصى أليكس (شبحي الإسباني) أصدقاءه في السفارة الإسبانية بدمشق لمنحي إياها لمدة

سنتين، وذلك حين بدأت الأمور تشتعل في سوريا، واحتياطاً وخوفاً من تطور الأحداث إلى الأسوأ كما حصل في دول عربية عديدة. نصحني بتجهيز فيزا والاحتفاظ بها للطوارئ، ليكون بإمكاني المغادرة لحظة أشاء. وقد جاءت هذه اللحظة، وشئت السفر الآن ولكن ليس هرباً من حرب مدمرة، ولكن ملاحقة لحب قد يكون مدمراً هو الآخر.

حطّت بي الطائرة في فيينا، حيث خطّطت لقضاء ليلتين لأستمتع بزيارة المدينة الفخمة قبل أن أتوجه إلى بريغنز غرب البلاد للقاء فرح وزيارتها، وللقاء الصديق النمساوي الذي حرّك في قلبي مشاعر تختلف عن تلك التي تكون عادة بين الأصدقاء.

سحرتني عظمة المدينة المترفة الزاخرة بقصور يحبس جمالها الأنفاس، والمطعّمة بأبنية راقية تنتصب على ضفاف الدانوب الذي يعبرها بوقار وجلال. زرت وحدي أهم القصور وأشهر الأماكن فيها، وفي أمسيتي الثانية والأخيرة، حضرت عرضاً تاريخياً في دار الأوبرا، واستمتعت بموسيقاه الفخمة حتى أقصى درجات المتعة.

كنت أحاول أن أكون منطقية وأن أتناسى دقات قلبي الذي كان يعدّ الأيام للقاء المرتقب. لكن الطيف الفارع الطول كان يلازمني في كل الأمكنة التي زرتها في فيينا. وفي المطعم الدوّار أعلى البرج الذي يطلّ على الدانوب، كان يقرع كأسه بكأسي، ويردّد كلماته التي كانت تقرع أبواب قلبي المتردّد بين خوفه من فتحها ولهفته لأن يفعل.

«أشعر بالحب يمتلكني، والشوق يحرقني لكي أراك!».

حبّ؟! شوق؟! وماذا بعد؟ من يثق بحبّ تشكّل في لقاءين قصيرين ومراسلات إلكترونية. ما مستقبل هذه العلاقة التي تبدو مجنونة وقصيرة العمر؟ ما الذي يمكن أن يربطني برجل كهذا، تفصلني عنه كل الظروف من زمان ومكان وأوضاع عائلية واجتماعية؟

في الصباح التالي لليلة الأوبرا، ركبت القطار الذي حملني إلى قدري في بريغنز، بعد أن قرّرت بعقلانية أن أتماسك إزاءه، وأن ألتقيه بود صديقين حميمين

ليس أكثر - ولكن أيضاً - لا أقل!

«لن أهرب من شبح لألقي نفسي في حضن شبح آخر» حفرت هذه العبارة في فكري، وطفقت أردّدها طيلة الساعات السبع التي قضيتها في القطار قبل أن يصل بي إلى بريغنز، لألقي نفسي بين ذراعي فرح المفتوحتين، ولأحضن معها بدوري صداقة حلوة وطويلة، وذكريات عمر وطفولة وشباب.

حين هاتفت جيرارد وأعلمته أنني في بريغنز بادر بسؤالي:

متى سأراكِ؟

لم أعرف كيف أجيبه رغم أنني كنت قد خطّطت لسيناريوهات عدة لتنفيذ هذا اللقاء بشكل آمن.

أحبّ أن أُعرّفك إلى صديقتي فرح.

بكل سرور طبعاً.

واتفقنا أخيراً أن نمرّ أنا وفرح لزيارته في العيادة يوم الأربعاء بعد الظهر، حين لا يستقبل المرضى في هذا اليوم.

منذ اليوم الأول، حكيت لفرح عنه، شرحت لها كل تفاصيل القصة، فتلهفّت للقائه كما توقعت، ونصحتني كما سبق أن نصحت نفسي بأن لا أتورّط في مشاعر قد تجرفني إلى ألم جديد.

حين وصلنا إلى العيادة، كان يقف خارجاً ليستقبلنا وليدلنا إلى المدخل. حين لمحت هامته الفارعة منتصبة أمامي بزي العيادة الأبيض، دقّ قلبي بعنف. وكاد أن يتوقف تماماً حين ضمّني وقبّلني على خدي.

بعد أن قدّمت كلاًّ من صديقيّ إلى الآخر، دخلنا العيادة وجلسنا في غرفة المكتب، وانخرطنا في أحاديث شتى دارت حول سوريا، وحلب، والفندق الذي «وقع في هواه!». كما تحدثنا عن الأوضاع المخيفة والمؤسفة في كثير من البلدان العربية، وتبادل صديقاي أيضاً بعض العبارات بالألمانية، وتحدثا عن بريغنز

والحياة فيها.

أثناء انشغاله عنا بالرد على مكالمة هاتفية، تبادلتُ وفرح نظرة وابتسامة، وقالت لي بالعربية:

مثل القمر.

أنا عايزة من ده!!!! أجبتها بغمزة صغيرة.

وأنا عايزة من ده كمااااااااااااان.

شراكة لعيونك.

وانخرطنا في ضحك صبياني كالذي اعتدناه في أيامنا التي سلفت، وخصوصاً في طريق عودتنا من المدرسة.

حين اعتذرنا للمغادرة، وقف بأدب، وقبّلنا مودعاً، وهمس في أذني بعد أن سبقتني فرح بخطوتين:

«سأكلمكِ مساء».

خرجنا من عنده ونحن نضحك بطرب وحماس، تحدثنا عنه قليلاً ثم تناسيناه، وأكملنا برنامجنا اليومي بالتسكع في الأسواق، والاسترخاء في المقاهي التي تطل على بحيرة «بودينسيه» الساحرة الجمال. وبيني وبين نفسي، استسلمت لخدر لذيذ أصابني منذ أن ألتقت نظراتي بتلك النظرات الدافئة، لم أقاوم لذتها الهائلة، فانهزمت طوعاً مقنعة نفسي بمنطق غريب أنني في إجازة، ويحق لي فيها ما لا يحق لي خارجها، يحق لي أن أستسلم لحب عابر جميل، على أن أودعه يوم انتهاء هذه الإجازة البهيجة لأعود بدونه إلى أرض الواقع الكئيب، خالية الفكر والفؤاد من تلك النظرات والهمسات الساحرة.

أريد أن أراك ثانية، لوحدك.

أصرّ في المساء بلهجة تذيب نياط القلوب، وتابع:

أريد أن أعانقك بهدوء، وأن أنظر إلى عينيك بصمت، أريد أن أشبع منك!

لكن جيرارد، ماذا تقول؟! حسناً سأكون صريحة، أنا أريد هذا أيضاً، ولكن، كيف أنسى أنك رجل متزوج أولاً وأخيراً؟!

لن أنسى ذلك أعدك! لن أضغط عليك، أريد فقط أن أقضي أطول وقت ممكن معك، أن نتحدث، أن نتعانق، أن نصمت، أن لا نفعل شيئاً. كله سواء، أريد فقط أن أكون معك.

وكنت معه في العيادة بعد يومين. استقبلني بعناق حار، وقبل خديّ وجبيني.

تأثيرك في نفسي كبير جداً، أنت امرأة استثنائية، وجميلة جداً.

شكراً عزيزي، لقد وجدت فيك أيضاً رجلاً مميزاً، لم ألتقِ بمثله منذ زمن طويل.

حدّثني في لقائنا هذا عن علاقته بزوجته بشكل مفصّل، فهمت أنه واقع تحت سيطرة وإدارة امرأة قويّة، أحكمت قبضتها عليه منذ سنوات شبابهما الأولى، وعوّدته على أسلوب معين في الحياة، خرقته هي نفسها عندما قامت بخيانته مرة، وعادت إليه وأعادته معها بعد فترة قصيرة بحجّة المحافظة على العائلة وتربية الأولاد الثلاثة، اعتذرتْ منه ودعته لمسامحتها، ففعل على مضض، ليستأنفا نظام حياتهما كأن شيئاً لم يكن.

قال إنه بعد حادثة الخيانة تلك، قام بالثأر لرجولته المجروحة حين أقام علاقة عابرة دامت لأسابيع. وذلك قبل أن تعود المياه لمجاريها، وقبل أن تتحوّل الزوجة المسيطرة إلى زوجة غيورة أيضاً، وحسّاسة جدّاً تجاه أية امرأة جميلة تمرّ في المجال المنظور لزوجها الوسيم الذي يحب النساء الجميلات.

ما فهمته أيضاً، أن نظام حياتهما ذلك عصي على الخرق والاختراق، وحدست أن هذا الرجل المحروم من الحب والبهجة، قد يقع بسهولة في الغرام، لكنه لن يغيّر حياته من أجله. عرفت أن قرار الانفصال كان أصعب من مجرد أن يفكر فيه، كل المفاتيح في يد بريجيته (زوجته)، إلا مفتاح قلبه الصغير، الذي كان أضعف من أن يثور من أجل حريته.

حنانه الكبير، شخصيته الآسرة، وسامته المهيبة، نظرة عينيه المتيّمة، وعناقه الدافئ الزاخر بمشاعر استثنائية ورائعة، أمور جعلتني أعترف لنفسي أنني وقعت في هواه، وأنني سأتعذّب حين سأغادره، لأنني مقتنعة تماماً، أن هذا الرجل الذي عشقني حتى الثمالة، سيكتفي بالتمتع بمشاعره تلك دون أن يحرك ساكناً من أجلها. أولوياته في الحياة كانت بعيدة عن إطاعة مشاعره، والسير خلف هواه، كانت محصورة بالمحافظة على شمل العائلة، والمحافظة على صورته أمام أولاده، وعلى سمعته الطيبة في مدينته، كطبيب ورب أسرة ينحدر من بلدة كاثوليكية متديّنة ومحافظة.

كان قد بقي أمامي أربعة أيام في النمسا قبل أن أغادر، وقد ذكرت أمامه أنني خطّطت لقضاء اليوم الأخير في سالزبورغ، حيث سأستغل الفرصة لزيارة المدينة الجميلة، قبل أن أسافر من المطار في الصباح التالي.

ودّعني بعناق وددت أن لا ينتهي، قبّل وجنتي بهدوء، وقبّل زاوية فمي. انتزعت نفسي من حضنه مرغمة، وخرجت منتشية وكسيرة القلب، حيث استقبلتني فرح في البيت بوجه غريب الملامح، وقالت لي أن زوجها لمحني أخرج من عيادة جيرارد، فحكيت لها ما حصل باختصار.

فرح كانت متفهّمة، لكنها في نفس الوقت استنكرت أن أنخرط في علاقة حرجة عقيمة كهذه. طمأنتها بهدوء، أنني لن أفعل.

في مدينة موزارت، كانت الأجواء ساحرة ورومانطيقية، وصلت ظهراً بالقطار من بريغنز بعد أن ودّعت فرح وشكرتها على ضيافتها الرائعة خلال تلك الأيام المنصرمة. توجهت إلى الفندق الذي كنت قد حجزت فيه واستلمت غرفتي، ثم نزلت وهمت في شوارع المدينة القديمة، سارية خلف طيف موزارت الذي تصدح موسيقاه في كل الساحات والمتاجر، وتزيّن صوره أغلب المباني. شعرت بالشجن والأسى، اختلست نظرات حسودة إلى العشاق المتعانقين في الشوارع من مختلف الأعمار، وشعرت وكأنني بوحدتي، أشكّل نشازاً في هذا المكان العابق بالحب، وتمنيت لوكان جيرارد هنا، أو حتى أليكس!

قرّرت أن أعود مساءً لأتعشى في الفندق بهدوء، وحدي، مع ذكرى أشباحي الذين قدّر لي أن أفوز بالبقاء وحيدة دائماً مع أطيافهم.

وبمجرد أن دخلت غرفتي في الفندق، رنّ موبايلي الذي التقط لتوه شبكة الإنترنت، نظرت، فإذا بها رسالة من جيرارد! خفق قلبي كعصفور صغير، وفتحت صفحة الواتساب بلهفة.

«السيدة الجميلة، هل تشرّفني بقبول دعوتي للعشاء؟!».

صعد الدم حاراً إلى وجنتي، وزاد قلبي من خفقانه.

«أين أنت؟».

«أنا في سالزبورغ.. أرسلي لي عنوانك».

أرسلت له اسم الفندق وعنوانه، ووصل الانفعال بي إلى أقصى درجاته، فلم أعد أعرف ماذا أفعل! اندفعت أخيراً تحت الدوش الدافئ وحاولت أن أسترخي. لدى خروجي من الحمام التقطت الموبايل، فوجدت رسالة أخرى مرسلة من حوالى العشر دقائق.

«أنا في اللوبي».

يا إلهي.. بهذه السرعة؟!

«احتاج حوالى النصف ساعة بعد!».

«خذي وقتك عزيزتي.. هل تسمعين في غرفتك دقّات قلبي؟!».

لا.. لم أكن في الحقيقة أسمع إلا دقّات قلبي أنا.. فكّرت وأنا أضحك ببهجة طفل في الملاهي.. ماذا تراني سألبس؟ اخترت أخيراً ثوبي الأسود القصير، الذي كنت أملكه منذ فترة طويلة، وأحبه كثيراً، لأنني كنت أشعر أنني أبدو جميلة، ومرتاحة فيه.

لم أحتمل التمهّل والمماطلة أكثر من النصف الساعة التي كنت قد أعلنت عنها، فنزلت. وجدته جالساً في انتظاري، أنيقاً ووسيماً إلى أبعد الحدود. «من أين طلع لي هذا الرجل؟» ابتسمت له وأنا اسأل نفسي، فتقدّم إليّ وعانقني.

اشتقت إليك.. عزيزتي.

وأنا اشتقت إليك.. شكراً لأنك جئت.

تعشّينا في مطعم بالغ الأناقة اسمه «الوعل الذهبي»، شربت معه بنهم وأكلت بشهية بعد جوع اليوم الطويل، ولم أعتذر عن تناول فطائر سالزبورغ الشهيرة كتحلية بعد العشاء.

كان يتحدّث إليّ بعذوبة، ويتأملني بتلك النظرات المتيّمة المندهشة التي أدهشتني منذ اليوم الأول، وتّيمتني.

طلب زجاجة ثانية من النبيذ، حاولت أن أمنعه لكنني لم أفعل، كنت أشتهي أن أشرب كأساً أخرى، ففعلت، وانتشيت، وضحكت ما شاء لي الضحك.

بعد العشاء مشينا حتى الفندق الذي لم يكن بعيداً، تمنيّت ألا يبالغ في احترام وعده لي بأن لا ينسى أنه رجل متزوج، تمنيّت أن ينسى أو يتناسى، وأن يقبلني قبلة حقيقية، وربما أكثر، فبالنسبة إليّ، وخصوصاً الآن بعد كل هذا الانفعال وكل تلك الكؤوس، لم أعد أذكر إلا أن إجازتي لم تنتهِ بعد، وعليّ أن أتوّجها بمسك الختام.

تحقّقت أمنيتي، إذ صعد معي إلى الغرفة بحجّة أنه سيوصلني، دخل وأوصد الباب خلفه. وعانقني بشغف وهمس في أذني.

محبوبة قلبي لميا.

قبّلني في شفتي، فاستسلمت لعذوبة القبلة. وعندما بدأ بالتمادي شعرت بالخطر، فاستوقفته وسألته.

جيرارد.. ألا تشعر بالذنب؟

نظر إلى عيني بوله وقال:

أشعر بالحب! الحب، ولا شيء إلا الحب.

عبارته تلك كانت رصاصة الرحمة التي قتلت المقاومة المريضة التي كانت تئنّ بضعف في داخلي. «الحب ولا شيء غير الحب» ليكن! فلتكن هذه ليلة الحب، الحب ولا شيء إلا الحب.

وكانت بحق ليلة الحب الكبير الذي أختُزل في زمن صغير. زمناً كان كافياً ليغير وجه الحياة، وليزرع نفسه شتلة خالدة في عمق ترابي.

عندما وصلت إلى حلب، أرسلت له رسالة أخبرته فيها أنني وصلت إلى بلدي سالمة، وأن قدميَّ قد حطتا على الأرض أخيراً، بعد تحليق خيالي في سموات وردية جميلة.

«كانت ساعات قليلة، لكنها ستبقى خالدة في قلبي للأبد، لم يقدّر لنا أن نتشارك هذه الحياة، لكنني أؤمن أن روحي تنتمي إلى روحك. لقد أوجعني هذا القدر بقدر ما أسعدني، ولكن يجب أن تعرف، أنني رغم كل ذلك الوجع لست أشعر بالذنب ولست نادمة على شيء، وإنني إن صادفتك من جديد، سأقع بسعادة في حبك ووجعك من جديد.

كُنْ سعيداً حبيبي، وثق أنني مهما فعلت بي الأيام، سأبقى أحبك إلى الأبد».

أجابني بعد ساعات:

«أحببتك، وأحبك، وسأحبك كما لم أحب في حياتي. بدوري، أنا لست

نادماً على شيء، إلا على الألم الذي سببته لك رغم الفرح العظيم والحب الكبير اللذين جلبتهما إلى حياتي، عسى أن تسامحيني».

عندما كان يعانقني لحظة الوداع، همس في أذني، أنه سيفعل المستحيل ليراني ثانية في أقرب فرصة، لكنني رجوته ألاّ يفعل!

فهم قصدي ولاذ بالصمت، وفتح صمته الباب أمام ألم كبير تقبلته سعيدة وصاغرة، إذ لم تنفع محاولاتي الحثيثة لدرئه عن قلبي، الذي قُدّر له أن يتألم بعمق كلما انتشى وعشق حتى الثمالة.

عدت في اليوم التالي إلى عملي، الذي تراكمت ملفاته على طاولة مكتبي خلال فترة إجازتي، انخرطت بين الملفات، وشغلت روحي وجسدي بالصعود والنزول على درجات الفندق كلها، حيث كثّفت جولاتي للتدقيق على الغرف والأجنحة والصالات والباحات والممرات، نويت أن أُضيِّع بين الدهاليز ألمي، لأتركه وأعود في غفلة عنه إلى مكتبي وحياتي، كما ضيَّع والدا «عقلة الإصبع» أولادهما عمداً في الغابة، في تلك القصة الشهيرة التي كانوا يقصّونها علينا في طفولتنا.

لكن ألمي كان ذكياً بقدر عقلة الإصبع، وكان يعرف دائماً كيف يقتفي أثري، ليعود ويقرع باب مكتبي، ويدخل ليجلس في حضني بخبث ودلال.

بمرور أقل من شهر على عودتي، بدأ شعور بالتعب ينال مني، صار صعود الدرج ينهكني، وسيطر كسل غريب على جسدي. فكّرت أولاً أنني ربما أتعرض لهجمة أنفلوانزا عنيفة، لكن إلهاماً داخلياً، همس في أذني باحتمال آخر!! هل هذا معقول، سألت نفسي بدهشة، واستنجدت بالرزنامة، وبحسبة بسيطة، ومقارنة بجدول مواعيدي وملاحظاتي، أدركت أن الاحتمال بسيط، لكنه قائم!

رتّبت أموري بسرعة في الفندق يومها، وخرجت مبكرة ومهرولة إلى بيت أختي رنين.

بعد مرور يومين، كنت قد تأكدت أنني فعلاً: حامل، حامل بأجمل حمل في العالم، طفل جيرارد!

شعور غريب بالسعادة والنشوة اجتاحني، أحسست أنني في طرفة عين قد حققت أمنيتين مستحيلتين، استعدت حب جيرارد في هيئة أخرى بعد أن فقدته، واستعدت حلم الأمومة قبل فوات الأوان بعد أن تخلّيت عنه.

وداهمني أيضاً خوف وذعر شديدان، كيف أحمل وأنجب طفلاً بدون زواج في مدينة كحلب؟ هذا ضرب من المستحيل، بل هو المستحيل بعينه.

أمامك حلاّن لا ثالث لهما. (قالت رنين) الأول والمنطقي، أن تتخلصي من الحمل وتتابعي حياتك السابقة، والثاني، أن تخبري جيرارد ليجد لك حلاً ويساعدك أن تبدأي حياة جديدة في بلد آخر، إذا كنت تنوين إنجاب هذا الطفل.

كانت محقّة، وكان عليّ أن أدرس الاحتمالين دراسة وافية ومنطقية.

أن أتخلص من الحمل يعني أن أجري عملية إجهاض، وتلك بحد ذاتها كانت ترعبني أكثر من الإنجاب نفسه. في هذه المدينة، كان عليّ أن أبحث عن طبيب لا يعرفني، وأن أتحمّل مذلة ائتمانه على سرّي، ومذلة اعتباره لي واحدة من عاهرات هذه الأيام اللواتي يحملن سفاحاً، ويهرعن إليه طالبات الخلاص.

من ناحية أخرى، فقد أقنعت نفسي أن إجهاضي للحمل وأنا في هذه السن، قد يؤذيني لدرجة قد أفقد فيها احتمال الحمل مرة أخرى، أي أن هذا الحمل هو حملي الأول والأخير، شئت ذلك أم أبيت. هذه فرصتي الوحيدة واليتيمة لأصبح أماً، فإما أن استغلها وأضيف خبرة الأمومة إلى مشوار حياتي، أو أفقدها، وأرحل عن هذه الدنيا ناقصة الأنوثة، محرومة من ابن أكون أنا سبب حياته ووجوده، لمجرد أن أعود لمتابعة عيش حياتي السابقة.

من قال إنني أتلهف لاستئناف حياتي السابقة؟ من قال أنني كنت سعيدة وراضية تحت نير ذلك الروتين السخيف الذي كان يحكم أيامي. من قال أنني غير متشوقة، لتغيير حياتي ونسف نظامها الحالي من جذوره، من قال إن هذا الحمل

ليس هو الفرصة التي كنت أنتظرها لأفتح أبواب عمري أمام عواصف التغيير التي قد تقتلعني من جذوري وتطير بي لتزرعني في أراض أخرى.

نعم، أريد أن أنجب هذا الطفل، ولو كلّفني الأمر أن أفرَّ به من هذه المدينة التي كان كل فرد فيها هيرودوس، كما فرَّت مريم برضيعها من وجه الطاغية الذي خاف من نبوءة تقول إن هذا الصغير سيهزّ عندما يكبر عرشه.

ليسامحني الله وعباده، قد لا يجوز لي التشبيه، ولكنني أشعر أن الحب الذي أثمر عن طفلي هذا لا يختلف كثيراً عن الروح القدس، وأن العروش التي ستهتز في هذه المدينة إذا أنجبت فيها ابني لا تختلف كثيراً عن عرش هيرودوس. وإنني لست بحاجة إلى نبوءة لأعرف أن ولادتي لهذ الطفل في حلب، ستصبح حدثاً مفصلياً يؤرّخ حسبه الحلبيون أحداثهم، إذ سيقولون إن ذلك الحدث تم في السنة الثالثة بعد ميلاد طفل لميا غير الشرعي، أو في السنة الثانية قبل ولادة طفل لميا غير الشرعي.

سأنجب هذا الطفل الذي يسمونه غير شرعي، والذي أراه أنا عين الشريعة وقلبها. ولكنني، من دون اسم والده ودعمه لن أستطيع أن أمضي إلى هدفي، وردّ فعل جيرارد المتوقّع ليس واضح المعالم أمامي، بل يبدو لي سلبياً ومرتجفاً.

سأكلّمه، وسأطلب منه أن يمنح الطفل اسمه ومصروفه ولو للفترة الأولى، على أن أربيه وحدي في بلد بعيد، كإسبانيا مثلاً، باعتباري ما زلت أملك فيزا شنغن تخولني البقاء لمدة عام آخر في أوروبا.

طفلي الذي كنت أتمنى أن أنجبه في بلدي، وأن أربيه مع والده ووالدي، سيجبرني قدري أن أهرب معه من وطني ومن حبيبي ومن أهلي، حفاظاً عليه، وحفاظاً على كل ما سيمثله بوجوده في حياتي، من أمل ومستقبل وتجديد، وحياة ما بعد الحياة.

يجب أن أبقى على الأقل لسنتين أو ثلاث خارج حلب، سأصارح أهلي بالحقيقة، لكنني سأدعي أمام الناس أنني تزوجت وأنجبت وتطلقت، حتى لا أُسأل إذا عدت يوماً إلى مدينتي مع ابني أو ابنتي، من أين لكِ هذا؟

هل سيوافق جيرارد أن ترى معجزتي النور؟

جيرارد، الرجل الذي رغم مروره كومضة خاطفة في عمري، كان هو من اختاره القدر ليغيّر وجه حياتي، وقد اخترت أنا أن لا أغيّر هذا القدر.

الانعتاق...

لا أصدّق أنه لم يشتق إليّ! ولا أصدّق أنه الآن أكثر سعادة مما كان عندما كنا معاً. لكنني قد أصدّق أنه ما زال يشعر فعلاً بالذنب، ولا يعرف ماذا يمكن أن يقول لي بعد.

في النهاية، يجب أن يعرف أن زيارته تلك إليّ في مدريد، لم تمر مرور الكرام ولم تمضِ بسلام لتندرج في لائحة الذكريات.

«هل أنت بخير عزيزي؟ عندي خبر مهم، اتصل بي بأسرع فرصة».

أرسلتها في الصباح عبر الواتساب، الذي سجّل فيه آخر ظهور له (أون لاين) منذ فترة أسبوع. وحلّ المساء، وانتهى اليوم وأشرق صباح آخر، دون أن يظهر (أون لاين) ودون أن يقرأ ما أرسلت.

أعدت إرسال الجملة نفسها عبر السكايب، وانتظرت يوماً آخر دون أن يظهر، ودون أن أراه (أون لاين) عبر أي وسيلة اتصال. داهمني شعور بالقلق، وخفت أن يكون قد أصابه مكروه، لكن نصفي العاقل سخر من قلقي وذكّرني أنه يمكن أن يكون مسافراً مع بريجيته في رحلة بعيدة، مسترخياً ومستمتعاً بوقته.

نصفي العاطفي لم يقتنع، لقد عادا لتوهما من إجازة الأعياد، فهل يعقل أن يقوما بعدها مباشرة برحلة أخرى؟!

العاقل فكر: قد تكون زوجته قد قرأت حوارنا الأخير، وتجادلت معه، فألغى إرضاء لها حسابه هذا على الواتساب وكذلك على السكايب، ربما يستعمل حساباً برقم آخر لم يعطني إياه، ليقطع بذلك آخر الخيوط بيننا، التي يمكن أن تعبر أشواقنا خلالها.

لم يبقَ عندي إلا أن أتصل هاتفياً، فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام من إرسال الرسالة الأولى، وبعد

عشرة أيام من ظهوره أون لاين حسب الواتساب.

يجب أن يكون في عيادته الآن، إذا كان مشغولاً مع أحد المرضى، فسيعاود الاتصال عندما ينتهي.

اتصلت بقلب مرتجف عنيف النبضات، وسمعت الرنة الأولى، الثانية، الثالثة والرابعة، قبل أن أفصل الاتصال، ونيران الخيبة والغضب تحرق أنفاسي.

لم أعد أستطيع أن أتنفس بشكل جيد ولا أن أفكر بشكل جيد، بقيت أتقلّب على صفيح ساخن لثلاث ساعات أخرى قبل أن أعيد الكرة، لأسمع بعد كثير من الرنّات، صوتاً أنثوياً فتياً:

هالو؟!

فاجأني الصوت وتسارعت دقّات قلبي أكثر، هل أتكلم، أم أقطع الخط؟ من هذه؟

هالو؟! من يتكلم معي رجاءً؟

قد تكون إحدى الممرضات في العيادة، فكرت، فتشجعت وأجبت

مرحباً، أريد أن أكلّم الدكتور كرايمر لو سمحت.

جاء دورها لتصمت.. ثم سألتني بأدب

من يطلبه، من فضلك؟

اسمي لميا.

صمتت ثانية، ثم قالت.

أنا آسفة سيدة لميا، الدكتور كرايمر توفي منذ عشرة أيام بذبحة صدرية، أنا ابنته كارينا، هل أستطيع أن أساعدك بشيء؟

هل قلت لها أنني آسفة؟ هل أكملت الحوار؟ هل قدّمت لها التعزية وشكرتها للطفها؟ لا أذكر! لقد توقف الزمن عند تلك اللحظة، وبقيت بعدها لفترة غير محددة، فاقدة للحواس الخمس، وفاقدة

للذاكرة.

عندما استعدت شيئاً من هدوئي، ودار الدم في جسدي ووصل إلى رأسي واستطعت أن أفكر، اعتراني أمل بأنها قد تكون مزحة تافهة، أو خطّة حقيرة من بريجيته وبناتها لإبعادي عنه. ولكي أتأكد، قمت بإرسال رسالة سريعة على الواتساب لفرح:

«هل سمعت شيئاً عن الدكتور كرايمر، هل صحيح أنه قد توفي؟».

بعد ساعة من الأمل، شعرت خلالها بقليل من الانتعاش، أتاني ردّ فرح.

«صحيح لميا، لقد سمعنا أنه توفي بنوبة قلبية حادة ومفاجئة، أنا آسفة جداً».

بعد أن قرأت كلمات فرح، وضعت الموبايل بهدوء على الطاولة، وتوجّهت لغرفة نومي، نظرت إلى صورته التي كنت قد أفرجت عنها وأعدتها إلى مكانها على الطاولة قرب سريري منذ عدة أيام، بالتحديد منذ عرفت بأنني حامل.

لقد تخلّيت عني بالأمس. وها أنت تتخلّى عن ابنتك الآن. لكننا أنا وهي، ميلاجرو، لن نتخلّى عنك أبداً. نسامحك حبيبي، نسامحك.

سالت دموعي بهدوء، فاحتضنت الصورة وقبّلتها:

قدرك أن تتخلى عني، وقدري أن اشتاق إليك.

أعدتها إلى مكانها، وشعرت بالدوار، وبطنين في أذني، فاندسست في فراشي وسحبت اللحاف إلى ما فوق رأسي، ولم أدرِ إن كنت قد نمت، أم أُغمي عليّ.

ولم أدرِ إن كنت قد استيقظت غداة ذلك اليوم، أو غداة أيام أخرى. ما أذكره أنني عندما فتحت عيني ذات صباح لا يشرق نوره على جيرارد كما يشرق على العالم، أغمضتهما ثانية، كافرة بصباح كهذا وبعالم كهذا، واخترت غيبوبتي من جديد، وغرقت في نوم أسود بدون أحلام، أيقظني منه جفاف في فمي، ذكرني أنني عطشى، فقمت مترنحة من فراشي، وجرجرت نفسي إلى المطبخ وشربت قليلاً من الماء.

عندما عدت إلى جحري تحت اللحاف، تذكّرتها، ميلاجرو، هل تراها عطشت عندما عطشت؟ هل هي جائعة لأنني لا آكل، هل هي مكتئبة مثلي تفتقد والدها، وزاهدة بالحياة التي غادرها قبل أن

تخرج هي إليها.

لن أسمح لك بهذا يا صغيرتي، أنت هو حبيبي الذي استطاع أخيراً أن يحرر نفسه من حياته السابقة ليأتي ويسكن في داخلي. أنت هو فكيف إياه تفتقدين؟ أنت دمه ونبض عشقه ونفحة من روحه السعيدة فكيف إذاً تكتئبين، أنت هي الحياة، فكيف بالحياة تزهدين.

قمت ثانية، حضِّرت كوباً من النسكافيه مع كثير من الحليب، بحثت عن موبايلي، وتفاجأت عندما وجدته باتصالات كثيرة لم أنتبه إليها من رنين ونور، ومن أمي، ومن إيزابيل. ورسائل ومحادثات كثيرة على الواتساب من فرح، مايا ورندا، ومن لينا وغدير.

ريتا افتقدتني أيضاً لأنني لم أذهب إلى المعهد، اتصلتْ عدة مرات، وتركتْ رسائل عدة. حاولت أن أكتب لها كلمتين، لكنني شعرت أنني لا أقوى على التركيز. حاولت أن أرتشف الحليب الدافئ، لكن معدتي رفضته، وشعرت بالرغبة بالإقياء.

بذلت مجهوداً حتى وصلت إلى رقم الطبيب النسائي الذي كان قد فحصني وعاين حملي في الأسبوع المنصرم، اتصلت به، وقلت له بإعياء أنني لست بخير.

ذهبت إليه في سيارة تكسي، وفي غرفة جانبية من عيادته، جعلني استلقي على السرير وعلّق لي مصلاً لأسترجع شيئاً من قوتي. تركني إلى عمله وعاد إليّ بعد ساعات عندما قارب كيس المصل على الانتهاء. كنت قد انتعشت قليلاً، فاستطعت أن أرد على أسئلته، وأفهمته أنني تعرضت لصدمة نفسية.

عندما حرّرني من كيس المصل، فحصني بالإيكو ليطمئن على سلامة الطفلة، وبعد أن حدّق إلى شاشة المونيتور ابتسم وقال لي:

ميلاجرو بخير، لا تقلقي.

ابتسمت له وقد فاجأني أنه تذكّر اسمها.

نهضت ببطء كما نصحني، وفي المكتب، اختار لي من خزانته كميّة من الأدوية والفيتامينات

ن تقوي على الذهاب إلى صيدلية لشراء الأدوية، استعملي هذه الآن.

أعطاني العلب شارحاً لي متى وكم أتناول منها.

شكراً جزيلاً دكتور.

لا تشكريني، اعتني بنفسك وبميلاجرو، لا تقلقي مما حصل، الواضح أنك امرأة ذات بنية قوية، وابنتك مثلك.

هي ليست قوية فقط..

طبعاً، إنها معجزة!

أكمل عني ما كنت أريد أن أقول، فضحكت من قلبي، ممتنّة من لطفه ومن خفّة ظلّه.

لحظة دخولي المنزل، رن هاتفي، كانت أمي التي أرّقها القلق. شعرتُ بالذنب من أجلها وأجبتها:

حبيبتي اشتقت إليك.

أين كنت طيلة ذلك الوقت؟.. لقد قلقت عليك.. أصدقيني القول!

سامحيني ماما، أنا بخير.. لقد كان مزاجي سيئاً جداً.. فقد سمعت أن صديقاً كنت قد تعرّفت إليه في النمسا وأحببته كثيراً، قد توفي فجأة بنوبة قلبية.

آه أنا آسفة، من هو هذا الشخص؟

هو.. هو ذلك الطبيب الذي حكيت لكم أني تعرّفت إليه في حفلة ذهبت إليها مع فرح. الذي أجرى لي تحليل الدم وأعطاني دواء الكوليسترول.. شخص لطيف جداً، اهتم بي وساعدني كثيراً.

آه نعم.. ذلك الطبيب الوسيم المتزوج الذي وقعتِ في غرامه.

وقعتُ في غرامه؟ من قال أنني قد وقعت في غرامه؟

أنا أعرف كيف تفكرين وبماذا تشعرين تجاه أي شيء أو أحد، بمجرد أن تتكلمي عنه بضع كلمات.. أنا أمك!

آه ماما.. ماذا أقول لك؟! لقد كان صديقاً جيداً...نعم لقد أعجبني ذلك الرجل وقتها.. ولكن.. بكل الأحوال.. هو ليس هنا الآن، لقد مات!

الله يرحمو، أنا آسفة حبيبتي.. مسكينة هي زوجته، أنا حزينة من أجلها!

هل كانت ملاحظة خبيثة منها لتذكّرني بأنه كان متزوجاً، وأن زوجته هي أولى مني بأن تحزن وتنهار وتتلقى التعازي؟

ارحميني يا أمي. لو أنك تعرفين! لكان الأولى بك أن تحزني من أجل ابنتك. أنت لا تعرفين ولكني متأكدة أنك تشعرين!

«لقد مات جيرارد».

كتبت على الواتساب لرنين ونور، واستطردت متحديّة خوفي:

«وأنا حامل بابنته».

وبكلمات قصيرة، أرسلت ردوداً مقتضبة لكل أصدقائي الذين سألوا عني في تلك الفترة. ومن ثم أكلت موزة ببطء وحذر، خوفاً من أن يعاودني الغثيان، وتناولت بعدها أدويتي وفيتاميناتي، واستلقيت في فراشي من جديد، كما نصحني طبيبي الظريف. على أمل أن أغفو قبل أن يصلني رد من رنين أو نور.

قبل أن أغفو، راودتني أفكار عن الساعات الأخيرة لجيرارد، وتحركت نظرية المؤامرة داخلي وسألت نفسي: لماذا تراه أصيب بتلك النوبة القلبية؟ هو الطبيب الرشيق الرياضي، الحريص على اتّباع القواعد الصحية والطبية. هل أغضبته بريجيته إلى درجة فقد فيها القدرة على الاحتمال؟ هل كانا

يتجادلان؟ هل كانا يتحدثان عني؟ هل كان يشتاق إليّ إلى درجة أرهقت قلبه؟ هل قتلته بريجيته، أم قتلته أنا؟ أم أن قلبه المسكين هو الذي تمرّد وانتحر ليرتاح من هموم صاحبه وآلامه المكبوتة.

لم تمهلني أختاي لأغفو كما أملت. رنين ومن ثم نور، أو ربما نور ومن ثم رنين، لست أذكر اسم من منهما ظهر على شاشة موبايلي أولاً، ولا صوت من منهما كان الأسبق لمواساتي صارخاً مذعوراً.

كم تتألمين يا حبيبتي! قالت رنين.

ألست خائفة من الأيام القادمة؟ سألت نور

كيف تواجهين وحدك هذه الأحداث؟

صرخت الاثنتان، وبكتا، وبكيت معهما، بكيت حبيبي الذي اختار هذه المرة حجّة لغيابه، لاتدع مجالاً لأحد كي يلومه عليه.

هل ستحتفظين بالطفل؟ كيف ستتعاملين مع هذه الورطة؟ سألتني كل منهما

سأحتفظ بها، لست خائفة أبداً ولا متردّدة، بل أشعر بالقوة والثقة.

شرحت لهما، كيف حلّت هذه البذرة المباركة مكان الخوف في داخلي، وكيف حرّرتني. حكيت لهما كيف فقدت قوتي ووعيي أياماً عدة، وطمأنتهما بأنني قد تحسنت الآن، وأني قد عدت لتوي من عند الطبيب الذي قال لي إن كل شيء على ما يرام.

أشعر فقط بقليل من التعب وأحتاج لأن أرتاح لأستعيد قواي، سنتحدث مطولاً لاحقاً، أحبك رنين/أحبك نور.

عندما استعدت قواي، بدأ ذهني يدور حول محاور جديدة، ويبحث عن حلول لأمور مهمة. بعد أن توفي جيرارد، كيف تراني سأسجل اسمه كوالد لابنتي عند الولادة، هل يسجلون أي اسم أمليه

عليهم، أم سيطلبون موافقة صاحب العلاقة، وإذا كان صاحب العلاقة متوفياً، موافقة من سيطلبون؟ ورثته؟ زوجته؟! بريجيته؟! (بريجيته ثانية، وبريجيته أيضاً؟!) أم سيطلبون تحليل الحمض النووي DNA. في هذه الحالة يجب أن يحصلوا على عينة من دم أحد أفراد عائلته للمقارنة، إخوته أو أبنائه، سيكون علي إذاً في كل الأحوال، أن أتصل بهم قبل الولادة، لأعلمهم بالخبر الصاعق: دماؤكم النمساوية، تجري في عروق طفلة تعيش في إسبانيا، في رحم امرأة من حلب.

ارتأيت في النهاية، أنني يجب أن أستعين بمحام، لاستشارته في قضية نسب ابنتي، ولتفويضه بتسيير أموري. وفكرت ببيلار، وقررت أن أطلب منها موعداً، لألتقيها وأحكي لها عن وضعي. في النهاية، يجب أن أبدأ بالمجاهرة بحملي. إذا كنت قد اخترت أن أنجب هذه الطفلة، عليّ ألا أخجل منها، عليّ أن أفخر بها لأفرض احترامها على الآخرين. نعم، بيلار، هذه قصتي التي لا أندم على أي تفصيل فيها، هذه قصة حبي الكبير الذي أثمر معجزة في حياتي، وأنا مبهورة وممتنة جداً، لهذه المعجزة.

بيلار اللطيفة، استقبلتني بترحاب في اليوم التالي، دخلتُ في الموضوع بصعوبة بالغة، ولدهشتي، انهمرت دموعي رغماً عني عندما ذكرت لها أن حبيبي ووالد الطفلة التي أحملها في داخلي، قد مات. لم أقصد أن أستجدي شفقتها بدموعي، كنت أكره هذا الأسلوب، لكن الدموع غدرتني، إذ بدا غريباً علي أن أسمع صوتي يقول عن جيرارد أنه مات. فاجأتني العبارة، وصدمتني كأنني أسمعها للمرة الأولى، وأوجعني أنني بإعلاني أمام الناس ذلك الحدث الذي لم أصدقه ولم أتعود عليه بعد، إنما أؤكده وأسلّم به، وأستسلم للتعايش معه.

بيلار تفهّمت وضعي بمحبة، وقد ذكرت لها أن جيرارد كان منفصلاً عن زوجته دون طلاق، لأشرّع نسبياً وضع العلاقة التي ربطتني به والتي يسمونها غير شرعية.

شرحت لي، أنه قانونياً، عليّ أن أقدم دليلاً يثبت أن جيرارد هو والد طفلي، والدليل الوحيد المعترف به في حال وفاة صاحب العلاقة، هو تحليل الـ DNA للجنين ولأحد أقرباء الأب، ومقارنتهما.

إذا كان محرجاً بالنسبة إليك أن تتصلي بعائلته لتطلبي منهم هذا الطلب، أستطيع أنا أن أفعل هذا بشكل مهني باعتباري محاميتك، وإذا أردت أيضاً، أستطيع أن أطالبهم بنصيب ابنك من ميراث أبيه.

لا لا أرجوك، لا أريد أن أتطرّق إلى هذا الموضوع نهائياً، أنا أريد أن أحصل فقط على ما يخصّني، من حق الطفل أن يحمل اسم أبيه البيولوجي، لا أريد أن أحرمه من هذا الحق، ولا أريد شيئاً آخر.

ومن حقه أيضاً أن يحصل على نصيبه من تركه والده، لا تفهمي مني أنني أحرضك على شيء، ولكن من واجبي المهني أن أعلمك بالحقوق التي تجوز لك ولطفلك قانونياً.

أفهمك طبعاً، لكنني لا أريد أن أستغل حملي لأحصل على مكاسب مادية. لا أريد أن أخلق لنفسي عداوات ومشاكل ومعارك أنا في غنى عنها. كان ذلك خياري عندما أحببت ذلك الرجل وأقمت علاقة معه، وكان خياري أيضاً عندما قررت الاحتفاظ بالطفل وإنجابه، سأكون مسؤولة عن هذا القرار وحدي، باعتبار أن شريكي في صنعه قد.. مات!

حسناً إذاً، القرار يعود إليك طبعاً. وبكل الأحوال، أطمئنك أن المؤسسة هنا لن تتركك، ستدعمك مع طفلك أو طفلتك طالما أنت بحاجة للدعم.

شكراً جزيلاً لكل ما تقدمون لي، أنا ممتنة بالفعل، لكنني متفائلة بأن أحصل على عمل وأن ألتحق به حالما يسمح وضعي القانوني بذلك، أنا أسعى للموضوع منذ الآن.

حظاً سعيداً إذاً، وأذكّرك أننا سنقدم على الاتصال وعرض الموضوع على عائلة الأب قبل وقت مناسب من موعد الولادة، برأيي أنه من المبكّر طرح الموضوع الآن.

وهذا رأيي أيضاً، وأفضل عندما يحين ذلك الوقت، أن تقومي بالاتصال بأحد أبنائه، إذ أظن أن الموضوع سيكون أخفّ وطأة، مما لو أثرته مع زوجته.

سنفعل ما يريحك، لا تقلقي، واهتمي بنفسك وبالطفل.

الطفلة... أنا أشعر أنها أنثى يا بيلار، واسمها ميلاجرو.

في طريق عودتي إلى المنزل، وبإيحاء من حديث بيلار عن نصيب ابنتي في تركة والدها، تذكّرت فجأة السوار الذهبي ذا الماركة الغالية والمشهورة، الذي كان قد أهداني إياه جيرارد عندما جاء لزيارتي. وبمجرد دخولي البيت، أخرجت علبة السوار من درجها وفتحتها، أخرجت الوثائق المرفقة التي هي عبارة عن شهادة رسمية خاصة بالقطعة ممهورة بختم الشركة مع الكفالة. الشهادة كان مذكوراً فيها اسم الموديل المشهور (LOVE) الذي هو واحد من عشرات الموديلات التي ابتكرتها هذه الشركة وطرحتها في الأسواق المترفة. وذُكر في الشهادة أيضاً مواصفات السوار، وزنه وعيار الذهب فيه، وعدد حبات الألماس ودرجة نقائها وحجمها، الرقم التسلسلي للقطعة، وتاريخ الشراء. السعر الذي لم يكن مذكوراً، كان من السهل العثور عليه بعد بحث بسيط في الإنترنت.

كنت قد توقعت أن السعر كان مرتفعاً وغالياً، لكن توقعاتي لم ترقَ إلى نصف الحقيقة. عندما قرأت سعر السوار من هذه الماركة وهذا الموديل في الإنترنت أصبت بالذهول، كان المبلغ خيالياً بالنسبة إليّ، خصوصاً في ظروفي هذه. مبلغ يكفيني لأعيش مرتاحة مع ابنتي لمدة سنة على الأقل. وفكّرت أن ذلك الرجل إما أنه كان مجنوناً ليهديني هدية بهذه القيمة، أو أنه كان فاحش الثراء، أو.. أنه كان يعوّض شعوره الدائم بالذنب تجاه الحبيبة التي لم يستطع أن يقدّم لها الحياة التي تستحق، أو أنه كان يملك حدساً يخبره بأن هذه الهدية ستكون التركة الوحيدة التي سيتركها بعد أن يغادر، لأسرته الجديدة المكونة مني ومن ابنته ميلاجرو.

وضعت السوار الجميل في معصمي وتأملته لدقائق قليلة، وتذكرت أنجيلينا جولي، مادونا، كاميرون دياز، جينيفر أنيستون، وكثيرات غيرهن، من النجمات اللواتي رأيت صورهن للتو في موقع الشركة وهنّ يلوّحن بأيدٍ يزيّن معاصمها ذلك السوار نفسه، وتساءلت إذا كانت بريجيته تملك واحداً

مثله أيضاً.

ليس مقدّراً لي أن أزيّن بك معصمي مثلهن. لكنك ستساعدني أن أسهّل حياة الطفلة التي سأزيّن بها عالمي، ولو لفترة قصيرة.

خلعته بحذر وهدوء، وأعدته إلى علبته الفاخرة مع كل ملحقاته، وخبأت العلبة في الدرج تحت ثيابي. ولم أستطع التوقف عن التفكير، بكمية وماهية الهدايا التي أهداها لبريجيته خلال ثلاثين عاماً من زواجهما، وعن عبثية امتلاك كل تلك القطع الثمينة في حياة كان ينقصها بريق الحب المنبعث من عيني الحبيب، ذلك البريق الذي سحرني وغيّر حياتي عندما لمحته في عينيه في تلك الليلة.

«شكراً حبيبي لأنك كنت في حياتي، شكراً لكل ما أهديتني وأعطيتني، شكراً لأنك أحببتني، شكراً لبريق عينيك».

في تلك الليلة، أخذت اللابتوب في حضني بعد انقطاع، حضنته كحبيب اشتقت له، وأتلهّف لأقصّ عليه ما حدث من أهوال في غيابه. فتحت ملفّ روايتي، وتفقدت ما كنت قد كتبته من صفحات سابقاً، وجدت نفسي أضيف فكرة هنا، وجملة هناك. كل ما كنت قد تمنيت أن أكتبه سابقاً ثم امتنعت خوفاً وتحفظاً، أعدت إضافته الآن، بحرية كاملة، وبدون أي تحفظات. الحواجز التي كانت تحجب أفكاري وتقيّدها، بدأت بالتساقط تباعاً، أسوة بالحاجز الكبير الذي سقط يوم قررت أن أنجب ثمرة حبي وعصارة روحي المتمردة إلى عالم يعتبرها غير شرعية. سقطت الحواجز حين جاهرت بإسقاط شريعة هذا العالم التي لم أؤمن بها أو أتبعها يوماً، لصالح الشريعة التي سننتها أنا نفسي، مستلهمة قواعدها من النور الذي يشعّ من داخلي، ومن روحي الصافية التي لا يعكّرها دنس ولا سواد.

أمضيت ليلتي أكتب منتشية بحريتي، وغفوت قبل قليل من بزوغ الفجر، شابكة يديّ فوق بطني، محتضنة فجر حياتي الذي اقترب من البزوغ بعد ليل طويل.

اتصلت بي بيلار بعد يومين، موقظة إياي في الثامنة صباحاً، بعد ساعات قليلة من النوم.

صباح الخير لميا، هل أيقظتك؟

صباح الخير بيلار، لا بأس، لا عليك!

أنا آسفة، لكنني أريد أن أخبرك أن فريقاً من تلفزيون TVE سيأتي غداً ليصوّر معك حديثاً حول خبرتك في الحرب واللجوء وعن الخدمات التي تقدّمها لك مؤسستنا، على أن تعرض المقابلة ضمن نشرة أخبار اليوم اللاحق الذي سيصادف اليوم العالمي للمهاجرين واللاجئين. عليك أن تكوني هنا في الثامنة والنصف صباحاً، أنت موافقة أليس كذلك؟ أم أن لديك أي مانع؟

آه.. لا، لا مانع لدي، بالعكس، ولكن ألا تعتقدين أنّه من الصعب عليّ أن أتحدّث بالإسبانية في مقابلة تلفزيونية؟

لا تقلقي، سيساعدك الفريق الذي يعد المقابلة، هم يعرفون أنك هنا منذ أقل من خمسة شهور، والشاب الذي سيجري اللقاء، يتحدث الإنجليزية، سيساعدك هذا.

حسناً إذاً، سأكون هناك في الثامنة والنصف.

واسمعي أيضاً لميا، إذا كنت تملكين صوراً لمدينتك قبل الحرب وبعدها، وصوراً للفندق أيضاً، يستحسن أن تجلبيها معك.

عندي طبعاً، كثير من الصور، سأصطحبها معي.

لقد أصبحت امرأة مشهور بعد المقابلة التي نشرتها تلك الصحيفة، وفي الغد بعد ظهورك في التلفزيون، ستصبحين أكثر شهرة.

لا تنسي أن تأخذي توقيعي في أقرب فرصة إذاً، قبل أن تتطور شهرتي وامتنع عن التوقيع.

ضحكت وقالت:

Hasta Mañana. إلى اللقاء في الغد. لا تخافي، ن أنسى

خافيير، الشاب الذي أعد الريبورتاج وحاورني كان لطيفاً جداً، وكذلك زميله الكاميرا مان، الذي كان يعمل بجديّة على التقاط لمحات جميلة. بدأ خافيير بسؤالي عن مدينتي.

حدّثته عن حلب، المركز التجاري والصناعي والحضاري الأول في سوريا والمنطقة. حلب، المحطة المهمة على طريق الحرير (الذي بدأت قوافله رحلاتها من القرن الخامس قبل الميلاد، واستمرت حتى ألف وخمسمائة سنة تالية). حلب، صابون الغار والزعتر، الفستق الحلبي والأسواق العتيقة العابقة بالتوابل والبهارات. حلب، القلعة الشامخة، والحمامات الفاخرة، والدور الواسعة الباحات. حلب الجوامع والتكايا الأثرية، والكنائس والكاتدرائيات القديمة.

حدثته عن الحلبيين، الذين كانوا أول شعب سوري وربما عربي أدخل الطرق المعاصرة والحضارية إلى نمط حياته اليومية، كطريقة الطعام واللباس والاحتفال والخروج، حين تعلمّها من احتكاكه بأفراد البعثات الدبلوماسية الأوروبية التي كانت تتخذ من حلب مركزاً لقنصلياتها وسفاراتها. دون أن ننسى من قبلهم، التجار من مختلف أنحاء الأرض الذين كانوا يمرّون فيها ضمن قوافل طريق الحرير، والذين أغنوا أهلها بالثقافات التي حملوها من بلادهم، ما جعل الحلبيين شعباً منفتحاً على حضارات متنوعة، وعادات جديدة امتزجت بعاداته الأصلية وشكلت فولكلوراً غنياً ميّز البلد بطابع خاص شعر به كل من زار المدينة الجميلة ومسّ فؤاده سحرها.

حدّثته عن المطبخ الحلبي الشهير، عن القدود الحلبية التي تعدّ تحفة فنية موسيقية، وعن بيوت حلب وعماراتها المبنية بالحجر الجميل.

لم أملّ من الحديث ولم يملّ هو من الاستماع، عندما كانت تخونني الإسبانية كنت أتحوّل إلى الإنجليزية دون أن أتوقف، حتى وصلت إلى الوضع الحالي للمدينة، حيث شرحته له بكلمات مقتضبة حزينة. حكيت له كيف احتل الجفاف والعطش والبرد والظلام، مدينة الطرب والسهر والموائد العامرة. كيف طغت رائحة الحريق والبارود على عبير صابون الغار وشذا البهارات والزعتر في محال أسواقها القديمة وأزقتها. وكيف لعلع في سمواتها زئير الرصاص والمدافع والمروحيات عوضاً عن شدو صباح فخري. قلت له أخيراً إن أكثر من ثلثي سكان المدينة قد هجروها في السنين الأخيرة،

تاركينها لحثالات الأرض لتستوطنها وتتحارب فيها، وتستبيح شوارعها وبيوتها ومن تبقى من سكانها.

جعلني من بعدها أتحدّث عن عملي السابق وطبيعة الفندق ونمطه، كما شرحت له كيف وصلت إلى مدريد، وكيف قامت مؤسسة الكاريتاس باحتضاني وتقديم الدعم لي، وعن تطلعاتي بالحصول على عمل مناسب لمباشرة حياة جديدة.

وسألني أخيراً، عن المسؤول عن هذه الحرب برأيي، فأجبت بالإنجليزية:

ليس برأيي السؤال المناسب: من هو المسؤول عن اندلاع الحرب، بل يجب أن تسألني «من كان المسؤول عن منع هذه الحرب من الاندلاع!». المؤامرات الخارجية والأطماع الأجنبية والسياسات العالمية القذرة حقيقة واقعة، موجودة ومتربصة بالمنطقة منذ زمن طويل. الراديكالية والتطرف والإرهاب، ظواهر انتشرت بكثافة في العالم منذ فترة ليست بالقصيرة، وقد أنتجت مؤخراً تنظيم داعش الذي يقوم بالفظائع في سوريا وغير سوريا. تجار الحرب والدماء كانوا موجودين أيضاً يتحينون الفرصة المناسبة لتسديد ضربتهم. كل هؤلاء فتكوا ببلدي، ليس من عاقل يستطيع أن ينكر، ولكن من فتح لهم الباب؟ ولماذا؟ برأيي الحكومة فعلت ذلك، إذ كان بإمكانها في بداية الأحداث وحتى قبل أن تبدأ الأحداث، أن تحقن الدماء وتجنّب البلد الدمار، لكنها لم تفعل. لقد أخمدت ثورة الشعب المطالب بالحرية والكرامة وأشعلت مكانها فتيل الطائفية، أودعت المفكرين العلمانيين والشبان المثقفين السجون ونفتهم خارج البلاد، وأفرجت عن الإرهابيين والراديكاليين وفتحت الحدود لاستقبالهم. كما قامت بكثير من الممارسات التي صبت زيتاً على النار، النار التي أحرقت الأخضر واليابس، لكن دون أن تطال شرارتها الحكومة التي تعتبر نفسها اليوم منتصرة وصامدة، بينما

استحال البلد حفنة من رماد، وشكّل الشعب المنكوب داخل الوطن وخارجه، أكبر كارثة إنسانية في القرن الحالي.

طبعاً، الحديث الذي استرسلت فيه لساعة من الزمن، تحول بعد المونتاج إلى ريبورتاج من خمس دقائق، تمّ عرضه ضمن نشرة الأخبار في اليوم التالي، مرفقاً بصور كنت قد أعطيتهم إياها من مجموعتي، عن حلب التي تحترق، والفندق قبل الانهيار وبعده.

عندما سألني عن تطلعاتي إلى المستقبل، أحببت أن أحدّثه عن أول ما خطر ببالي، ميلاجرو، والرواية التي أكتبها، الحدثين اللذين غيّرا شكل حياتي، بعد أن كانت قد تعرضت لعملية بتر لمستقبلها، إثر إصابتها بشظية في الحرب.

ميلاجرو وتوأمها، كانتا المعجزة التي أعادت لحياتي مستقبلها المبتور، فقامت من جديد، وطوت سرير إعاقتها ومشت. تماماً كمعجزة شفاء المخلّع التي قام بها السيد المسيح، حين قال للرجل العاجز: قُمْ واحمل فراشك وامشِ.

عندما تابعت الريبورتاج، أحسست أولاً بالخجل من كمية الأخطاء اللغوية السخيفة التي ارتكبتها أثناء حديثي بالإسبانية، وصدمني شكل عينيّ المتعبتين، لكنني أيضاً أحسست بالفخر لرؤية مشاهد من مدينتي وفندقي تُعرض على شاشة أخبار القناة الرسمية، ولسماع صوتي يلعلع متلعثماً بكلمات وجمل إسبانية. بالمقابل، لم أكن فخورة أبداً بلقب (لاجئة) الذي صار للأسف جزءاً من هويتي الجديدة في هذا البلد.

في اليوم التالي لعرض الريبورتاج، أرسل لي خافيير اللينك الخاص بنشرة الأخبار تلك على الإنترنت، فأرسلته بدوري إلى أهلي وأصدقائي المقربين، فرح، رندا، مايا، غدير ولينا. كما لم أستطع أن أستثني أليكس، ولم أنس رامز مالك الفندق وصديقي القديم الذي بقيت على اتصال به كل فترة لأستطلع أخباره وأطلعه على أخباري.

تملكتني أيضاً رغبة عارمة أن أرسل اللينك إلى جيرارد! فتحت صفحة المحادثة الخاصة به على الواتساب، وتجمّدت لبرهة، لا أدري ماذا أفعل. ألصقت اللينك في المكان المخصّص لكتابة الرسائل، وتحجّرت إصبعي على بعد شعرة من لمس سهم الإرسال، أحببت أن أتظاهر للحظة أن كل ما مرّ مجرد كابوس عابر، وأنه سيستلم اللينك وسيفرح برؤيتي، وخجلت منه حين فكرت بأخطائي اللغوية، سيقول أنني بعد كل هذا الوقت لم أتقن اللغة بعد، اللغة التي تجيدها بريجيته بإتقان!

جيرارد لن يرى الريبورتاج، ولن يسمع أخطاءك اللغوية. قال لي صوت جارح من داخلي، جيرارد لم يعد هنا، لم يعد بإمكانه استقبال لينكات أو تحيات أو قبلات! جيرارد مات.. جيرارد مات. كررتها بصوت عال مرات عدة، علني أصدقها! وانخرطت في نوبة بكاء عاصف وأنا أسأل: لماذا؟ لماذا جيرارد؟ لماذا هو بالذات؟ ولماذا الآن؟

في الأيام اللاحقة بدأت تصلني ردود الفعل على مقابلتي تلك. الكل كانوا سعداء وفخورين بي، ولكنهم كانوا أيضاً متخوفين من وجهة نظري التي عرضْتُها بحرية وبساطة، كأن الدماء السورية المشبعة بالخوف لم تعد تسري في عروقي.

ومع أن الريبورتاج لم يذكر من إجابتي عن السؤال الأخير إلا: «السياسة العالمية القذرة، الراديكالية والإرهاب، ولكن من فتح لهم الباب؟ ولماذا؟ برأي الحكومة فعلت ذلك، إذ كان بإمكانها في بداية الأحداث وحتى قبل أن تبدأ الأحداث، أن تحقن الدماء وتجنب البلد الدمار، لكنها لم تفعل». جمل عدة إلا أنها كانت كافية لتوضّح موقفي.

والدي كان أكثر المستائين، إذ كان يشعر في قرارة نفسه أنني، بتكريس نفسي علناً معارِضة صريحة لهذا النظام، قد أُحرم من فرصة الرجوع إلى البلد الذي يبدو وكأنه سيبقى مستلباً منه إلى أبد الآبدين. وأبي الذي كان يرفض المغادرة رفضاً باتاً، كان يعتبر أنه يخسر احتمال رؤيتي مع كل كلمة مشبوهة أتفوّه علناً بها، وقد كان على حق، وهو ما آلمني فعلاً وأدمى قلبي. وسألت نفسي كيف سيتقبّل أمر روايتي بعد أن تُنشر، وكيف سيتقبّل أمر طفلتي عندما ستولد؟ وكيف سأفرح أنا بهما وهو قلق بسببهما حتى الموت، مكسور ومقهور وحزين.

ريتا، الصديقة التي تقطن هنا في مدريد، والموالية الشرسة للنظام، بدت مستاءة مني أيضاً، وألمحت إلى أنني لم أوفّق بإلقاء اللوم على تلك الحكومة المسكينة التي كانت المؤامرة أقوى منها بكثير، فتساءلت في ذهني دون أن أناقشها وأغضبها، ما الذي هو أقوى من حكومة تدعمها روسيا وإيران، وتحتمي بترسانة عسكرية من الطراز الأول؟! وإذا كانت الحكومة فعلاً مسكينة ومغلوبة على أمرها، فكيف استطاعت الصمود لخمس سنوات في مركز السلطة دون أن يهتز عرشها؟

أمي، كانت تعيش بسببي مأساة من نوع آخر، لقد عرفت من رنين بأمر حملي، فزلزلت الأرض زلزالها. اتصلت بي في غفلة من والدي عندما كنت في المعهد، فلم أتلقَّ المكالمة، أعادت الاتصال مرات عدة بدون جدوى، حتى تجمّع في مخزن المكالمات الفائتة في هاتفي قرابة العشرين مكالمة، اكتشفتها عندما عدت إلى البيت مساءً، فحدست ما الموضوع!

لم تمهلني لأتصل بها أنا، فقد رنّ الهاتف في يدي قبل أن تصل إصبعي إلى نقر اسمها على الشاشة، أخذت نفساً عميقاً، وأجبت.

ماماااااااااااا!

لميا، أين أنت؟ أحاول أن أتصل منذ ثلاث ساعات.

كنت في المعهد ماما، ماذا هناك، هل أنت وبابا بخير؟

لا، أنا لست بخير. وكيف أكون بخير؟ أنت أكثر إنسانة مجنونة رأيتها في حياتي، هل صحيح أنك حامل؟ هل ستنجبين طفلاً دون زواج؟ يا للعار!! ألا تخجلين؟ كيف ستواجهين الناس وماذا ستقولين لهم، وماذا سنقول نحن؟ كيف ستربين الطفل وحدك؟ هل فقدت إحساسك؟ هل فقدت عقلك؟ لماذا أنت صامتة، تكلمي قولي شيئاً!

لكن ماما أنت لم تتركي لي مجالاً لأتكلم، اهدأي قليلاً، أرجوك.

لميا، هل تدركين ماذا تفعلين؟ إنها فضيحة، كيف سنواجه هذه الفضيحة؟

أمي، اهدأي واسمعيني، أريد أن أنجب هذه الطفلة.

طفلة؟

نعم هذا ما أشعر به، لكن ليس هذا مهماً الآن، أريدك أن تهدأي، أنا لست في حلب، ولن يكون هناك فضيحة، أنا أعيش هنا، امرأة حرة، أفعل ما أريد دون أن يقلل الناس من احترامهم لي.

تنجبين طفلاً بدون زواج وتقولين أنك حرة، هل هذه هي الحرية؟ كيف ستربين هذا الطفل وأنت لم تستقري على وضع بعد؟ أليس هذا جنوناً.

أمي اسمعي أرجوك، أنا لم أخطط لهذا الحمل، لكنه حصل فجأة، بالصدفة. وقد شعرت أنها فرصتي لأكون أماً، وأحببت هذه الفرصة التي قد لا تسنح لي ثانية، ولن أضيعها من يدي. الأمور الأخرى سأتدبّرها في حينها، لا تقلقي، لن ألقي بابنتي في الشارع، ستعيش.

تتحدثين كأن القصة بسيطة، ألا تدركين؟ سيعتبرك الجميع امرأة ساقطة.

لن يعتبرني أحد امرأة ساقطة، لا تقلقي، أنا لست في حلب.

ولكن نحن في حلب، هل سنخفي الأمر عن الناس، ماذا سنقول لهم؟

أمي.. قولوا لهم أنني تزوجت، وانفصلت عن زوجي بعد شهور.

بهذه البساطة؟! تريديننا أن نكذب وأن يصدّق الناس بهذه البساطة؟

الأمور تجري هنا ببساطة!

يا إلهي، أنا لا أصدق أن هذا يحصل. لا أصدق أن تقوم ابنتي بشيء كهذا! كيف سنخبر والدك؟ هل فكّرت في الأمر؟

سأخبره أنا بنفسي لاحقاً.

أنا لست مقتنعة وغير راضية عن هذه الحياة التي تعيشينها، أنت تدمرين نفسك، ليتك لم تسافري، ليتك بقيت معنا وعشت مثلنا.

أمي أرجوك، اهدأي. اهدأي وثقي بي. كل شيء سيكون على ما يرام، أنا أعرف هذا.

أنت تعرفين؟؟ حسناً إذا، سنرى كيف ستدبرين أمورك وأنت وحيدة.

أتمنى لو أنك معي ماما، كم هو رائع لو كنت هنا!

بدأت بالبكاء، فبكيت معها، وشعرت بالذنب من أجلها.

سامحيني ماما أرجوك، ولا تحزني، سنجد طريقة لنجتمع قريباً. أريدك أن تعلميني كيف أربي طفلتي.

وحتى ذلك الوقت، كيف ستتدبرين أمورك؟ هل أخبرت أحداً هناك بأنك حامل؟

نعم أخبرت المحامية بيلار التي تعمل مع المؤسسة، وقد وعدتني أن تبقى جانبي وتساعدني، وبالمناسبة، لم تعتبرني امرأة ساقطة.

أنا لا أصدق، لا أصدق.. لا أعرف ماذا أقول.

أحبك ماما، لا تقولي شيئاً، فكّري بي فقط وادعي لي في صلواتك.

أدعو لك يومياً، حبيبتي، عسى أن تنير العذراء دربك وعقلك.

أحبك ماما.

عندما أنهيت المكالمة أحسست بالألم والإرهاق، أنهكتني مواجهة أمي، أنهكني حزنها، في الوقت الذي كنت فيه بأمسّ الحاجة إلى فرحتها بي. أنهكني ابتعادها في حين كنت أحتاجها قربي، وأحتاج إلى شعوري بفخرها بقرب تحول ابنتها إلى أم. لكنني وفي الوقت ذاته، أحسّست بحمل نزل عن كاهلي، لقد عرفت أمي أخيراً، يا للمهمة الكبيرة التي أنجزت.

لم يبقَ أمامي إلا إخبار والدي، إخباره بطريقة ما، تقنعه بأنني على ما يرام وليس عليه أن يقلق من أجلي، طريقة لا تجرحه ولا تخيب أمله بي، وهي المهمة التي تبدو لي أشبه بالمستحيلة. كيف سأخبر والدي أن طفلته البريئة أقامت علاقة غير شرعية أدّت إلى حملها؟ كيف سأشرح له أنني أحببت ذلك الرجل وهو أحبني، إلى درجة تساقطت حولها كل الشرائع والقوانين والتقاليد، إلى درجة ذهبت فيها معه إلى الفراش كأنه زوجي وهو في الحقيقة زوج امرأة غيري؟ كيف سأشرح له قراري بإنجاب الطفلة وتربيتها دون أب؟ كيف سأعترف له بكل هذا هاتفياً، دون أن أحتضن وجهه المتعب بنظراتي الدافئة التي قد تسهّل من برودة مهمتي؟ كيف سأضمن أن قلبه سيصمد وأعصابه ستتحمل هذا الزلزال الكبير، وأنه لن يُصاب بمكروه كما أُصيب جيرارد؟ تذكّرت دموعه وانكساره ووقوفه على شفا الانهيار عندما تركت البيت وانتقلت إلى بيتي المستقل منذ سنوات عدة، وتساءلت: كيف تراني سأقدم اليوم على هذه الخطوة؟ كيف؟

الأجل غير المسمى الذي أجلّت إليه اعترافي لوالدي، سمّاه هو حين أتاني صوته في الهاتف بعد حوالى العشرة أيام، عندما رددت على مخابرة من رقم أمي.

ميا، كيف حالك؟

بابا؟! ما هذه المفاجأة؟ أنا بخير، اشتقت إليك كثيراً!

وأنا اشتقت إليك كثيراً أيضاً، لقد طلبت من أمك أن تتصّل بك لأنني أريد أن أسألك عن موضوع.

نعم بابا، تفضّل!

قولي لي ماذا تخفين عني؟

ماذا؟ ماذا تقصد؟

أختاك وأمك يتحدثن بقلق عن أمر مهم يتعلق بك منذ فترة، ويصمتن حين أقترب، لم تصارحني ولا واحدة منهن بالموضوع، ففضّلت أن أسمع منك.. قولي لي، هل تعانين من مشاكل؟ هل الموضوع خطير.

بابا لا تقلق، الموضوع ليس خطيراً.. لكنه غريب قليلاً.. بل غريب جداً.

ماذا تقصدين؟

هل تعدني أن تسمع بهدوء وأن لا تغضب؟

حسناً، أعدك.

اسمع إذاً، عندما كنت في النمسا تعرّفت إلى رجل رائع وأحببته، وقد.. أقمت معه علاقة!

نعم.. أنا أسمع.

وعندما جئت إلى مدريد، جاء لزيارتي لمدة يومين... وبعدما سافر بفترة قصيرة..

تكلمي.. ماذا حدث؟

مات.. توفي فجأة بنوبة قلبية.

مات؟ اللعنة!

نعم بابا، للأسف.. وفي هذه الفترة، اكتشفت شيئاً مهماً، فرحت به جداً.. ولكن..

ما هو هذا الشيء.. تكلّمي.. هل أنت؟ هل أنت حامل؟

أغمضت عيني وتقطّعت أنفاسي، ولكنه كان هناك في انتظار إجابتي، فقلت:

نعم بابا.. أنا حامل.

صمت لفترة طويلة، لم أسمع فيها إلا صوت أنفاسه المتلاحقة. هل تراه ملّ من جنوني ومفاجآتي وقصصي السيريالية حتى لم يعد يعرف كيف يعلّق عليها؟!

بابا، هل ما زلت هنا؟ هل أنت بخير؟

هل ستحتفظين بالحمل؟

نعم بابا، أنا سعيدة به. ولا تقلق، سأحصل على دعمٍ كافٍ لأعيش بطريقة كريمة.

كيف تعيشين حياة كريمة مع طفل غير شرعي؟

سأقول للناس في حلب أنني تزوجت ومات زوجي، هذه الكذبة ستشرّع إنجابي للطفل.

وهل الناس أغبياء؟

الأذكياء منهم سيعرفون أنني لا أهتم بهذه الشرائع كلها!

هل ستبقين مجنونة هكذا إلى الأبد؟!

أنا آسفة بابا، لا أستطيع أن أكون شخصاً آخر.

كان هادئاً وعقلانياً كأن الموضوع لم يفاجئه، وخمّنت أنه سمع أطراف أحاديث أمي وأختيّ، وتوقّع الموضوع بطريقة أو بأخرى، وفكر به ملياً قبل أن يتحدّث إليّ.

بابا.. هل أنت غاضب مني؟

أنا خائف وقلق عليك.. وغاضب أيضاً طبعاً.

أرجوك حبيبي ألا تخاف، سأدبّر أموري وسأعيش بسلام، لكنني أريدك فقط أن تسامحني لإغضابك وخذلانك مرة بعد أخرى، أحتاج غفرانك ودعمك، أرجوك بابا.

يا بنتي أنت بالغة راشدة وبتعرفي شغلك، أنت بتحبي تعذبي حالك وتعذبينا معك!

جملته المشهورة تلك التي قالها اليوم وهو يغالب دموعه، والتي دأب على قولها لنا منذ أن صرنا بالغات وراشدات، كانت البوابة التي خرجنا منها إلى تحمّل مسؤولياتنا في هذه الحياة. كان بجملته تلك يعترف لنا بحريتنا، دون أن يمنّ علينا بإعطائنا إياها كمنحة أو هبة كما يفعل بعض الآباء، وكان في الوقت ذاته يذكّرنا بمسؤوليتنا في استعمال هذه الحرية بوعي وذكاء لاختيار الأفضل لحياتنا.

عندما سمعت جملته تلك، شعرت أنه، وإن كان لا يبارك قراري، إلا أنه لا يلعنه على الأقل. تبخّرت همومي الثقيلة وشعرت بنفسي أكثر خفّة وأكثر قدرة على التحمّل. «شكراً بابا لأنك هنا، وسامحني أيضاً وأيضاً وأيضاً».

حلّ موعد زيارتي الدوريّة التي كان قد حدّدها لي طبيبي عندما زرته في المرة الأولى، ذهبت مبتهجة هذه المرة لأنه كان قد وعدني أن يُسمعني دقّات قلب الطفلة، وأن يريني وجهها.

مبروك، ميلاجرو صارت اليوم بطول ظفرك.

قال طبيبي بمرح، ثم أشار إلى بقعة في المونيتور أمامي الذي كان يعرض صورة أحشائي.

هذا وجهها.

قرّب الصورة، أشار لي إلى جمجمتها الضخمة نسبة إلى باقي جسمها، وميّزت انتفاخين في مقدمتها، عرفت فيهما عينيها.

طبعاً، لم تكن هي المرة الأولى التي أرى فيها صورة جنين في هذا العمر، لكن أن تكون هذه الصورة انعكاساً لما في داخل رحمي، وأن يكون لهذا الجنين كيان وروح، أن يكون اسمه ميلاجرو،

أمور جعلتني أرى الصورة بعين مختلفة.

وعندما صدحت دقّات قلبها في فضاء الغرفة، لم أتمالك نوبة من الضحك العصبي انتابتني، وعرفت حالما سمعت الدقّات السريعة المنتظمة، أن ما أسمعه الآن، هو الإيقاع الجديد التي ستنتظم حسبه حياتي، منذ هذه اللحظة وإلى أن تصبح ابنتي «بالغة راشدة» وعارفة لما تريد، وقادرة أن تقرّر أمور حياتها بنفسها.

الطبيب المعتاد على ردود فعل كهذه، اكتفى بالابتسام بود، وطبع لي لاحقاً صورة ابنتي الأولى، وأبلغني امتنانه من الوضع الصحي الجيد لي ولابنتي.

بادرني عندما انتقلنا من غرفة الفحص السريري إلى المكتب:

لست أقصد أن أتطفل على خصوصياتك، لكنني أريد أن أعرف بعض المعلومات عن الوالد إذا كان هذا بالإمكان.

طبعاً دكتور تفضّل اسأل. لكن في البداية، أحبّ لفت انتباهك إلى أن والد طفلتي قد توفي منذ فترة وجيزة بنوبة قلبية، وهو لم يكن إسبانياً ولا مقيماً في إسبانيا.

أنا.. أنا آسف جداً.. تعازيّ الحارة

شكراً دكتور، تفضل بالسؤال، وسأجيبك بما أعرف.

هي فقط معلومات طبية، مثل زمرة دمه، ووضعه الصحي. وإن كان قد سبق له الإنجاب، فما وضع أولاده الصحي، وما الأمراض التي يعاني منها (إن وجدت) وإن كان هناك أمراض وراثية في عائلته.

حاولت أن أخفي ارتباكي، بما أنني لا أعرف أن أجيب إلا على سؤال واحد منها.

سبق وأنجب ثلاثة أولاد، وهم بصحة جيدة.

وعلى إيقاع ضربات قلبها، انتظمت حياتي، وشيئاً فشيئاً عرفَتْ جميع صديقاتي، أن حبيبي النمساوي قد توفي بعد أن ترك لي طفلاً ينمو في داخلي، وسيرى النور قريباً. ولكن لم يعرف أحد بأمر روايتي التي كانت تنمو أيضاً بين أصابعي وستبصر النور قريباً.

بدأت مشوار البحث عن وظيفة بمجرد حصولي على التصريح بالعمل، إذ أرسلت الـ C.V. خاصتي إلى كثير من الفنادق في مختلف أرجاء إسبانيا، كما قمت بزيارات شخصية إلى تلك القريبة مني في مدريد، حيث كنت أحصل غالباً على نفس الإجابة: «يبدو الـ C.V. الذي تحملينه مهماً. لكننا للأسف فضلنا أن نعهد بالوظيفة إلى مواطن إسباني لتمكنه من اللغة الإسبانية أولاً، ولواجبنا في التخفيف من حجم البطالة الذي يطال مواطنينا ثانياً».

الكل يعتذرون مني، ليقوموا بواجباتهم تجاه أبنائهم، وأنا اليتيمة التي لم تجد من يقوم بواجبه تجاهها!

أليكس، حافظ على إيقاع اتصالاته المنتظم ـ العشوائي، ليسأل عنّي من حين لآخر، ثم ليتبخّر. محادثاتنا القصيرة المبتورة دائماً لم تسمح لي بأن أخبره أنني حامل، رغم أني كنت أتحرّق شوقاً لأعرف ردّ فعله. لا أعرف لماذا كنت أتصرّف معه بهذا الشكل، لماذا كنت أجيب مكالماته بفرح واهتمام ولماذا كنت أنهيها على عجل، ولماذا يخيب أملي كل مرة، رغم تقدمي في أكاديمية علومه الغامضة، ومعرفتي وتكهني بالأفعال التي سيأتيها وردود فعله. كنت أحفظ طباعه عن ظهر قلب، أحفظها كما هي دون أن أفهم دوافعها ومغزاها، أحفظها كما يحفظ الببغاء الكلمات، ويردّدها دون أن يفهمها.

رندا قالت لي إن تصرفاته الغريبة هي انعكاس لمهنته التي كرّس لها حياته، ولقد كانت على حق. مهنته تلك طبعته بطابعها الغامض والقاسي، وشكّلته كعجينة من صلصال، جفّت مع الزمان، وأنتجت كياناً قاسياً حاد الحواف والزوايا.

«مهما حصل، أنا أعرف أنني سأبقى في حياتك وأنك ستبقين في حياتي إلى الأبد، أنت تنتمين إليّ».

هذه الجملة كان قد قالها لي سابقاً، وتصرّف فعلاً على أساسها. يتصّل بي دائماً لأنه تعوّد ذلك، ولأنني كنت جزءاً من حياته، ولكنه كان عاجزاً عن التعبير عن عاطفة جياشة لا يشعر بها بعد، خلال فراقنا هذا الطويل.

رندا بدورها، استطاعت بصعوبة أن تقطع العلاقة التي ربطتها بذلك الشاب الظريف العاشق والسخي العواطف، بعد أن صار تعلقه بها مرضياً وعصبياً، وذلك بعد أن رفضت عرضه بالزواج، لظروفها الخاصة مع ابنتيها، ولظروفه المادية الحرجة ووضعه المهني غير المستقر، حيث كان قد استقال من منظمة الإغاثة التي كان يعمل بها، وبقي عاطلاً عن العمل بانتظار فرصة أخرى.

رندا التي ظنّت أنها واقعة في هواه في وقت من الأوقات، ما لبثت أن اكتشفت استحالة استمرار العلاقة وانتقالها إلى مراحل أكثر جدية، وذلك للاختلافات الحادة بينهما التي اكتشفتها عندما قدم لزيارتها وأخيها في فرنسا خلال فترة الميلاد.

يس هذا الشاب نفسه الذي أحببته، أو الذي ظننت أنني أحببته.

قالت لي، وهي تحكي عن طبعه الهادئ الرومانسي، الذي يتحول فجأة إلى عصبيّ ومتوتر ما أن يصادفه موقف لا يتماشى مع هواه، مثل تصرفات ابنتيها الصبيانية، وما كان أكثرها.

يحبّني ويريد الزواج بي، لكنه اعترف أنه صعب عليه التعايش مع ابنتيّ! كيف نحلّ هذه المعضلة؟

اذا اقترح هو؟

لا شيء مقنع، قال أنه سيحاول أن يضغط على نفسه لاستيعاب البنتين والتعايش معهما! لكنه لن يتنازل عن فكرة الزواج، لأن انفصاله عني سيدمّره!

بماذا أجبته؟

رفضت طبعاً، هذا كلام أولاد، لا يمكن أن يقنعني. طلبت إليه تأجيل الموضوع لحين استقرار وضعه المهني. لا أريد أن أقطع العلاقة بشكل مفاجئ لأنني فعلاً لمست أن هذا سيدمّره، أريد أن تمضي الأيام بهدوء لتقول كلمتها، وسأجرّب من طرفي الانسحاب ببطء.

برأيي أنك تفعلين الصواب، ولكن ماذا عن الحب؟ ألست تحبينه بعد؟

آه لميا.. هذا معقّد بعض الشيء، في بداية العلاقة كنت سعيدة جداً به ومعه، أعطاني وجوده في حياتي فرحاً كبيراً، وكثيراً من الطاقة الإيجابية، انتشلني من ضياعي ومن المستنقع الذي كدت أغرق فيه. ولكن مع مرور الوقت ووصولاً إلى اليوم، ثمة شيء تغيّر. لقد سيطر التوتر والحزن الثقيل على محادثاتنا، همومي في هذا البلد وأموري التي تمشي بصعوبة، ومشاكله المادية ومعاناته بدون عمل، أشياء غلبت الفرح الذي كان عنوان العلاقة. عندما نتحدث الآن ويحكي كل منا همومه للآخر، لم يعد يخفّف هذا من ثقل تلك المعاناة بل بالعكس، يكرّسها أكثر ويضيف إليها همّاً جديداً وهو مستقبل علاقتنا الشائكة، ما يشيع جواً من الكآبة الإضافية على حياتي التي اكتفت من الكآبة!

أنا لا أقول أنني لا أحبه، ما زال بالنسبة إليّ ذلك الشخص الرائع، لكنني اقتنعت بأننا غير متكافئين، ربما بسبب الفارق الكبير في العمر الذي كان بحد ذاته إشارة استفهام بالنسبة إليّ عندما سألت نفسي كيف يحبني كل هذا الحب وأنا أكبره بكل تلك السنين؟!

وكما خطّطت رندا، مرّت الأيام بهدوء وقالت كلمتها. وجد عادل أخيراً فرصة عمل لا بأس بها، قبلها بدون كثير من التردد إذ لم يكن لديه خيارات كثيرة. التحاقه بالوظيفة الجديدة وانشغاله، ساعد رندا على الابتعاد بشكل تدريجي.

أما بالنسبة إلى موضوعي، فلم تملك هي ومايا أمام إصراري على إنجاب الطفلة إلا أن تدعماني، بعد مناقشات طويلة أدركتا في نهايتها أنهما لن تقنعاني، مهما حكتا عن الصعوبات التي تنتظرني والتي يمكن لي أن أعيش بغنى عنها إن أسقطت الحمل.

فرح التي كنت أتهيب إعلامها بالخبر نظراً لخلفية الأحداث التي جرت بيننا مسبقاً، أحسّت بنفسها بأنني أنتظر حدثاً كبيراً وغريباً، وكما فعل أبي، اتصلت هي بي وقالت لي بقلق:

لقد حلمت بك ليلة الأمس، كنت تبتسمين، ولكن عينيك كانتا تدمعان، وقد كنت تقولين لي: «هذا أمر غريب، لكنه رائع، أنا سعيدة لكنني خائفة». لميا، ما معنى هذا الحلم، ماذا يحدث عندك؟

كنا قد توقفنا نهائياً عن الحديث عن جيرارد. لم تعرف باستمرار العلاقة بيننا وبزيارته لي، ثم بالقطيعة التي حصلت قبل وفاته بفترة وجيزة. لم أخبرها أنا، وهي لم تسألني!

عندما عرفت أخيراً بأمر حملي، سكتت مذهولة، لم تؤنبني كما فعلت سابقاً، ولم تتّهمني بمحاولة سرقة الرجل من عائلته، باعتبار أن القدر قد سبقني وسرقه منها ومني ومن الحياة برمتها. صديقتي التي كان قلقي وفرحي قد وصل إلى لاوعيها وزار أحلامها، أدركت أن الحياة أسخف من أن تقدّم بشأنها النصائح، سكتت طويلاً ثم سألتني:

كيف ستدبّرين نفسك مع الطفل؟ ماذا تنوين أن تفعلي؟

حكيت لها عما تنوي أن تفعله بيلار لإثبات نسب الطفلة، وقلت لها أن لا تقلق من أجلي، وأنني سعيدة لأنه قد سنحت لي الفرصة بصدفة غريبة، لأصبح أماً قبل فوات الأوان.

سأكون بجانبك دائماً لميا. اطمئني عزيزتي، لن أتركك.

لدى بلوغي منتصف الشهر الرابع، طلبت من طبيبي أثناء زيارتي الدورية أن يتأكد من جنس الجنين.

كيف تطلبين مني هذا الطلب؟ أنت تعرفين أنها أنثى، وقد اخترت لها أسماً منذ اليوم الأول.

قال ممازحاً بخبث، فأجبته:

أنا لم أقل أنني أعرف، قلت أنني أشعر، وثمة فرق كبير بين الشعور والمعرفة. وأعترف أن شعوري سبق وأن خانني في كثير من المرات

خلال حياتي.

جميل أن أسمع هذا، لا أريدك أن تتعرضي لخيبة أمل إذا لم يصدق إحساسك.

سأحاول أن أتجاوز الموضوع، أعدك.

لنرى إذاً.

من ابتسامته الخبيثة والطيبة في آن معاً، عرفت أن شعوري هذه المرة كان وفياً لي.

ميلاجرو الحلوة تحييّك، وترسل كثيراً من القبلات.

عندما اتصلت بأمي لأخبرها بدوري بأن أصغر أحفادها ميلاجرو الحلوة تحييها وترسل لها كثيراً من القبلات، شعرت بغصّتها تصل إليّ لتخنقني.

لا أستوعب كيف ستمرّين بهذا وحدك، كيف ستلدين دون أن أكون بجانبك؟

لم أنم ليلتها بشكل جيد، كنت أفكّر بساعة الولادة التي ذكّرتني بها أمي، شعرت بالخوف والانقباض، وطلع عليّ الصباح بعد نوم متقطّع متوتّر، استفقت منه وأنا أنادي ماما، وأنادي جيرارد.

أعاد شروق الشمس إلى نفسي شيئاً من السكينة، تذكّرت أنني كنت إلى اليوم قد قطعت نصف الطريق، وبقي عليّ فقط أن أقطع نصفه الثاني، قبل أن أحمل ابنتي بين ذراعيّ لأقدّمها إلى العالم. وتذكّرت أنني يجب أن أنهي كتابة روايتي، قبل أن ألد ابنتي. إذ لن يكون بإمكاني أن أتفرّغ بعد الولادة بوقت ليس بالقصير، إلا إلى العناية بالرضيعة الصغيرة التي أتعشّم أن تبصر النور بصحة وسلامة.

ورغم أنني كنت قد كرّست ساعات عدّة من نهاري للبحث عبر الإنترنت عن الكتب والمقالات التي تحكي عن كل ما يتعلق بتربية الأطفال الحديثي الولادة والاهتمام بهم، إلا أنني أيضاً عكفت على الغوص بين سطوري التي كانت تحكي قصة وطني الجريح وقلبي الجريح، كأنّ الكتابة كانت بلسماً لجروحي.

أن ألتقي بريجيته! كان آخر ما كنت أنتظر. كان الحدث الذي لم أتوقعه ولم أتمناه، ولم أفكر به أصلاً.

لكن المرأة التي كانت تغار حتى على ذكرى زوجها الراحل، كان لها رأي آخر.

بعد أيام قليلة من دخولي منتصف الشهر الثامن لحملي، وبعد أن أعطيت بيلار الضوء الأخضر لتباشر اتصالاتها بأحد أولاد جيرارد لتطلب تحليل الـ DNA من أجل موضوع النسب. رنّ هاتفي ذات صباح مسجلاً رقماً غريباً يبدأ بـ +43، الذي هو رمز النمسا.

رجّحت أولاً أنه رقم جديد لفرح، ثم تذكّرت بيلار وما باشرت به من معاملات، فتوقّعت أن يكون الطالب أحد أبناء جيرارد. دقّ قلبي بعنف واعتراني خوف وارتباك، كأنني سأواجه صاحب الشجرة التي تسلقتها هرباً من وحوش الغابة المظلمة، فنمت بين أغصانها وأكلت من ثمارها وسكنتها مع العصافير التي بنت لي فيها عشاً يناسب حجمي، لأسترخي معهم فيها باطمئنان وسلام.

ألو!

صباح الخير.

جاءتني تحية صباحية باللغة الإسبانية من صوت أنثوي، قدّرت أن صاحبته أكبر سناً من أن تكون إحدى بنات جيرارد اليافعات.

صباح الخير، من يكلّمني؟

أنا بريجيته.

قفز قلبي من مكانه، وسقطتُ من شجرتي الشاهقة الارتفاع وارتطمتُ باسمها الذي كان لوقعه في نفسي صدى غريب ومخيف.

بريجيته؟

زوجة جيرارد كرايمر.

أهلاً بك، كيف أستطيع مساعدتك؟ سألتها بالإنجليزية، بعد أن تلاشت الإسبانية من ذهني.

أنا في مدريد، وأريد رؤيتك، إذا لم يكن عندك مانع!

وذهبت إليها، كانت جالسة في انتظاري في لوبي الفندق الذي أعطتني عنوانه، بعد أن اقترحت عليها أن أوافيها إليه، كي لا نضيع الوقت في التسكّع والبحث عن بار أو مطعم للّقاء.

قامت من فورها عندما لمحتني أدخل، وصوّبت نظراتها إلى بطني المنتفخ الذي دخل قبلي. كانت تبدو أنيقة جداً وهَرِمة، حييتها بوجل واحترام عندما اقتربت منها، فردّت التحية بمثلها، مددت يدي لمصافحتها، فبادلتني بمدّ يدٍ لمع في معصمها سوار (love)!

صمتنا لبرهة خلتها طويلة جداً، حدّقنا خلالها كلّ في عينيّ الأخرى، ولسان حال كلّ منّا يقول: هذه أنت إذاً؟!

تفضّلي.

دعتني إلى الجلوس في زاوية أنيقة من اللوبي، وجلست أمامي وسألتني:

قهوة؟

لا شكراً، اكتفي بكأس من الماء.

أشارت للنادل. وطلبت منه قهوتها ومائي، ثم توجّهت إليّ بنظراتها المخيفة من جديد. نظراتها التي ذكّرتني بليلة حفلة عز الدين، حين تناوبتْ مع زوجها في إمطاري بنظرات منها ما أدهشني، ومنها ما أرعبني، ومنها ما أفرحني، وما تيّمني وما أرسلني في دروب ليس لها طريق رجوع.

كنت أريد أن ألقاكِ منذ زمن بعيد! بادرتني بابتسامة حزينة.

أنا آسفة من أجل جيرارد! قلت لها، لأنني لم أعرف ما أقول.

لا بأس، هذه هي الحياة.

وصمتت مجدداً، وهي تتأملني بتلك النظرات نفسها التي استنفدت صبري.

سيدتي، ماذا تريدين أن تقولين لي؟ أنا أستمع.

أريد أن أسمع منك أنت.

ماذا تريدين أن تسمعي؟

لقد اتصلت محامية من طرفك ابني، وطلبت منه تحليل DNA.

هذا صحيح، أريد أن أثبت نسب ابنتي التي ستخرج إلى الحياة بعد أسابيع عدة.

هل كان جيرارد يعرف؟

لا.. لقد انفصلنا قبل أن أعرف أنا نفسي، ولم تسنح لي الفرصة لإخباره.

وماذا تريدين أيضاً؟

لا شيء.

لا شيء؟

أريد أن تحمل ابنتي اسم أبيها البيولوجي والشرعي، ولا شيء آخر.

لقد حملت بهذا الجنين بشكل غير شرعي، فكيف تطلبين له حقوقاً شرعية؟

أجبتها بنظرة صامتة، وضغطت على نفسي لأبقى هادئة ومتزنة، وحاولت أن أجيب بنفسي

عن السؤال الذي كنت قد سألتها إياه ولم تجبني عنه بوضوح «ماذا تراها تريد هذه المرأة أن تقول لي؟».

لماذا اقتحمتِ حياتي؟ سألَتْني أخيراً.

لم أتعمّد ذلك صدّقيني.

لقد كنت تعرفين من البداية أنك لا تنتمين لهذا الرجل.

لقد شعرت في لحظة أنني أنتمي إليه أكثر من أي شيء آخر في العالم، لم يكن عندي ملجأ آخر!

لم يكن سلوكاً شريفاً، ذلك الرجل كان لي.

ذلك الرجل كان ملك نفسه، ليس سلوكاً شريفاً أيضاً أن تدّعي امتلاكه.

هو زوجي منذ ثلاثين عاماً، ووالد أولادي الثلاثة.

ورغم ذلك فقد أحبني وأحببته، وصار والد ابنتي هذه، ابنتي الوحيدة!

لم يكن ذلك من حقك!

سكتُّ قليلاً، علني أستعيد أنفاسي وأعيد إليها أنفاسها، ونظرت إلى المشهد بتجريدية عبثية، فوجدتنا قطتين تتجاذبان جثة عصفور ميت.

اهدأي أرجوك واسمعيني، ما دمت تريدين أن تسمعيني. قلت لها بهدوء، وأكملت:

أنتِ هي زوجته التي اختار رغم كل الحب الكبير الذي كان بيننا أن يبقى معها، أنتِ من تحمل اسمه، أنتِ من رافقتِهِ إلى مثواه الأخير

وتقبلتِ التعازي فيه. أنا أعترف بكل هذا ولا أستطيع نكرانه. ولكن في المقابل، عليك أن تعترفي أنت أيضاً، أن ما كان بيني وبينه هو حبّ كبير، استمدّ شرعيته من نقائه وفطريته وإيماننا به. ذلك الحب فرض نفسه علينا لأننا نحن الاثنين كنا بحاجة إليه. وقد أثمر في غفلة عنا طفلة سترى النور قريباً، سيكون لها الحق أن تفتخر بالحب العظيم الذي جلبها إلى الحياة، وسيكون لها الحق أن تحمل اسم أبيها، وأن تعيش حياتها بسلام. هذا كل ما عندي من كلام، لا أريد أن أتورّط بمشادّة لم يعد لها معنى ولا فائدة، وأريد أن أعبّر عن أسفي للألم الذي سببته لك من دون قصد، صدّقيني، الألم لم يستثنِ أحداً منّا. ربما علينا أن نقول كما قلتِ في بداية الحديث: لا بأس، هذه هي الحياة.

استمرت بالتحديق إليّ بألم وصمت، شربت قهوتها بهدوء، ثم أطرقت لبرهة صغيرة، قبل أن ترفع نظرها إلى وجهي من جديد وتقول:

لم يعد مجدياً بالفعل أن نتجادل الآن. لا تظني أنني أنوي أن أحارب طفلاً وُجد في الحياة بدون ذنب. لم يعد مهماً الآن إن كان ثمرة حب كبير كما تقولين أنت أو نزوة طائشة كما أعتقد أنا. أنا جئت فقط مدفوعة بفضولي لكي أراك وليس لكي أحاكمك أو أعاقب ابنك.

أخرجت من حقيبتها بطاقة وضعتها على الطاولة أمامي، واستطردت:

هذه بطاقة محامي العائلة، تستطيع محاميتك أن تتّصل به، وسيكون جاهزاً للمساعدة في إتمام إجراءات نسب الطفل.

شكراً... بريجيته.

نظرت لي بعمق حين لفظت اسمها.

بالمناسبة، هي طفلة. قلت لها.

أتمنى لك ولادة سهلة، وأتمنى السلامة لك ولطفلتك.

شكراً مجدداً.

وحين صافحتها قبل انصرافي، قالت لي:

أريد أن أطلب منك شيئاً؟

تفضّلي!

أرسلي لي صورة الطفلة، على رقم جيرارد نفسه.

ابتسمت للمرة الأولى خلال هذا اللقاء، وأجبتها:

سأفعل، بالتأكيد.

صباح ذلك اليوم الذي صادف 25 آب، استيقظت بنشاط غريب وطاقة متدفقة. الطقس كان حاراً، لكن نسائم رقيقات كانت تهب بعذوبة وتمنح الأجواء شعوراً بالنشوة والاسترخاء. بعد أن تناولت فطوري، قمت إلى روايتي التي أوشَكَتْ على الانتهاء، وكتبت المشهد الختامي الذي كنت قد دوّنت منه مسبقاً بضع أفكار. أعدت صياغتها وأضفت إليها فكرة جديدة صغيرة حضرتني فجأة، أحببتها وشعرت أنها تحتوي عصارة الأفكار التي كونت منها روايتي.

بحلول بعد الظهر، وضعت نقطة النهاية بعد الكلمة الأخيرة. وفتحت ذراعيَّ عالياً في الهواء وصرخت بحبور: «لقد فعلتها أخيراً».

أحسست في غمرة سعادتي بجوع شديد، فقمت بسرعة وطرب إلى المطبخ لأستفقد ماذا يوجد في الثلاجة.

ما إن خطوت خطوتي الثانية، حتى شعرت بمياه ساخنة تتدفق مني وتسيل على ساقي. دقّ قلبي بعنف: هل أزفّت الساعة؟

اتصلت بالطبيب، الذي طلب مني القدوم إلى المستشفى فوراً. نظرت إلى الصفحة الأخيرة من روايتي على شاشة اللابتوب، شعرت بالارتياح، وأغلقت الجهاز مستودعة إياه مشروعي الذي صار جاهزاً ليبصر النور.

في التاكسي، تلقيت اتصالاً من فرح، وتلقيت عبره مفاجأة أدفأت روحي، وبدّدت خوفي الكبير والقلق الذي كان ينهش قلبي

أنا في مطار مدريد، لقد سرقت إجازة لمدة خمسة أيام. زفّت لي الخبر وهي تضحك.

وأنا في التاكسي بطريقي إلى المستشفى، سأرسل لك العنوان، وافيني إلى هناك. فرح حبيبتي، شكراً لأنك هنا.

كان الطبيب قد حدّد موعداً لولادتي ما بين 26 و31 من آب. وكنت قد أخبرت الجميع بهذا. مايا كانت تنوي القدوم، لكن موعداً مهماً مرتقباً في مكتب الهجرة يتعلّق بقدوم عائلتها، عطّل مشروعها. أما رندا فقد كان من الصعب أن تترك ابنتيها.

فرح خطّطت دون أن تقول لي، خوفاً من خيبة أملي في حال فشل الخطة، ولكنها حين نجحت، كانت أحلى مفاجأة تلقيتها في حياتي.

في المستشفى، قرّر الطبيب أنه سيجري لي عملية قيصرية في فجر اليوم التالي. سهرت فرح ليلتها في غرفتي، وعبر السكايب، سهرت معي أمّي وأختيّ. كنت سعيدة بهنّ سعادة لا توصف، إذ أدركت أن ابنتي لن تولد إلى الحياة كطفلة وحيدة منبوذة، بل ستباركها جدّتها وخالتاها لحظة استنشاقها النفس الأول، وسوف يكنّ كلهن آذاناً صاغية لصوت صرختها الأولى. وفرح ستكون هناك لتقبّل جبينها، ولتهمس في إذني بفرح: بنتك حلوة متل القمر.

وقد تمّ، وتحقّقت أخيراً معجزتي، ولدت ميلاجرو.

رأيتها وأنا ما زلت تحت تأثير المخدر، سرقتها فرح ودَعتني لأسرق نظرة منها قبل أن يغلبني

النوم ثانية، كانت معجزتي وردية اللون كما توقعت لكنها لم تكن صلعاء كما أملت، بل كان لها في مقدمة رأسها خصلة شعر ذهبية، رائعة الجمال. قبّلتُ جبينها الدافئ وتمتمت: شكراً جيرارد.

غفوت من جديد، ولست أدري، إن كان رنين الهاتف الذي أيقظني من بعد حقيقة، أم هذيان التخدير، وهلوسات سوريالية.

مرحباً لميا، كيف حالك.

أليكس؟! أنا بخير، كيف حالك أنت؟

لا بأس أنا بخير، أردت أن أطمئن إذا كانت أمورك جيدة، يبدو صوتك متعباً.

كتمت ضحكة ضعيفة، كيف سأقول لهذا الرجل أنني أصبحت أماً!

أنا على ما يرام. أجبت، وكنت سأستطرد، قبل أن يبادر هو بحماس.

مبروك نجاح جنيف *4*. رؤيتي للأمور تقول أن سوريا تسير نحو نهاية هذه المأساة.

ماذا تقول؟ أنا لم أعرف ما الذي جرى في ختام المؤتمر.

أنت تمزحين، ألم تسمعي؟ لقد اتفقوا على تشكيل حكومة وطنية تضم ممثلين عن النظام والمعارضة مع المحافظة على مؤسسة الجيش السوري وتغيير الدستور، وتجميد صلاحيات الرئيس لهذه الفترة. وبعدها ستجرى انتخابات رئاسية في وقت مبكر برعاية الأمم

المتحدة، يحق للرئيس الحالي ترشيح نفسه فيها من جديد كأي مواطن ضد أي مواطن سوري آخر، وستقول الصناديق كلمتها بنزاهة.

أذهلني ما سمعت، هل سنشهد فعلاً نهاية هذه المأساة؟! هل اتفقوا على إنهاء المسرحية أخيراً؟ هل أصدق شبحي أم أن أخباره مثله، وهم وسراب؟!

آه أنت تهذي، هذا أشبه بالحلم! هل وافق الجميع على ما قلت؟ روسيا وأميركا؟

الكل رحّبوا وباركوا، بمن فيهم إيران والسعودية وتركيا وقطر. ما يعني التوقّف عن تمويل وتسليح أي فصيل مقاتل على الأرض.

وما هو ثمن هذا الاتفاق التاريخي؟ مقابل ماذا تمّت هذه الصفقة؟

ربما قد تمّ اختيار ضحية أخرى لتنوب عن سوريا في الحقبة التالية، الأيام القادمة ستكشف كل شيء.

وهل سيُعطى الرئيس الحالي الحصانة في حال تمّ انتخاب رئيس جديد للبلاد؟

أظن أن روسيا ستتكفل بالموضوع. تقولين (في حال)؟ هل عندك شكّ أن يعاد انتخابه كرئيس لسوريا عبر انتخابات نزيهة؟

حسناً، أنا عن نفسي لن أنتخبه، لأسباب أنا شخصياً مقتنعة بها. لكنني بعد هذه الحرب التي دمّرت النفوس وغسلت العقول صرت مؤمنة بأن كل شيء يمكن أن يحدث، وأن ما من شخص يملك اليقين! وصدقني، إن فاز بأكثرية الأصوات بانتخابات جد نزيهة (رغم أنني أشك بذلك) لن أكون سعيدة ولن أعود للبلد، لكنني سأحترم أن الكلمة الأخيرة يجب أن تكون دائماً للأكثرية، فليتحملوا مسؤولية قرارهم. قد ينتخبونه اليوم، لكنهم بعد سنوات عدة قد يعيدون التفكير. خصوصاً إذا ظهر في الساحة السياسية في سوريا مجموعة جديدة من الأشخاص الأكفاء، وأنا واثقة أنهم موجودون، وظهورهم مرهون بالمناخ المناسب.

ولكن.. هل تطمئنين إلى مستقبل العلمانية في سوريا إذا استلم الرئاسة شخص من الطائفة السنيّة. ألا تخشين أن تختار الأغلبية السنيّة رئيساً يميل إلى الفكر الأصولي؟

نعم، عندي قلق من هذا النوع، لكنني أيضاً أثق بوجود عناصر سنيّة مثقّفة ومتحضّرة وعلمانية، أتعشّم أن تستطيع بسياسة ذكية ولبقة كسب أصوات الأغلبية إذا توقف الضخ الإعلامي الخبيث الذي يغذي الطائفية والراديكالية. وأريدك بالمناسبة أن تعرف أن في ذهني

عدداً من الأشخاص الذين سأرضى عن ترشّحهم لهذا المنصب، وهم (لأجل الصدفة فقط) من أديان وطوائف مختلفة، أحدهم علوي، والآخر سني، والثالث مسيحي.

وهل برأيك سيسامح الناس بعضهم بعضاً؟ ألن يطالبوا بتقديم مرتكبي جرائم الحرب للمحاكمة؟

يا إلهي، هذا ملفّ شائك وخطير، أفضّل مناقشته في ظرف آخر.

- ولكنني مستغرب أنك لم تتابعي الأخبار بالأمس، الجميع كان يحكي عن جنيف 4.

تنهدت بعمق، نظرت إليها في سريرها الصغير بجانبي، وتخيّلت أنها تبتسم.

لقد كنت في غرفة العمليات أمس صباحاً، ومساءً كنت تحت تأثير المخدّر، لقد أنجبت طفلة بالأمس، بعملية قيصرية، طفلة جميلة جداً يا أليكس.

صدى الصدمة وصلني عبر الأثير، كعواصف هبّت فجأة من حولي.

ماذا تقولين؟ ومتى كنت حاملاً لتنجبي، أنت لم تذكري لي شيئاً من هذا القبيل!

أنت لم تسألني! كنت تكتفي بسؤالي إن كنت بخير،

وقد كنت أجيب أنني بخير!

لا أصدّق ما أسمع، أنجبت طفلة؟! هل حقاً ما تقولين.

ميلاجرو.. اسمها ميلاجرو.

قلت له. وأنا أتأمل معجزتي الصغيرة الوردية اللون وهي تحرك أصابعها الحريرية الفاتنة، وتفتح عينيها الرماديتين الساحرتين على عالم من هلوسة وضباب، فينقشع الضباب.

ووالدها؟ سألني من خلال ذهوله

لقد أحببته أكثر من أي رجل آخر في العالم.

أكثر مني؟

أنت؟!

أدهشني سؤاله، منذ زمن بعيد، لم يعد يسألني إن كنت أحبه، أو كم أحبه، حتى خُيّل إلي أنه نسي أنني كنت أحبه يوماً!

أنت لست رجلاً من هذا العالم.. أنت شبح! شبح ينتمي إلى عالم آخر.

ولم تدهشه إجابتي، صمت قليلاً ثم أجاب:

يؤلمني أنني لم أستطع أن أكون إلا هكذا.. ولكن، من يكون هو؟

هو؟... هو المنفى الذي استقبلني وأهداني حياة جديدة بعد أن لفظني الوطن...أنت كنت ذلك الوطن.

- تمت -